تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أوْلى ما قيل في آيات التنزيل

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مَجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

تفسير القرآن العظيم
المسمّى
أوْلى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلّامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلّد الخامس

تفسير سورة الكهف إلى نهاية سورة الروم

اعتنى به وقدّم له

محمد أحمد مكّي



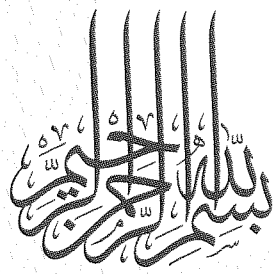
بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام علىٰ محمدٍ وآله أجمعين.

وبعد:

فهذا هو الجزء السادس[1] من تفسير القرآن المسمَّىٰ «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل». ويبتدئ بسورة الكهف، وهي مكيَّة، وآيها: مئة وعشرُ آيات.

أما ترتيبها: فقد افتتح السورة ببيان الغرض من تنزيل القرآن، وهو: إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين.

ثم ذكر قصَّة أصحاب الكهف الذين آثروا دينهم علىٰ دنيا قومهم، فأنجاهم الله منهم، ثم علَّق عليها بما يناسب السياق.

ثم ذكر قصَّة موسىٰ والخَضِر، ومغزاها: أنه سبحانه يخصُّ مَنْ يشاء بما يشاء من العلم والعرفان.

ثم ذكر قصَّة ذي القرنين وما خصَّه بهم من القُدرة والدراية والإيمان، ثم علَّق عليها بما يُناسبها، وختم به السورة.

---

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالى في الطبعة الأولى للكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ رتَّب الحمد على إنزاله؛ للتنبيه على أنه من أعظم النِّعم؛ لما فيه من الهداية إلى ما به يتمُّ الكمال البشري، وتنمو مواهب الإنسان على أحسن صورة ينتظم بها حاله في الحياة الدنيا، فينال راحتَها وسعادتَها، وتكمل روحه فتنال نعيم الآخرة ومنازِلَها العالية التي لا تُنال إلا بصلاح الأرواح وكمالها.

وقد جعل هذا الكتاب العظيم كفيلاً بجميع تلك النواحي السامية، ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ أي: لم يكن فيه أيّ شيء من الخلل والتقصير[1]، وإنما جاء ﴿ قَيِّمًا ﴾ بالمصالح الدينية والدنيوية، مُعتدلاً فيها، غير مُفْرِط ولا مُفَرِّط، وقد أنزله ﴿لِّيُنذِرَ ﴾ به ﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾، وهو عذاب الآخرة، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) العِوَج: فَقْدُ الاستقامة، وهو بكسر العين في المعاني، وبفتحها في الأشخاص؛ كالعَصَا والحائط ونحوهما.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي بُيِّنَتْ في تضاعيف هذا الكتاب، يبشِّرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾، وهو نعيم الجنة، ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ من غير انتهاء.

﴿وَيُنذِرَ﴾ الكفرةَ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: إنهم يقولون ذلك عن جهل مُفْرِط تلقَّوه عن آبائهم الذين قلَّدوهم في هذا القول الفظيع.

وقد بالغ في تهجينه وتهويله تعالىٰ بقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ما أكبر هذه الكلمة وما أفظعها. ثم نصَّ علىٰ تكذيبهم بقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾، وقد ترك المُنْذَرَ به في هذه الجملة استغناءً بتقديم ذِكرِه في الجملة الأولىٰ، وهو البأس الشديد، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم التفت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، يُهوِّن عليه عدم إيمانهم بهذا القرآن العظيم، ويُسلِّيه عن تكذيبهم له، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مُتْلِفُها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: وراءهم؛ أسفاً عليهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، فقوله: ﴿أَسَفًا ۝٦﴾ بيانٌ لعلة الإتلاف وسببه. أي: لعلك مُهلِكٌ نَفْسَكَ تأسُّفاً عليهم، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؟! لأنَّ نفوس المصلحين ـ ولا سيما الأنبياء ـ يؤلمهم كلَّ الألم انصرافُ الناس عن دعوتهم، علىٰ ما فيها من خير واضح، وصلاح باهر، وثمرات ملموسة، ونور لامع، وعاقبة حُسْنىٰ ليس لها مثيل.

فاشتملت الآيتان علىٰ شدَّة تفظيع مقالهم، وبيان حرصه ﷺ علىٰ إيمانهم بهذا القرآن، فإنه كان يعجب من كفر قومه وكفر أهل الكتاب به وبما نزل عليه مع وضوح بيانه وظهور برهانه، ويضيق صَدْرُه لذلك، ويبلغ منه الحزن كلَّ مبلغ، فهوَّن عليه سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية.

وقد بيَّن له في غير هذا الموضع أنَّ ذلك الضلال إنما ينشأ من طباع البشر إذا فسدت بمفاسد التربية وسوء التقليد، وألمع إلىٰ إعراضهم خوفاً علىٰ مراكزهم المالية والاجتماعية.

ثم هدَّدهم بيوم الحساب، بأسلوب أدمج فيه تنبيهَهم إلىٰ أنَّ ما أعطاهم من نِعَمِهِ التي بثَّها لهم في هذه الأرض وزيَّنها بها، لم يجعلها هدفاً أصلياً، ومقصداً ذاتياً للبشر، وإنما هو ابتلاءٌ لهم واختبار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ هي وسائل وليست بغايات، فيها عِبَرٌ ومُغْريات؛ ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ أي: في استعمال تلك الزينة، وتناول هاتيك المُسْتَلَذَّات وصَرْفها فيما خُلقت لأجله، وعلىٰ الوجه المعتدل الذي أراده الله سبحانه، لا يتغلَّب فيها الهوىٰ والشهوات، ومَنْ تُغْريه ومَنْ لا تُغْريه الـمُغْريات، فإنه سبحانه يختبر بالنِّعَم وبالنِّقَم، وبالشدَّة والرخاء.

ثم أشار إلىٰ الغاية التي تنتهي إليها تلك الزينة، وهو يوم القيامة المغيِّر لمعالمها، وما يتبعه من الحساب والثواب، والنعيم والعقاب، حثاً علىٰ التمسُّك بالأعمال الصالحة المارَّة الذكر، المُسْتَتْبِعة لتلك البشارة، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾، وهذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ تلك الزينة أمور وقتية لا تصلح أن تكون غايةً وهدفاً ذاتياً، وإنما هي وسائل لغايات. والصعيد: وجه الأرض. والجُرُزُ: الأرض التي قُطِع نباتُها وحُصِد. والمعنىٰ: أن تلك الزينة ترجع إلىٰ خرابٍ بَلْقَعٍ، ضمن خراب العالم كلِّه بصدمة القيامة، فَلْتَنْظُر نفسٌ ما تُقدِّم لذلك اليوم وما بعده.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ

لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطٗا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾.

وقد مهَّد بهذا الذكر لقصَّة أصحاب الكهف الفاهمين لهذا الأمر فهماً صحيحاً، وجَعَلها مثالاً للذين آثروا دينهم علىٰ دنياهم، وهربوا به من قومهم، ليحافظوا عليه؛ حَذَراً من ذلك اليوم العصيب.

وقد ألمع بها إلىٰ المقابلة بين عملهم هذا وبين هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا الحديث العظيم، وأومأ إلىٰ أنَّ الله سبحانه حافظٌ للمؤمنين من شرِّ المعارضين، وليس ذلك خاصّاً في أهل الكهف، ولكنْ مِن سُنَّته سبحانه ولايةُ المؤمنين ونصرُهم أبداً، ودلَّل بها أيضاً علىٰ الحشر والإعادة، بما كان من حالهم المشابه للحياة بعد الموت، وذلك بعد نومهم الطويل، فقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾[1]

(١) هم فتية من الرومان، متقاربو السن، كانوا في عهد اضطهاد المسيحية الذي دام ثلاثة قرون بعد الميلاد، وكانوا في عهد طاغية من طغاة الرومان، قيل: هو دقليانوس، وقيل: هو ثراجان الذي كان حكمه من ١١٣-١١٦ ميلادية، وكان قد أصدر مرسوماً: بأنَّ كلَّ من يخرج عن ديانة الإمبراطورية البيزنطية إلىٰ المسيحية فحكمه الإعدام، وكان هؤلاء الفتية ممن اعتنقوا المسيحية، فهربوا والتجئوا إلىٰ كهف قريب من المدينة، فألقىٰ الله عليهم هذا السبات، ولما أفاقوا بعثوا أحدهم إلىٰ المدينة متخفياً ليأتيهم بطعام، فلما جاء المدينة رأىٰ أحوالها قد تغيَّرت، وتبيَّن له أنَّ أهلها قد اعتنقوا الدين المسيحي، فأطلعهم علىٰ الأمر وعاد إلىٰ الكهف، فلم يلبثوا أن أماتهم الله، فتنازع أهل المدينة في أمرهم: أهي مثل تلك، أم ميتة طبيعية؟ =

أي: أحَسِبتَ أنَّ قصة أصحاب الكهف كانت عَجَباً من آياتنا وسُنَنِنا، كلا، بل هي من أيسر تلك السنن.

و﴿ أَمْ ﴾ ابتدائية، تأتي في القرآن لابتداء الجملة والاستفهام. ويجوز أن تكون عاطفة، والجملة معطوفة علىٰ محذوف، علىٰ سُنَّة إيجاز القرآن، والتقدير: أحسبتَ أنَّ القيامة وما يتبعها من الحشر والحساب عَجَبٌ، أم حسبتَ أنَّ قصَّة أصحاب الكهف والرَّقيم من العَجَب؟! والغرض من هذا العطف: الاستدلال بالمعلوم علىٰ الغيب المجهول.

وفي الآية أيضاً تعليق علىٰ السِّياق المتضمِّن لمعارضة المعارضين، يُقارن بينهما، ويُهوِّن بها عليه ويُسلِّيه، أي: لا يضرُّك كفرُهم، والله حافظُك منهم، كما حفظ أصحاب الكهف من قومهم الكَفَرة. ومثل هذا الحَبْك والإيماء في المعاني، وازدحامها في التركيب الواحد؛ من إيجاز القرآن وبلاغته في دلالة الإشارة ودلالة الاقتضاء.

أما الرقيم فقد قال البلخي والـجُبّائي: هو لوحٌ علىٰ باب الكهف رُقم عليه مختصر قصَّتهم.

ثم أجمل القصَّةَ تمهيداً لتفصيلها، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ

= وقد اكتشفت حديثاً دائرة الآثار كهفين كلاهما مظنة أن يكونه:

أحدهما: قريب من خرابة مدينة أفسوس الرومانية، جنوب شرقي أزمير، بابه إلىٰ الشمال الشرقي ـ وأظن أنَّ آية الشمس تنطبق علىٰ مثل هذا ـ وعلىٰ ظهر هذا الكهف آثار مسجد قد بُني علىٰ آثار صومعة بيزنطية، وعثروا في داخل الكهف علىٰ ثمانية مدافن ترجع بتأريخها إلىٰ العصر البيزنطي، كما عُثر علىٰ الفجوة التي جاء ذِكرُها في القرآن.

والثاني: كهف الرجيب جنوب شرقي عمَّان ـ وقد كانت مدينة يونانية قديمة ـ بابه إلىٰ الجنوب، وعلىٰ ظهره آثار صومعة بيزنطية قد حُوِّلت إلىٰ مسجد للمسلمين، ثم اندثر، ولم يبق منه إلا الأثر. وعثروا في داخل الكهف علىٰ ثمانية مدافن طِرَازها بيزنطي. (المؤلف).

إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ هرباً بدينهم من قومهم الكفار، ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ فهم واثقون بربِّهم في إنجائهم، مفضِّلون دينَهم علىٰ دنياهم.

وقد قرن سبحانه الدعاء بالإجابة، وقال: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي: أنمناهم إنامةً لا تُنبِّهُهُم فيها الأصواتُ، وتركناهم كذلك ﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: ذوات عدد، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي: أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت، ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ الـمُقِرِّ بالبعث أو الـمُنكِرِ له ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾، وهذا إثباتٌ واقعيٌّ علىٰ منكري البعث، وتعريضٌ بهم، ملفوفٌ بتندُّرٍ واستهزاء. وقد صاغ هذا الاحتجاج بصيغة الحكم بين متخاصِمَين كلٌّ منهما يحاول إثبات وجهة نظره، وضمَّنه النتيجة المثبتة: أنَّ من يقدر أن يُنيمَ هؤلاء هذه المدة الطويلة ثم يبعثهم، يَقْدِرُ علىٰ إحياء الأموات؛ لأنَّ بين الحالتين مشابهةً قوية.

وقد تقدَّم البحث عن معنىٰ عِلْمِ الله هذا في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فارجع إليه، إلا أنه أُخرج هنا مخرج التهكُّم والتبكيت للمنكرين.

وقد قالوا في وجه التعبير عن تنويمهم هذا بالضرب علىٰ الآذان: إنَّ السمع آخر ما يُفقَدُ من إدراك مَنْ أخذه النوم أو الموت.

وبعد أن تكلَّم عن أمرهم إجمالاً، عاد إلىٰ التفصيل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك من تجزئة القصص، والتفصيل بعد الإجمال، فقال: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ ﴾ لنشر الدعوة إلىٰ التوحيد، ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ أي: قولاً خارجاً عن حدِّ العقل، مُفْرِطاً في الظلم والجهل.

ثم أنكروا علىٰ قومهم هذا الشِّركَ، ودحضوا دَعْواهم هذه ومنعوها بطلب الدليل عليها؛ نقضاً لها وتبكيتاً لهم، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي: بحُجَّة دالَّةٍ علىٰ مُدَّعاهم أنها آلهة. وهذا ردٌّ وإنكارٌ بصورةِ تحضيضٍ علىٰ الإثبات وتعجيزٌ لهم.

ثم سجَّلوا ناعين عليهم بقولهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

ثم حاور بعضهم بعضاً بقولهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ أي: ما ترتفقون به وتنتفعون من وسائل المعيشة.

وتُلهِمُ هذه الآية أو تدلُّ دلالةً إجمالية علىٰ أنَّهم آمنوا إيماناً كاملاً، ثم قاموا بنشر هذه الدعوة وعارضهم قومُهم، وكانوا يناقشونهم علىٰ شركهم فلم يهتدوا، وحاولوا فتنتهم في دينهم بكلِّ جهدهم، فثبتوا علىٰ هداية ربهم، واعتزلوا قومهم فراراً بدينهم إلىٰ هذا الكهف، واثقين برحمة ربِّهم ورعايته لهم، تاركين أوطانَهم وأموالَهم وأهليهم، رغبةً بدينهم وتقديماً له علىٰ حياتهم، نزولاً عند حدٍّ مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ عنايتَه بهم ورعايتَه لهم، وما كانت عليه وضعيَّة الكهف

الصحيَّة الموافِقة لحفظ أجسامهم من أن يَعْتريَها أذىٰ، حسب قوانين الطبيعة وسُنن الكون، وأنَّ الشمس تُشْرق عليه قليلاً عند الطلوع وعند الغروب، وذلك من موافقة الأقدار للأقدار، من إبداع الحكيم العليم القهَّار، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، لأنَّ باب الكهف كان مقابلاً للناحية الشمالية فيما يظهر والله أعلم، وفيه شيء من الزَّوَرِ يتَّفق مع الوضعيَّة المذكورة.

ومعنىٰ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾: تميل، ومعنىٰ ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾: تُحاذيهم أو تَعدِلُ عنهم. والمراد ـ والله أعلم ـ: أنَّ الشمس كانت تُشرق علىٰ باب الكهف قليلاً في الصباح والمساء، أما في سائر الأوقات فتكون علىٰ ظهر الكهف.

ومن المفسِّرين من يقول: إن باب الكهف كان جنوبياً ويُؤوِّل الآية بمقتضاه، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متَّسع ينالهم فيه الهواء النقي، ويكون ضوء الشمس قريباً منهم ولا يمسُّهم، و﴿ذَٰلِكَ﴾ الاتِّفاقُ والتَّدبيرُ ونومُهم العجيبُ هو ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونيَّة التي لا نعلم منها إلا القليل. وفي هذا البيان إيماءٌ وإلماعٌ إلىٰ أنَّ ما نعدُّه من غرائب الأحوال لا يتجاوز أيضاً قوانين الأسباب والنواميس الطبيعية المزدحمة في هذا الكون العظيم.

ثم أثنىٰ عليهم وشهد لهم، وقبَّح أمرَ قومهم معهم، وبيَّن وجهَ عِنادِهم بكلامٍ عامٍّ يشملهم وغيرَهم ممَّن يماثلهم، ليتناول المؤمنين مع كفار قريش أيضاً، علىٰ سُنَّة القرآن في بيان الحقائق العامَّة، فقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ لسلوك سبيل الهدىٰ وتجنُّب طريق الرَّدىٰ، بمحافظته علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته؛ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ للفوز

بالسعادتَيْن، والتجنُّب عن التعاسَتَيْن الدنيويَّةِ والأخرويَّةِ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وذلك بإفساد الإنسان لطبيعته، وعبثه ببصيرته، إما بالتقليد الأعمىٰ للآباء أو الخلطاء الضَّالِّين، وإما بكسبه لعلوم ضالَّة مُضلِّلة؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾؛ إذ لا يُمكِنُ إرشادُه بعد أن أفسد طبيعتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة وجمود التقليد. فقد مَضَت سُنَّة الله في أخلاق البشر وطباعهم أنَّ من تشبَّع بعادةٍ أو خُلُق أو دين لا يسمع ما يخالفه من دين أو خلق، ولا يراه جديراً بالتدبر والتمحيص؛ إذ لا يعتقده إلا سخافةً وضلالاً.

ويجوز أن تكون الآية مجرَّد تعليق علىٰ ما تضمَّنه السياق من هداية أصحاب الكهف وضلال قومهم؛ تُبيِّن أن هدىٰ الله هو الهدىٰ، وما سواه ضلال، فمن تمسَّك بما جاء عن الله فقد هُدي إلىٰ صراط مستقيم، ومن أعرض عن تعاليمه وتمسَّك بغيرها فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

ثم تابع البيانَ عن وصف حالهم وهم نيام، تفصيلاً لما سبق من الضرب علىٰ آذانهم وتصويراً له، فقال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ[1] وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رَقْدتهم ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ للمحافظة علىٰ أجسامهم، وذلك بما أَوْدَعَ الله سبحانه من طبيعة هذه النومة من استعداد أجسامهم لهذه الخاصَّة، وبمعونة جوِّ موضعهم الخاص. والله أعلم. وفيه إشارة إلىٰ أنَّ طبعَ نومِهم هذا فيه خصائصُ النوم المعتاد وملابساته، لأنهم لم يفقدوا الحياة.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ وهو مدخل الكهف. ويظهر من السياق أنه كان نائماً كنومهم.

---

(١) وفي ذلك إبعادٌ لأهل السوء عنهم، فإنَّ اليَقِظَ مَهيبٌ محروس، بخلاف النائم. أضِفْ إلىٰ ذلك ما ألقاه سبحانه عليهم من الهيبة والرعب منهم، لزيادة المحافظة عليهم من أرباب السوء وبُغاة العبث والفساد. (المؤلف).

ثم صوَّر وضعيَّتَهم المُريعة المُرعبة، وهم علىٰ تلك الحال، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾، وهذا من عموم الخطاب، يشملُ كلَّ مخاطب حسب عُرْف اللغة، وهذه العبارة من أدلِّ التعبير لتصوير حالهم الرهيب.

وفي تقلُّبهم دليلٌ علىٰ أنَّ القلب ينبض بالدورة الدمويَّة، فالحياة موجودة فيهم، وفي الرَّوْعة منهم حراسةٌ لهم، وحالُ كلبِهم كحالهم، وفي بَسْطِ ذراعَيْهِ بالوصيد زيادةٌ في الحراسة، والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

وبعد أن ذكر حالة نومهم العجيبة، ذكر حالة يقظتهم بعدها، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم تلك النومة العجيبة، بعثناهم من تلك الرَّقْدة التي أشبهت الموتَ، فهي الحياة بعد الموت، فكان من أمرهم ما ذكره بقوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ويزدادوا يقيناً في كمال قدرة الله علىٰ البعث والنشور، ويكونوا آيةً لغيرهم في ذلك. فاللام للعاقبة أو للتعليل.

ثم فصَّل صورة التساؤل بقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟﴾ أي: قال بعضهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ يقولون ذلك لشعورهم بقِصَر المدَّة، وهذا يدلُّ

علىٰ أن حياة البرزخ هكذا، والله أعلم. ﴿قَالُواْ﴾ أي: قال البعض الآخر ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، فالقول الأول كان بمقتضىٰ الشعور، والثاني بمقتضىٰ القرائن والآثار. ويظهر من فحوىٰ هذه الجملة أنهم تناقشوا في الأمر بحسب أوضاعهم وأحوالهم الدالة علىٰ طول مدَّة النوم، فظهر لهم من تلك الأوضاع أنها لم تكن قصيرة.

وتُؤْذِنُ الآية بأنَّ الأرواح المجرَّدة عن الأبدان كأرواح الموتىٰ، لم تتقيَّد بالزمان والمكان ولم تشعر بهما، فتكون عندها الآماد في عداد ساعات، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وذلك لأن الزمان والمكان من خصائص المادة، ولما كانت نومتهم كالموت، كانت أرواحهم كأرواح الموتىٰ، والله أعلم.

ثم ذكر ما كان من أمرهم بعد ذلك بقوله حِكايةً عنهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: بدراهمكم هذه ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أيّ أهل المدينة أحلُّ طعاماً ـ إذ كان فيهم المجوس ـ فَلْيَلتَمِسْ طعاماً زكياً، ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: وَلْيَتحذَّر، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.

ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[1] إنْ عُدتُم إلىٰ ملَّة الكفر، يقولون ذلك متأثِّرين بحالتهم التي ناموا عليها، ولم يعلموا أن القوم قد تبدَّلوا بطول المدة وتعاقب الأجيال.

ثم ذكر أنهم عثروا عليهم رُغْم ذلك التلطُّف والتخفِّي، وأدَّىٰ العثور إلىٰ إيمان العاثرين وتصديقهم بأمر البعث، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنمناهم وبعثناهم ليزدادوا إيماناً، ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أظهَرْنا الناسَ علىٰ أمرهم؛ ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي:

---

(١) تُلمِحُ هذه القصةُ إلىٰ أنَّ الإنسان مطبوع علىٰ الإيمان ما لم يفسد طبيعتَه بمفاسد التربية، فإذا نَما هذا الإيمان فيه فتكامل، ضحَّىٰ في سبيله بكلِّ شيءٍ، حتىٰ بالتخلِّي عن أهله وماله والفرار به إلىٰ المغاير والكهوف، حِرْصاً عليه. (المؤلف).

العاثرون علىٰ ما كان من أمرهم من العجائب في نومهم الطويل ويقظتهم بعد ذلك: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقٌّ﴾ لما بين الحالتين من تقارب؛ فحالةُ هؤلاء تُقرِّبُ للعقول حالةَ البعث، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

ثم ذكر ـ والله أعلم ـ ما كان من أمر القوم فيهم بعد موتهم الطبيعي عقب ذلك البعث، فقال: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ فقال بعضهم: ماتوا في هذه المرة موتاً طبيعياً، وقال آخرون: بل عادوا إلىٰ مثل نومهم الأول، ﴿فَقَالُواْ﴾ بنتيجة هذا النزاع: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ ولا تدفنوهم دفناً، إذ ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أماتوا موتاً طبيعياً، أم عادوا إلىٰ نومهم الأول؟

ثم بيَّن ما كان بعد ذلك بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ بنتيجة النزاع، وهم المتنفِّذون وأصحابُ الرأي الغالب؛ قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾[1] أي: موضعاً للعبادة، كما كانوا يتّخذون معابد علىٰ قبور صُلَحائهم.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) يجوز أن يكون النزاع بين وجهتين: وجهة مَنْ يقول: إنهم لم يموتوا الآن أيضاً موتة طبيعية، ولكنهم ماتوا ثانياً كموتتهم الأولىٰ، فيقضي أن نبني عليهم بنياناً يحفظ أجسادهم، ولا تضيق أنفاسهم. ووجهة مَنْ يقول: إنما ماتوا هذه المرة موتة طبيعية، فيجب أن يُدفَنوا علىٰ العادة، ولكن يُبنَىٰ فوق الكهف مسجد، أي: مَعبَدٌ باسمهم. وتغلَّب هذا الفريق علىٰ الفريق الأول، ففعلوا كما أرادوا، والله أعلم. (المؤلف).

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ تَـنَازُعَ الخائضين في قصَّتهم علىٰ عهد الرسول ﷺ من أهل الكـتاب، وجدالـهم في عددهم، مُـلْمِعاً إلىٰ أن الجدال لا يجوز أن يعتمد علىٰ الرَّجْم بالغيب، ولكن يجب أن يستند علىٰ الدليل المعقول أو المنقول، لا كما يفعل أهل الكتاب عند مناقشة المواضيع، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ يقولون ذلك ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ لا عن دليل، وليسوا علىٰ يقين وعلم من مصدر موثوق.

ثم غيَّر النظم في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فأخرجه بالواو الابتدائية من سياق الرَّجْم بالغيب؛ لكونه ـ والله أعلم ـ أقرَبَ للحقيقة مما سبق، وللإيماء إلىٰ كثرة تعدُّد الأقوال.

ثم صرفه عن إمكان تحقيق ذلك بالضبط بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وبعد أن أومأ إلىٰ استهجان الرَّجْم بالغيب والسَّيْر بمقتضىٰ الظنون، نهاه أن يجادل فيما هو غير ظاهر، لأنه رَجْمٌ بالغيب، ونهاه أن يعتمد علىٰ ما يقوله أهل الكتاب في مثل ذلك، لأنَّ دأبهم الرجم بالغيب. ثم أكمل له التأديب، علىٰ نهج القرآن في استيعاب البحث إذا بدأه، فنهاه أن يقول لشيء: إني فاعل ذلك غداً؛ لأنه رَجْم بالغيب، فقد نهاه عن المجادلة في غير الظاهر بقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: يظهر معه الحقُّ واضحاً في جانبك، فلا يمكن إنكاره.

ثم نهاه أن يعتمد علىٰ أقوال أهل الكتاب في هذا وأمثاله، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا تعتمد علىٰ معلومات أهل الكتاب في ذلك؛ لأنها معلومات مأخوذة من مصادرَ غيرِ موثوقة، وبطريقةٍ غيرِ صحيحة، رَجْماً بالغيب كما هو دأبهم.

ولما أمرهم بالتثبُّت في الأفكار والأقوال، استطرد إلىٰ إرشاده بهذا الإرشاد، علىٰ سُنَّة القرآن في الاستطراد والجمع بين المتناظرات وتتميم الموضوعات واستيعابها، وبيان الأحكام عندما تعرض أسبابها، وتكميلاً للبحث وإن كان خارجاً عن الموضوع، ثم يعود إلىٰ الموضوع، وقد أجرىٰ الكلام علىٰ هذا النمط، فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فبعد أن أرشده بأن لا يُماريَ ويُجادلَ إلا بما هو ظاهر عنده، كي يكون متأكداً فيما يجادل فيه، أرشده كذلك أن لا يقول لشيءٍ: إني فاعلٌ ذلك غداً؛ لأنه رَجْم بالغيب، ولا يأمن من حدوث العوائق، وأمره أن يقرنه بمشيئة الله، تنصُّلاً من الجزم بما هو غير معلوم لديه.

وقد جاءت هذه الحلقة من الإرشاد في سلسلة ما سبقها من حلقات الإرشاد في النهي عن الرَّجْم بالغيب ومنتظمةً في سلكها، ولو كان سبب النزول ـ كما قيل ـ أنَّ النبي ﷺ سأله مشركو مكة بإيعاز من أهل الكتاب عن أمر أصحاب الكهف، وعن أمر ذي القرنين، وعن أمر الروح، فوعدهم أن يجيبَهم غداً، فأبطأ الوحي عنه بضعة عشر يوماً، حتىٰ ضاق بذلك؛ لأنَّ المعتبر في فهم القرآن: المعاني وتسلسلها، لا في أسباب النزول علىٰ الصحيح؛ لأنها لا تُخصِّص العامَّ، ولا تقطع السياق، ولكنها سببٌ لنزول الحُكْم لا غير، فيُستعانُ به في آيات الأحكام. فسبب النزول إنما يفيد في استنباط الأحكام، ويُراعىٰ فيه، ولا يُقْصَرُ الحكمُ عليه.

وأما قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ففيه وجهان:

الأول: أنه متعلِّق بما قبله، والمعنىٰ: إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله، فاذكره إذا تذكَّرت.

والثاني: أنه لا تعلُّق له بما قبله، وإنما هو كلام مستأنَفٌ سِيقَ لإرشادٍ آخر، وهو أن يُكرِّر ذِكرَ الله إذا نسي شيئاً، حتىٰ يتذكَّر المنسيَّ، ولا يرجم بالغيب.

وأما قوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾[1] فالظاهر ـ والله أعلم ـ أنه امتدادٌ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ...﴾ ومعطوفٌ عليه، وما بينهما اعتراضٌ أو شبيه بالاعتراض، أرشد به الرسول أن لا يرجم بالغيب، وينتظر منه تعالىٰ أن يفتح عليه.

فمحصَّل الكلام: إرشادٌ للرسول أن لا يُماريَ في الأشياء التافهة، ولا يهتمَّ لها، وأن يطلبَ من الله سبحانه أن يُرشِدَه إلىٰ ما فيه الهدىٰ والسَّداد؛ من أمر الدنيا والآخرة.

وفيه إيذانٌ بأنه يجب أن يتطلَّب العلم النافع في الأمور المهمة، لا العلم في الأمور التي لا طائل تحتها، ولا ثمرة تُجْنىٰ من ورائها، كعدد أصحاب الكهف وما شابه ذلك.

وفيه إرشادٌ إلىٰ أنه إذا سمع شيئاً من أهل الكتاب فلا يعتمد عليه حتىٰ يبيِّنه الله له، وليقل لهم: عسىٰ أن يهديني ربِّي لأقربَ من هذا رشداً. هذا ما أراه في الآيات، والله أعلم.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون قوله: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ﴾ تعليقاً علىٰ ما قبله، يُرشد به سبحانه نبيَّه ﷺ أن لا يعتمد فيما لا يعلم من قول أو فعل إلا علىٰ الوحي، وعبَّر عن عدم العلم بالنسيان توسُّعاً. فإذا هو لم يعلم يتوجَّه إلىٰ الله سبحانه مستهدياً، ويقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾. فجاء هذا علىٰ نهج القرآن من تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه. هذا رأيٌ آخر أراه، والله أعلم. (المؤلف).

ثم تابع الكلامَ ببيان نزاع ثانٍ في أمر أهل الكهف وقرنه بالردّ، فقال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾، وذلك أنهم لبثوا ثلاثمئة سنة شمسيَّة، والله تعالىٰ ذكر السنة القمرية. والتفاوتُ بينهما: في كلِّ مئة سنة ثلاث سنين تقريباً.

وقال قتادة: هذا ما يقوله أهل الكتاب. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (وقالوا لبثوا في كهفهم...) [١] ففيه تصريحٌ بأنه من قول أهل الكتاب. ويؤيِّد أنه من قول أهل الكتاب، تعقيبُه تعالىٰ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾، لأن ظاهره ردّ.

وقيل: بل المراد من قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ...﴾ إخبارٌ من الله تعالىٰ بمدَّة لبثهم، بيَّنها علىٰ وجه التحقيق ليردَّ علىٰ أهل الكتاب الذين اختلفوا في تلك المدّة زيادةً ونقصاً، ثم قرَّر البيان ومكَّنه بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾، أي: وأنتم لا تعلمون، وإنما تقولون فيه رجماً بالغيب.

وفي الأمر بهذا القول إرشادٌ منه سبحانه وتعالىٰ لرسوله ﷺ أن يقطع الـمُجادَلةَ معهم إذا لم يُصدِّقوا بهذا العدد ويذكرون غيره[٢]، ويقول لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصَره وأسمَعَه! وفي الصيغة وعيدٌ للكافرين، وترغيبٌ بطاعته، وترهيبٌ عن معصيته.

ثم تابع الترغيب والترهيب ضمن بيان شأن آخر من شؤونه تعالىٰ، فقال: ﴿مَا لَهُم﴾ أي: لأهل السماوات والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالىٰ ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يتولَّىٰ أمورهم، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ وهذا نفيٌ للشريك وللمُدَاخَلة في شؤونه تعالىٰ علىٰ أبلغ وجوه النفي.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٧٦٥).

(٢) هكذا في الأصل المطبوع.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

ثم ذيَّل السياق بالتَّنويه بشأن هذا القرآن، وأمَرَه بدعوتهم إليه؛ لأنه هو الحقيق بالعلم لا هذه المعلومات التافهة، فقال: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ عليهم ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ لأنه هو العلم الجليل والقول السديد، وكلُّه حقٌّ ورشاد، ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ تعالىٰ لأنها الحقُّ والواقع، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: مُلْتَجَأً تلتجئ إليه في المُلِمَّات، وفي كشف الشبهات.

ثم أمره بالصبر والاندماج مع فقراء المؤمنين وعوامِّهم، والإعراض عن خواصِّ الكافرين وأثريائهم، الميئوس من إيمانهم، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[1]، وقد ضمَّن ﴿وَٱصْبِرْ﴾ معنىٰ: احبِسْ، فعدَّاها

(١) في هذه الآية ردٌّ لطلب رؤساء قريش من النبي ﷺ أن يجعل لهم وقتاً خاصاً يجتمعون به فيه دون العامة، أنفةً منهم. وهي تُلمِحُ إلىٰ السنة الاجتماعية، وهي أن الله سبحانه إذا أراد أن يتدارك أمة برحمته فيعيد حياتها الاجتماعية الصحيحة، فلا يكون ذلك إلا بواسطة العامة؛ لأنهم ـ لبُعدهم عن مناشئ الإصابات من الأمراض الاجتماعية ـ يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد، وأقلَّ أمراضاً =

تعديتَها، أي: دُمْ معهم علىٰ هذه الحالة، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ بإفساده لنفسه وانطباعه عن الضلال ورسوخه فيه، فأعرَضَ عن الهدىٰ، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: سرفاً وإفراطاً.

فقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ...﴾ نهيٌ عن التصدي إلىٰ أغنياء الكافرين الميئوس من إيمانهم، وذَكَرَ الإرادةَ والإطاعة مبالغةً في التأنيب والإرشاد؛ لأن ذلك غير مخالف لطبيعته. والآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥ – ٦]، ومِثلُ هذا الخطاب مع الرسول لَـوْنٌ من ألوان شدَّة البيان في القرآن. وقد جاء هنا للتزهيد في الدنيا، وللحثِّ علىٰ طاعة الله؛ مع أنه لا يخالف ما فيه نفسه. ويجوز أن يكون خطاباً للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ قاعدة ما يُسْنَدُ للرئيس من فعل الأمة، فيقال له: لا تفعل كذا، أي: لا تفعله أمتك أو حزبك.

ثم هدَّدهم بصورة تخيير ملفوف بتهديد بعد أن ألزمهم بالحق، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ﴾ ما جاء ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، وكلُّ ما جاء عن غيره فباطلٌ وضلال، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ به، ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: جاء الحقُّ وزهق الباطل، وتبيَّن الرُّشْد من الغيّ، فلم يَبْقَ إلا ما تختارون من ذلك لأنفسكم.

وهذا تصريحٌ بأنَّ إيمان العبد وكفرَه اختياريٌّ يعود إلىٰ ما يختاره من نفسه لنفسه، ويندفع إليه برغبته وعقله وميول مَلَكاته المكتسبة بالتربية، فإن اختار الخير وعمل به فله النعيم المقيم، وإن اختار الكفر وعمل به فقد أخبر سبحانه عن مصيره بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: هيَّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، والسُّرادِق: الخيمة البيضاء،

= اجتماعية من الخاصَّة. لذلك يبقىٰ فيهم بقية من نور الفطرة تصلح للرجوع بهم إلىٰ الحياة الاجتماعية الصحيحة والقوانين الإلهيَّة الحقّة، ولذلك أمره بالصبر والثبات مع العامَّة، والإعراض عن مطالب الخاصَّة المعرضين. (المؤلف).

استعارها للهيب النار، فقد جاء عنه ﷺ: «أُوقِدَ على النار ألفُ سنة حتىٰ احمرَّت، ثم أُوقد عليها ألفُ سنة حتىٰ اسودّت، ثم أُوقِدَ عليها ألفُ سنة حتىٰ ابيضَّت، فهي بيضاءُ ملتهبة»[1]. فهذه النار الجحيم هي مصير الكافرين، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ من شدَّة العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالحديد، أو مُطلَق المعدن المُذاب، أو عكر الزيت المغلي، ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾، ثم نعىٰ عليهم بهذا النعي، فقال: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ هذا الماءُ الحميم، ﴿وَسَاءَتْ﴾ هذه النارُ الجحيم ﴿مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: مأوىٰ ومُستقراً، وقد حصلوا عليها بكفرهم وضلالهم.

والمِرفَق والمُرْتَفق: ما يُعاش فيه ويُؤْوَىٰ إليه. والارتفاق: الاتِّكاء والارتياح، حيث يضع مِرفَقه علىٰ الأرض ويُسْنِدُ رأسه إليه ويَضْطجع؛ يطلب بذلك الارتياح. ففي الكلمة شيء من التهكُّم، وفيه مطابقةٌ ومشاكلة مع قوله الآتي في حقِّ المؤمنين: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

وقيل في سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ...﴾: إنَّ أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إنْ أردتَ أن نؤمن بك فاطردْ هؤلاء الفقراء من عندك، فإذا حضرنا لم يحضروا، وتُعيِّن لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك. فأمره سبحانه أن يُعْرِضَ عنهم هذا الإعراض، وأن يَرُدَّهم بما ذكر من مجيء الحقِّ، ومن تخييرهم فيه علىٰ سبيل التهديد.

وبعد أن توعَّدهم وذكر مصيرَهم وأنَّبهم، زاد في تأليمهم وتحسيسهم بذكر مصير المؤمنين ونعيمهم، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٩١) وقال: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن شريك. وقال عن الموقوف: حسن غريب، بلفظ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت فهي سوداء مظلمة».

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقبل أن يذكر الخبر عجَّل بهذه الجملة المعترضة للتقرير والتبشير، فقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾، ثم أخبر بالمصير فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[1]، وهي في الجنة كالأوسمة في الدنيا ـ والله أعلم ـ تُـمنَحُ تقديراً لأعمال حامليها، ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، والسندس: ما رقَّ من الديباج، والإستبرق: ما صَفَق منه. وقيل: السندس: الديباج المنسوج بالذهب. ويكونون ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، وهي: السرير الممتاز. ثم هنَّأهم بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾، اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وهذه الجمل مقابلة لنظيرها السابق في حقِّ الكافرين، ولا تنس ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ كلَّ ما في الجنة لا يُشابه ما في الدنيا إلا بالاسم[2].

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ

---

(١) أما يجوز أن يكون هذا للمؤمنات؛ لأنَّ من خصائص اللغة أن يُذْكَـرَ صنفان، ويُحكَم لهما بما هو لأحدهما. والله أعلم. ولا تنسَ أنَّ أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا، فلا حاجة لهذا. ولكن جاء في الأثـر عن رسول الله ﷺ أنه قال لسُـراقةَ بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ تاج كسرىٰ وسواريه» [انظر: «الإصابة» (٣: ٢٤١)]. فهذا يدلُّ علىٰ أنّ لبس السُّوارَيْن كان من شارات الملوك يتَّخذ لأهل الجنة. (المؤلف).

(٢) سبق تخريجه (٢: ٥٧٦).

مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

ثم أردف هذا البيان عن مصير المؤمن والكافر بضرب المثل لهما، وجَعَله توضيحاً للابتلاء بزينة الأرض؛ لأنَّ الأمثال تزيد إيضاحاً في المعاني والأغراض، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾ أي: أحطناهما ﴿بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ لتكونا جامعَتين للأقوات والفواكه، وثنَّىٰ الجنتَيْن للدلالة علىٰ التكثير.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، ضَمَّنَ ﴿تَظْلِم﴾ معنىٰ: تنقص، أي: أعطت ثمرها كاملاً علىٰ أحسن ما يُرام، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ تُسقيان به وتزهوان.

وبعد أن استقصىٰ محاسن الجنة الكاملة المحاسن لهذا الرجل، ذكر نوعاً آخر من الإنعام عليه مُضَافاً إلىٰ ذلك، فقال: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قال ابن عباس: يُطلَق الثمرُ علىٰ جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغيره[1]. وقال مجاهد: هو الذهب والفضة خاصَّةً[2].

---

(١) ذكره الزركشي في «البحر المحيط» (٦: ١١٩).

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٥: ٢٧٥).

وإنما استقصىٰ الوصف في الإنعام علىٰ هذا الرجل ليتبيَّن عِظَمُ كفرانه به وعِظَمُ مصيبته بفقدانه علىٰ ما يأتي، إذ هو المقصودُ من ضرب المثل.

ثم تابع البيان عنه بقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يُراجِعُه في الكلام: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: أولاداً وعشيرةً وحشماً وأعواناً؛ يتبجَّح عليه بذلك.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بصاحبه، والإضافة للإشارة إلىٰ أنه لا جنَّة له غيرها، إذ لا حظَّ له في جنَّة الآخرة التي وُعد المتقون، وإنما عُجِّلت له طيِّباتُه في هذه الحياة، فدخل جنتَه هذه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بكفره وعُجبه وبطره، و﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تفنىٰ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنةُ ﴿أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن﴾ صحَّ ذلك و﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ بالبعث ـ كما تزعم ـ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: لأجدنَّ عند ربي خيراً من جنتي هذه مرجعاً وعاقبة؛ لاعتقاده أنَّ ما يحصل به النعيم في هذه الحياة هو عَيْنُ ما يحصل به النعيم في تلك الحياة؛ لأنهما متشابهتان في زعمه، ولاعتقاده أنَّ الله سبحانه إنما أَوْلاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتيّ، وكرامته عليه، وهو معه أينما يلقاه. ولم يَدْرِ هذا المغرور ما هنالك من الفروق العظيمة في أسباب النعيم في الحياتين؛ إذ لكلٍّ منهما أسبابٌ خاصَّة.

ثم حكىٰ سبحانه ما قاله له صاحبُه، جواباً عن ذلك، فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ فذكَّره بخِلْقته النوعيَّة ـ وهي: خِلْقة آدم ـ وبخِلْقته الشخصيَّة، وما فيهما من القدرة والإعجاب، لينبِّهه إلىٰ أنَّ البعث الذي أنكره ليس بأعجب من ذلك. فالكلام نقض لإنكارِه البعثَ، أردفه بهذا الإقرار، فقال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

وبعد النقض والإقرار قرَّعه وأنَّبه مُرشداً له بقوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾، و﴿لَوْلَآ ﴾ هذه للتَّحضيض، أي: هلَّا قلتَ ذلك اعترافاً بعجزك، وبأنَّ ما يتيسَّر لك إنما هو بمعونته تعالىٰ وإحسانه.

ثم أجاب عن تبجُّحه بنعيمه الدنيوي بقوله: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أي: علىٰ جنَّتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كالصواعق. وسُمِّيَ ذلك حسباناً لأنه حسابٌ له علىٰ أعماله واعتقاداته، ومُجازاةٌ له، أي: يُرسِلُه علىٰ جنَّتك ﴿فَتُصْبِحَ ﴾ به ﴿صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: أرضاً ملساء، ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ أي: إخراجاً ووِرداً.

وبعد أن حكىٰ سبحانه محاورة هذَيْنِ الرجلَيْن، حكىٰ ما كان من مصير جنَّة هذا الغني الكافر، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ والثمر: المال، كما مرَّ، أي: بما يملك من جنَّة وغيرها. والكلمة: ﴿وَأُحِيطَ ﴾ مستعارةٌ من إحاطة الجيش بالعدوِّ، أراد بها الهلاكَ والتَّلَفَ، أي: أذهب الله كلَّ ما يملك هذا الذي كان يتبجَّح بغناه.

ثم مثَّل صورةَ خُسْرانه المبين، وتحسُّره العظيم، فقال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، فهذه الجملة تُمثِّل إتلافَ ماله في النفقات علىٰ هذه البستان، وتَلَفَها بعد ذلك، وتألُّمه الشديد عليها وعلىٰ ما أنفقه فيها حتىٰ أصبح صِفرَ اليدين لا يملك شيئاً.

ثم قرن بمضرب هذا المثل ـ وهو بيان حال المشرك في الآخرة وخُسرانه لأعماله ـ مصيرَه هناك، وشرح حالته النفسية وندمه إذ ذاك، فقال: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ حيث علم أنَّ هذا من جزاء ذلك.

ثم وصف سبحانه حالةَ يأسه وخذلانه، فقال: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن

دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾، وهذه الجملةُ مبالغةٌ في التيئيس والتنديم، مأخوذة من عادات العرب في نُصْرة بعضهم لبعض، واستنجاد بعضهم ببعض.

ثم علَّل ذلك النفيَ بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ لا يملكها غيرُه، ولا يملك أحدٌ منه خطاباً، ولا يجري فيها سوىٰ الحقِّ والعدالة، لا تَناصُرَ ولا استنجاد. ثم ذيَّل الكلام بما فيه تبشيرٌ للمؤمنين، فقال: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ أي: عاقبةً ومآلاً.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

ثم أردف هذا المَثَلَ المبيِّنَ لحالة المؤمن الفقير والكافر الغني في الآخرة والمآل، أردفه بمَثَل آخر يُزهِّد في الدنيا ونعيمها مهما كان، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نَبَتَ وتكاثفَ من كثرة المطر، والتفَّ بعضُه ببعض، وهذا تصويرٌ للخِصْب الكثير، ولكنه ما لبث أن اصفرَّ وزال رونقُه ويبس ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، فمَثَّل زهادةَ الدنيا وقِصَرها بما بَيْنَ أَخْذِ الأرضِ زُخرُفَها وزينتَها وبَيْنَ يُبْسِها حتىٰ تُصبح هشيماً.

ثم استظهر من هذا التقليب عِظَم قدرة الله، وأشعر بالتخويف منها والإنذار، وأنه سبحانه لا يُعجِزُه عظائم الأعمال والآثار، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾، فما الحشر في جانب قدرته هذه إلا من أهون الأشياء وأبسطها.

ثم أجمل ما تضمَّنه السياق من التزهيد بنعيم الدنيا الفاني والترغيب بنعيم الآخرة الباقي، فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي سريعة الزوال والانقضاء، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهي الأعمال التي تبقىٰ ذُخْراً للحياة الأخرىٰ الباقية ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ يُؤَمَّل منه تعالىٰ، جزاءً عليها.

ثم بعد أن ذكر الحياة الدنيا ذكر اليوم الآخر وما يكون فيه من وبال علىٰ أولئك الكافرين، إنذاراً لهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ فتكون هباءً مُنْبَثّاً، بنتيجة الصَّدمة الهائلة بين الكواكب، أو بغير ذلك، والله أعلم، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لما اعتراها من غريب الأوضاع، بتأثير اصطِدامها بالكواكب، أو زلزلتها حتىٰ لم يبق عليها أثر ولا بناء، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: جمعناهم إلىٰ الموقف من كلِّ صَوْب، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ في صعيد واحد، وقيل لهم تبكيتاً وتنديماً: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: جئتمونا بحياةٍ مثل حياتكم الأولىٰ، وقد كنتم تُنكِرون ذلك، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ تُبعثون فيه، فهذا ما كنتم تُنكِرون.

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: صحائفُ الأعمال، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين مما فيه من جرائمهم وذنوبهم المَحْصيَّة عليهم، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، وهذا تهويلٌ وارتعابٌ مقرونٌ بتعجُّب وانعكاس آمال ﴿وَ﴾ ذلك إذ ﴿وَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ لم يُنْسَ منه شيءٌ، فأخذوا جزاءهم بالعدل والإنصاف، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[1].

---

(١) يجوز أن يكون ذلك بتكيُّف الروح كيفيَّة خاصة، نتيجةَ أعمالها، والله أعلم. (المؤلف).
وقد تقدم التعليق على كلام المؤلف في تكيّف الروح (٤: ٥٦٠).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

ثم ذَكَّرَ بقصَّة آدم وإبليس للتنبيه إلىٰ أنه هو سبب شقاء أولئك المشركين، وللتحذير منه، مُلمِعاً في ذلك إلىٰ الحكمة التي اقتضت أن يكون الإنسان مختاراً في تصرُّفاته؛ ليكون له علم واسع، وإيجاد نافع، لا قسراً للإرادة، ولا عجزاً في القدرة، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[1]، وهذا تعليل لامتناعه وتعبيرٌ عنه؛ لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم. ولهذه المخالفة سُمِّي شيطاناً، مِنْ: شَطَنَ، بمعنىٰ: خالف وعصىٰ. والجنُّ من العوالم الخفيَّة المُجْتنَّة، وهي أنواع يختلف بعضُها عن بعض في الشكل والمادة[2]. والله أعلم.

---

(١) هذه الآية تنصُّ علىٰ أن إبليس كان من الجنِّ، ويمكن حَمْلُ مثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] علىٰ هذا النص بأحد وجهين: إما أن يجعل الاستثناء منقطعاً، أو يكون الجن جنساً عاماً. وإما أن يحمل الكلام علىٰ طريقة الاكتفاء التي هي من أساليب القرآن، ويكون المعنىٰ: أنه سبحانه أمر الملائكة والجن بالسجود، فسجدوا إلا إبليس، وقد اكتفىٰ بذكر إبليس عن ذكر الجن، والله أعلم. وقد مرَّ الكلام عن إبليس في سورة البقرة والإسراء وغيرهما، وفي لاحقة المقدمة الثانية، فارجع إليه. (المؤلف).

(٢) بل الجن نوع واحد كالإنس، واختلافهم في الشكل اختلاف أفراد لا اختلاف أنواع، أما المادة فلا اختلاف بينهم فيها، لأنهم مخلوقون من نار، كما أن الإنس مخلوقون من طين.

ثم فرَّع علىٰ ذلك هذا الإنكار، فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾، ثم أنَّبهم ولَحَاهُم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ من الله تعالىٰ إبليسُ وذريتُه. ويجوز أن يُرادَ بهم: أشرار الجن، ويجوز كذلك أن يُرادَ بالذريَّة: أتباعُه وحِزبُه من الإنس، وبعبارة أخرىٰ: رؤساء كل ديانة ضالَّة، الذين يَسْعون في إغواء البشر وتضليلهم. وسمَّاهم ذُرية علىٰ طريقة المجاز؛ لأنه هو الذي جَعَلهم وذَرَأهم علىٰ هذه الصفة الشائنة، بوسوسته وإغوائه. والآية تتضمَّن منتهىٰ التقبيح والتهجين لهؤلاء المشركين الضَّالِّين.

ثم نقض عليهم شِرْكَهم بهذا النقض التهكُّمي في شركائهم، فقال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أي: ما أحضرتُ إبليسَ وذريتَه، ويجوز أن يعود الضمير للأشخاص المعبودين ممَّن يرمزون إليهم بالأصنام، وإن كانوا صُلحاء، فكلُّهم لم يشهدوا ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهذا تندُّر تهكُّمي بديع بالمعارضين. ثم ترقىٰ إلىٰ ما هو أشد إلزاماً، فقال: ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾، وأومأ إلىٰ أنهم مخلوقون لله مثلهم، فكيف يستحقون أن يُعبَدوا؟

ثم نقل الكلام إلىٰ المعبودين المُضَلِّين، علىٰ نهج القرآن في التنقُّل، وعمد إلىٰ ما هو أنكىٰ وأشدُّ تبكيتاً، فقال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ أي: عَوْناً أستعينُ بهم، يريد: الذين أضلّوا الناس بعبادتهم إيَّاهم، وأَغوَوْهُم بأن يُشْركوهم بالله، ويتوسَّطوا بهم إليه. وهذا منتهىٰ التسخيف والتجهيل لمن يتَّخذهم أولياء من دون الله، أو يتقرَّب بهم إلىٰ الله.

ثم ذكر مصيرهم معهم يوم القيامة زيادةً في التنبيه والإنذار، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم عند الله، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: مَهلِكاً يشتركون فيه.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ والتعبير بالظنّ ينطوي علىٰ شيءٍ من الازدراء والتنذُّر بهم، حيث كانوا يزعمون أنْ لا عذاب ولا نار، وأنَّ الجنة هي لهم دار القرار.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

ثم نوَّه بشأن ما قدَّمه من المواعظ والعِبَر والبيِّنات، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وبيان ما يحتاجونه ويتفهَّمون به الحقائق، أي: نوَّعنا لهم البيان والإرشاد وكرَّرناه بألوان وصور منوَّعة من الكلام المُفْهِم والبراهين الواضحة؛ ليتحقَّقوا الأمر ويتيقَّنوه، فلم يُجْدِهم نفعاً. ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: عناداً ومُشاغبةً في الحق والصواب.

ثم هدَّد هؤلاء المشركين الحائدين عن هذه الهداية بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذين حُكيت أباطيلُهم من المشركين ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ في هذا القرآن، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ عمَّا فرط منهم وعن مجادلتهم الحقَّ بالباطل، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو استئصالهم بالعذاب في الدنيا، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الآخرة

﴿قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ جمع قبيل، أي:أنواعاً، أو من المقابلة بمعنىٰ: عِياناً أو فجأة. وفي أسلوب الآية نوع من البديع، فقد نُـزِّلت العاقبةُ منزلةَ الباعث، كما تقول: ما دفعك إلىٰ ركوب البحر إلا أن تغرق. والغرض: إنذاره بذلك، كما أنَّ الغرض هنا: الإنذار لهؤلاء بهذه العاقبة التي جَرَتْ علىٰ الأوَّلين الذين عارضوا الرُّسل من الأمم الغابرة.

ثم ساوق السياق بحكمة الإرسال، وجعله كالتعليل لمضمون ما قبله، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مُبشِّرين للمؤمنين بالثواب، ومُنذِرين للكَفَرة والعُصاة بالعقاب.

ثم ذكر ما يكون تجاه ذلك من الكَفَرة المرتدِّين، فقال: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

وقد نَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ﴾ عاقبةَ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفر والمعاصي. والمراد من النسيان: الجهلُ بالعاقبة الأليمة وعَدَمُ الاكتراث بها. فالكلام مطويّ علىٰ التهديد والتأنيب، أي: جَهِلَ ما سَيَؤُول إليه أمره، لأنه لم يُصدِّق بما جاء في هذا القرآن عن اليوم الآخر وما فيه من أهوال الحساب والعذاب.

ثم علَّل مصدر ذلك فيهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وذلك الجعل ليس تعمُّداً وإجباراً، والله سبحانه مُنزَّه عن ذلك، وإنما هو بسُنَّة الله العامَّة في أخلاق الإنسان، وهي أنَّ من انطبع منهم علىٰ شيءٍ لا يحيد عنه أبداً، فهم لا يحيدون عن باطلهم الذي تربَّوا عليه، لأن انطباعهم علىٰ التقليد أفقدهم التَّرَوِّيَ واستعدادَ البحث عن الحقائق بالنظر والاستدلال، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أناتَه فيهم لعلَّهم يؤمنون، وأنَّ تأخير عذاب المُصرِّين منهم إنما هو من رحمته وإلىٰ أجل لا رَيْب فيه، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، ومن كانت هذه صفاته الحسنىٰ فهو يتأنَّىٰ بالعُصاة، و﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ فوراً ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾، ولكنه لا يُعجِّل لهم ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ أي: مَنْجىٰ وملجأ، فإذا جاء الأجل المضروب لاستئصالهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

واستشهد علىٰ ذلك بتاريخ أمثالهم من الأمم الغابرة، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: قرىٰ عاد وثمود وأضرابهم، ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: ولكنْ لم نُعجِّل عليهم، بل تأنَّينا بهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: موعداً أنجزناه فيه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا

زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ۞.

ثم لما جاء في هذا السياق أمورٌ بعيدة عن النظر، وتحار فيها الفِكَر، مثل حال أهل الكهف، وتحقيق الحشر، وجَعْل الإنسان مُخْتاراً في تصرُّفاته حتىٰ تمكَّن الشيطان من إغوائه بوسوسته وصَبْره عليهم، ومثل إغداق الرزق علىٰ الكافرين والمجرمين وتأجيل عذابهم، وإحصاء الأعمال بكلِّ دقَّة وتحديد، وأمثال هذا؛ ذكر قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام، وكيف خَفِيَت علىٰ موسىٰ حِكَمُ أعمالِ الخَضِر وهما بشران، فذكر ذلك للإيذان بأنَّ حِكَمَ الله سبحانه أبعَدُ خفاءً علىٰ الإنسان، وأحقُّ أن لا تُدرِكَها كلُّ الأذهان، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ أي: ولو أمضي أزماناً طويلة، وهذا العطف لتمكين التصميم. والبحر يُطلق علىٰ جزءٍ معيَّن من البحر العظيم باعتبار مكان خاصٍّ منه، أو حال خاصٍّ فيه، فيقال: بحر كذا، لبلدة تقع عليه، أو أُمة تسكن هناك، أو أمر من الأمور فيه، إلىٰ أمثال ذلك، ويثنَّىٰ ويُجْمع بهذا الاعتبار.

ويظهر من فحوىٰ الآيات الآتية: أن الفتىٰ لم يعلم عن غرض موسىٰ من هذا السفر سوىٰ المكان، ثم بيَّن له أنَّ علامة المكان الذي يقصده هو ما سيكون فيه من أمر الحوت، أو مجرَّد فَقْده له، ولا يلزم أن يكون الحوت عندهم من مبدأ السفر، بل يجوز أن يكون ذلك قُبَيْلَ الوصول إلىٰ المكان بأمر من الله؛ ليكون علامةً لهما.

وقد وَرَدَ في الخبر: أنَّ موسىٰ طلب من فتاه أن يخبره عن الحوت إذا نُفخ فيه الروح[1]، وهي العلامة التي ضَرَبها الله في الملاقاة، وأن الفتىٰ نسيَ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أي: جعل سبيله في البحر كالشقِّ الطويل.

وفي: ﴿نَسِيَا﴾ إسنادُ فعل الواحد إلىٰ الاثنين المشتركَيْن بفعلٍ سابقٍ متعلِّق بهذا الفعل، وهو ﴿بَلَغَا﴾، ومثل ذلك من خصائص اللغة؛ لأن الذي نسيَ أمرَ الحوت إنما هو الفتىٰ وحده، فلم يُذَكِّرْ موسىٰ عنه كما سيأتي، فتَجوَّز في إسناد النسيان إليهما، بحسب خصائص اللغة وبلاغة الكلام. ويجوز أن يكون إسناد النسيان إلىٰ موسىٰ عليه السلام، لأنه فاته أمرٌ كان ينتظره باهتمام. ويجوز أن يكون الإسناد إليهما معاً حقيقياً، بمعنىٰ: نسيَ موسىٰ أن يطلبه، ويوشعُ أن يَذكُرَ أمره.

وعلىٰ كلٍّ، تكون فاء ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ لاستئناف البيان لا للترتيب. وقالوا في معنىٰ ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾: إنه حَيِيَ وانقلب من المِكْتل إلىٰ الأرض، ولا زال يتقلَّب حتىٰ دخل البحر، فتسرَّب فيه[2].

---

(١) الذي ورد في «الصحيحين»؛ البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أُبي بن كعب مرفوعاً: «... فحيثما فقدتُ الحوت، فهو ثمَّ ـ أي: الخضر ـ، فأخذ حوتاً، فجعله في مِكْتل، ثم انطلق...».

(٢) وهو ما جاء في الحديث الصحيح المتَّفق عليه المتقدِّم، وفيه قوله ﷺ: «فانطلق معه فتاه يوشع =

وكان موسىٰ نائماً، فكره فتاه أن يوقظه، فلما استيقظ نسيَ أن يخبره، حتىٰ إذا جاوزا وطلب موسىٰ منه الغداء وكان في المكتل تذكَّر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان المضروب ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: تعباً وإعياءً.

فتذكَّر الفتىٰ أمر الحوت لما رأىٰ المكتل الذي فيه الغداء، إذ كان الحوت فيه، و﴿قَالَ﴾ لموسىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: نسيتُ أن أذكر أمر حياته. ولا شك أنَّ هذا النسيان شبيهٌ بنسيان فتىٰ يوسف أن يذكره عند ربِّه. وفي كِلَيْهما حكمةٌ بالغة، وهي إلىٰ أن رأىٰ الملك الرؤيا، وحضر المكانَ صاحبُ موسىٰ. والله أعلم.

وقد اعتذر عن نسيانه أمر الحوت بقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ونسبةُ الإنساء إلىٰ الشيطان من عُرف التخاطب، فيُنسَبُ إليه كلُّ شرٍّ وشبهه، دون العوامل الطبيعية والسُّنن الكونية المؤدية إليه.

وقوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً لـ﴿نَسِيتُ﴾، علىٰ أنه بدل اشتمال من ﴿ٱلْحُوتَ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ اعتراضٌ بينهما. ويحتمل أن يكون بدل اشتمال من ضمير ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾. ويحتمل الأمرين معاً علىٰ طريقة التنازع، ولذلك أخَّره.

= ابن نون، حتى إذا أتيا الصخرة التي عند مجمع البحرين، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكْتل حين أصابه بردُ الماء، فخرج منه، فسقط في البحر، فعلم يوشع بأمره، وأمسك الله جِرْية الماء عن الحوت، فصار عليه مثلُ الطاق، فصار الحوت سرباً، فلما استيقظ موسى نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما».

وبعد أن اعتذر عن تأخير البيان بالنسيان، شرح أمر الحوت، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾، وذلك أنه حَيِيَ وانقلب من المِكْتل إلىٰ الأرض، ولا زال يتقلَّب حتىٰ دخل البحر وتسرَّب فيه، كما قالوا.

ويجوز أن يكون معنىٰ قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أنهما نَسِيا تفقُّدَ أمره أو تركاه مَنْسياً. وعلىٰ هذا، فقوله: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ إنما يعني: فَقَدتُه في ذلك المكان، أي: تركتُه نسياناً، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾: بياناً من الله تعالىٰ، لا من الفتىٰ؛ لأنه لا يعلم عن الحوت إلا أنه فقده ونسيه في ذلك المكان. والله أعلم. وهذا أقربُ للعُرْف والمألوف.

فلمَّا سمع موسىٰ عليه السلام كلام الفتىٰ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: ذلك المكان هو الذي نَتطلَّبه؛ لأنَّ هذه الفقدة هي العلامة المضروبة له من الله سبحانه وتعالىٰ، ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: رَجَعا في طريقهما يَتَتَبَّعان الأثر تَتَبُّعاً، كي لا يضلَّا الطريق إلىٰ الصخرة، حتىٰ أتياها فوَجَدا عندها الخَضِر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي ـ والله أعلم ـ الوحي والنبوة، أو الإلهام الإيحائي، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ هو معجزة له أو كرامة يعلم به بعض مغيَّبات الأمور وخفاياها بطريقة إلهامية، والله أعلم.

وهذا التعبير يُشعِرُ بامتياز علمه وغرابته عن علوم الأنبياء، وقد جاء في الحديث في قصة موسىٰ والخضر: «حتىٰ أتيا الصخرة، فرأىٰ رجلاً مُسَجّىً عليه بثوب، فسلَّم عليه موسىٰ، فقال الخضر: أنَّىٰ بأرضك السلام؟ قال: أنا موسىٰ، قال: موسىٰ بني إسرائيل! قال: نعم، قال: إنَّك علىٰ علم من علم الله عَلَّمَكَه الله لا أعلمُه، وأنا علىٰ علم من علم الله علَّمنيه لا تَعلَمُه»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (١) ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ مما يُنْكَرُ ظاهِرُه، ولم تعلم شيئاً عن باطنه.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٢) ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى (٣) عَن شَىْءٍ﴾ أنكرتَه مني ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: حتىٰ أبتدِئَكَ ببيانه؛ سبباً وتأويلاً. وفيه إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما صدر عنه من نحو ذلك فله حكمة وغاية حميدة خفيَّة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ أي: عظيماً، مِن: أَمِرَ الأمرُ؛ إذا عَظُمَ.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ قال ابن عباس: لم يَنْسَ، ولكنها من معاريض الكلام(٤). أقول: وفي التعاريض مندوحة عن الكذب. ويجوز أن يكون عبَّر به عن البادرة التي سبقت الخاطر، وقد أهاجها هذا الأمر الغريب، فسبقت خاطره عمَّا تَعَاهَدا عليه من أن لا يسأله عن شيء حتىٰ يُحْدِثَ له منه ذِكراً.

---

(١) عُلِّمت، أي: عُلِّمتَه. فالمفعول الثاني محذوف. و﴿رُشْدًا﴾ أي: صواباً أهدى به إلى الخير. وفي قراءة: بضمِّ الراء والشين، والمعنى: هل تسمح لي أن أصحبَك. وفي هذا حسنُ التأدُّب والتلطُّف في طلب العلم.

(٢) تأمرني به، والأمر: التكليف بالشيء.

(٣) وفي قراءة: بفتح اللام وتشديد النون، أي: لا تُفاتِحني بالاستعلام عن سبب، فضلاً عن المناقشة والاعتراض.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ١٩٠).

ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: لا تُحمِّلني ما لا أطيق، وهو أن أسكت عن مثل هذا الذي يبعث ظاهِرُه علىٰ الإنكار. أو المعنىٰ: لا تُعسِّر عليَّ متابعتَك بهذا التَّحريج، ويَسِّرْها عليَّ بالإغضاء عن سَبْق ما يبدر من الاعتراض والإنكار.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ﴾ له موسىٰ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ لم يظهر عليها ما يُوجبُ القتل. وهذا معنىٰ قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. ثم بالغ في الإنكار، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: أنكَرُ من الأول؛ لأنَّ الأول انتهىٰ بسلامة الأنفس، بخلاف هذا.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾، وزِيدَ في هذه المرَّة كلمةُ ﴿لَّكَ﴾ للمبالغة في العتاب.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ معتذراً أيضاً: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ لأنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ أي: قد بلغت النهاية في قَبول عذري، ولا عليك بعد ذلك أن لا تُصاحبني إنْ سألتُك عن شيء.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا[1] فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، وقد استُعيرت الإرادةُ للقُرب والمُشارَفة، أي: قارَبَ أن يسقط فهَدَمَه وجدَّد بناءَه.

وإنما كرَّر كلمة ﴿أَهْلَ﴾، ولم يقل: (حتىٰ إذا أتيا قرية استطعما أهلها) أو (استطعماهم) للتنصيص عليهم؛ ليتجسَّم شخصهم في الأذهان، ويَقْوىٰ استحضارهم

---

(١) أي: يُنزِلوهُما عندهم ضيوفاً، ولو بدون طعام، وهذا منتهى البخل.

فيها ويتمكَّن بتكرار عنوانهم؛ لأنهم موضع النقد ومحطُّ الإنكار، فيتجلَّىٰ للسامع ما تلبَّسوا به من القصور، ويستشعر أن اعتراض موسىٰ بادي الظهور، ثم يأتي التأويل، فيزيل ذلك الخفاء. وهكذا متىٰ توفَّرت العناية بالاسم في الكلام يُؤْتىٰ بالظاهر منه موضع الضمير، كما جاء في «دلائل الإعجاز»، لأن الكناية لا تبلغ مبلغَ التصريح[1]. علىٰ حدٍّ وضع لفظ الجلالة موضع ضميره في كثيرٍ من آيات القرآن، وعلىٰ وتيرة قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فكرَّر كلمة ﴿ٱلْحَجَّ﴾ تربيةً للمهابة وتقريراً للحكم، وكرَّر هنا كلمة ﴿أَهْلَ﴾ تنميةً للمهانة وتمهيداً للنقد والإنكار.

وقد قال في «دلائل الإعجاز»: ما من كلام فيه أمر زائد إلا ويكون ذلك الزائد هو المقصود بالذات[2].

وهناك معنىٰ ثالث مُقْتَضٍ للتكرار، وهو: أنَّ إرجاع الضمير عليهم بقوله: (استطعماهم) دون التكرار لا يمنع من احتمال أن يكونوا من الظاعنين النازلين فيها مؤقَّتاً، ومثل هؤلاء لا يتوفّر لديهم الطعام، فلما أعاده مُظْهَراً دَفَعَ هذا الاحتمال؛ لأنَّ مثل هذا التَّجوُّز لا يتأتَّىٰ مع التكرار، كما هو معروف في أساليب اللغة وقواعد البلاغة، وحينئذ يتقرَّر أنهم أهلُ القرية الساكنون فيها، ومثلهم يتوفَّر لديهم الطعام عادةً، فيتحقَّق تقصيرهم في الإباء عن التضييف.

وجملة: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ صفة سببيَّة للقرية، والجمل المقرونة بالفاء معطوفة علىٰ جملة الشرط، وجواب ﴿إِذَآ﴾ قولُه: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾؛ لأن

---

(١) «دلائل الإعجاز» ص١٦٨.

(٢) المصدر السابق ص٢٨٠.

الإخبار به وما تضمَّنه من التحضيض هو المقصود، والإتيان وما عُطف عليه سببٌ له، وإنَّما حثَّه علىٰ أخْذِ الأجر ليدفع به الضرورة عنهما، ولكنه لم يقبل، و﴿ قَالَ ﴾ له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ[1] بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ حسبما اتّفقنا عليه في قولك: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾.

ومن مباحث اللفظ: أنه أضاف المصدر إلىٰ الظرف اتِّساعاً في قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي﴾، وذلك من خصائص اللغة.

ثم شرع يُحلِّل له سرَّ تلك الأشياء التي أنكر ظاهرَها، ويُبيِّن حكمها، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ أي: سأبيِّن لك الغايةَ من تلك الأفعال والحكمةَ فيها.

فذكر الأمر الأول وقال: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ فقراء ضعفاء لا يقدرون علىٰ مدافعة الظَّلَمة، وهم ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ لكسب معاشهم، ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ حفظاً لها، ﴿وَ﴾ ذلك لأنه ﴿كَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحةٍ ﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾، أما إذا كانت معيبةً فلا يُطمع فيها ولا يُرغب بها. فقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ هو من مُتمِّمات علَّة التعييب، وإنما أخَّره لِيُفْرِدَهُ بالبيان اعتناءً بشأنه، وإيذاناً بأنه هو الجزء المهم في الباعث علىٰ التعييب. وأما كلمة (وراء) فيحتمل أن تكون بمعناها الحقيقي، ويحتمل أن تكون مستعارةً للقوة والتعقيب، ومن القواعد الشرعية: يُدفَعُ الضرر العامُّ بالضرر الخاصِّ.

ثم ذكر الأمر الثاني فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافراً شديدَ المراس، ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أي: يشتدّ أذاه عليهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

---

(١) وقت فراق، والفراق: الانفصال وترك الصحبة، مصدر مضاف إلى فاعله في المعنى.

بمعاشرته لهما معاشرة الطغاة الكفار، أي: يشتد أذاه عليهما بخُلُقِه الذي هو الطغيان والكفر، ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ أي: عطفاً ورحمة بأبويه. وصيغة التفضيل ليست علىٰ بابها، ولكنها للمبالغة في الوصف. والغلام: ما طرَّ شارِبُه وغلم.

وفي هذا البيان إرشادٌ وإشارةٌ إلىٰ أنَّ الكفر لا يكون بالوراثة ولا بالغريزة، وإنما يكون بمفاسد التربية ومخالطة الكفار من الأهل والأجانب، فإنَّ أبَوَيْ هذا الغلام مؤمنان، وهو طاغٍ كافر، انطبع فيه ذلك بمُصَاحَبة الكفّار الطغاة، فهو مرتد؛ لأنَّ أبويه مؤمنان، والمرتدُّ يُقتَل.

ثم ذكر الأمر الثالث فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وذلك يكون بتجديد بنائه ليستقيم حتىٰ يَكبُرا، أما كيف بناه؛ بنفسه أم بوسائط؟ فالله أعلم.

ومن دواعي البلاغة في مُراعاة الأدب: إسنادُ الإرادتَيْن الأولىٰ والثانية إليه، وإسنادُ الثالثة إلىٰ الله تعالىٰ، مع أنَّ الكلَّ بأمر الله، كما قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، والظاهر أنه بإيحاءٍ نفسيّ ـ والله أعلم ـ وهو المُسمَّىٰ بالوحي الوجداني الذي يكون عند الأنبياء والصِّدِّيقين[1]، وهو معنىٰ قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورىٰ: ٥١].

---

(١) الوحي للأنبياء دون الصِّدِّيقين وما يكون للصدِّيقين هو إلهام وفراسة، ولا يقال له: وحي. ثم إن تعريف المؤلف للوحي بأنه إيحاءٌ نفسيٌّ أو وجدانيٌّ تَبِعَ فيه الشيخ محمد عبده الذي عرَّف الوحي بأنه: «عِرْفان يَجِدُه الشخص من نفسه»، في حين استقر تعريفه عند العلماء على أنه «إعلام الله تعالى أحدَ خلقه...»، فهو يجعل المعرفة ذاتيَّة، في حين يرى العلماء أن المعرفة خارجة عن ذات النبي ﷺ.

ثم أجمل الكلام بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[1] من هذه الأمور.

ومَغْزىٰ القصَّة: أن كثيراً مما لا يُرضَىٰ ظاهِرُه أو تُدرَكُ حقيقتُه؛ ينطوي علىٰ ألطافٍ خفيَّة، وحِكَمٍ إلهيَّة، وأسباب كونيَّة، بعيدةٍ عن فُهُومنا ومداركنا. ومن ذلك ما كان باعثاً علىٰ ذكر هذه القصة تحسيساً ومعذرة، مما جاء قبلها في سياق هذه السُّورة من دقائق الأحكام وعجائب الأحوال المُحَاطَة بخفايا الحِكَم والمصالح والأسباب، مثل: نوم أهل الكهف، وخَلْق إبليس، والصبر علىٰ عناد المشركين، وإغداق الرزق عليهم، وأمثال ذلك؛ لأن فيها من الحِكَم وأسرار الخليقة ما لا تُدركه الأفهام.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ

---

(١) مضمون خَرْق السفينة: أنَّ المال المعصوم يجوز أن يُحفَظَ لصاحبه بإتلاف بعضه، إذا كان في ذلك حفظٌ له أو لباقيه؛ لأنَّ الضرر الأكبر يُدفَعُ بالضرر الأصغر.

ومضمون قصة الغلام: جواز قتل الصائل حفظاً للمُصَال عليه المظلوم، ويجوز أن يصير مرتداً عن دين أبويه، والمرتد يُقتَل.

ومضمون إقامة الجدار: فِعلُ المعروف بلا أجرة مع الحاجة، ولا سيما مع ذُرِّيَّةِ قومٍ صالحين. وذلك من المثل العليا.

وكانت هذه الأهداف في هذه الحوادث معروفة عند الخَضِر، غير معروفة عند موسىٰ. فلما عرَّفه بها سلَّم له بذلك. وكذلك حِكَم الله الخفيَّة وسنن أعماله العلية لا يُدركها كلُّ أحد، أو لا تُدرَك مطلقاً، ولذلك قيل: لو اطَّلعتم علىٰ الغيب لاخترتُم الواقع. (المؤلف).

قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ
إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ
وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي
خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ
انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا
اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾.

ثم ذكر قصَّةَ ذي القرنين، قَرْناً لها بقصَّة أصحاب الكهف وقصَّة موسىٰ، وجَعَل ذلك تسليةً له ﷺ في أنَّ الله سبحانه يُمكِّن لعباده الصَّالحين المتمسِّكين بسُنن الكون وأسبابه ما لا يُمكِّن لغيرهم، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ والمراد بذي القرنين: غورش مَلِكُ الفُرْس، ولقب «ذو القرنين» كان يطلق علىٰ الملك ذي المملكتين، ويقال له في العصر الحاضر: إمبراطور. وأتىٰ بالعاطف للإيذان باتِّصاله بما قبله.

وإيرادُ البيان بصورةِ السؤال والجواب من أساليب القرآن، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية). وإن صحَّ ما جاء في سبب نزول السورة من أنَّ المشركين ـ بإيعاز من أهل الكتاب ـ سألوا النبيَّ ﷺ اختباراً له وامتحاناً لنبوَّته عن: أمر أصحاب الكهف، وأمر ذي القرنين[1]، يكون السؤال حينئذٍ حقيقياً[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٥٩٢-٥٩٣) عن ابن عباس: «بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة... سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل، فَرُوا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوَّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ ....».

(٢) وهو الصوابُ الذي لا ينبغي العدولُ عنه، فقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ صريحٌ في وقوع سؤال، وحَمْلُه على إيراد البيان بصورة سؤال وجواب تكلُّف.

ثم مهَّد للجواب بقوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾؛ إيذاناً بالاهتمام بالتفصيل الآتي، حيث يقول: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له مُكْنةً فيها واسعة الأطراف، وأقدَرْناه عليها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ يُوصِلُه إليه؛ من علم أو قدرة أو آلة، ولا سيما عُدَد الحرب ووسائل النقل، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ يُوصِلُه إلىٰ بلوغ الأماكن القاصية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منطقة الغروب الدائم، والله أعلم، ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وهي بَياضٌ مَشُوب بسَوادٍ، أو سوادٌ مَشُوبٌ بحمرة. والمراد بها هنا ـ والله أعلم ـ: الضوء الشفقي الذي يحدث في منطقة الغروب الدائم، وهو يشبه الضوء الذي يعقب غروب الشمس أو يسبق طلوعها، ويبقىٰ هذا الضوء كذلك في هذه المنطقة طيلة الأيام التي تغيب فيها الشمس، وتكون تحت الأفق غير بعيدة عنه، وهو سوادٌ خفيف مشوبٌ ببياض، وقد يُشابُ بحُمرة أحياناً حسب بُعْد الشمس عن الأفق.

فالسنن الكونيَّة التي لا تُحصيها البحار العديدة مداداً، والتي نَقَلت عرشَ بلقيس بطَرْفة عين، وجعلت عيسىٰ من دون أب[1]، نقلت ذا القرنين إلىٰ منطقة الظهور الدائم، الذي قال الله في حقِّه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَ﴾ لما بلغ تلك المنطقة ﴿وَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ هَمَجاً، فأمره سبحانه وتعالىٰ بهديهم وإرشادهم، وأن يستعمل القوَّة مع المعارضين المقاومين. وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾، و﴿إِمَّآ﴾ هنا للتنويع، وكلٌّ

---

(١) بل نَقْلُ عَرْش بلقيس بطَرْفة عين، وخَلْقُ عيسى من دون أب: خرقٌ للسنن الكونيّة، ويدخل الأول في باب الكرامة، والثاني في باب المعجزة.

نوع يُصْرَف لـمستحقِّيه كما بيَّنه فيما يلي ذو القرنين للقوم، علىٰ نهج القرآن بمثل هذا الاكتفاء.

وهذا القول يجوز أن يكون بالوحي أو بالإلهام، وهو عِرفانٌ مع إيقانٍ دون إدراكٍ لوجهِ ذلك وحقيقةِ شأنه، وهو نوع من الوحي. وتحرير ذلك: إدراكه لأمر الله له أن يدعوَهم إلىٰ الرَّشاد بالحُسْنىٰ، فإن لم تَنْجَح مع بعضهم وقاوم، قَمَعَ بالقوَّة شرَّ المعارضين المقاومين في نشر الدعوة والإصلاح.

ويجوز أن يكون ترخيصاً له في أيِّ الأمرين رأىٰ أنه صالحٌ لقمع المعارضين وآتٍ بهم إلىٰ الرشاد. وإنما بدأ بقوله: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾؛ لأنَّ أكثرهم معارضون لا تفيد معهم إلا القوة لتمكُّن الهمجيَّة منهم.

ولما أمره سبحانه وتعالىٰ بذلك أعلنه ذو القرنين للقوم و﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسَه ولم يقبل الدعوةَ وعارضها وضلَّل غيره عنها، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة، ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ فظيعاً، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في الآخرة، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: وسنستعمل معه اللُّطفَ وسَهْلَ المعاملة والإحسان. واستعارة القول للفعل من خصائص اللغة ومن أساليب القرآن.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أن تلك التعاليم الإلهيَّة التي سيُعلِّمهم إيَّاها ويأمرهم بها مَبْنية علىٰ اليُسْر، أو هي سائغة في النفوس ترتاح لها ولا تتكلَّف منها، كما هو شأن سائر الشرائع الإلهية، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والله أعلم، أي: لم نأمره إلا بشريعة تَسَعُها قدرته ولا يضيق بها ذرعاً. والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: منطقة الطلوع الدائم، والذي يظهر أنه تجوَّل في تلك المنطقة نفسها، وانتقل من بلاد إلىٰ أخرىٰ، فصادف الظهور الدائم للشمس؛ لأنَّ المنطقة ودرجة العرض التي يكون فيها غروب دائم يكون فيها شروق دائم بالتناوب في السنة الواحدة. وقد عبَّر عنه بقوله: ﴿وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ﴾ أي: لم تكن الشمس مستورةً بالأفق كما كانت مستورة في منطقة الغروب الدائم، ولكنها كانت هنا علىٰ العكس ظاهرةً دائماً لا تَسْتَتِرُ عنهم.

ويريد بلفظ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مجرَّد الاستمرار والدوام، والله أعلم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتعظيم والتفخيم، علىٰ نهج القرآن في الفصل بهذه اللفظة، بمعنىٰ: أَمْرُ ذي القرنين كذلك، أي: كما وصفنا.

ويجوز أن تكون صفة للقوم، أشار بها إلىٰ أنهم كانوا هَـمَجاً مثل أولئك الذين وَجَدهم قَبْلُ في منطقة الغروب الدائم، وأنه أُمِرَ أن يُعامِلَهم مثلهم، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء.

ثم نوَّه بشأنه، فقال: ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾﴾ يُنوِّه بشأن ما لديه من الأسباب المادية والمعنوية والعُدَد والعَدَد، ويمتنُّ عليه بما أعطاه من ذلك وما قدَّره عليه؛ مما تابع بيانه بقوله: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ أي: بين الجبلين، وهي ثغرة في سلسلةٍ من الجبال وقع السَّدُّ بينهما، فتوسّع في المعنىٰ وسمَّىٰ هذين الطرفين للجبلين سدَّين، مِن ذِكرِ الشيء وإرادة مجاوِره، وذلك من خصائص اللغة، ويُسمَّىٰ بالمجاز المرسل، فلما بلغ هذين الموضعين ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: أمام تَيْنِكَ السلسلتَيْن المنفصلتَيْن بهذه الثغرة ﴿قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾﴾ لقلَّة فطنتهم وبساطتهم.

وكان من وراء السِّلسلتَيْن قومٌ مثلهم، ولكنهم طغاةٌ يعتدون عليهم، كما يُفهَمُ ذلك مما حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا اللقب يُطلق في العربية علىٰ الأقوام البالغة الحدَّ في الكثرة والفوضىٰ، وعلىٰ غَوْغَاء الناس وهَمَجهم، وعلىٰ السّفلة المتسرِّعين إلىٰ الشر، لا علىٰ جيل أو صِنفٍ معيَّن من البشر[1]، والله أعلم، فكلُّ قوم بلغوا منتهىٰ الأمر في الفوضىٰ والفساد، أو كلُّ زمرة أو أُمة أو كثرة مائجة سائرة بنفسها أو علىٰ غير هُدًىٰ من أمرها، ولا سيما إذا كانوا بغير رئيس أو نظام؛ يُقالُ لهم: يأجوج ومأجوج. بل يقال كذلك لكلِّ زمرة هذا شأنها، فيقال للعامة إذا أحدثت ضوضاء وفوضىٰ وهمجية: يأجوج ومأجوج[2]. وقد

---

(١) بل هم صنف معيَّن من الناس، فقد ثبت في الأحاديث المتواترة: أنهم سيخرجون من السَّدِّ، وأنَّ خروجَهم يكون بعد خروج الدجَّال، وقتل عيسى إيَّاه.

(٢) يأجوج ومأجوج قبيلتان من ذرية آدم تسميان بهذا الاسم، وهم كغيرهم من بنى آدم يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون، وخروجهم في آخر الزمان ثابت بالأحاديث الصحيحة المتواترة.

ومما ثبت في أمر يأجوج ومأجوج ما رواه البخاري (٣٣٤٨) ومسلم (٢٢٢): أن الله يطلب من آدم أن يبعث بعث النار، وفيه: «فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل».

وروى البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) أيضاً: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذا».

وروى مسلم (٢٩٣٧) حديثَ خروجهم في آخر الزمان، وأن عيسى يدعو عليهم، فيرسل الله عليهم النغف، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم. ثم يرسل الطير لتأكل جثثهم.

وجاءت أحاديثُ موقوفةٌ عن أشكالهم وإفسادهم عند الخروج، لا يعتمد على كثير منها.

والخلاصة: أنهم من بني آدم، وكانوا موجودين أيام ذي القرنين، ويخرجون على البلاد المجاورة لهم في ناحية المشرق فيعيثون فيها فساداً، وسيخرجون آخر الزمان، وهذا القدرُ كافٍ في معرفتهم، وما وراء ذلك لا داعي إليه، ولا يضرُّ الجهل به. =

حقَّقتُ ذلك في سورة الأنبياء[١]، فانظر إليه.

وبعد أن تشكَّوا من أولئك المعتدين الذين يأتون من ثَغْرة الجبل، قالوا: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ يظهر ـ والله أعلم ـ أنهم طلبوا منه أن يكونوا تحت حمايته، أو يلتحقوا بمملكته ورعيَّته ويدفعوا له الضريبة. ويجوز أن يُراد بالخرج: الجعل، وعبَّر عنه به مبالغةً فيه.

وعلىٰ كلٍّ، فإنه امتنع وأبىٰ، ويمكن أن يكون ذلك لبُعدهم عن مركز حُكْمِه، ووعدهم أن يساعدهم في دفع هذا العدو عنهم، و﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ من كثرة المال واليَسَار وسَعَة الملك ﴿خَيْرٌ﴾ من ضريبتكم وجَعْلكم، ولكني أساعدكم لوجه الله، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ من موادَّ وفَعَلةٍ وصنَّاع ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾، والردمُ لغةً: هو المتراكم من أنقاض الحائط المنهدم. والثوب المردوم: هو الذي فيه رقاع فوق رقاع. فأراد به هنا: الحاجز الحصين المنيع المكوَّن من قطع الحديد مُكدَّسة، كما قال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾[٢] وهي القِطَعُ منه، فنضدها علىٰ بعضها بالفَعَلة والصُّنَّاع في تلك الثغرة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: جانبَي الجبلَيْن ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾، وهذا تصويرٌ لجهد العمال واستعمال الآلات في مجموع هذا العمل وصهر قطع الحديد.

= أما محاولةُ تأويل ذلك بأن لفظ «يأجوج ومأجوج» المقصود به كلُّ قوم لا نظام لهم بحيث يعيشون حياة الهمجية والفوضى، فهذا تأويل غير سائغ، بل هو في الحقيقة تحريفٌ للكَلِم عن مواضعه، وليس من التأويل في شيء.

ومَنْ أنكر خروج يأجوج ومأجوج، وأنكر الأحاديث الواردة في شأنهم؛ فإنه يُعرَّفُ بخطأ مسلكه هذا وخطورته، ويُبيَّن له الحق والصواب.

(١) في الآية ٩٦ منها.

(٢) يلوح من فحوىٰ الكلام ـ والله أعلم ـ أنَّ لهم علماً ولو بسيطاً باستخراج معدن الحديد وتكتيله، والإنسان مُستعدّ بطبعه لاستنباط مواهب الأرض ولو ببساطة. (المؤلف).

وهذا التصوير مُجمَلٌ علىٰ طريقة إيجاز القرآن في البيان، فلا يستلزم أنَّ ذلك كان جملة واحدة، فيحتمل أنه كان تدريجياً، كلما يفرغ من قطعة أو عدَّة قطع تُصهَرُ ويُفْرَغُ عليها القطر. ويُحتمل أنَّ القطع نضدت كلها أولاً، ثم صُهرت جملةً وأُفرغ عليها القِطْرُ، علىٰ ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: نحاساً مُذاباً. ولكن غالب الظَّنِّ أنه تصويرٌ لمجموع العمل، علىٰ طريقة إيجاز القرآن وأساليبه وتساهله في التعابير. والله أعلم. ويظهر أنَّ معدن الحديد عندهم، ويستفيدون منه علىٰ قَدْرِ عِلمِهم، وليس هذا بمحال، فقد يكون في البسطاء صُنَّاع.

ثم نوَّه بحصانته ومناعته بقوله: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ ويتسلَّقوا عليه ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾، والنقب يحتاج إلىٰ مضاعفة القوة والجهد، فزاد التاء للدلالة علىٰ ذلك.

وهذا السَّدُّ ـ والله أعلم ـ قد اندثر بطول العهد، وأصبح قطعة من الجبل، ولو اهتُدِيَ إليه وكُشِفَ عنه كما يكشف عن الآثار لظهر[1].

ويمكن أن نفهم من كلمة «الرَّدْم» أنَّ ذا القرنين ألقىٰ عليه التراب بعد أن فرغ من صُنعه، كما كانوا يصنعون بالأسوار القديمة، كسُور نينوىٰ، فإنه مقام من أحجار منظمة ضخمة، منضّدة بعضها فوق بعض، لا تقلُّ الواحدة عن المتر المكعب، وبعد أن تمَّ السُّور سُجِّي بالتراب، ويحتاج استخراج هذه الأحجار الآن إلىٰ عمل وكشف عنه،

---

(١) هذا ليس بلازم، فكم من الآثار الموجودة لم يكشف عنها بعد، وما زال الناس يكشفون عن آثار جديدة كل مدة، بعضها مطمور تحت التراب، وبعضها في جبال ساحقة أو وديان بعيدة أو أوغال موحشة، فعدم الوقوف على الشيء لا يعني عدمَ وجوده، كما يقول العلماء: عدم الوجدان ليس دليلاً على عدم الوجود.

وذلك التراب لا يخلُّ بمناعة السَّدِّ، وعَدَم استطاعتهم لظهوره؛ لأنهم كانوا يأتون من هذا الثغر الذي انسدَّ فتواصلت الجبال، فلو أمكنهم الظهور عليه لأمكنهم الظهور علىٰ الجبال نفسها، ولكنهم لا يتمكنون ـ والله أعلم ـ أو يشقُّ عليهم ذلك إلىٰ حدِّ الامتناع، أو إلىٰ حدِّ القلَّة التي لا تزعج، وقد تمدَّنَ هؤلاء القوم بطول الزمن وأصبحوا مسالمين[1]، والله أعلم.

ولما رأىٰ ذو القرنَيْن أنه قد توفَّق إلىٰ عمل هذا الرَّدم ضدَّ هؤلاء الهمج، وأنقذ

---

(١) سدُّ ذي القرنين لا يزال موجوداً إلى الآن، ولن يزال كذلك حتى يأتي وعدُ الله بخروج يأجوج ومأجوج منه بعد أن يجعله الله دكاءَ بعد خروج الدجّال ونزول عيسى عليه السلام.
وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فُتِحَ منه مثل حَلْقة على قدر تحليق اجتماع السبابة والإبهام، فقال: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).
وأما مكان وجوده فليس معروفاً الآن، وإنما يذكر بعض الناس أنه وراء الصين، ويذكر بعضهم أنه في جورجيا في جبال القوقاز قرب أذربيجان وأرمينية، وقيل: إنه في أواخر شمال الأرض، وقيل: غير ذلك، وقد حاول بعض الناس قديماً وحديثاً البحث عن مكان هذا السَّدِّ بطرق ذكرها علماء التفسير في تفاسيرهم، ولكن لا يصح الاعتماد على مثل تلك الأخبار في ذلك.
ونحن لا يعنينا أن نعرف مكان السدّ، بل الواجب علينا الإيمان بوجوده، وأنه على الأرض، وأن هؤلاء القوم يعيشون وراءه، ولحكمةٍ يعلمها الله عز وجل أخفى ذلك المكان عن أعين العباد، فإذا جاء وعد الله اندكّ السد، وخرج أولئك القوم.
ولا يمكن الجزم بتحديد مكان السد الذي بناه ذو القرنين لعدم ورود هذه التفصيلات في المصادر اليقينية. وكلام العلماء في تحديد شخصية ذي القرنين ومكان السد من باب الظن والاحتمال والترجيح، وليس من باب الجزم واليقين.
وينظر ما علقتُه مُطوّلاً في شرحي لكتاب «العقيدة الإسلامية» للعلامة محمد المكي بن عزوز رحمه الله تعالى ص٣١٣-٣١٩.

منهم أولئك الضعفاء، شَكَرَ الله تعالىٰ وتنصَّل من قوَّته إلىٰ قوَّة الله، و﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ عليَّ وعليكم أيها القوم، حيثُ أقدَرَنا علىٰ هذا العمل العظيم. ثم انتهز الفرصة المناسبة للتذكير بالقيامة وما يتبعها من الحساب، وأنه إذا جاء الوعد بيوم القيامة، جَعَل الله هذا الردم وسائر جهات الأرض والجبال دكّاء، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بيوم القيامة ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: جَعَل هذا الرَّدْم علىٰ قوَّته ومع جباله ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: أرضاً مستوية[1]، كما قال تعالىٰ في سورة الحاقة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بيوم القيامة ﴿حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ أي: واقعاً لا مَحَالة.

وهنا تمَّت قصَّة ذي القرنين[2].

---

(١) بل الوعد هنا: هو الوقت الذي قدَّر الله فيه خروج يأجوج ومأجوج، فإذا جاء هذا الوقت اندكَّ هذا السَّدُّ، والأرضُ ـ بما فيها الجبال المحيطة به ـ ما زالت على حالها لم تندك، كما يُفهَمُ من الأحاديث الواردة في ذلك.

(٢) ويرىٰ أبو الكلام آزاد الهندي وزير هندستان [المتوفى سنة ١٣٧٧ هـ]: أنَّ ذا القرنين هو غُورش مَلِكُ الفرس المتوفىٰ سنة ٥٢٩ قبل الميلاد، وكانت بلاد إيران منقسمة إلىٰ قسمين: جنوبي يُسمَّىٰ فارس، وشمالي يُسمَّىٰ مادا، ثم ظهرت شخصية غورش في ظروف غريبة، لفتت أنظار ذلك العالم، فقبله أمراء فارس ملكاً عليهم، ثم أمراء مادا، ولقب بذي القرنين، رمزاً للجمع بين المملكتين، ثم استولىٰ علىٰ جميع الممالك الآسيوية من البحر الأسود غرباً إلىٰ صحراء بلخ شرقاً، وكان وصوله إليهما من مملكته بمثابة وصوله إلىٰ نهاية الغرب ونهاية الشرق، واستولىٰ في ذلك علىٰ بلاد بابل وآشور، وأطلق اليهود من أسرهم، فسمَّوه المُرسَلَ من عند ربِّ إسرائيل صفي الله المنقذ ذا القرنين.

ثم يحقِّق أبو الكلام أن المراد بما بين السدَّين: مضيق داريال في جبال قفقاس المتسلسلة والموصلة بين البحر الأسود وبحر الخزر، ويوجد الآن جدار حديدي يسدّ هذا المضيق الذي هو عبارة عن جدارٍ بين جبلين شاهقين أقيم بينهما هذا السد الحديدي، وقفل الطريق الذي كان مفتوحاً بينهما، وقد كتبت عليه باللغة الأرمينية ما معناه: مضيق غورش، ويُسمِّيه أهل القوقاز بالباب الحديدي.=

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

ولما انتهت بالتذكير بيوم القيامة، واصل سبحانه وتعالىٰ البحث عنه، وجعل ذلك تمهيداً لوعيد المشركين ووعد المؤمنين، تبشيراً وإنذاراً. فعاد إلىٰ أصل السياق في هذه السورة ليختمها بما بدأها به من أمر البعث والحساب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وأجرىٰ الكلام علىٰ عموم البشر، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ وهذا بيانٌ لحالة عموم الناس عندما يقومون من قبورهم[1] ويُدعَوْن للحساب بما فيهم المشركون المنكرون.

= وقد تكلَّم أبو الكلام في المجلد الأول من مجلة ثقافة الهند في العدد الأول والثاني والثالث من سنة ١٩٥٠ م بما يقارب المئة صحيفة عن هذا البحث، يثبت به مُدَّعاه هذا ويحققه، تحت عنوان: شخصية ذي القرنين.

أقول: وعلىٰ هذا فلا بدَّ أن تكون منطقة ما بين السدّين غير منطقة المشرق والمغرب. (المؤلف).

(١) المراد بـ«يومئذ»: يوم فتح السدّ وخروج يأجوج ومأجوج وقرب الساعة. ومعنى الآية ـ مستفاداً من تفسيري «المعين» ـ: «وجعلنا بعضَ الناس من يأجوج ومأجوج وغيرهما عند انفتاح السدّ وقرب القيامة، يختلط ببعض في أحداث متكررة متجددة، كحركة أمواج البحر التي يختلط فيها الماء بعضه ببعض، ونُفخ في القرن النفخة الثانية للبعث....».

وعبَّر هنا بالـمَوَجان والجَمْع، وفي سورة الزُّمر بالقيام من القبور[1]، والأمر واحد مُنوَّع الأحوال والتعابير، علىٰ نهج القرآن، وأخَّر الجمع؛ لأنه يتضمَّن الحساب، أو لأن القرآن لا يتقيد بترتيب الوقائع، فيُقدِّم ويُؤخِّر لمناسبة السياق. هذا ما يظهر لي، ولا يعلم هذا الغيب إلا الله.

ثم تابع المعنىٰ بقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، وهذا المصدر المؤكّد جيء به لزيادة التهويل.

ثم وَصَف الكافرين بأهمِّ الصفات التي استَوْجَبت ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ يعني: عن هذا القرآن وما جاء به، ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ له ﴿سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾؛ لأنه هادمٌ لما هم منطبعون عليه من الكفر والضلال. ومن أخلاق البشر أن من انطبع منهم علىٰ شيء لا يسمع ما يخالفه ولا يراه أهلاً للتفكُّر به والتدبُّر له.

ثم أنَّبهم وتوعَّدهم وعيدَ المتسلِّط لمن لم يكترث بالسلطان وإجراءاته، فقال: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾، وهم آمنون من نَيْل الجزاء. كلا، ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ والنُّزل: ما يُعَجَّل للضيف الكريم. ففيه تهكُّمٌ وإيماءٌ إلىٰ أنَّ وراءها من العذاب ما تستخفُّ دونه وتستهان. أعاذنا الله.

ثم لوَّن الخطاب وبناه علىٰ قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وعلىٰ إنكارهم كلهم أو بعضهم للحشر والحساب، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث والحساب، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لذلك؛ ولأنَّ العمل الصالح

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوس هؤلاء قد أوغَلَ فيها الفساد من جرَّاء الشِّرك، فلا يُؤثِّر عليها لو فُرض وجودُه.

وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الأعمال الصالحة إذا لم تقترن بعقيدة صحيحة ونيَّة صالحة؛ لم يكن لها أثر فعَّال في النفوس؛ لأنَّ القلب إذا فَسَدَ فَسَدَت الأعمال، ولا سيما إذا فَسَدَ بالشرك والإلحاد، ولأنهم في عملهم كمَنْ يقصد أمراً ويسعىٰ إليه بغير الطريق الموصل إليه.

أو لأنَّ الله سبحانه لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرَّة من شرك أو رياء؛ لذلك قال تعالىٰ: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ يكني بذلك عن حطَّة شأنهم ونَيْل العذاب منهم[1].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الشقاء إنما جاءهم بسُوء صنيعهم وإعراضهم عمَّا جاءهم من الحق، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾، وقال في أول سورة الزُّمَر: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٢-٣].

ثم قابل حالهم بحال المؤمنين، علىٰ سُنَّة القرآن في الجَمْع بين الوعد والوعيد ليزداد كلٌّ منهما بالآخر ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: لا يطلبون عنها تحوُّلاً، لما لهم فيها من رَغَد العيش وكمال النعيم.

---

(١) والمعنى: لم يبقَ في صحائفهم إلا السَّيِّئات، فلا نقيم لهم يوم القيامة ميزاناً نَزِنُ به حسناتِهم، إذ يأتون يوم القيامة ليس لهم حسنات تُوزن في كفّة الحسنات.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

ولما كانت هذه السُّورة محتويةً علىٰ بعض عظائم الله وعجائب قدرته التي كانت القصص لأجلها، ختمها بهذه الآية؛ تبياناً لسَعَة عظائمه وعجائب كونياته، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا[1] لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ أي: سُننه الكونية وعَجَائبه وبديع صُنعِه، أو كلمات عِلمِه في ذلك، أي: لو جُعِلَ البحرُ مداداً للبيان عن هذه الكلمات التكوينيَّة، ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ يُصوِّر بهذا التمثيل كَثْرَةَ عجائب الله سبحانه في هذا الكون، وسُننه العظيمة فيه[2].

---

(١) أي: حِبراً، وسمِّي المداد مداداً؛ لإمداده الكاتب. وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء.

(٢) كلماتُ الله تعالى تدلُّ على علمه المُحيط بكلِّ شيء. ومعنى الآية ـ كما قال ابنُ كثير في «تفسيره» (٥: ٢٠٤) ـ: «يقول تعالى: قل يا محمَّد: لو كانَ ماءُ البحر مِداداً للقلم الذي يُكتَبُ به كلماتُ الله وحكمُه وآياتُه الدالة عليه، لنَفِدَ البحرُ قبل أن يَفرُغ من كتابة ذلك، ولو جئنا بمثله، أي: بمثل البحر آخرَ ثم آخرَ وهلمَّ جرّا، بحور تمدُّه ويُكتَب بها، لَـمَا نَفِدَت كلماتُ الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال الربيع بن أنس: إن مثلَ عِلم العباد كلهم في عِلم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾، يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجرُ كلُّه أقلام؛ لانكسرت الأقلام، وفنيَ ماء البحر، وبقيت كلماتُ الله قائمةً لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يَقدُر قَـدْرَه، ولا يُثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني نفسه، إنّ ربنا كما يقول وفوق ما نقول».

ثم توسَّع المقياس، فقال: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: بل لو ضاعفنا المِدادَ بأمثال هذا البحر لَـنَفِدَ المِدادُ كلُّه ولم تَنـفَدْ كلمات الله، كما قال تعالىٰ في سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

فالآيةُ تمثيلٌ لكثرة عظائم الله العجيبة في هذا الكون وسُننه الغريبة التي يعجز البشر عن إدراكها وإحصائها، فمـا جاء في هذه السورة من نَـوْمة أصحاب الكهف، وشأن صاحب موسىٰ، وأمر ذي القرنين، فإنما هو قطرة من ذلك البحر الزاخر.

وبعد هذا البيان عن عَظَمة الله البالغة، أمر رسوله ﷺ أن يدعو إلىٰ التوحيد في عبادة الله، لاختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية، وأن يدعو كذلك إلىٰ صالح الأعمال؛ لأنها هي الـمُوصِلة إلىٰ نعيم ذي الجلال، وقَرَنَ البيان عن اختصاصه بالمعبودية عقلاً بالبيان عنه نقلاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وابتدأ الكلام بتحديد النبوَّة، فألمع إلىٰ أنها لا تَتَجاوز حدود البشريَّة، ولكنها تكون في الكُمَّل من البشر، فيكون بينهم بحكم الكمال وبين طبيعة الـمَلَك ـ والله أعلم ـ مجاورة واتِّصال[1]، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وإنما أمتاز عنكم بهذه الرسالة التي أُرسلت بها إليكم، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فيها ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أحسنَ لقاءٍ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ يرتضيه سبحانه وتعالىٰ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرَّة من

---

(١) يُحاول المؤلف رحمه الله أن يُجري النبوة على قانون أو سنة كونية، وذلك بأن يكون ارتقاء الواحد من البشر إلى درجة الكمال سبباً في اتصاله بالملائكة ونَيْله رتبة النبوة. وليس كذلك، فكم حاول أفراد من الناس تحصيل ذلك بمثل هذه الطريقة فما أفلحوا، لأنه غاب عنهم أنَّ النبوَّةَ مَحْضُ اصطفاء واجتباء من الله تعالى، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

شرك أو رياء، فهذا الإخلاص في التوحيد والتنزيه والعمل الصَّالح الصَّحيح هو الذي يُوصل إلىٰ الخلاص والسلامة الأبديَّة والسعادة السرمديَّة، بفضل الله العظيم وإحسانه الكريم.

اللهمَّ إني أُشهِدُك وأُشهِدُ حَمَلَةَ عرشِك وملائكَتَك وجميعَ خلقك بأنَّك أنتَ اللهُ لا إله إلا أنت وَحْدَك لا شريك لك، وأنَّ محمداً عبدك ورسولك، وأعوذ بك من أن أُشركَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك ممَّا لا أعلم.

❊ ❊ ❊



مكيَّة، وهي ثمانٌ وتسعون آية

جاء فيها ذكر شيءٍ من قصص الرسل، وما أكرمهم الله به من الكرامات، للعظة والتذكير بقدرة الله العليَّة، تتميماً لـما ذكر من العجائب في سورة الكهف، وتقريراً لما وَرَد في ختامها من أنَّ كلماتِ الله وعجائِبَه في هذا الكون لا نفاد لها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ وأصحُّ الأقوال في هذه الحروف التي تُبتَدأُ بها بعض السور: أنها لتنبيه الفكر إلىٰ ما يأتي بعدها للعناية به. وبنسبة المبالغة في هذا التنبيه تكون الزيادة في عدد الحروف ـ والله أعلم ـ فتزداد كلَّما زادت أهميةُ الموضوع والعناية به. ومنه هنا قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾، وهو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الذي يُتلىٰ عليك.

ثم فصَّل ذلك فـقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾، وقد قالوا في سبب الخفاء: إنه ضَعْف الهرم. وقيل: بل راعىٰ في ذلك حُسْنَ الأدب، فمُدح عليه.

ثم حكىٰ سبحانه ذلك النداء الخفيَّ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ يكنِّي عن نهاية الضعف والكِبَر. وكذلك قوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فشبَّه الشيب في البياض والإنارة بشواظ النار، وانتشاره في الشعر باشتعال النار. وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ توسُّلٌ بما سَلَف له من الاستجابات، مضافاً إلىٰ ما ذكر من صفات الاستعطاف، أي: إنك عوَّدتَني أن تستجيب دعائي كلَّما دعوتُك فأنا طامعٌ في قبول هذه الدعوة واستجابتها كما عوَّدتَني.

وبعد هذا الاستعطاف والتوسُّل شَرَعَ في الدعاء، مُقَدِّماً عليه ما دَعَاه إلىٰ ذلك الطلب، فقال: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ يعني: أولياءَه الموجودين من بني عمِّه، أي: خفتُ فِعلَهم. ويظهر أنه لم يكن يعتمد عليهم في إقامة الخلافة علىٰ بني إسرائيل، فطلب من الله سبحانه ولياً صالحاً غير هؤلاء الموجودين، يَرِثُ عنه الخلافة في آل يعقوب. ثم أضاف إلىٰ ذلك الخوف قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي: لا تَلِدُ من شبابها، فلم يكن لي وليٌّ من صُلبي، ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ وأنت واسع القدرة، ﴿وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: الـمُلكَ والنبوة، ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ أي: مَرْضياً قولاً وفعلاً. فـ«فعيل» هنا بمعنىٰ: مفعول، مثل: جريح بمعنىٰ: مجروح.

وقد اختلفوا في الوليِّ، فالأكثرون علىٰ أنه طلب به الولد، والبعض علىٰ أنه طلب به ولياً من بني عمِّه غير هؤلاء الموجودين. وهذا أكثر ملائمةً للسياق. وقال آخرون: بل طلب به مَنْ يقوم مقامَه من آل يعقوب غير هؤلاء الموجودين، ولداً منه كان أو من غيره.

وقد قَرَنَ سبحانه الدعاءَ بالإجابة، فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ أي: شريكاً في هذا الاسم، بمعنىٰ أنه لم يُسَمَّ أحدٌ قبله بهذا الاسم، وهذا مزيد شرف وتفخيم. وقيل: بل المعنىٰ: أنه لم نجعل له شبيهاً في الفضل والكمال، يبالغ في وصفه بذلك. وقال ابن عباس: لم نجعل له شبيهاً في الولادة بين شيخ وعجوز[1]، فهي معجزة له.

ولما سمع بهذه البشارة، عَرَضت له وَهْلة الهواجس البشريَّة التي تعرض للإنسان عند شدّة الحرص علىٰ أمر ظهرت فيه تباشير الطمع فيه، وهي تُصوِّر العوائق والموانع التي تكون حائلاً دونه في العادة، و﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ أي: جساوةً وقحولاً. وقيل: بل جاء هذا السؤال علىٰ وجه التعظيم لقدرته تعالىٰ، وعلىٰ وجه التعجُّب والسرور. وقد ذكروا وجهاً ثالثاً، وهو: أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ليس نصاً في كَوْن ذلك الغلام ولداً له، بل يجوز أن يكون من أحد أقربائه كما طلب، فيحتمل أنَّ زكريا عليه السلام أراد الاستفسار عن ذلك بطريقة أدبية من الله سبحانه وتعالىٰ، فذكر أسباب تعذُّر حصول الولد في العادة، حتىٰ إن تلك البشارة ـ إن كانت بالولد ـ فالله سبحانه وتعالىٰ يزيل الإبهام ويجعل الكلام صريحاً.

فلما ذكر ذلك صرَّح سبحانه بكون ذلك الولد له و﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾[2] أي: قال الله سبحانه أو الـمَلَك: الأمر كذلك علىٰ ما أخبرتك. ثم علَّل ذلك تعليلاً إقناعياً بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، كيف لا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾؟!

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٦: ٦٥).

(٢) لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في مثل هذا الكلام يأتي في عُرف اللغة لمجرّد تثبيت الخبر دون نظرٍ للتشبيه. (المؤلف).

وفي الكلام نسبة ما للأصل إلىٰ الفرع؛ لأن المرادَ ابتداءُ خلق البشر من غير سَبْق أسباب عادية، وهذه النسبة من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة).

ولـما هدأت هواجسُه طلب منه تعالىٰ أن يجعل له علامة علىٰ ابتداء حصول الولد، و﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ أي: علامةً علىٰ حصوله، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ أي: من دون مرض وعلَّة في اللسان عادية، وقيل: بل بحَصْرٍ مؤقَّت يعتريه ويزول.

ثم ذكر سبحانه وقوع تلك العلامة، وقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: أشار ولم يتكلم: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ أي: طرفي النهار. ولعلَّه كان مأموراً أن يُسبِّح شكراً لله، ويأمر قومه بذلك.

ثم طوىٰ الكلام عن الحَمْل والولادة والنشأة، علىٰ نهج القرآن في الإيجاز وإتباع المعالم البارزة المطلوبة في القصة، فسارع إلىٰ الإنباء بإنجاز الوعد، وأنه كان ولداً نبيلاً، فقال: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ أي: خُذِ التوراة بجِدّ وعزم، بمعنىٰ: اعمل به علىٰ هذه الصفة.

ثم نوَّه سبحانه بشأنه، ومزج ذلك بالتمنُّن عليه، فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ أي: الحكمةَ وفَهْمَ التوراة، وقيل: النبوة. ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون المرادُ بالحكم: الاستعدادَ لإدراك حقائق الأمور والحكمَ عليها حكماً صحيحاً في حالة الصَّبوة، أو من مبدأ تمييزه للأمور ظهر استعداده لحكم أمته، كما أراده أبوه. والله أعلم.

ثم تابع البيان عنه بقوله: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: وآتيناه حناناً من لَدُنَّا. والحنان: العطفُ والرحمة. ويحتمل أن يكون المراد: جعلنا في قلبه رحمةً وعطفاً علىٰ أمته، أو يكون

المراد: رحمةً من الله عليه وحناناً. وقال ابن عباس: وآتيناه رحمةً من عندنا[1]، ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: وطهارةً وعُلوَّ أخلاق، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ وهما صفتا الملوك. والمراد: وَصْفُه بالتواضع ولين الجانب. ولا يَبعُدُ أن يكون في نفي هذَيْن الوصفَيْن تعريضٌ لبعض الموالي الذين قال عنهم زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾، ولذلك لم يعتمد عليهم في إقامة الخلافة على بني إسرائيل. أي: أنه ليس كأولئك الموالي الذين شكا زكريا منهم، وخاف من نَصْبهم خلفاء.

ثم خصَّه سبحانه وتعالىٰ بهذه الكرامة، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ فأعطاه سبحانه الأمان في أدوار الحياة الثلاثة: الحياة الدنيا، والبرزخ، والحياة الأخرىٰ. وجَعَل الأمان من مبدأ كلِّ دَوْر من هذه الأدوار، وذلك كناية عن زكاة نفسه وصلاح أمره في كلٍّ منها.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ١٥٦).

ثم عطف قصَّة مريم علىٰ قصة زكريا لتقاربهما في الزمن، ولما بينهما من التعلُّق، وللإشارة إلىٰ أنَّ ولادة عيسىٰ أيضاً لا تزيد عن أنها معجزة ربانية مثل ولادة يحيىٰ من امرأة عجوز عاقر ورجل هَرِم كبير، فليس أمرُ مريم بأعجَبَ من أمر زكريا، وكلاهما معجزة من الله لهما، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: اتلُ علىٰ الناس قصَّتها وبلِّغهم إياها، ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ أي: اعتزلتهم وابتعدت عنهم إلىٰ مكان في شرقيِّ المسجد، أو في شرقيِّ الدار، أو مكاناً مشرقاً بالشمس. والله أعلم.

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: جعلت بينها وبينهم حاجزاً، أو تَوَارت عنهم بالابتعاد لا عن قَصْد. والله أعلم. ويجوز أن يكون كلُّ ذلك بوحي أو إلهام بأن تتجلَّىٰ عن الناس، استعداداً لما ذكره بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قال ابن عباس وغيره: هو جبريل عليه السلام[1]، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ كاملَ البُنْية، لا ينقص شيئاً من هيئة البشر لتتلقَّىٰ كلامه؛ إذ لو بدا لها علىٰ الصُّورة المَلَكية لَفَزِعَتْ منه ولم تستطع مكالمته.

فلما لم تَشُكَّ في أنه بَشَر، عَرَض لها ـ بحسب الطبيعة البشرية ـ ما يعرض للخَفِرات الشريفات من النساء، وهو تسرُّب الخوف إليهنَّ من الرجل، ولا سيما في الخَلَوات، و﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾ أي: أعتَصِمُ وأستجير ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾، لأنها تعلم أنَّ التقيَّ ذو نُهية وعفاف، وقد ظهر لها منه أمارات التقوىٰ.

فلما رأىٰ ما بها من اضطراب ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام: إني لستُ ممن يُتوقَّع منهم ما توهَّمتِ، فإني لستُ ببشر، ولكني مَلَكٌ رسولٌ من عند الله.

---

(١) ذكره ابن عادل في «تفسير اللباب» (١٢: ٣٧٥).

وقوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ فيه نسبةُ الشيء إلىٰ السبب، ويجوز أن يكون نقلاً وحكايةً لقول الله، ويُؤيِّده القراءة بالياء: (لِيَهَبَ لكِ)[1].

فلمّا سمعت منه هبة الولد لها استعظمت ذلك بمقتضىٰ الطبيعة والإلفة والعادة، و﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾، وأرادت بالأول: النكاح، وبالثاني: الإغلاظ عمَّا سمعت من هبة الولد واستبشعت منه، فَطَمْأنها وهدَّأها، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كذلك، ثم علل الأمر تعليلاً إقناعياً بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ثم علَّله تعليلاً غائياً فقال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: علىٰ كمال قدرتنا ومعجزة له، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ عليهم يهتدون بهديه، ويسترشدون بإرشاده، ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ أي: تعلَّق به قضاء الله في الأزل.

فاعتقدت بذلك اعتقاداً جازماً تأثَّرت به نفسيَّتها؛ لأن الاعتقاد الجازم يؤثر في

---

(١) إنَّ الواهب لمريمَ هو الله عزّ وجل، وقرأ أبو عمرو وورش: (ليَهَبَ لك) وبهذه القراءة يتَّضح المراد، وتحمل عليه القراءة الأخرى: (لأهبَ لك) وهي قراءة سائر القراء. وقد ذكر قراءة أبي عمرو الطبريُّ في «تفسيره» (١٨: ١٦٤)، وقال البغدادي في «السبعة في القراءات» ص٤٠٨: وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية ورش والحلواني عن قالون (لأهب لك) بغير همز.

وفي معنى إسناد الهبة إلى جبريل أقوال:

الأول: أي: أكون سببًا في هبة الغلام بالنفخ في الروح.

الثاني: أنّ قول جبريل: (لأهب لك) حكاية منه لقول الله تعالى، فيصير المعنى: إني أنا رسول ربك، فقد أرسلني وقال لي: أرسلتُكَ لأهَبَ غلامًا، أي: أنه أرسلني إليك بهذه الهبة.

الثالث: أضاف الهبة إليه لأنه هو الذي أعلمها بها. أي: لأنه قد يُنسَبُ الفعل إلى الآمر به وإلى مَن يتولى القيام به.

وأرجح هذه الأقوال هو القول الأول، لأنه موافق للقراءة الثانية.

النفس، فجرىٰ فيها تَفاعُلُ التلقيح، فحملت حَمْلاً طبيعياً[١]. وارجع إلىٰ الآية ٤٧ من آل عمران: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

ثم ذكر ما كان من حَمْلها به وولادتها له، فقال: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ أي: ابتعدت بعد حَمْلها به إلىٰ مكان بعيد، خشيةً وفَرَقاً من سوء التكلُّم من الأباعد والغُرباء. ولا يَبعُدُ أن يكون ذلك الابتعاد عن علم من الأقرباء الذين يعلمون أمرها جيداً. والله أعلم.

ولم تزل كذلك حتىٰ حضرتها الولادة، ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: ألجأتها صعوبة الولادة أن تمسك بجذع نخلة هناك، استعانةً بها علىٰ مقاومة المخاض، وهو ألم الولادة، وليس عندها مَنْ تستعين به، إذ لا تريد من يحضر منها ذلك، وفيها من الهواجس المقلقة التي حكاها عنها سبحانه بقوله: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾، وهذا النعت للمبالغة في الوصف كقولهم: «ليل أليل»، وهذه موجةٌ من الهواجس البشريَّة مرَّت عليها منشؤها الخوف علىٰ سمعتها من التقوُّلات. ولم يكفَّ هذه الموجة عنها ما تعلمه من عناية الله بها؛ إذ لا بدَّ للطبيعة البشريَّة أن تدفعها إلىٰ الهواجس، وتثير فيها القلق؛ لعلمها أن التقوُّلات لا بدَّ واقعة، رغماً من حصانتها ونزاهتها؛ إذ لا يخفىٰ عليها أنَّ الناس لا يعلمون عن حقيقة الواقع من أمرها، ولا يصدِّقون به إن بيَّنته لهم.

---

(١) حَمْلُ مريم عليها السلام لم يكن بالأسباب الطبيعيّة، فلم يكن بجماع فقد أحصن الله فرجها فلم يَمْسَسها بَشر، ولا بتهيّؤات أو إيحاءات كما يدَّعيه المؤلف غفر الله له، وإنما حملت بنفخ المَلَكِ جبريل روحَ الله تعالى، أي: الروحَ التي هي من خَلْق الله تعالى، فحملت بقدرة الله، وكان ذلك دليلًا على طلاقة قدرة الله تعالى حيث خلق شخصًا من أم دون أب، كما خلق آدم من دون أب ولا أم.

وقد هدَّأ سبحانه رَوْعَها بما حكاه بقوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قالوا: إنَّ المنادي جبريل عليه السلام بأمرٍ من الله، وكان في مكانٍ أسفلَ منها، فناداها تطميناً لها وتهويناً عليها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ أي: سيداً عظيماً نبيلاً رفيعَ الشأن جليلاً، وهو عيسىٰ عليه السلام. ويطلق السَّريُّ أيضاً علىٰ جدول الماء كما جاء في «المصباح المنير»[1]، وعليه فيجوز أن يكون المعنىٰ: قد جعل ربُّك قريباً منك جدول ماء، ويحتمل أن تكون عالمةً به، ولكنه أراد بهذا الكلام التطمين لا التبيين، وهذا هو الأنسب بقوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ وهو ما قُطع قبل يبسه، ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أي: طيبي نفساً وأعرضي عمَّا أهمَّكِ وأحزنك، فإنَّ الله قد نزَّه ساحتك، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ﴾ معتذرةً عن ابتعادِكِ واعتزالِكِ للناس: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾، ويجوز أن يكون هذا إيعازاً لها بالنَّذْر والعُذر معاً.

وهذا القول بالإيماء والإشارة، وكان الصائم في بني إسرائيل إذا أراد أن يجتهد صامَ عن الكلام كما يصومُ عن الطعام. ويجوز أن يُراد مُجرَّد الصمت والصوم عن الكلام، ويُحتمل أنها أُمرت بذلك كراهةَ مجادلة السفهاء.

ويجوز أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ بياناً لحالها أثناء الحَمْل كلِّه، ذكرهُ بعد أن تهيَّأ مكانُه بذكر جَزَعها الشديد، كما تقتضيه البلاغة العالية، وعلىٰ نهج القرآن في أنه لا يُراعي الترتيب الطبيعيَّ في القصص، ولكن يراعي السياق والمناسبات البلاغية.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى

(١) مادة: (سري).

ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من أمرها بعد انقضاء دَوْر العزلة، فقال: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، فلمَّا رأوها كذلك وذكرت قصَّتها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي: فَعَلتِ أمراً منكراً عظيماً يَفْري الجلد، أي: جلد الوجه. أو من الافتراء.

ثم زادوا في تقريعها بقولهم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

وعن المغيرة بن شعبة قال: لـما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا. فلمَّا قَدِمتُ علىٰ رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك؟ فقال: «إنهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصَّالحين فيهم»[1].

وتوضيح ذلك: أنها كانت من أعقاب هارون، وبنو إسرائيل تنتسب لأنبيائها وصُلحائها، اعتزازاً بهم وتشرُّفاً، علىٰ حدِّ قول العرب: يا أخا بني فلان، أو: يا أخا العرب، أو: يا أخا قريش، أو: يَعرُب، بمعنىٰ: يا قريشي.

ويجوز أن يكون القرآن عبَّر بهذه العبارة للعرب عمَّا كانوا يعبِّرون عنه في مِثلِه بلغتهم، علىٰ نهجه في ذلك.

ويجوز أن يكون المراد: أخوة التشبيه، فإنَّه يقال: فلان أخو فلان؛ إذا كان مُشابهاً له في صفةٍ من الصفات أو حالٍ من الأحوال. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٥).

وقال ابن عباس: ليس المراد به هارون أخا موسىٰ، وإنما هو أخ لها من أبيها مُسمًّىٰ بهذا الاسم، وكان معروفاً بالصلاح وحُسْن الطريقة[١].

وعلىٰ كلٍّ، فالكلام للمبالغة في الإيلام بالضرب علىٰ وَتَر الكرامة، ليكون أشدَّ وقعاً وأعظم نقداً.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلىٰ عيسىٰ أنِ اسألوه عن هذا السِّرِّ، ويظهر أنَّ ذلك كان منها بوحيٍ أو إلهام، ولكنهم ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؟! وفي هذا الجواب اكتفاءٌ عن تفصيل مفهوم الإشارة ومدلولها، فقد عُلِمَ منه أنَّ المراد بها: اسألوه ليُجيبكم.

ويجوز أن تكون نطقت بالسؤال، وعبَّر عنه القرآن بالإشارة[٢]، وهذا علىٰ نهج القرآن في الإيجاز والإيضاح بمدة.

فنطق عيسىٰ و﴿قَالَ﴾ مُجيباً لهم: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: الإنجيل، وعبَّر بالماضي عن الآتي لتحقُّق الوقوع، أو عمّا سيكون، وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ علىٰ الناس بتعليمي وإرشادي لهم ونفعي إيَّاهم ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾، وإنما خصَّهما بالوصاية إفادةً لعظمتهما، وطلباً لشدة الاهتمام بهما، كيف لا والأُولىٰ هي الصلة بين العبد وربه، والثانية هي

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٥: ٢٢٧).

(٢) هذا بعيد، فالإشارة يُعبَّر عنها بالكلام لأنها نيابة عنه، أما الكلام فلا يُعبَّر عنه بالإشارة، أعني: أن المتكلم إذا قال قولاً، وأُريد نَقْلُ الكلام عنه؛ لا يُقال: إنه أشار إلى كذا، ألا ترى أنك تحكي فِعلَ مَنْ يُسلِّم عليك برفع يده من بعيد فتقول: «قال لي: السلام عليكم»، بينما لا تحكي عمن سلَّم عليك بالقول: إنه أشار إليك أو رفع يده بالسلام، والله أعلم.

الصلة بين العبد وأخيه، وهي أمر حيويٌّ اجتماعي، لا يُستغنىٰ عنه في النظام البشري، الذي طَبَع الله سبحانه الحياة الاجتماعية عليه، وهو التفاوت في الأرزاق بالتفاوت في مُعاطاة أسبابها، فإنه يستلزم معاونة المُكْثِر للمُقِل. ويجوز أن يراد بالزكاة: زكاة النفس وصلاحها[1].

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ ومُنزِّهاً لها، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي﴾ في مقام الملوك وصفتهم ﴿جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾، وقد أكرمني بهذه الكرامة، ﴿وَ﴾ هي ﴿ٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ أي: أعطاني سبحانه وتعالىٰ السلام والأمان في أدوار الحياة الثلاثة: الحياة الدنيا، وحياة البرزخ، والحياة الأخرىٰ. وذلك كنايةٌ عن زكاة نفسه وصلاح أمره ورِفْعةِ شأنه في كلٍّ منها.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم ختم القصة بما فيه زيادةُ تقرير في أنَّ ما ذكره من أمر عيسىٰ هو الحق المبين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: هذه حقيقتُه وهذه قصَّتُه الحقَّة. وأما قوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فهو مَصْدَر مؤكِّد لما قبله، أو مفعول مطلق لقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، أو مصدر نائب عن الفعل، أي: نقول. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ اعتراض قرَّر به مضمون ما قبله.

ثم ردَّ ما يمترون به في عيسىٰ، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾، إذ لا يحتاج للولد إلا ما كان سريع الفناء، ليقوم الولد مقام الأب، ويبقىٰ النوع موجوداً. ألا

(١) وهذا بعيد أيضاً، لأن قَرْنَ الزكاة بالصلاة يدل على إرادة الزكاة المالية التي هي عبادة كالصلاة.

ترىٰ أنَّ الكواكب والشمس والقمر والأرض والجبال وأمثالها لا تحتاج للولد، فكيف بالباقي بلا زوال؟ ولا فَـرْقَ في الكفر والافتئات بين أن يقولوا بالولادة الحقيقية، أو الولادة المعنويَّة والانبثاق وتدرُّع اللاهوت بالناسوت، فكلُّه كفر، تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، لا يُعجِّل بالعقوبة لهؤلاء الظالمين، ولكن يُؤخِّرهم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصار.

ثم ردَّ عليهم استغرابَهم واشتباهَهم من خلقه إيَّاه بدون أب، فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ فلا يُعْجزه شيء، وهناك صُور منوَّعة كثيرة لسنن التَّخليق والإيجاد لا تعلمون منها إلا قليلاً، إذ لا يعلم سرَّ التكوين والإيجاد إلا الله[1].

ثم بعد هذا الاستطراد أكمل الحكاية عنه، حيث ذكر العقيدة الحقَّـة، وهي التوحيد، ودعا إليها، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ لا إله غيره، و﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ يصل سالكه إلىٰ ساحة النَّجاة والسعادة. وقال أبو مسلم: وهذا الكلام معطوف علىٰ قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وما بينهما اعتراض.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) وهناك خَلْقٌ من غير سُنّة أيضاً، ومنه خَلْقُ عيسى عليه السلام، وتشبيه خَلْقِهِ بخلق آدم عليهما السلام ـ كما ورد في الآية ٥٩ من سورة آل عمران ـ يدل عليه، وكذا تعقيبُ القصة هنا بهذه الآية ـ التي تُعلِّل ما يُستَغربُ من خَلْق عيسى بإرجاع الأمر إلى إرداة الله وتكوينه ـ يدل عليه أيضاً.

ثم ندَّد باليهود والنصارىٰ الذين اختلفوا في أمر عيسىٰ وتوعَّدهم، فقال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين الذين دَعَاهم عيسىٰ إلىٰ الإيمان بالله وتنزيهه، وقال لهم: إني عبد الله ورسوله إليكم، وإنَّ الله ربِّي وربكم فاعبدوه. اختلف اليهود والنصارىٰ فيه بالتفريط والإفراط، وافترقت فيه فِرَقُ النصارىٰ علىٰ مذاهب، كلها كفر وضلال، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ الهول[1] في الحساب والجزاء.

ثم بيَّن تعالىٰ أنهم حينئذ يبصرون الحقيقة فيندمون، ولاتَ ساعة مَنْدَم، فقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ حيث أغفلوا الاستماع الصحيح والنظر الحق السليم، فلم يُدركوا الحقائق علىٰ وجهها الصحيح، وقد جاء في آخر سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: كلُّ كتابيّ عندما يحضره الموت ويغيب عن الدنيا، يتحقَّق بأنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وليس بولد لله. وهكذا يعلم البشر كله بعد موته: أنَّ القرآن حقٌّ واقع، فيندم غاية الندم، وكذلك المسلم المجرم، ولاتَ ساعة مندم! أعاذنا الله.

ثم زاد في تنبيههم وإيقافهم علىٰ ما سيكون من ندمهم العظيم في ذلك اليوم الرهيب، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، ثم بيَّن منشأ تلك الحَسْرة فقال: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: ماتوا ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وانكشف لهم الحقُّ بعد موتهم وانقادوا إليه مُذْعنين، وحينئذ يَتحسَّرون علىٰ ما فَرَط منهم من الكفر والضلال.

ثم توعَّدهم ضمن ما هو كالتَّتْميم لما قبله، والبيان لاختصاصه سبحانه بصفة

---

(١) يُريد: عظيمِ الهول، بكسر الميم في «عظيم» من غير تنوين، لكنْ آثرتُ إكمال الآية برسمها في المصحف الشريف.

الألوهيَّة من الأزليَّة والأبديَّة، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾، فنجزي كلَّ عامل بعمله.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

ولـما كان من سُنَّـة القرآن تسليتُه ﷺ والمؤمنين إثْـرَ الكلام علىٰ المعارضين والمخاصمين، سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين، عاد إلىٰ القصص، وذكر قصَّة إبراهيم ومجادلته مع أبيه وقومه ومخاصمتهم له، إيذاناً بأن هذه هي سُنَّـةُ الكون في الأنبياء مع أقوامهم والعاقبة للمتَّقين، وحضاً له علىٰ الاقتداء بهَدْيهم، وقَـرْناً لقصة إبراهيم بسابقتيها في بيان إكرام المتَّقين بالكرامات الضافية، وتأنيباً للمشركين الذين يزعمون أنهم علىٰ ملَّـة إبراهيم، ذكر ذلك فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ علىٰ الناس قصَّتَه وبلِّغها إيَّاهم لتكون تطميناً للمؤمنين، وتذكيراً للمشركين الذين يدَّعون الانتماء إليه.

وقد فصَّل القصة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ في جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى

مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بواسطة الوحي ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: ما لم تعلَمْه، ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أي: مستقيماً مُوصِلاً إلىٰ أسنىٰ المطالب، مُنْجياً من الضلال والرَّدىٰ والمعاطب.

ثم ثبَّطه عمَّا كان عليه من عبادة الأوثان، إذ صوَّرها بصورة يستنكرها كلُّ عاقل، وبيَّن أنها مع تجرُّدها عن النفع مُسْتجلبة للضرر، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بطاعتك إيَّاه في عبادة الأوثان؛ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ أي: قريناً له في النار تليه ويليك، أو خَدِيناً له في اللَّعْن والطرد والإقصاء.

أما أبوه فقد قابل إشفاقَه عليه ولطفَه به في هذا الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، و﴿قَالَ﴾ له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبة عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قال أبو مسلم: وأصل الرجم إنما يكون بالحجارة، إلا أنه قد يُقالُ بمعنىٰ الطرد والإبعاد اتِّساعاً، كما هنا. ولذلك قال: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ أي: هَجْراً طويلاً بعيداً فلا تقربني.

﴿قَالَ﴾ له إبراهيم مُودِّعاً ومتاركاً بعد معالجة طويلة وأمل ضئيل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ولكنْ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ من الحفاوة، أي: بليغاً في البِرِّ والإلطاف. وكان هذا منه عليه السلام قبل أن يقطع رجاءه من إيمانه.

ثم قال لهم بعد أن عزم علىٰ فراق قومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ أي: خائباً ضائع السَّعي، يُعَرِّضُ بشقائهم بدعاء الأصنام. وهذا يقينٌ أُخرِجَ مَخرَجَ الترجِّي؛ إذ لا يجوز القطع علىٰ الله.

ثم ذكر ما كان له من سعادةٍ بَعْدَ اعتزالهم، فقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجَرة إلىٰ الشام، رغبةً في نشر دينه، ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾، وإنما خصَّهما بالذكر؛ لأن زوجته سارة كانت عقيماً لا يُؤمَلُ منها الولادة، فسرَّه ذلك كثيراً، ولأنه كان منهما أنبياء كثيرون، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ ما وهبنا من النبوة والأولاد والكرامة وعُلُوِّ المنزلة، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾ أي: لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ أي: ثناءً حسناً في الناس. والشيء الصدق: هو المستوفي للكمال.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

ثم تابع الكلام علىٰ التذكير بقصص الأنبياء لنفس الغرض السابق، وذكر قصَّة موسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: اتْلُ عليهم في القرآن نبأ موسىٰ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ أي: رسولاً رفيع القدر، فهو مفسَّر بقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ مناجياً لنا. وهذه منزلةٌ عُليا، ومقامٌ رفيع. وهذه المناجاة لا تزيد عن أنها عِرفانٌ مع إيقان دون إدراك للكيفيَّة وحقيقة الشأن، كما هو حال جبريل عند تلقِّيه الوحي من الرحيم الرحمن. والله أعلم. وكم من أمور وأشياء ندركها أو نراها ولا نعلم عن كيفيَّة تكوينها وحقيقة ذاتها شيئاً أبداً.

ثم ذكر معاضدته بأخيه، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ يعاضده ويؤازره. وهذه إجابةٌ لدعوته التي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩ – ٣٢]، وكان أسنَّ من موسىٰ.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾.

ثم ذكر إسماعيل عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ أي: اتلُ عليهم في القرآن نبأ إسماعيل، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ وناهيك أنه وَعَدَ أباه بالصبر علىٰ الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ووفَّىٰ بذلك، ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ أي: رسولاً رفيع القدر. وفي هذا دلالة علىٰ أنَّ الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة جديدة، فإنَّ أولاد إبراهيم عليهم السلام كانوا علىٰ شريعته ويدعون إليها، وهكذا كان إسماعيل عليه السلام.

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وتمجيدُه بذلك يدلُّ علىٰ عَظَمة شأن الصَّلاة والزكاة. ويجوز أن يراد بالزكاة: زكاة النفس وطهارتها[1]. والمراد من الأمر بهما: الأمر بأدائهما والتمسُّك بهما علىٰ أكمل الوجوه.

وقد ختم التمجيد بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ لاتِّصافه بالنعوت الجليلة، وهذه درجةٌ عُليا ووَصْفٌ عظيم. وإنما أفرده بالذكر دون بني إبراهيم؛ لأنه استقلَّ بنشر دينه في العرب لا كإخوته، فإنهم نشروه في قومهم، فذكره علىٰ حِدَةٍ إيذاناً بذلك وتحسيساً لأولاده العرب. والله أعلم.

ثم ذكر إدريس، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ﴾ أي: اتلُ عليهم في القرآن نبأ إدريس، وهو سِبطُ شيت، وجدُّ أبي نوح عليهم السلام، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ أي: ملازماً للصدق في جميع أحواله، وكان ﴿نَّبِيّٗا ٥٦﴾ رفيعَ القدر، ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا ٥٧﴾ الله أعلم بها[2]، ولا يبعد أن يُراد بها الرفيق الأعلىٰ مقرُّ أرواح الأنبياء. وقيل: بل المراد

---

(١) هذا بعيد، لأن قَرْنَ الزكاة بالصلاة يدلُّ على أن المراد العبادة المالية المعروفة، كما تقدَّم في التعليق قريباً.

(٢) هذا قول بعض المفسرين، وقال أكثرهم: إلى السماء، والله أعلم.

شرف النبوة والزُّلفىٰ عند الله عز وجل. وقيل: بل المراد عُلُوُّ الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا، كما قال تعالىٰ لنبينا ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. ولا يُعارض هذا أنَّ هذه الأمور جَرَت لسائر الأنبياء؛ لأن الثناء والتمجيد لا يستلزم الاختصاص.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾.

وبعد أن أثنىٰ علىٰ كلِّ واحد ممن تقدَّم ذِكرُه من الأنبياء بما أثنىٰ عليه من الثناء، جمعهم في التَّنويه عنهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾، ثم خصَّ منهم مَنْ كان مع نوح بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، فهذا الوصف للتحسيس بالنعمة والإشعار بما جرىٰ علىٰ قومه المشركين من الغرق العميم.

ثم خصَّ وَلَدَ إبراهيم وإسرائيل للتنبيه علىٰ أنهم كما فُضِّلوا بأعمالهم، فلهم مزيد الفضل بآبائهم، فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: من ذريَّة إسرائيل، وهم موسىٰ وهارون وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ، وفيه دليل علىٰ أن أولاد البنات من الذرية، وإسرائيل هو: يعقوب عليه السلام.

ثم بيَّن تعالىٰ أنهم ممن هداهم الله واجتباهم، للتنبيه علىٰ أنهم إنما اختُصُّوا بهذه المنزلة لهداية الله لهم واختيارهم للرسالة، فقال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾، فهذا وَصْفٌ لجميع من تقدَّم، أي: إنهم من جملة مَنْ هديناهم إلىٰ الحق بمحافظتهم علىٰ جِبِلَّتِهم من التحريف والانحراف محافظةً كاملة، واجتبيناهم للنبوة والكرامة.

وبعد أن استوفىٰ البيان عن عُلوِّ شأنهم وسُموِّ رتبتهم، بيَّن إخباتَهم إلىٰ الله وخوفَهم منه، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ لكمال عِلمِهم بعَظَمة الله وسلطانه.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾.

وبعد أن ذكر هؤلاء الأنبياء، وذكر لهم من صفات المدح ما استحقُّوا بها أن يقول عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ ...﴾، ترغيباً في التأسِّي بطريقتهم واقتفاء آثارهم؛ ذكر ما كان من أمر أتباعهم بعدهم من الانحراف، وتوعَّدهم عليه؛ تعريضاً وتحذيراً للمشركين الذين عقَّب عليهم بقصص الأنبياء في هذا السياق، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩﴾[1] أي: شراً، إذ كلُّ شرٍّ في العُرْف العربي: غيّ، وكلُّ خيرٍ رشاد. ويجوز أن يكون المراد: جزاءَ غيِّهم، كقوله تعالىٰ: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٨]. والخَلْف ـ بسكون اللام ـ: عَقِبُ الشر، وبفتح اللام: عَقِبُ الخير.

ثم استثنىٰ من ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، فسجَّل لهم بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ أي: لا يُنْقَصُون من جزاء أعمالهم نقيراً.

---

(١) قال أرسطو طاليس: إذا نازعتك نفسُك إلىٰ الشهوات واللذات، فإنها قد نزعت بك إلىٰ شر منزلة وأدناها وأخسِّها وأسقطها، وأرادت غير السنة الطبيعية، فغالِبْها أشدَّ المغالبة، وامتنع منها أشدَّ الامتناع، وليكن مرجعها منك إلىٰ الحق، فإنك متىٰ تترك الحق فلست تتركه إلا إلىٰ باطل، ومهما تترك الصواب فإنما تتركه إلىٰ الخطأ والضلال. (المؤلف).

ثم فصَّل أمْرَ هذه الجنَّة، وسبكه علىٰ التَّنويه بشأنها، وأبدل الأقسام من الأصل العام، فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وعدها إيَّاهم وهي غائبةٌ عنهم، أو بسبب إيمانهم بالغيب ـ وهو اليوم الآخر ـ والعمل له، أو لأن العلم بالآخرة وأحوالها هو من علم الغيب، لا يعلم عنه الإنسان شيئاً من نفسه لو لم يعلمه الله به. ثم أكد إنجازه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ لا محَالة. وضمير الشأن للتقرير.

ثم تابع التنويه، فذكر بعض خصائص تلك الجنة، فقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: فضول الكلام. وهذه كنايةٌ عن عدم صُدور اللغو عن أهلها. وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع، أي: لكنْ يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم تهنئةً وتأنيساً، وتسليمَ بعضهم علىٰ بعض كذلك، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ يريد: تَواصُلَ الرزق ودوامَه.

وذِكرُ البُكْرة والعَشيّ وإيرادُه علىٰ عادة المتنعِّمين في الدنيا؛ استعارةٌ من حال المخاطبين، علىٰ طريقة القرآن في مثل هذا البيان، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). ويجوز أن يراد سائر الأوقات؛ لأنها محصورة بينهما.

ثم ختم الكلام بما فيه زيادة تَحْسيس وترغيب بهذا الوعد الكريم، وهذه العاقبة الحُسْنىٰ، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾، فأشار إلىٰ أنَّ التقوىٰ هي التي تُوجبُ إيراثَ تلك الجنَّة العظيمة الشأن، وجماع التقوىٰ: كل ما جاء في ثنايا هذا القرآن.

وأما قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فهو من تتمَّة السياق؛ لأنه بيانٌ عن منازل أهل الجنة، ذكره عن لسانهم، علىٰ نهج القرآن في الانتقال من حكاية أمر إلىٰ حكاية أمر آخر متعلِّق به. فقد قال أبو مسلم: إنه من قول أهل الجنة، حكاه سبحانه عنهم تكميلاً

للوصف وتتميماً للبيان. والمعنىٰ: ويقولون: إننا لا نتنزَّل منزلةً من الجنة إلا بأمر ربك حَسْبَما يعلمُه سبحانه فينا من الاستحقاق، فإن ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، وهذه الجملة كنايةٌ عن سَعَة علم الله وسلطانه، وتلميحٌ إلىٰ ما يَصْحَبُ ذلك من دقَّة عَدْلِهِ في جزائه وإكرامه للمحسنين، وتنزيل كل واحد منزلتَه لعلمه بما يستحقُّه ويقتضيه، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ فهو يُحصي الأعمال كلَّها صغيرها وكبيرها لا يُغادِرُ منها شيئاً، ويجزي كلَّ عامل بعمله علىٰ الشرِّ جزاءً وفاقاً، وعلىٰ الخير الجزاء الأوفىٰ. وتقديرُ القول في القرآن كثيرٌ ومن أساليبه. والله أعلم.

ثم أشفع استحالة النسيان عليه تعالىٰ، بما يتضمَّن عظمته وجلاله والدعوة لعبادته وانتظار كرامته، فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فكيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحته غفلة أو نسيان؟! وحين عَرَفْتَهُ غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين، ولا غافل عنها، ولا مُهمِلٍ لها، ويُنزِلُ كلاً منهم منزلةً يستحقها ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ لتنالَ جزاءك الأوفىٰ. ثم مكَّن ما تضمنَّه الكلام من عَظَمة الله تعالىٰ، واختصاصه بأفعال الألوهية واستحقاق العبادة بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ أي: شبيهاً ومثيلاً؟ أو: هل تعلم مَنْ يُسمَّىٰ بربِّ السماوات والأرض سواه؟ أو مَنْ يتصرَّف بهما سواه؟ والمراد من إنكار العلم: إنكارُ المعلوم ونفيُه علىٰ أبلغ الوجوه. فالجملةُ تقريرٌ لما أفادته الفاء من استلزام ربوبيته العامة لوجوب عبادته، واختصاصه بذلك الاستحقاق.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

ولـما كان هذا السياق يتضمَّن الردَّ علىٰ الشرك، أردفه بالردِّ علىٰ منكري البعث، اتِّباعاً لنهج القرآن في قَرْنِ إثبات التوحيد بإثبات الحشر، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ يُنكِرُ ذلك ويُوَهِّيه، وفيه نسبةُ ما للبعض إلىٰ الجنس، وهو من خصائص اللغة ومن أساليب القرآن.

فردَّ عليه بأوضح بيانٍ وأجلىٰ برهان، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ يريد خِلْقَةَ آدم. ففي الكلام نسبةُ ما للأصل إلىٰ الفرع، ووجه الاستدلال: أن الإنسان خُلق أولاً من غير شيء، فلَأَنْ يُخلَقَ ثانياً من نواة حياته ويُعادَ إلىٰ ما كان عليه؛ أقربُ وأهونُ من خَلْقِهِ ابتداء، ولله الـمَثَلُ الأعلىٰ.

ثم أشفع الاستدلال بالتقرير المصدَّر بالقسم، وضمَّنه الإيماء إلىٰ ما سيناهم من جرَّاء ذلك الإنكار، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الذين أغوَوْهُم علىٰ إنكار الحشر، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾، ويُقالُ لهم: هذا ما كنتُم به تكذِّبون. وهذا تصويرٌ لذلـهم وخنوعهم، أكمله بقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ أي: لنأخذنَّ بعنف من كل أمةٍ شايعت ديناً من الأديان مَنْ كان أعصىٰ وأعتىٰ، فنطرحهم فيها. ثم أتىٰ بما هو كالتعليل لمضمون الجملة، فقال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ هُم أحقُّ من غيرهم بالصِّليِّ بالنار.

ويجوز أن تتَّحد هاتان الجملتان في الـمَاصدَق وتختلفا في الوصف والمفهوم، فتكون الثانية للمبالغة في التهديد. ويجوز أن يُراد بالثانية: الرؤساءُ الـمُضِلُّون من بين أولئك الذين هم أشدُّ علىٰ الرحمن عتياً، فيكون المراد: أنه تعالىٰ يزيدهم شقاء.

وبعد ما ذكر الذين هم أَولىٰ بها صِلياً، ذكر حُكمَ مَنْ عَـدَاهم مـمَّن يتـفاوت

استحقاقهم، فقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[1]، هذا رأيُ بعض المفسِّرين في الآية حيث يجعلون الخطاب عاماً، والورود بمعنىٰ الدخول. وهو قول ابن عباس[2] وجابر[3].

أقول: وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يقول في حكمه الأساسي العام: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ويقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فمن الذي لا يعمل مثقال ذرة شراً؟ ولكن هذا الورود تتفاوت درجاتُه بتفاوت مقدار عمل ذلك الشر الذي تتكيَّف به الروح كيفيَّة سيئة، وبنسبة تلك الكيفيَّة قوةً وضعفاً. والله أعلم.

وبعبارة أخرىٰ: إنَّ للجنَّة مستوى خاصاً من الكمال، مَنْ فَقَدَه لم يكن لها أهلاً، فمَنْ بقي في نفسه أثارةٌ من شرٍّ أدركه الموت وهو لم يتطهَّر منه، انتظرته جهنَّم لتكمل له ما نقصه، وتُعوِّض ما فاته، وتُزيل عنه ما تدرَّن به من أوْضَار، حتىٰ إذا هُذِّب ونُقِّي أُذِنَ له في دخول الجنة. والله أعلم. هذا رأيٌ أراه، والعلم عند الله[4].

---

(١) قال النووي في «شرح مسلم» (١٦: ٥٨): إنّ المراد في الآية: المرور علىٰ الصراط. وقد قيل في حكمة المرور علىٰ الصراط: أنه ليَظهر للمؤمن فَضْلُ الله عليه بالنجاة من النار، وتصير الجنة بعد ذلك أسرَّ لقلوبهم، وليتحسَّر الكافرون من فوز المؤمنين بعد اشتراكهم في الورود. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٢٣٠).

(٣) رواه أحمد (١٤٥٢٠) عن جابر مرفوعاً، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ١٥٠): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) تكيُّف الروح بعمل الخير أو الشر، واستعدادها ـ تبعاً لذلك ـ لدخول الجنة أو النار: مسألة كرَّرها المؤلف رحمه الله في مواضع من هذا التفسير، وتقدم التعليق عليها بما يتضمن عدم تسليمها، ولو كانت الحالُ على هذا فكيف تنالُ الشفاعة بعضَ مستحقي العذاب، فيدخلون =

وقال ابن مسعود والحسن وقتادة: إنَّ الورود هو الوصول إليها والإشراف عليها. واختار هذا أبو مسلم[1]. واستدل القائلون بهذا الرأي بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، واستأنسوا بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]، فكأنما هناك يكون الحساب، ثم يُلقىٰ الكافرون في النار، ويُنجِّي الله المؤمنين.

وقال بعض المفسِّرين: المراد بالخطاب: مَنْ تقدَّم ذِكرُه من الكفار المنكرين للحشر من أفراد الإنسان والمعبَّر عنهم بلفظ العموم، فكنَّىٰ أولاً عنهم كناية الغيبة، ثم خاطبهم خطاب المشافهة. وليس الخطاب عاماً لسائر المؤمنين والكافرين، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

أما قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾؛ فيكون علىٰ الرأي الأول بمعناه الحقيقي الظاهر، وعلىٰ الرأي الثاني والثالث بمعنىٰ أنَّ التَّنجية لا تستلزم الدخول، إذ يقال: نَجَّاه الله من البلاء، بمعنىٰ: حفظه منه وعافاه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

ولـما كان المشركون ـ عند سماع الآيات الواضحات في دَحْضِ باطلهم وبيان

= الجنة، وأرواحهم غير متكيفة للجنة على رأي المؤلف؟! إلى غير ذلك من إشكالات كثيرة في هذا الرأي.

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٣: ٣٦).

ضلالهم ـ يعمدون إلىٰ التَّبجُّح والافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، مستدلِّين بذلك علىٰ أنَّ طريقتهم أرضىٰ عند الله، ولذلك أعطاهم خيراً مما أعطىٰ أولئك، ذكر لهم هذا التَّبجُّح وقَرَنه بالردِّ، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ في دَحْض باطلهم ودعوتهم إلىٰ الإيمان ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ أي: نادياً ومُجتمعاً، يتبجَّحون بما لهم من الحظوظ في الدنيا ومراكزها، ويستدلُّون بذلك علىٰ أنهم هم المقبولون عند الله، ولذلك أنعم عليهم بما أنعم.

فردَّ عليهم هذا الرأي السخيف بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ والأثاث: المتاع، والرئيا: المنظر والهيئة. ووجه الرد: أنه لو كان الأمر كما يقولون لما أهلكنا أولئك الأقوام الذين هم أكثرُ منهم أموالاً وأحسَنُ هيئةً، كعاد وثمود وآل فرعون ومَنْ لفَّ لفَّهم، أهلكناهم مع عِظَمِ حظوظهم في الدنيا.

ثم أمر نبيَّه أن يُبيِّن لهم أنَّ الأمر علىٰ عكس ما يتصوَّرون، فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ بحُسْن الحال وكثرة المال. وهذا علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]. وإخراج الفعل بصيغة الأمر للإيذان بأنَّ ذلك مما ينبغي أن يُفعل، بموجب الحكمة البالغة، كما قال ﷺ: «أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في حياتهم الدنيا»[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ به؛ ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ والحساب في الآخرة، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾، وقد

---

(١) جزء من حديث طويل متفق عليه، رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، عن ابن عباس.

عارض بهذه الجملة قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، وسبكها على التهديد والوعيد.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ ذلك يزيد المؤمنين هداية، فقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ إذ يُدرِكون أنَّ هذه الحظوظ لو كانت خيراً لَمَا أعطاها الله الكافرين.

ثم بيَّن أنَّ الله تعالىٰ قد أعدَّ للمؤمنين في الآخرة ما يَضْؤُلُ حظُّ الدنيا في جانبه جداً، فقال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: الأعمال الصالحة التي تكون ذُخْراً في الآخرة هي ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ أي: مرجعاً ومآلاً، لا مظاهر هذه الحياة الفانية، فكلُّ نعيم دون الجنة حقير، وكلُّ بلاء دون النار عافية.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر شبهتهم في البعث، وقَرَنها بالرد والوعيد، وذكر شبهتهم في أنَّ امتيازهم بحظوظ الدنيا دليل علىٰ رضاء الله عنهم، ونقضها عليهم وتوعَّدهم؛ ذكر لهم شنيعة أخرىٰ مكوَّنة من الأمرين معاً وشنَّع عليهم فيها، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: كما أوتيتُ حظوظاً في الدنيا سأُوتىٰ حظوظاً في الآخرة. ويجوز أن يقول ذلك استهزاءً وطعناً بالبعث والحساب.

فردَّ عليه سبحانه، وقابل الاستهزاء بالاستهزاء، فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ فعلم ذلك، ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ بذلك؟ لأنه لا يُتوصَّلُ إلىٰ مثل هذا العلم إلا بأحد هذين الطريقتين.

ثم أشفع الردَّ بالردع والوعيد، فقال: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾، وهذا وعيد رهيب، أعاذنا الله. أي: نطيل له العذاب ونضاعفه، جزاءَ مقالته هذه، ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلب عنه ما يقول، وهو ما أُوتيه في الدنيا من المال والولد. أي: نَنْزع عنه ما آتيناه ونورث ماله لغيره، ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ لا يَصْحبه مالٌ ولا وَلَدٌ كان له في الدنيا. وفيه مقابلةٌ لمقاله مطويّةٌ علىٰ التوعُّد والتهديد. وقيل: إنها نزلت في العاص بن وائل.

وعلىٰ وتيرة مضمون هذا السياق ـ وهو الحصول علىٰ عكس المأمول ـ بيَّن أنه سينقلب عليهم ما يعتقدونه في شركائهم من أنهم سيقرِّبونهم إلىٰ الله زُلفىٰ، وساوق به السياق، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ لزعمهم أنهم يشفعون لهم في الآخرة.

﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ستجحد هذه الآلهةُ يوم القيامة عبادتَهم لها، وتقول لهم: إنما عبدتُم أهواءكم، فيكون ذلك أعظم لحسرتهم. أو المعنىٰ: أنَّ هؤلاء المشركين ينكرون يوم القيامة عبادةَ الأصنام. فتكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ إذ يكونون سبباً لشقائهم الأليم، أو يكون هؤلاء المشركون حانقين علىٰ هذه الآلهة التي كانوا يعبدونها.

ثم بيَّن أن أسباب كل ذلك هو إغواء الشياطين لهم؛ لأنهم يجدون فيهم مأوىٰ

خِصْباً وملعباً رَحْباً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ أي: تُغْريهم علىٰ المعاصي بالتَّسويل، وذلك حسب سُنة الله العامة في أخلاق البشر وطباعهم، وهي أنَّ مَنْ يرسخ منهم علىٰ الضلال يميل كلَّ الميل إلىٰ وساوس الشياطين وتسويلهم، كالجراثيم لا تتكاثر ولا تفتك إلا في النواحي الفاسدة من الجسم.

ثم نزَّل ضيقَ صدره ﷺ من كفرهم وسُوء أعمالهم منزلةَ مَنْ يطلب الاستعجال في إهلاكهم، وسَبَك ذلك علىٰ التهديد لهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾، وهذا أيضاً وعيدٌ رهيب، أعاذنا الله. أي: إن لإهلاكهم أجلاً معيناً بمقتضىٰ الحكمة لا ريب فيه، لا يتقدَّم ولا يتأخر.

وقيل: بل الكلام علىٰ الكناية عن توعُّدهم بشدَّة تعذيبهم عندما يلاقون ربَّهم، مأخوذ من حال المخاطَبين إذا اشتدَّ حنق أحدهم علىٰ عدو، وكان بانتظار وصوله إليه مخفوراً، فهو يعدُّ الساعات لوصوله حتىٰ يبطش به أشدَّ البطش والتنكيل. والله أعلم. والاقتباس من حال المخاطَبين هو من أساليب القرآن ـ (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة) ـ تقريباً للأذهان.

ثم ذكر مصير المؤمنين والكافرين في ذلك اليوم، زيادةً في التنبيه، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: وافدين عليه. وهذا واردٌ علىٰ عادة المخاطَبين من وفادة الوفود المُكْرَمين علىٰ الملوك، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ كما تُساقُ البهائم إلىٰ ورود الماء. وقال أبو مسلم: الورد: النصيب، أي: هم نصيب جهنم من الفريقين، والمؤمنون نصيب الجنة.

ثم قطع رجاءهم الذي كانوا يرجونه من الشفعاء والوسطاء، فقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا شفاعة لهم من أحد هناك، ولا ينجو ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ أي: بإيمانه وعمله الصالح، فهو الناجي حَسْبَما وعد الله سبحانه. وهذا الاستثناء منقطع أو محمول علىٰ المعنىٰ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، أي: لا ينجو إلا مَنْ رحم.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدّٗا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾.

ثم شنَّع علىٰ الذين يُثبتون الوَلَدَ وأنكر عليهم أشدَّ الإنكار، فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨﴾، فردَّ عليهم ملتفتاً إلىٰ الخطاب لتوجيه شدَّة السخط والغضب إليهم، فقال: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩﴾ أي: منكراً عظيماً، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدّٗا ٩٠﴾، وهذا أعظم وَصْف في التهويل والتفظيع.

ثم فسَّر ذلك الإدَّ الفظيعَ الذي تنهار منه السماوات بقوله: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾.

ثم ردَّ عليهم بأبلغ النفي، فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾[1]، لأنَّ التوالد لبقاء النوع، حتىٰ إنَّ المخلوقات الخالدة كالأرض والجبال والقمر والكواكب وأشباهها لا تَتوالد؛ لعدم حاجتها للتوالد، فكيف ينبغي للرحمن أن يتَّخذ ولداً، وهو الواحد الباقي بلا زوال؟! كلا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ فهو مملوكٌ له، يخضع إليه بالعبودية والانقياد، مهما عَظُم شأنه وامتاز

(١) كلمة: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ إذا جاءت في القرآن دلَّتْ علىٰ غاية الامتناع. (المؤلف).

بالمميِّزات السَّنيَّة. فنسبتُه إلىٰ الله نسبةُ المملوك لمالكه، والمخلوق لخالقه، لا يتجاوز ذلك، فأنىٰ له[١] أن يكون ولداً بالمعنىٰ الحقيقي أو الانبثاق؟!

ثم مكَّن هذا المعنىٰ، فقال: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي: كلُّهم تحت أمره وتدبيره وقهره، لا يَفْلِتُ منهم أحدٌ ولا يغيب.

ثم ذكر انقيادهم وضعفهم تجاه عَظَمة الله، فقال: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: منفرداً من الأتباع والأنصار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

وبعد أن فصَّل قبائح الكَفَرة ومصيرَهُم، قابله بمُجْمَل من مصير المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ قال أبو مسلم: أي: يَهَبُ لهم ما يُحبُّون، وقال الجمهور: إنه تعالىٰ سيجعل لهم في القلوب مودَّة.

وقد جاء عن النبيِّ ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً يقول لجبريل: أحببتُ فلاناً فأحِبَّه. ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهل السماء. ثم تُوضَعُ له المحبة في الأرض»[٢]. اللهم اجعلني منهم يا أرحم الراحمين.

ثم ختم السورة بما يفيد عِظَم شأنها؛ لما فيها من إثبات التوحيد والنبوَّة والحشر والنشر والرد علىٰ فِرَقِ المضلِّين المبطلين، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه

---

(١) أي: للمملوك والمخلوق.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة.

بلغتك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ جمع: ألدّ، أي: أشداء ألداء في الخصومة والكفر لجاجاً وعناداً.

ثم توعّدهم بالتنبيه إلىٰ ما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من الأمم الغابرة من إهلاكهم، وضمَّن الكلام تهويناً عليه ﷺ مما يناله من شرِّهم، وتسليةً له، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ كانوا علىٰ وتيرتهم كعادٍ وثمود وغيرهم. ثم هوَّل ذلك الإهلاك وأوْغَل فيه، بقوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: صوتاً خفياً ولو ضئيلاً. يقول ذلك مبالغةً في إفنائهم عن آخرهم، واستئصالهم بالعذاب، بحيث لا يُرىٰ منهم أحد، ولا يُسمَعُ لهم صوت. أعاذنا الله من غضب الله، اللهمَّ أرشدنا بهُداك يا أرحمَ الراحمين.

❊ ❊ ❊

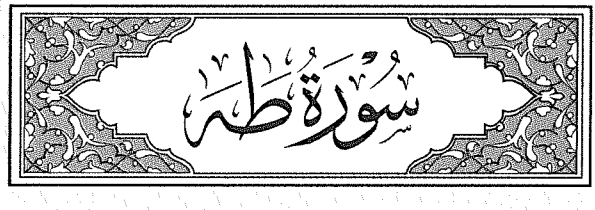

مكية، وهي مئة وخمس وثلاثون آية

وفي هذه السورة تسليةُ النبي ﷺ، وحَمْلُه علىٰ التأسِّي بما جرىٰ علىٰ موسىٰ مع فرعون.

ثم ذكر له أمر آدم مع الشيطان؛ لبيان استعداد الإنسان للغواية، حتىٰ يُعارض الحق ويعاديه، أو يغفل عنه فلا يأتيه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

﴿طه ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام علىٰ الحروف التي تُبتَدأُ بها بعضُ السور، في أول سورة البقرة، وكان من أصحِّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ مندرجات السورة، اهتماماً بها.

وبعد الافتتاح بهذين الحرفين للحثِّ علىٰ الانتباه، خاطب النبيَّ ﷺ، فقال: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي: لتتألم كثيراً وتتأثَّر بفَرْط تأسُّفك علىٰ كفر قريش وإعراضهم عن الإيمان به.

ففيه تسليةٌ له ﷺ عن ذلك، وتهوينٌ عليه في ظرفٍ من ظروف اشتداد حزنه وغمِّه من جرَّاء ذلك. وفي صورة التعبير أيضاً إيماءٌ إلىٰ أن تكاليف هذا القرآن كلها سعادة وخير للبشر في الدنيا والأخرىٰ.

ومحصَّل الكلام: إنَّ واجبك محصور بتبليغه، إذ ما أنزلناه ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ يُذكِّرهم أمر العاقبة، ويهديهم للحُسْنىٰ، ويُرشدهم لما تقتضيه سعادة البشر في الدارين. فكلُّه مقاصد نبيلة، وحِكَمٌ جليلة، ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ

﴿ٱلْعُلَىٰ ٤﴾[١] رفع سَمْكَها، وأتقن خلقها، وأحكم صُنعها، ودبَّر أمرها، أحكم إتقان، وأتقن تدبير. فكيف لا يكون ما يُنزلُه علىٰ البشر من الهداية بهذه المثابة وأعلىٰ؟! لأنَّ ذلك من صنع الله، وهذا كلام الله، فلا شك أنه أعظم من الكون وأجلىٰ.

ثم تابع الوصف بما يدلُّ علىٰ الاستيلاء والتدبير، مبالغةً في التنويه بشأن هذا الـمُنزَل من عنده، وحَمْلاً علىٰ التمسُّك به، وتمنُّناً بأنَّ ذلك من رحمته بالناس، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾[٢]، وفي هذا كنايةٌ عن الاستيلاء والتدبير لهذا الكون،

---

(١) قد جعل سبحانه ارتفاع الأجرام السماوية وابتعادها عن بعضها بصورة لا يتصوَّرها العقل، وهذا هو السبب في رؤية النجوم ساكنة ثابتة بالنسبة لبعضها رغماً عن سرعة حركتها الهائلة. (المؤلف).

(٢) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسَه، وسمَّىٰ بها ذاتَه في كتابه وتنزيله، أو علىٰ لسان رسوله من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها، ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمَرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلىٰ قائلها، وفوَّضوا معناها إلىٰ المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالىٰ. ومن ذلك: ما جاء عنه تعالىٰ من المجيء، والنزول، واليد، والوجه، والاستواء علىٰ العرش، إلىٰ أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفي الكيفية عنها؛ لأنَّ الكلام في الصفات فَرْعٌ عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثباتُ وجودٍ لا إثباتُ كيفية، فكذلك إثبات الصفات، إذ ليس كمثله شيء.

أما مذهب الخلف في ذلك: فالحَمْل علىٰ المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية.

جاء في الصحيفة ٨٢٨ من المجلد السابع عشر من مجلة «المنار» في فتوىٰ الشوكاني عن معاني الصفات ومعنىٰ الاستواء علىٰ العرش: أن بعض أهل التأويل قالوا: إن الآية كناية عن الملك والسلطان. فعلق علىٰ ذلك صاحب «المنار» بقوله: هذا قول لا ينافي إمرار اللفظ علىٰ ظاهره، والتَّسليم باستواء يليق بالله سبحانه، ويفوَّض إليه عِلمُ كنهه، كما ذهب إليه السلف؛ لأن الكناية لا تنافي الحقيقة، كما ينافيها المجاز عند الجمهور المانعين من جمعه معها.

فذِكرُ الاستواء علىٰ العرش في القرآن في سياق خلق السماوات والأرض يفيد معنىٰ القيام =

والسيطرة عليه، علىٰ عادة المخاطَبين ونظامهم في أحوال سلطانهم؛ لأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم.

وقال ابن الجوزي[1]: إنَّ مثل هذه العبارة إنما يُعبِّر بها القرآنُ تقريباً لوجوده تعالىٰ، وتصويراً له ولسلطانه في الأذهان، بمثالٍ يتناسب مع تصوُّرات الإنسان، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وإنما جعل «الرحمنَ» عنواناً في هذا الاستيلاء للإيماء إلىٰ كثرة رحمته فيه، ومنها إنزال هذا القرآن.

ثم قرَّر ذلك السلطان بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي: ما في جوف الأرض. ذكره تأكيداً لاستيعاب الأرض وما فيها. والله أعلم. وقد شملت هذه الآية كلَّ ما في هذا الكون، علىٰ عَظَمته وكثرة موجوداته، وذلك من معجزات إيجاز القرآن وإتقانه للبيان.

= بأمر الملك وتدبيره، وقد صرَّح به في سورة يونس فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]. وهذا المعنىٰ هو الذي يتبادر إلىٰ فهم كلِّ عربي قحّ، ومن كلمة: فلان علىٰ عرش الروم أو الفرس مثلاً، فهو لا يفكر عند سماع الكلمة في كيفية الكرسي الخاص بملك تلك البلاد، ولا في كيفية جلوس الملك عليه، وإنما يفكِّر في المراد من هذا التعبير، ولو أنَّ خادماً من خدَّام القصر جَلَس علىٰ العرش عند تنظيفه وترتيبه لا يقال: إنه استوىٰ علىٰ العرش.

فإذا قلنا: إنه ينبغي لنا في تدبُّر آيات الاستواء علىٰ العرش أن نفكِّر في لازم الاستواء، وهو الانفراد بالملك والسلطان والتدبير، لم نكن بذلك متأوِّلين للآيات، ولا خارجين عن مذهب السلف في إمرارها كما جاءت، من غير أن نجيز لأنفسنا البحث عن كيفية ذلك الاستواء من حيث معناه الحقيقي. (المؤلف).

(١) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) علّامة عصره في التاريخ والحديث كثير التصانيف؛ منها: «روح الأرواح»، و«المدهش»، و«الأذكياء وأخبارهم». «الأعلام» (٣: ٣١٦-٣١٧).

ثم أتبع البيان عن سلطان وعَظَمةِ استيلائه بما يُتمِّمه، وهو دقَّة علمه، وضمَّن الكلام تسليتَه وتأييدَه ﷺ، فقال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أي: إنه سبحانه يعلم حالك ومقالك تجاه المعارضين، وسينصرك عليهم، ولا تخفىٰ عليه من أمرك خافيةٌ جهرتَ بها أو لم تجهر وأخفيتَها في ضميرك. وفيه إرشاد إلىٰ كيفيَّة دعائه ومناجاته تعالىٰ، فالآية تُرشدنا إلىٰ التزام الإخفاء في ذلك، إلا إذا دعت مصلحة للجهر والإبداء.

وقال الرازي: لما شرح سبحانه ملكه بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، والمُلكُ لا ينتظم إلا بالقدرة والعلم، عقَّب الكلام بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ...﴾ لبيان قدرته البالغة، وبقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ...﴾ لبيان علمه الدقيق، ثم ذكر ما هو كالنتيجة لتلك المقدِّمات، وهو اختصاصه سبحانه بالألوهية، وقرنه بإجمال صفاته الفُضْلىٰ العَلِيَّة، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ أي: الصفاتُ العُليا التي هي المصدر لكلِّ ما في هذا الكون من آثار. فتنزيل القرآن ممَّن هذه صفاته، يدلُّ علىٰ مكانة هذا المنزَّل؛ لأنه إرشادُ مَنْ هذا تدبيرُه وعلمُه وصنيعُه.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ ما تضمَّنه السِّياق بقصَّة موسىٰ؛ تقريراً لأمر التوحيد الذي انتهىٰ إليه مساق الحديث؛ لأنها تبيِّن أنَّ التوحيد أول دعوة الأنبياء، وتشجيعاً له ﷺ علىٰ تحمُّل

الشدائد في سبيل الدعوة إلىٰ الله؛ لأنها تتضمَّن أنَّ الأنبياء هم في عناية الله وكرامته، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، وقد عبَّر بالإيناس عن الإبصار؛ لأنه أنس برؤيتها كما يدلُّ عليه قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ أي: مَنْ يهدينا إلىٰ الطريق. و(أو) لمنع الخُلُوّ دون منع الجَمْع، أي: لا يخلو ذهابي إليها من أحد الأمرَيْن، وقد يحصلان معاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم ضلُّوا الطريق، وكانوا شاتين مقرورين، فقال: إن لم أجد عليها مَنْ يهدي إلىٰ الطريق[1]. فلا أقلَّ من أن آتيكم منها بنار توقدون.

ولم يَدْرِ أنَّ عليها هدىٰ غيرَ الذي يريد من هُدىٰ الطريق، وهو هُدىٰ الوحي واختياره للرسالة، المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١﴾، فهذا هو نداء الوحي، وقد تيقَّنه موسىٰ عليه السلام، وإن لم يعلم كُنهَه وكيفيَته ـ والله أعلم ـ؛ إذ الوحي عِرفانٌ مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن. وهكذا يتلقَّاه جبريل أيضاً من الرحيم الرحمن، والله أعلم.

وكلامه سبحانه مجهول الكيفيَّة[2] كسائر صفات الله العليَّة، إذ ليس كمثله شيء. والتصديق بالشيء لا يتوقَّف علىٰ معرفة كُنهه وكيفيته، فإن أكثر ما نُصدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقتَه ولا كُنهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده. فالكهرباء نستخدمه ولا نعلم حقيقته، والنوم يجري فينا ولا نعلم كيفيته، وأمثاله كثيرة. فعملية التذكُّر والإدراك نفسها ليس أحد يعرف كيف تتمُّ له، وكيف يخطر الشيء بباله بعد أن لم يكن، فهو لا يعلم هذه الحقيقة الثابتة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٧٤).

(٢) الصواب: أن كلامه سبحانه وتعالى ـ وكذا ذاتُه وسائر صفاته ـ لا تُكيَّف، أي: لا كيفية لها، لا أنها مجهولة الكيفية، وهذا معنى قول السلف: بلا كيف، وقولهم: بلا تكييف.

ومن المعلوم أنَّ الأنبياء من أكمل البشر، مُزوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات بطريقةٍ فوق نطاق الحواس المعتاد، يجري فيهم ذلك ولا يعلمون كيفيته، فيعرفون الوحي والإلهام، عرفاناً مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، إلا إذا كان بواسطة المَلَك، فذلك معلوم لديهم، كما كان يجري بين محمد ﷺ وجبريل عليه السلام، فيسمع مثل صَلْصَلَة الجرس، فينفصم عنه ويعي ما يقول[1].

وهكذا تيقَّن موسىٰ عليه السلام أنَّ هذا النداء والطلب من الله تعالىٰ، ولكنه إشعار علىٰ وجه لا يعرفه. ومفهومه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ تواضعاً وأدباً واحتراماً للوادي المقدَّس بعقد إرسالك، حيث تُختار رسولاً، كما يُفهَمُ من التعليل بقوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: للرسالة ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ إليك، وهو: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾، وقد أفادت هذه الآية: أنَّ الصلاة إنما هي لتذكُّر الله وإشعار النفس بهذا الشعور؛ لتنمو في طاعة الله، ولذلك خُصَّت بالذكر بعد الأمر بالعبادة التي تشملها وغيرَها.

وبعد أن ذكر الأصل الأول من الدين ـ وهو التوحيد ـ، والأصلَ الثاني ـ وهو العبادة ـ، ذكر الأصل الثالث ـ وهو: الحشر والحساب ـ، وسبكه علىٰ التعليل لما قبله فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، وهذه الجملة تُنبِئُ عن شدَّة خفاء أمر الساعة؛ لأنها لا تكون إلا بَغْتة. وقيل: ﴿أُخْفِيهَا﴾، بمعنىٰ: أُظهِرُها، مِنْ: أخفىٰ الشيءَ؛ إذا أزال خفاءه؛ لأنَّ كلمتي: أسرَّ الشيء وأخفاه، تأتيان للضد أيضاً، أي: تأتي كلٌّ منهما بمعنىٰ: أخفىٰ، وبمعنىٰ: أزال الخفاء.

---

(١) يشير إلي الحديث المتفق عليه؛ رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣)، عن عائشة: أن الحارث ابن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، ثم يفصم عني وقد وعيته، وأحياناً ملك في مثل صورة الرجل فأعي ما يقول».

ثم ذكر عاقبة أمر الساعة بصورة التعليل الغائي لقيام الساعة، فقال: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

ثم ختم الكلام بعبارة تدلُّ بطريقة التعريض علىٰ التوعُّد لمن يكفر بها، فقال: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: فتهلك. والآيةُ خطابٌ للأمة في شخص النبي ﷺ من باب خطاب العين مراداً به الغير. مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، أو هو من باب شدَّة البيان والمبالغة في تقريره؛ للحَمْل علىٰ الإيمان باليوم الآخر والعمل له، علىٰ نهج القرآن في أساليبه.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم انتقل من بيان الإيحاء إليه بأصول الدين إلىٰ بيان إكرامه بالمعجزة، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، وهذا الاستفهام تمهيدٌ لما بعده، يتضمَّن تنبيهاً وإيقاظاً لما سَيُريه فيها من العجائب المُخالفة لطبيعتها التي هي عليها، والتي يعلمها منها عليه السلام، ممَّا عدَّده لها حيث ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، وكأنه عليه السلام فهم أنَّ المقصود من السؤال استقصاءُ أهمِّ مآربه بها، حتىٰ إذا بَدَت منها خواص عجيبة غير الحقيقة التي يعلمها منها، عَلِمَ أنها آيات باهرة أحدثها الله تعالىٰ فيها، فبيَّن أنها من العِصِيِّ المعتادة، ومنافعه بها منافع العِصِيِّ لا غير.

وبعد هذه المقدِّمة والتمهيد ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ لترىٰ من شأنها ما لم يخطر ببالك، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: بعد أن تأخذها، أو من أول ما تضع يدك عليها. والله أعلم.

وبعد انتهاء هذه المعجزة أظهر له المعجزة الثانية المتمِّمة لها، فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: جَنْبك تحت العضد، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بها، فتكون لك ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ دالةً علىٰ نبوتك، و﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ أي: الدالة علىٰ عظيم القدرة.

وبعد إعطائه الآيات أرسله، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بهذه الآيات الكبرىٰ، وادْعُهُ إلىٰ عبادتي، وأنذِرْهُ عاقبةَ أمره، ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: جاوز الحدَّ في العُتوِّ والتجبُّر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾.

أما موسىٰ عليه السلام فقد استعان علىٰ ذلك بربِّه لـما علم عِظَـمَ المهمَّة التي أُنيطت به، وطلب منه سبحانه أن يُهيِّئه لها و﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾، وشرحُ الصَّدر كنايةٌ عن الأناة والحِلم والثبات تجاه ما سيلقاه من الأمور المزعجة.

ثم طلب منه أن يُسهِّل عليه هذا الأمر الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمُها، وأصعبُ الخطوب وأصلبها، فقال: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾، وذلك بتوفيق الأسباب ورفع الموانع.

ثم طلب منه تعالىٰ أن يجعله بليغاً في كلامه، قوياً في حُجَّته وبرهانه، مؤثِّراً في إقناعه، فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ وهذه الخاصَّة أحوَجُ ما يحتاج إليه القائم بأمر الانقلاب الإصلاحي، سيَّما الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذلك قال ﷺ: «أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم»[1]، وقال: «أنا أفصَحُ مَنْ نطق بالضاد»[2]، وكان ﷺ من الفصاحة والبلاغة ووضوح البيان وقوَّة البرهان في المقام الأعلىٰ.

ثم طلب موسىٰ عليه السلام مؤازرتَه ومناصرتَه بأخيه، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾ أي: قَوِّ به ظهري وأعنِّي به، ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ أي: اجعله شريكي في أمر الرسالة، وكان أكبر منه سناً.

ثم أقام مقام العِلَّة لتلك المطالب المؤدِّية إلىٰ نجاح المهمة، بيانَ الغاية من الرسالة، فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾، ولا يختصّ هذا الفعل وهذه الغاية بموسىٰ وأخيه، بل يعمُّ أهلَ الدعوة كلَّهم، فكأنه أراد تأييد الدعوة بهذه الوزارة، ونجاحها بكثرة الأتباع، واشتراكهم بالذكر والتَّسبيح.

ثم علَّل الطلب بعلَّة أخرىٰ مُقْتضية له، فقال: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: عالماً بأحوالنا، وبأنَّ ما دعوتُك به وطلبتُه منك مما يُصلحنا ويُعيننا، وبأنَّ هارون علىٰ ما به من الخصائص صالحٌ لمؤازرتي وشادٌّ لعَضُدي. ويجوز أن تكون هذه الفقرة استشهادًا منه علىٰ الإخلاص في التسبيح والذكر والقيام بالدعوة.

---

(١) رواه مسلم (٥٢٣)، عن أبي هريرة بلفظ: «أُعطيت جوامع الكلم».

(٢) ذكره علي القاري في «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» (٤١)، وقال: «معناه صحيح ولا أصل له كما قال ابن كثير [في «تفسيره» (١: ١٤٣)] وابن الجزري».

وقد قرن سبحانه وتعالىٰ الطلبَ بالإجابة و﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أُعطيتَ مطالبَك هذه.

وبمناسبة إعطائه هذه المطالب إثر إكرامه بالرسالة ليتسنَّىٰ له القيام بها، ذكَّره بالنِّعَم التي قد أنعم بها عليه من قبل، للإشعار بأنه في رعايته؛ ولأنَّ التذكير بالنِّعَم يُثيرُ الشكر في النفوس الطيبة، ويُثيرُ الشعور بالقيام بالواجب، ولا سيما فيما كانت النِّعَم لأجله، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ كأنه تعالىٰ يقول: ولقد راعيتُ كذلك مصلحتك من أول أمرك ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ألهمناها ما ألهمناها ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر. والإلهام: وجدانٌ تستيقنه النفسُ وتنساق إلىٰ ما يطلب، من غير شعور منها من أين أتىٰ وكيف أتىٰ. والقذف: يستعمل بمعنىٰ الوضع، وبمعنىٰ الإلقاء، وقد استُعملا معاً هنا، والمراد: ضَعِيه في الصندوق وألقيه في اليَمّ، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ وقد أخرج تنفيذ الإرادة مخرج الأمر، للإلماع بأنَّ ذلك واقع لا مَحَالة، أي: وقد أردنا من البحر أن يُلقيَه بالساحل، ثم حسَّس بالعبرة ضمن بيان المصير، فقال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

ثم بيَّن سبحانه أنه ـ رغماً عن تلك العداوة ـ جعله محبوباً عند فرعون، فقال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي: ليتعطَّف عليك، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لِتُرَبَّىٰ بالحُنوِّ والشَّفَقَة لمراقبتي لك. والمعنىٰ: جعلتُك بحيث يحبُّك مَنْ يراك، حتىٰ أحبَّك فرعون وأحبتك امرأته فتبنَّتك وربَّتك في حجرها، وكان أمرك يجري علىٰ ما أريد.

وهذه الجملة واردة علىٰ عُرف المُخَاطَبين فإنَّ من يصنع لإنسان شيئاً وهو حاضر، يصنعه كما يحبُّ ويرضىٰ. وأخْذُ المعنىٰ من عُرف المخاطَبين أسلوب من أساليب القرآن، (كما جاء بيانه في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

وقيل: بل المراد حراسته، وأيُّ حراسة أعظم من أن يُلقىٰ في البحر خوفاً من فرعون ومَلَئِهِ أن يقتلوه، فيُخرِجُه الله ويُربِّيه في حجر فرعون رغم أنفه؟!

ثم فصَّل تعالىٰ شيئاً من صُنعه علىٰ عينه بقوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾، وذلك لأنه كان لا يقبل ثديَ المراضع.

وقد روي: أنه فشا الخبر بمصر أنَّ آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل لا يرتضع امرأة، واضطروا إلىٰ تتبُّع النساء، فخرجت أختُه مريم لتعرف خبره، فجاءتهم متنكِّرة، فقالت ما قالت، وقبلوا، فجاءت بأمها، فقبل ثديها. وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، وهذه أجلُّ منَّة من مِنَنِ الله، وأعظمُ عبرةٍ لأولي الألباب.

ثم ذكر دَوْراً آخر من تنشئته وعنايته به في تاريخ حياته قبل النبوَّة، فقال: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ من القبط خطأً، فاغتَمَمتَ خوفاً من الله ومن قصاص فرعون ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾، وهذا مأخوذ من قولهم: فتنتُ الذهبَ؛ إذا خلَّصه مما يشوبُه. أي: ابتليناك ابتلاءً فيما يشقُّ عليك لتُدرَّب وتُمرَّن علىٰ ما ينتظرك في مستقبل حياتك، وهو القيام بأعمال النبوَّة المرشَّح لها، وتحمُّلك لتلك المشاقّ العظيمة.

وعن ابن عباس ما معناه: أن الآية بمعنىٰ: خلَّصناك من محنة بعد محنة[1]، حيثُ إنك وُلِدتَ في عامٍ كان فرعون يقتل فيه وِلْدانَ بني إسرائيل، فنجَّاك الله من ذلك، وألقتك أمك في البحر، وأنقذك الله منه إلىٰ ما فيه مصلحتك، وهمَّ فرعون بقتلك حين قتلتَ القبطيّ، فنجَّاك الله منه بالمهاجرة إلىٰ مدين، ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ علىٰ أحسن حال، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: علىٰ مدَّة قدَّرتُها لاستوائك واختيارك

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٣: ٦٥).

للنبوَّة والرسالة، ﴿وَ﴾ قد ﴿اصطَنَعتُكَ لِنَفسِي ﴿٤١﴾﴾ أي: هيّأتُ لك هذه التربية لتكون رسولاً لي، فقُمْ و﴿اذهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِي﴾ أي: بمعجزاتي التي أعطيتكها، ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكرِي ﴿٤٢﴾﴾ أي: لا تفترا في التذكير بي. وقد عبَّر بهذه عن الدعوة إلىٰ الله؛ لأنَّ أهمَّ عناصر الشريعة ذِكرُ الله وتوحيدُه وتنزيهُه.

﴿اذهَبَآ إِلَىٰ فِرعَونَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَولًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَو يَخشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفرُطَ عَلَينَآ أَو أَن يَطغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرسِل مَعَنَا بَنِيٓ إِسرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبهُم قَد جِئنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَد أُوحِيَ إِلَينَآ أَنَّ ٱلعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعطَىٰ كُلَّ شَيءٍ خَلقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلقُرُونِ ٱلأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرضَ مَهدٗا وَسَلَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخرَجنَا بِهِۦٓ أَزوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرعَوا۟ أَنعَٰمَكُم إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنهَا خَلَقنَٰكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم وَمِنهَا نُخرِجُكُم تَارَةً أُخرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

وبعد أن أمرهما سبحانه بهذا الأمر العام، عيَّن وِجْهَتَهما التي يجب أن يتَّجهاها، فقال: ﴿اذهَبَآ إِلَىٰ فِرعَونَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: تجاوز الحدَّ في العُتوِّ والتجبُّر والإعراض عن الله والإفساد في الأرض.

ثم بيَّن لهم طريقة الدعوة التي يُوجِّهانها إليه؛ إرشاداً لهما إلىٰ الصُّورة التي هي أقربُ للنجاح مع الجبابرة العُتاة، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَولًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَو يَخشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ضَعَا صورة دعوتكما له بشكل هيِّن ليِّن، وبطريقة تؤدِّي إلىٰ عِلمِهِ بذات الله أو خشيته من الله؛ لأنَّ الانقياد إلىٰ الله تعالىٰ لا يكون إلا من أحد هذين الطريقين: الأول:

العلم بذاته تعالىٰ علماً صحيحاً؛ لأنَّ مَنْ علم بشيء علماً حقيقياً صحيحاً لا بدَّ وأن يتمسَّك بمقتضاه. والثاني: العلم بأهوال يوم القيامة والحساب والعقاب، فإنه يحمل علىٰ الخشية والانقياد.

أما هما فقد سألا ربَّهما المعونةَ عليه، ولكنهما جَعَلا صورةَ السؤال بيانَ ما يحذران منه، و﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي: يعجِّل بالعقوبة، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ علىٰ بني إسرائيل، فأعِنَّا عليه، ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أي: معيَّة حِفظٍ ونصر ومعونة، ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ وهذا إيغالٌ في التثبيت لهما والوعد بحفظهما.

ثم لقَّنهما صورة هذه الدعوة بفرعَيْها: التذكير والخشية، وقال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: لا تمنعهم من الخروج معنا، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: إذا خرجوا. ثم أمرهما أن يفتتحا دعوىٰ الرسالة، بقولهما له: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ تدلُّ علىٰ صدق دعوانا الرسالة وتهدي إلىٰ الحق والسَّداد، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾ أي: بتصديق آيات الله الداعية إلىٰ الصلاح العام، والعمل بموجبات الرسالة التي تُفضي بالإنسان إلىٰ سبيل الرشاد، وتجري به إلىٰ ساحل السلامة والنجاة.

وبعد أن ذكر القسم الأول من الدعوة ـ وهو التذكير ـ، ذكر القسم الثاني ـ وهو الذي يؤدِّي إلىٰ الخشية ـ، وخصَّ هذا بذكر الإيحاء؛ للزيادة في الإخبات والتوقيف علىٰ جليَّة الأمر، فقال: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ أي: علىٰ مَنْ كذَّب بما جئنا به وأعرَض عنه.

فدخل فرعون معهما في المناظرة، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ الذي أرسلكما. وخطابُ الاثنين وتخصيصُ النداء بالممتاز منهما: هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

فأجاب موسىٰ عليه السلام بما حكىٰ الله سبحانه عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ ويسَّر كلاً لما خُلق له. والخلقُ لغةً: التقديرُ والترتيبُ الدالُّ علىٰ النظام والإتقان. والمعنىٰ: هو الذي أعطىٰ كلَّ شيء ما يحتاجه من التقدير والترتيب والنظام والإتقان، ثم أودع فيه إدراكاً وقوَّةً تهديه لخيره وصلاحه.

ومفصَّل المعنىٰ: أنه هو الخالق الذي نوَّع هيئة المخلوقات وصوَّرها، وشكَّل أعضاءها وأوضاعها وطباعها، حَسْبَما تقتضيه الحكمة والمصلحة في ذلك، ثم هداها لخيرها، ولطريقة الانتفاع والارتفاق بما أعطاها ووهبها، فعَرَفَتْ كيف تتوصَّل إلىٰ بقاء نوعها وكمالها، إما اختيارياً كالإنسان، أو شبيهاً بالاختيار كالحيوانات، أو انطباعاً كما في الجمادات والنباتات. وقد زاد الإنسانَ هدايةً ثانية دون سائر المخلوقات، وهي الهداية بإنزال الشرائع مضافةً إلىٰ الهداية الطبيعية.

وهذا الجواب في غاية البلاغة والإلزام، لدلالة هذا الأثر الملموس علىٰ المؤثِّر القادر الحكيم المختصِّ بأفعال الألوهية وصفاتها، والاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر هو من أقوىٰ أنواع الاستدلال. وفي هذا الجواب أيضاً إيماءٌ إلىٰ أنّ مواهب الله تعالىٰ في البشر مِن عقلٍ وإدراكٍ وتفكير مطبوعةٌ علىٰ أن تهدي صاحبَها للحق والصواب ما لم يُفسِدْها صاحبُها.

فلما سمع فرعون هذا البرهان النيِّر، خاف أن يفتضح أمرُه أمام قومه ومَلَئِهِ، فصَرَف الكلام عن طريقته إلىٰ نوع آخر من المقال، فسأل عن الأمم الماضية والقرون الخالية: ماذا جرىٰ عليهم من الحوادث المفصَّلة بعد موتهم؟ وماذا كان من أمرهم؟ كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾[1].

---

(١) بعد أن سمع فرعون من موسىٰ عليه السلام أن الإنسان عَقِبَ الموت صائرٌ إما إلىٰ سعادة =

فأجاب عليه السلام بأن العلم بأحوالها مفصَّلةً مما لا ملابسةَ له بمنصب الرسالة، وإنما عِلمُها عند الله عزَّ وجلَّ، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: إنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وإنما أنا عبد لا أعلم منها إلا ما علَّمنيه من الأمور المتعلِّقة بما أُرسِلتُ به. ثم أكمل الجواب بقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾، وقد صاغ الجواب علىٰ إرجاع الكلام إلىٰ مِحوَرِهِ الذي أخرجه عنه فرعون ـ وهو بيان شؤونه تعالىٰ ـ واسترسل في ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: صالحة للعيش عليها، حيث لم يجعلها صُلبة ولا مائعة؛ لأنَّ كليهما لا يصلحان للزرع ولا للسكنىٰ، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: هيَّأ لكم طُرق المواصلات لينتظم العيش، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مباركاً.

ثم عدل في شرح هذه المنَّة من الغَيْبة إلىٰ التكلُّم، زيادةً في التحسيس بفَضْل الله، وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾، ثم زاد التحسيس تمنُّناً بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: من هذه المُخرَجات المباركات المنوَّعات.

ثم ختم البحث بما يزيد في التنبيه، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ أي: لأرباب العقول، فإنهم هم الذي يُدرِكون بها عَظَمةَ الخالق وحكمتَه وإنعامَه واستحقاقَه وحده لأن يُعبَد.

ثم ساق الكلام إلىٰ البعث، تكملةً للبحث عن أصول الدين، وقاسه علىٰ إخراج

= وإما إلىٰ شقاء، وأن السعادة والسلامة لمن آمن بالله واتَّبع هداه، وأنَّ الشقاء لمن تولَّىٰ وكذَّب برسالة الله؛ قال لموسىٰ: إذن فما بال القرون الأولىٰ الذين لم يؤمنوا بإلهك ولم يتَّبعوا مثل طريقتك؟ قال: مصيرهم إلىٰ الشقاء، لا يُهمِلُ الله منهم أحداً، ولا ينسىٰ لأحدهم عملاً، لا يضلُّ ربي ولا ينسىٰ. (المؤلف).

النبات من الأرض بعد اليبس، علىٰ نهج القرآن في ذلك كلَّما ذكر الإنبات، فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من الأرض خلقناكم، يشير إلىٰ أصل البشر، وهو آدم، وأثر الأصل لا يفارق الفرع. ويجوز أن يُراد به النطفة المتولِّدة من الأغذية المتولِّدة من الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وانحلال أجزاء الجسم، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ بالإنبات مِن بذرة عَجْب الذَّنَب التي لا تَبْلىٰ، كما لمح لذلك ما جاء عنه ﷺ: «كلُّ ابن آدم يأكله الترابُ إلا عَجْبَ الذنب»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنسلون»[1]. والمراد به ـ والله أعلم ـ ما يُعبَّر عنه بنواة الحياة، ولا يعلم هذا الغيب إلا الله، لأنّ أسرار الخليقة لا يعلمها إلا الله، والتعبير بحبة الخردل تعبير عُرفيّ، لأنه ـ والله أعلم ـ أدقُّ من أن يُدرِكَه المنظار.

وفي الآية إيماءٌ إلىٰ الاستدلال بالأطوار المعلومة عن القدرة علىٰ الأطوار المجهولة بعد الموت؛ لأنها كلَّها موضع إعجاب ومظهر قدرة عظيمة لا يُعجزها شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ جاء معترضاً في المحاورة علىٰ صورة بيان من الله تعالىٰ وتمنُّن.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾.

ثم تابع الكلام بحكاية ما جرىٰ بينهما بعد المناظرة، وافتتح ذلك بتبكيته وتأنيبه،

---

(١) سلف تخريجه (٤: ٤٢٨).

فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي: أرينا فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: معجزاتِنا الدالةَ علىٰ نبوة موسىٰ ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ عُتواً واستكباراً، و﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ وهذا شأنُ شياطين الإنس المعارضين للمُصلِحين، يختلقون عليهم ما يروج بين الناس، ويضربون علىٰ الوتر الحسَّاس. فقد هيَّج فرعونُ الشعبَ علىٰ موسىٰ بقوله: ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم تحدَّاه واستخفَّ به بقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ أي: مكاناً مستوياً بارزاً يظهر ما فيه لكلِّ مَنْ فيه، ويقصد بذلك أن يخدع الشعب بأنه واثق بتفوُّق ما عنده علىٰ ما عند موسىٰ، تثبيتاً لعزمه.

فأجابهم موسىٰ عليه السلام بما فيه مقابلةٌ لهم في الثقة والإدلال بالنفس ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ فالظاهر أنه يَعِدُهم في مكان معيَّن معروف يجتمعون فيه يومَ عيد لهم. وإنما خصَّه ـ عليه السلام ـ بالتعيين؛ لإظهار كمال قوَّته وكونه علىٰ ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم، وليكون ظهورُ الحقِّ وزهوقُ الباطل في يوم مشهود.

ثم ذكر ما كان من جَمْع فرعون لأمره وتهيُّئه لهذا اليوم، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: مكرَه وتدبيرَه الخفيّ، يعني: السَّحَرة الكائدين. فاستعمل المصدر بدل الوصف مبالغةً في المعنىٰ، أي: جمع السحرة، ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ للموعد.

وعندما اجتمعوا شَرَع موسىٰ عليه السلام بالإرشاد والتَّحذير قبل مباشرة العمل، وذلك بمقتضىٰ حكم النبوَّة والرسالة، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تَدْعوا آياتِهِ التي ستظهر علىٰ يَدَيَّ:

سحراً، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يستأصلكم بعذاب، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ على الله.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

وعظَهم موسىٰ عليه السلام قبل الدخول في المخاصمة، وهذا دأب الأنبياء والمصلحين، وقد أثَّرت فيهم هذه الموعظةُ وتفرَّق رأيهم، ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ يعني: أهل الحلِّ والعقد، وفيهم السحرة.

ثم حكىٰ سبحانه رأي الحزب الغالب من بين المتنازعين، وهم الأكثر، فقال: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ الدينية والسياسية.

والقرآنُ يُغيِّر نَسَقَ الكلام أو الإعرابَ لزيادة الاهتمام بالمفهوم، فقد غيَّر الإعرابَ هنا وجعل اسمَ «إنَّ» ضميرَ شأن؛ لتدلَّ الجملةُ علىٰ زيادة التحريض؛ لأن الجملة صارت أكثرَ تأكيداً بزيادة ضمير الشأن، والمقام يقتضي ذلك، والبلاغة العالية تجعل لكلِّ مقام مقالاً. فإنَّ الحزب الغالب ـ وهم أهلُ الحلِّ والعقد ومَنْ لفَّ لفَّهم ـ يقولون هذا القول المليء بالتحذير والتحريض للحزب المعارض الذي لان بوعظ موسىٰ عليه السلام، وليُميلوهم إليهم، ويعملوا جميعاً في كيد موسىٰ، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ واحداً متفقاً في الرأي من دون تفريق.

ثم قرن هذا الأمر بما فيه إغراء وتعليل، فقال: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مَنْ تفوَّق أو غلب منا أو منه.

فاتفقوا و﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾، وهذا التخيير خديعة أظهروا فيه التجلُّد، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ عليه السلام استهانةً بهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم، فألقَوْا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ أي: بتمويههم ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾، وهذا يدلُّ علىٰ أن السحر إيهامٌ وتخييلٌ كاذب. قيل: إنهم استعانوا علىٰ هذا التمويه بالزئبق وحرارة الشمس.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ إذ خشي أن يتأثَّر الناظرون بهذا المنظر الخلَّاب، ويظنُّوه من جنس معجزة موسىٰ. يُفهم ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ والغالب، والاحتباك: هو من أنواع إيجازات القرآن، وذلك بأن يُجمِلَ في الجملة الأولىٰ أو يُضمِرَ فيها، اعتماداً علىٰ ما يفصِّله أو يذكرُه في الثانية. وهذا الخوف غير خوفه في أوَّل مرة يرىٰ عصاه تهتزُّ كأنها جانٌّ، كما جاء في سورة النمل

والقصص[١]، فإنَّ ذلك كان رهبةً منه، كما رجع نبينا ﷺ إلىٰ خديجة رضي الله عنها يَرجُفُ فؤادُه في أول مرةٍ رأىٰ فيها الوحي[٢].

وبعد أن شجَّعه تجاه عملهم أمره بالإلقاء، فقال: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ مِنْ: لَـقَفَهُ؛ إذا التقمه وابتلعه بسرعة. والتعبير بـ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ للإيذان بالتمويه والتزوير، والتلميح إلىٰ الاحتقار.

ثم صرَّح بذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[٣] أي: إن صنيعهم هذا إنما هو تمويهٌ وسحرٌ وحيلةٌ ومكر، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾، بل يظهر مكرُه ويفتضح سحره.

فلما ألقىٰ موسىٰ عليه السلام، تبيَّن لدىٰ السَّحَرة أنَّ عمله هذا معجزة باهرة، وليس من جنس السحر والشعوذة والتمويه؛ لأنهم أعرفُ الناس بذلك.

وقد كانوا قد تأثَّروا بالوعظ فآمنوا لموسىٰ عليه السلام، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لله تعالىٰ، و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾.

فاستنكر ذلك منهم فرعون، وادَّعىٰ أنها مواطأة مع موسىٰ ومالأة له، و﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُمْ﴾ أي: قبل أن تأخذوا رأيي وإذني. وهذا الاحتجاج يدلُّ

---

(١) يعني: الآية ١٠ من سورة النمل، والآية ٣١ من سورة القصص.

(٢) يشير إلى الحديث المتفق عليه، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة قالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة...، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه...».

(٣) قرئ أيضاً بنصب «كيد» على أنه مفعول، و«إنما» أداة حَصْر، أي: إنما صنعوا خديعةَ ساحر. (المؤلف).

ذكر قراءة النصب الطبريُّ في «تفسيره» (١٨: ٣٣٧)، ولم ينسبها لأحد.

دلالةً صريحة علىٰ الاعتراف بالخذلان والفشل، وأنَّ باطلَه قد ظهر كما ظهر الحقُّ مع موسىٰ عليه السلام، ولكنه عمد إلىٰ العِناد والصَّلَف، مُحتجَّاً بأنه كان عليهم أن يتنظروا إذنَه بإعلان غَلَبة موسىٰ ووجوب اتِّباعه بناءً علىٰ ما اتفقوا عليه، ولكنهم لـما استعجلوا بإيمانهم قبل صدور إذنه تحجَّج وغضب وأعرض، كما هو شأن الجبابرة العُتاة عند التعدِّي علىٰ حدود سلطانهم وجبروتهم، فاتَّخذ ذلك ذريعة للانحراف عمَّا لزمه من الحق وتنفيذ المقاولة المعقودة بينهم في وجوب اتِّباع الغالب، وتحجَّج وتعلَّل بأنَّ الأمر كان ممالأة ومواطأة، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في فنِّكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، فتواطأتم علىٰ ما فعلتم.

ثم أقبل عليهم بالوعيد، وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: اليد اليمنىٰ والرِّجْل اليسرىٰ، فتوعَّدهم بأفظع صور التعذيب. وقال أبو السعود: تعيين تلك الحال، للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا مَحَالة، وذلك بتعيين كيفيته المعهودة في باب السياسة، لا لأنها أفظعُ من غيرها[1].

ثم قال في إتمام الوعيد: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ تشهيراً وتعذيباً. وآثر كلمة ﴿فِى﴾ للدلالة علىٰ إبقائهم عليها زماناً مديداً، تشبيهاً لاستقرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف.

ثم زاد في التوعُّد بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ أي: أنا أم موسىٰ. ويعني بعذاب موسىٰ: عذاب الله الذي توعَّدهم به موسىٰ. ومعنىٰ «أبقىٰ»: أثبت وأدوم.

ولما كان الإيمان قد تمكَّن في قلوبهم ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة علىٰ صِدْق موسىٰ عليه السلام، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٦: ٢٩).

معطوفاً علىٰ ﴿مَا﴾، أي: وعلىٰ الذي فطرنا وخلقنا، وهو الله سبحانه وتعالىٰ، أو أن يكون قسماً لتقرير الإيثار، أي: والذي فطرنا لن نُؤْثرك علىٰ ما جاءنا من البيِّنات.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع بنا ما شئت، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ أي: إنّ ما تصنعه معنا من الشقاء لا يتجاوز هذه الحياة الدنيا. وبلاءُ الدنيا مهما كان نوعه من الشدَّة يعدُّ عافيةً في جَنْب شقاء الآخرة وبلائها. ولا يُنْبئ هذا الكلام بأنَّ إيمانهم هذا كان نتيجةَ مجلسٍ واحد إثرَ حادثة المغالَبة وتفوُّق موسىٰ، بل يحتمل أنهم اجتمعوا بعدها بموسىٰ مراراً، وتلقَّوا كثيراً من الوحي والتعاليم حتىٰ استقرَّ إيمانهم علىٰ هذه الصفة الثابتة، وذلك علىٰ نهج القرآن في إجمال البيان. والله أعلم.

ثم قالوا في إتمام البيان: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي: في معارضة المعجزة. ويدلُّ قولهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ علىٰ أحد أمور ثلاثة: إما أنهم علموا إجمالاً قبل المغالبة أن عمليَّة موسىٰ هي معجزة لا شَعْوذة، ولكن فرعون أكرههم علىٰ المعارضة، وإما أن تكون هذه فكرة فرقةٍ منهم، وإما أن يكون معنىٰ ﴿أَكْرَهْتَنَا﴾: أوقَعْتَنا فيما علمنا بعدُ بخطئه وكرهه.

ثم علَّلوا انحيازهم إلىٰ جانب موسىٰ بقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ ثواباً، أو: خير ثواباً، وأبقىٰ عقاباً.

ثم فصَّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ أي: تطهَّر من دَنَسِ الكفر والمعاصي، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصَّالحة. والآية الأخيرة يجوز أن تكون من كلام الله.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم ذكر الفصل الثاني من قصَّة موسىٰ وفرعون، وهو خروج موسىٰ بقومه من مصر بأمر الله وغرق فرعون وقومه، ذكر ذلك مُجْمَلاً، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سِرْ بهم ليلاً، ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وهي المعجزة التي فصِّلت في غير هذه السورة، ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ أي: غرقاً، أي: سِرْ بهم آمناً من أن يلحقك ويُدركك فرعون، وآمناً من غرق البحر.

فسار بهم موسىٰ، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ حتىٰ دخلوا عليهم البحر، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أي: من البحر وأمواجه ﴿مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾، وذلك بعد أن خرج منه موسىٰ وقومه. وهذا التعبير لتهويل الأمر وبيان عظمته، والمعنىٰ: غشيهم الذي عرفتموه وسمعتم به، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ أي: سَلَكَ بهم مسلكاً أدىٰ بهم إلىٰ الخيبة والخسران في الدنيا والأخرىٰ معاً.

ثم التفت إلىٰ بني إسرائيل يُعدِّد عليهم نِعَمَه وألطافه، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ بإغراقه ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾، وهذا تمنُّن عليهم بالنبوَّة والرسالة. وفيه التجوُّز بإسناد ما للنبيِّ من المواعَدَة إلىٰ أُمَّتِه المُرسَل إليهم، لاستفادتهم من هذه المنَّة، ومثل ذلك من خصائص اللغة. وإذا اعتبرنا اشتراك السبعين رجلاً معه في هذه المواعدة يكون الكلام من إسناد ما للبعض إلىٰ الكلِّ.

ثم تابع تعداد النِّعَم، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ في التِّيه ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾. قال أبو السعود: أي: الترنجبين والسماني، ينزل عليهم المنُّ مثل الثلج من الفجر إلىٰ الطلوع، يتمكَّن كلُّ واحد أن يصيب منه صاعاً، ويَبعَثُ ريحُ الجنوب عليهم السماني، فيَصْطاد الرجل منهم ما يكفيه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بالإخلال بشكري واتِّباع أمري، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ أي: تردَّىٰ وهلك.

ثم أردف هذا السياق ـ المتضمِّن للدعوة إلىٰ الإيمان وتَرْك العصيان ـ بالعفو عما سلف، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بحكم الشرع والعقل، ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ أي: ثم استكمل هداه؛ لأنَّ الهدىٰ يكمل تدريجاً بالعمل الصالح، أو: ثم استقام علىٰ هذا الهدىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣].

ويجوز أن يكون المعنىٰ: ثم اهتدىٰ إلىٰ طريق الإخلاص في العمل والكمال فيه، كي لا يكون عملُه جسماً بلا روح.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ

إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى
﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾
قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ
وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾
إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

ثم ذكر الفصل الثالث من القصَّة، وهو ما كان من فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل بعد أن سبقهم موسىٰ إلىٰ المناجاة، واستخلف عليهم أخاه هارون ليتَّبعه بهم، فأضلَّهم السامري، ورَجَع موسىٰ إليهم غضبان يلوم أخاه ويؤنِّبه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟ قال ابن إسحاق[1]: كانت المُواعدَةُ أن يوافي الميعاد هو وقومه، أو وجوه قومه. فالاستفهام للإنكار.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ عني بمسارعتي إلىٰ الامتثال بأمرك.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾[2] أي: اختبرناهم لك، وهي سنة الله في

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني (...-١٥١هـ) من حفاظ الحديث وكان قدرياً، له: «كتاب الخلفاء» و«السيرة النبوية». انظر: «الأعلام» للزركلي (٦: ٢٨).

(٢) يقال: فتن الذهب: إذا عمل به ما ينكشف له منه أنه مغشوش. ويقال للحجر التي يكشف بها ذلك: فتانة. ويقال: فتنه فتنةً، أي: خَبِرَه، أي: عَلِمَ أمرَه عن تجربة وواقع. وإسناد الفتنة =

أتباع الأنبياء ليتبيَّن للمجموع المؤمن والصادق الإيمان من المدَّعي الكاذب، ومَنْ هو في شكٍّ من الأمر، أو ذو ريبة فيه ومَيْل إلىٰ سواه.

ثم ذكر السبب المباشر لهذه الفتنة، فقال: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ حيث كان هو المدبِّر للفتنة والمخادع فيها.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ بعد انتهاء مدة الميعاد ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، فأنَّبهم و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوراةَ فيها نورٌ وهدىٰ، ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ ينكر عليهم أمرَهم ويوبِّخهم توبيخاً تهكُّمياً، بمعنىٰ: أنَّ الأمم إنما تقسو قلوبُها وتفسد شريعتُها إذا طال عليها الأمد، كما قال تعالىٰ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، لا إذا كانت الشريعةُ جديدةً والعهدُ قريباً. فالجملة إنكار مبنيٌّ علىٰ فقدان الأسباب المجوِّزة لاحتمال وقوع مثل ذلك، مسبوك علىٰ التهكُّم، وذلك أبلغُ في الإنكار. وقيل: بل يريد مدَّة مفارقته لهم، أي: لم تطل، فكيف أشركتم في هذه المدة القصيرة؟!

ثم ذكر وجهاً آخر من التأنيب مطوياً علىٰ التجهيل الهازئ والوعيد معاً، فقال: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ أي: وَعْدَكم إيَّاي بالثبات علىٰ ما أمرتكم به. وقيل: المراد: ولم تسيروا علىٰ أثري في الميقات. وهذا أبلغ

= إلىٰ الله سبحانه باعتبار سنة الله العامة في جِبِلَّة الإنسان، وتسليطه علىٰ إرادته، فإذا غيَّر مجرىٰ طبيعته بسوء تصرفه، وفساد تربيته، ساءت أعماله وضلَّت فعاله. فيُسنَدُ مثل هذا الفعل إلىٰ الله سبحانه؛ لأنه خلق الإنسان وأطلق له الحرية في تصرُّفه، وسلَّطه علىٰ إرادته، ويسند إلىٰ الإنسان نفسه؛ لأنه الفاعل المباشر، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، فأُسنِدَ الفتون إلىٰ الله سبحانه بهذا الاعتبار. (المؤلف).

تعبير في التأنيب، حيث نزَّل تعرُّضهم لغضب الله منزلةَ الإرادة منهم لحلول الغضب، مبالغةً لهم في التقريع.

وقد اعتذروا بما لا يُجْديهم، و﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: أصبحنا لا نملك أمرنا في ذلك، بمعنىٰ: أننا لم نكن نتمكَّن من البقاء علىٰ ما وعدناك به، بعد أن أدهشنا السامريُّ ببياناته واقتنعنا بإلقاءاته وأقاويله. وهذا هو مفاد مضمون قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: حُـمِّلنا[1] أثقالاً من حُليِّ القبط، وهو الحليُّ الذي انتزعوه من الغرقىٰ الذين ألقاهم البحر علىٰ الساحل. أو: كُـلِّفنا بجمع الحُليِّ الثـقيل من قومنا. وصيغة الفعل وبناؤها للمجهول تدلُّ علىٰ أنهم أُمروا بذلك، أي: أمرنا السامريُّ فجمعناها وحملناها، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ في النار، ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ ما كان معه.

وعُطفت هذه الجملة بالفاء لتدلَّ علىٰ أنه ألقىٰ بعد إلقائهم، واعتقدوا أنه ألقىٰ حُلياً مثلهم أيضاً، إلا أنهم لم يتيقّنوا ذلك الملقىٰ؛ لأن إلقاءه لم يكن صريحاً، فربما كان ما ألقاه شيئاً آخر. هذا رأيهم حسبما يقوله المفسِّرون.

والأقرب أن يكون قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ من كلام الله تعالىٰ، حكىٰ به وبما بعده صنيعَه بالحلي، أي: وكذلك ألقىٰ السامريُّ الحليَّ في المصنع، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ

---

(١) ألا يجوز أن يكون بناء ﴿حُمِّلْنَآ﴾ للمجهول؛ للإيماء إلىٰ أنَّ السامري كلَّفهم بذلك الحلي؟ وألا يجوز أن يكون المراد بإلقاء السامري إلقاء القول المضلل الذي أجمله سبحانه بقوله: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾؟ أي: شوَّقهم بقوة لعبادة العجل وصنعه لهم. والله أعلم.

وإنما غيَّر الأسلوب من الحكاية إلىٰ الإخبار في قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ زيادةَ اهتمام بالمدلول والموضوع، علىٰ ما تقتضيه البلاغة العالية وأساليب القرآن. (المؤلف).

﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ من هذا الحليِّ المذاب ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: يصوِّت. فيجوز أن يكون صنع قالبه بشكل جَعْل الجسد مُجَوَّفاً فكان كالصَّافرة، يدخل فيه الهواء فيجعل فيه صوتاً شبيهاً بصوت العجل.

وعندي أن الآية من مجاز تشبيه الأجسام بالأجسام، كقولك لِـمَا نُحِتَ علىٰ صورة الفرس: إنه فرس صهَّال، تقول ذلك للمبالغة في إتـقان صنعها، ولا يُراد به حقيقة المعنىٰ. وقوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ترشيح خياليّ له، لبيان أنَّ الصورة كانت مُتقنة الصُّنع، لا يشك الناظر إليها أنها ذات خوار، كما إذا رأيت صورة فرس مسرعة، فتقول: هذه فرس تنهب الأرض نهباً بسرعتها، وهذا الترشيح شبيهٌ بقوله تعالىٰ في سورة تبَّت: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، فإنه أراد بذكر هذا الحبل المبالغةَ بشدة تأثير مشاغباتها ودعاياتها. هذا رأيي، والله أعلم.

وبعد أن أخرج لهم هذه الصورة أخذ يُضلِّلهم هو وأشياعه بالأقاويل والإلقاءات، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ أن يتَّخذه، وذلك أنهم كانوا يعبدون مع المصريين العجل (أبيس)، علىٰ شكل هذا العجل الذي أخرجه لهم السامري. ومَنْ تشبَّع في نوع من الضلال وانطبع عليه، إذا أقلع عنه بتأثير مرشد أو توجيه مصلح، ثم عرض ما يُنبِّهه له ويشوِّقه إليه مرة أخرىٰ، عاد بسهولة إلىٰ سيرته الأولىٰ، وهكذا كان أمر المتَّبعين للسامريّ من بني إسرائيل في العودة إلىٰ عبادة العجل الذي أُشربوه في قلوبهم، كما ذكر ذلك سبحانه في سورة البقرة[1]. والواو في (قالوا) يعود إلىٰ السامريّ ومَنْ تبعه، والمعنىٰ: قال السامريُّ وأصحابه الذين اشتركوا معه في هذا الصنيع لبقية القوم.

---

(١) يعني: في الآية ٩٣ منها.

ويجوز أن يكون قولُه: ﴿فَنَسِيَ﴾ غيرَ داخل في الحكاية عنهم، وإنما هو من كلام الله تعالىٰ في حقِّ السامريِّ. والمعنىٰ: نسيَ السَّامريُّ كلَّ ما قيل له من مبادئ الإيمان وتعاليمه التي منها اختصاص الإلهية بالله، وأن مِثلَ العجل لا يكون إلهاً ولا يُتقرَّب به إلىٰ الله. وأراد بالنسيان: عدم التمسُّك بها، وأنه ضَرَبَ بها عُرْضَ الحائط. والله أعلم.

وإنما غيَّر الأسلوب من الحكاية إلىٰ الإخبار في قوله: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أو من قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ زيادةَ اهتمام بمدلول الكلام، بمقتضىٰ البلاغة العالية وأساليب القرآن، فيكون بصيغته إخباراً من الله سبحانه، وبسياقِه تتمَّةً لجوابهم، علىٰ نهج القرآن في مثله. والله أعلم.

ثم قبَّح نظرَهم وسَفَّه رأيهم وعقَّب علىٰ قولهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ فكيف يكون إلهاً مثل هذا الجماد؟! ألم يكن عندهم عقول تُدرك؟!

أما سببُ رجوعهم إلىٰ عبادة العِجْل بهذه السرعة، وعلىٰ هذه الصُّورة، بعد دخولهم في الدين مع موسىٰ، فهو أنهم قد تشبَّعوا بعبادة العِجْل ـ مع المصريين الذين كانوا وثنيين، وهم بينهم ـ أزماناً طويلة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، لذلك اعتقدوا ـ كما كانوا يعتقدون ـ أنه صورة عِجْل مُقدَّس يُقرِّبهم إلىٰ الله زُلفىٰ، أو يحلُّ به الإله حلولاً. تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً. وهم يتَّبعون في ذلك السخفِ والضلالِ عقيدةَ المصريين، كما حكىٰ عنهم سبحانه وتعالىٰ في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، قالوا ذلك عندما رأوا أناساً يعبدون الأصنام. وربما اعتقدوا أنَّ عبادة الأصنام لا تضرُّ بالتوحيد، بل تُقرِّب إلىٰ الله زلفىٰ كما كان يعتقد

المشركون من قريش، وكما تقول النصارىٰ: إن القول بالولد لله لا يعارض التوحيد. خابوا وخسروا.

ثم شرع في بيان ما كان من أمر هارون عليه السلام تجاه حادثة السامري هذه، فقال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل عودة موسىٰ عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾[1] أي: اختُبرتم به، بمعنىٰ: أنَّ هذا اختبار من الله سبحانه ليُظهِرَ كمينَ استعدادكم وما انطَوَتْ عليه سرائركم.

ثم أرشدهم إلىٰ الثبات علىٰ الإيمان، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾، ولكنهم لم تنفعهم المواعظ، وأصرُّوا علىٰ عبادة العِجْل؛ لأنهم قد أُلِفُوهُ وأُشبِعوه سابقاً مع المصريين، و﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ وهذه الغاية للانتهاء، أي: إلىٰ أن يأتينا موسىٰ بالشريعة الجديدة. ويجوز أن تكون للتعليل والتَّسويف. وقد دسُّوا تحت هذا القول: أنَّ موسىٰ لا يرجع بشيءٍ مبين، تعويلاً علىٰ مقالة السامري. فاعتزلهم هارون مع مَنْ معه من بني إسرائيل من المؤمنين.

فلمَّا رجع موسىٰ من الميقات، ورأىٰ بني إسرائيل علىٰ هذه الحالة؛ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ أي: فما حَمَلك أن لا تَتَّبعني، فضمَّن (منع) معنىٰ: حَمَل، وعدَّاها تعديتها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

---

(١) يقال: فتن الذهب؛ إذا عمل به ما يكشف أنه مغشوش. ويقال للحجر الذي يفعل الصائغ به ذلك: فتانة. ويقال: فتنته فتنةً، أي: خبره خبرة، بمعنىٰ: علم أمره عن تجربة وواقع حال. (المؤلف).

قال ابن عباس: أي: هلَّا اتَّبعتَني بمَنْ أقام علىٰ إيمانه[١].

وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه غضباً عليه، ﴿قَالَ﴾ هارون لموسىٰ: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ يستعطفه ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ إذ لست مُقصِّراً في الأمر، ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إنْ تركتُهم واتَّبعتُك بالمؤمنين أو قاتلتُ بعضهم ببعض ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ يريد قولَه: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، يعني: إني رأيت الإصلاح في حفظ الدَّهْماء والمداراة لهم إلىٰ أن ترجع إليهم؛ لتكون أنت المتدارك للأمر.

هذا ما كان من موسىٰ مع هارون عليهما السلام، أما ما كان من أمر موسىٰ مع السامريّ فقد حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ما حَمَلك علىٰ ما فعلت؟ يقول ذلك استنكاراً عليه وتوبيخاً له، ﴿قَالَ﴾ له السَّامريُّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ قال أبو السعود: وقرئ: (من أثر فرس الرسول) أي: من تربة موطئ فرس المَلَكَ الذي أُرسِلَ إليك ليذهب بك إلىٰ الطور، فنبذتُها في الحُليِّ المذابة، فكان ما كان، وهكذا زيَّنت لي نفسي[٢]. هذا ما ذهب إليه أكثر المفسِّرين.

وقال أبو مسلم: ليس في القرآن تصريحٌ بهذا الذي ذكره المفسِّرون.

فهاهنا وجهٌ آخر، وهو أن يكون المراد بالرسول: موسىٰ عليه السلام، وبأثره: سُنَّته ورَسْمه الذي أمر به. فقد يقال: فلان يَقْفو أثر فلان ويقبض أثره؛ إذا كان يمتثل رَسْمَه وخطَّته.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٣٦٠).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٦: ٣٩)، ونسب صاحب «البحر المحيط» (٧: ٣٧٦) القراءة لعبد الله.

والتقدير: أنَّ موسىٰ عليه السلام لـمّا أقبل علىٰ السامريّ باللوم والسؤال عن الأمر الذي دَعَاه إلىٰ إضلال القوم في عبادة العجل، قال له السامريُّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾[١] أي: عرفتُ أنَّ الذي أنتم عليه ليس بحق، وقد كنت قَبَضْتُ قبضةً من أثر الرسول، أي: شيئاً من سُنَّتك ودينك فنبذتُه وطرحتُه، وهكذا زيَّنت لي نفسي[٢]. وقد أورد الكلام بلفظ الإخبار عن غائب، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مُواجهٌ له: ما يقول الأمير في كذا؟

وأما دعاؤه موسىٰ عليه السلام رسولاً مع جَحْده وكفره، فعلىٰ مثل مذهب مَنْ حكىٰ الله تعالىٰ عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

أقول: أي: إنه من باب زراية الخصم تهكُّماً.

قال الرازي بعد أن نقل كلام أبي مسلم هذا: واعلم أنَّ هذا الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسِّرين، ولكنَّه أقربُ إلىٰ التحقيق لوجوه[٣]. فذكر عدَّة وجوه لصحَّة ما ذكره أبو مسلم، وتزييف ما يذكره المفسِّرون في هذا البحث.

---

(١) ألا يجوز أن يريد بقوله: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾: إني رأيت أنَّ عبادة العجل يُتقرَّب بها إلىٰ الله، لا ينافي التوحيد، فلم نترك عبادته. أفلا يجوز أن يريد هذا المعنىٰ أو مثله؟! (المؤلف).

(٢) اسم الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ يجوز أن يعود إلىٰ مصدر الفعل المذكور بعده، ومحل (كذلك) النصب علىٰ أنه مصدر تشبيهي، أي: نعت لمصدر محذوف، والتقدير: سوَّلت لي نفسي هذا التَّسويل، فقُدِّم علىٰ الفعل لإفادة القصر، والكاف مُقْحَمةٌ لإفادة تأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة. وحاصل الجواب: أن ما فعله إنما صَدَر عنه بمحض اتِّباع هوىٰ النفس الأمارة بالسوء، وإغوائها لا بشيء آخر من البرهان العقلي. (المؤلف).

(٣) «تفسير الرازي» (٢٢: ٩٥-٩٦).

وبعد أن أجابَ السَّامريّ بما أجاب به، أعلمه موسىٰ عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة، و﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أقول: هل أُصيبَ السامريُّ بمرض يُشبِهُ ما يسمُّونه النقرس، يتألَّم صاحبه ألماً شديداً إذا لمس جسمه؟ الله أعلم بذلك.

وقال بعض المفسِّرين: إن موسىٰ عليه السلام أمر الناس أن يقاطعوه ولا يخالطوه تضييقاً عليه حتىٰ هام في البراري، وعبَّر عن هذا المعنىٰ بهذه العبارة.

وعلىٰ كلٍّ، فهذا عذابه في الدنيا، أما عذابه في الآخرة فقد ذكره بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ وهو يوم الجزاء، يوم يُجازىٰ كلُّ عامل بعمله.

ثم حسَّسه بغباوته وغباوة المفتتنين به، فقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾، وهذا دحضٌ فعليٌّ لمدَّعاهم ولحُجَّتهم، علىٰ حدِّ صنيع إبراهيم عليه السلام بالأصنام. أي: فلو كان إلهاً لخلَّص نفسه، فما أذلَّ هذا الإله. والمراد بالتحريق: الإتلاف بتفريقه أجزاء دقيقة وسَحْقه. قال الفيروزآبادي: حرَّقه: بَـرَدَه أو حكَّ بعضه ببعض[1]. ويقال للمِبرَد: المحرق.

وإنما نسفه في اليم ـ وهو من الذهب ـ كي لا يتبرَّك به عابدوه إذا بقي منه أثر. والله أعلم.

وبعد أن أبطلَ الباطل أحقَّ الحق، ولوَّن الخطاب بتوجيهه إلىٰ العموم، فقال: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

وبهذا تمَّ حديث موسىٰ عليه السلام المسوق لتقرير أمر التوحيد، وانتهت القصة.

---

(١) «القاموس المحيط» (حرق).

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وقد أردفها سبحانه بما يردف به القصص من بيان الحكمة منها، وهي التثبيت والتَّبصرة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ في هذا القرآن ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾[1] أي: من أخبار الأمم الماضية؛ تثبيتاً وتَبْصرةً لك وللمؤمنين.

---

(١) والقصة تلمح ـ كبقية قصص الأنبياء ـ أنَّ أكثر الأمم إذا أتاها رسولها، قلَّما تنفكُّ عن وثنيتها، وإذا أخذت الدين الجديد فلا تأخذه خالصاً كما هو، بل لا بد أن تمزجه بشيء من وثنيتها، اللهم إلا أفراداً قلائل منها. ولذلك كانت أكثر الأمم تستعصي علىٰ الأنبياء، أو ترتدُّ بعد حين إلىٰ الوثنية. ولم يَسْلَم من هذه الظاهرة في الجملة إلا أتباع محمد ﷺ، لذلك قال: «أنا أكثر الأنبياء أتباعاً يوم القيامة». والله أعلم. والسبب هو علوُّ تعاليم القرآن، وتقدُّم الإنسان بالعلوم والمعارف، فالصحابة رضي الله عنهم نزعوا ثوبهم القديم تماماً ولبسوا ثوبهم الجديد خالصاً سليماً، حتىٰ أصبحوا غيرَهم بالأمس من كلِّ الوجوه. (المؤلف).
والحديث رواه مسلم (١٩٦)، عن أنس بن مالك.

ثم نوَّه بشأن هذا القرآن المحتوي علىٰ هذه الأنباء، فقال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ حقيقاً بالتفكُّر والاعتبار، يُؤدِّي إلىٰ سعادة الدارين، و﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: حِمْلاً ثقيلاً من العقوبة. وقد راعىٰ في إفراد الضمير لفظ: ﴿مَّنْ﴾، وراعىٰ المعنىٰ ـ وهو الجمع ـ في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في حَمْل هذا الوِزْر والشقاء المديد، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: ذلك العذاب الأليم. والخلاصة: أنهم بإعراضهم عنه يضلُّون سبيلَ النجاة والسعادة، ويَسْلكون سبيلَ شقاء لا نهاية له ولا خلاص.

ثم بسط الكلام عن ذلك اليوم وما فيه من أهوال، فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: مُسْوَدِّي الوجوه؛ لأنّ الزرقة تطلق علىٰ السواد[1].

ثم بيَّن حالتهم النَّفسيَّة ونَدَمهم، فقال: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يَتَلاومون سراً قائلين: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾، يُعبِّرون بذلك عن قِصَر مدَّة الدنيا، ويُنَدِّم بعضُهم بعضاً بصورة سريّة.

فزادهم الله تعالىٰ تنديماً، بترجيح قول مَنْ هو أشدُّ أسفاً وندماً، فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيما بينهم سراً، مُظْهرين للندم والتحسُّر، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدَلُهم رأياً: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾؛ يُظهِرُ شدَّة الأسف بالمبالغة في تقليل مدّة الدنيا بالنسبة إلىٰ ما بعدها من الخلود في الشقاء والعقوبات.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ما يكون في ذلك اليوم من أهوال طبيعيَّة، ذكره بطريقة السؤال والجواب من طرق أساليب القرآن، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى

---

(١) أو يحمل على ظاهره، والمراد: يتميَّز المجرمون يوم القيامة باللون الأزرق، من أثر الضربات التي تقع عليهم من ملائكة العذاب.

نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾، وإنما أتىٰ بالعاطف في ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ للإيذان باتصاله بما قبله. والصفصف: المستوي من الأرض، والأمْت: الارتفاعات في الأرض. ويكون ذلك النَّسف بنتيجة الاصْطدام العظيم بين الكواكب، ومنها هذه الأرض، عندما ينحلُّ نظام هذا الكون ويَفسُدُ أمره لاضمحلاله بتقادُم الدهور عليه[1]، وهو المعبَّر عنه بيوم القيامة.

و﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعوج عن أحد ولا يعدل عنه، بل يحشرهم جميعاً، أو لا يعوجون عنه ولا يعرضون. وعلىٰ كلٍّ، فالمعنىٰ: أنهم لا يَتمكَّنون يومئذٍ من الإعراض عن ذلك الداعي، كما أعرضوا اليوم عن هذا الداعي، وهو الرسول ﷺ.

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ وهذا تصويرٌ لعظمة الله وذلِّ العباد. اللهمَّ كُن لنا في ذلك اليوم العصيب ولا تكن علينا. والهمس: ما يُسمَعُ من وطء أخفاف الإبل، استعاره استعارةً لوطء أقدام الناس عند سعيهم للحساب.

ثم ندَّد بهؤلاء المشركين الذين يعتمدون علىٰ شفاعة أوليائهم، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في أن يشفع له. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أو محمولاً علىٰ المعنىٰ. علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن

---

(١) هذا غير مُسلَّم، فحلول يوم القيامة ـ بفساد نظام الكون واضمحلاله ـ إنما يكون بغتة، كما ذكر الله تعالى في غير ما آية من كتابه، وهذا يدلُّ على أن ذلك يكون بلا تقدُّم إشارات وعلامات على هذا الفساد والانقلاب في نظام الكون، فلا يكون بتقادُم الدهور عليه؛ إذ لو كان كذلك لظهرت بعضُ علامات التقادم وتوقع الناس هذا الفساد والاضمحلال، لا سيما في عصرٍ تقدَّم فيه العلم ورصد فيه الفضاء.

﴿رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا ينجو إلا مَنْ رحم. وهكذا هنا يكون المعنىٰ: أنه لا ينجو إلا مَنْ أذِنَ له الرحمن بالانصراف عن موقف الحساب إلىٰ الجنة، ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: وكان مرضيَّ الأقوال والعقيدة، بمعنىٰ: أنه لا يَنْجو إلا هذا الصنف من الناس، ويكون الكلام رداً علىٰ القائلين بالشفاعة المعتمدين عليها.

ومُحَصَّل المعنىٰ: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة الأعمال الصالحة والأخلاق العالية والعقائد السامية التي جاء بها هذا القرآن. فالإنسان الصالح هو شفيعُ نفسه عند خالقه، فهو يرجو بذاته رحمةَ ربِّه وغفرانه. والله أعلم(١).

قال الرازي: قال صاحب «الكشاف»: لفظ ﴿مَنْ﴾ هنا يصلح أن يكون مرفوعاً علىٰ البدل من ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ بتقدير مضاف، أي: لا تنفع الشفاعةُ إلا شفاعةُ مَنْ أذِنَ له الرحمن، ويصلح أن يكون منصوباً علىٰ المفعولية. وأقول: الاحتمال الثاني أولىٰ، وكلام «الكشاف» في هذا مبنيٌّ علىٰ كون الاستثناء متَّصلاً(٢).

ثم علَّل سبحانه وتعالىٰ هذا النفي بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ (٣) وَلَا

---

(١) الراجح في معنى الآية إثبات الشفاعة بشرطين: الشرط الأول: من أذن له الرحمن أن يشفع، والشرط الثاني: أن يرضىٰ الله سبحانه قول الشافع، وما تضمنته شفاعته للمشفوع.
وجَعْلُ المؤلف الاستثناء منقطعاً أو محمولاً على المعنى قد يُسلَّم لو كانت الآية مجرَّدة عن البيان، أما وقد جاءت السنة النبوية ببيانها، وذلك بما ثبت من أحاديث كثيرة دالة على شفاعة النبي ﷺ عدة شفاعات، منها ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك... حديث الشفاعة. فحينئذ لا يبقى محل لهذا التجويز الذي أورده المؤلف، ويجب المصير إلى المعنى الموافق للسنة.

(٢) «تفسير الرازي» (٢٢: ١٠١) وفيه: بتقدير حذف المضاف إليه، بدل «بتقدير المضاف»، و«الكشاف» (٣: ٨٩) وفيه: بتقدير حذف المضاف.

(٣) أي: يعلمُ الله سبحانه كلَّ ما قدّم عبادُه في حياة امتحانهم من اعتقادات ونيات وأعمال ظاهرة =

﴿يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ ووجه التعليل: أنَّ الشفيع يكشف للمشفوع منه أحوال المشفوع له ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالىٰ غنيٌّ عن ذلك، مُطَّلع علىٰ كلِّ شيء، فلم يبق من معنىٰ الشفاعة ـ علىٰ القول بها ـ إلا الدعاء من الله سبحانه وتعالىٰ والتوسُّل إليه أن يعفوَ ويَصْفح[١]، ولا يقبل ذلك ويأذن بالشفاعة إلا لمن رضيَ له قولاً وعقيدة، وكان له بعض هفوات ولمم[٢].

ثم قال في إتمام البيان عن ذلك اليوم: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: ذلَّت وخضعت ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾، قال ابن عباس: أي: خسر من أشرك بالله[٣].

ثم ذكر حالة المؤمنين في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: لحقوقه وحسناته بأن لا يُجازيهم عليها، ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ لها

= وباطنة، ويعلمُ سبحانه كلَّ ما يأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم، لأنهم يجهلونه.

(١) وأيُّ شيء أفضلُ من دعاء الله تعالى والتوسُّل إليه؟ فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، رواه أصحاب السُّنن، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥]، وشفاعةُ النبي ﷺ لا تكون إلا بالدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى والتوسُّل إليه.

(٢) قال الإمام أبو منصور الأزهري في «الزاهر» ص ٢١٦: «أصل الشفع: الزيادة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. أي: يزيدُ عملاً إلى عمل، قال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٧)، وهي للموحِّدين الذين ارتكبوا الكبائر يشفع لهم النبيُّ ﷺ أن يُغفَرَ لهم ذنوبُهم، ويزدادوا كرامةً على ما استوجبوا بتوحيدهم خالقهم عزَّ وجلّ». انتهى.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ٢٩٦).

وتنقيصاً من جزائها، وما يستحقُّه عليها، بل يُجازى بالجزاء الأوفىٰ. يُنوِّه بشأن جزاء المؤمنين في الآخرة، ويُعظِّم أمره بعبارة مُجْملة مقابلة لخيبة الظالمين.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ...﴾ قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1] ليفهمه العرب قاطبةً، ويقفوا علىٰ ما فيه[2]، ويقوموا بالتبشير به ونشر

---

(١) يقول المتخصِّصون في اللغات: ليست لغةٌ تسامي العربية في أداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدق المعاني. فبالجمل الصغيرة منها تؤدىٰ الموضوعات المهمة، وتكون قوية التأثير علىٰ النفوس.
أقول: وهذا ما تحتاجه معاني القرآن الكريم، فلا لغة تقوم بأداء العلم الإلهي وتتَّسع لدقائقه والتأثير به علىٰ القلوب بقوة تامة، سوىٰ اللغة العربية، لذلك أنزل فيها القرآن. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) أنزل سبحانه للبشر كلِّهم قرآناً عربياً؛ لأنه لا يمكن بيان معانيه لسَعَتها ودقَّتها إلا بهذه اللغة، التي شهد الآن علماء اللغات علىٰ اختلاف لغاتهم وأجناسهم بأن اللغة العربية ـ في القدرة علىٰ تحديد المعاني والإفصاح عنها، والتعبير عن دقائقها وإشاراتها ـ تمتاز علىٰ سائر لغات العالم حتىٰ اللاتينية التي أجمعت الأمم علىٰ أنها أميز سائر اللغات. وفوق ذلك يجب أن تكون العربيةُ ـ لغةُ القرآنِ المنزَّل علىٰ البشر كلِّه ـ لغةً عالمية لبني الإنسان مع لغاتهم الخاصَّة، حتىٰ يتفاهموا بها جميعاً، ويفهموا قرآنهم، ويكونوا أمةً واحدة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، لغة واحدة، ودين واحد، ورب واحد، ومجتمع لكل البشر، سعيد لا غائلة فيه ولا خصام، إلا في مشاكل بسيطة تُحلُّ بشريعة الإسلام.
وقد جاء في القرآن آيات عديدة تدل علىٰ ذلك، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقد أوجب سبحانه أن تكون الحكومة الإسلامية حكومة عربية بصبغتها ونظامها ولغتها وأحكامها، فقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].
وقد فهم هذا الأمر جميع المسلمين الأُوَل، فلم تقم دولة إسلامية من العرب والعجم إلا =

دعوته ولغته، كما وقع في الصَّدر الأول. وهذا النشر فرضُ كفايةٍ علىٰ العرب في كل عصر، ويأثمون بتركه.

ثم أكمل البيان بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: لوَّنا العبارات ونوَّعنا المواعظ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ذلك الوعيد، وهذا أدنىٰ المراتب، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ بنتيجةِ فَهْم هذا القرآن علىٰ وجه أوسع، وهذا أعلىٰ المراتب، ويكون متفاوتاً في الأشخاص. وللإيماء إلىٰ هذا التفاوت قال: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾، ولم يقل: (أو يتذكَّرون).

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنَّ القرآن المنزَّل بلغة العرب يُحدِثُ لهم ذِكراً وشرفاً لقيامهم بنشره بين الأمم. والله أعلم.

وإذا أرجعنا الضمير علىٰ جميع المسلمين يكون المعنىٰ: إنَّ المتمسِّك بتعاليم هذا القرآن والمثقَّف بثقافته علىٰ الوجه الصحيح، يكون شخصاً ممتازاً؛ لأنَّ معنىٰ الإنسانية إنما يتم بتعاليم هذا القرآن. والله أعلم.

= كذلك، كالبويهية والسلجوقية والأتابكية وحكومات المماليك في مصر من بحريَّة وحربية، كذلك التتار الذين أقاموا دُوَلَهم في آسيا، وعشرة سلاطين من بني عثمان، ثم أبدلوا العربية بالتركية، فكان هذا منهم إجراماً كبيراً وافتئاتاً علىٰ الدين والقرآن عظيماً. ثم تجرَّأت سائر الدول الإسلامية من الأعاجم المتغلبة علىٰ إبدال اللغة العربية بلغتها، فضاع فيهم الإسلام والقرآن، وأصبح شكلاً هزيلاً؛ لأنَّ القرآن لا يفهم فهماً صحيحاً إلا بلغته العربية وأساليبها. وقد قال ﷺ: «ليست العربية في أحدكم من أم ولا أب، إنما هي اللسان». ولذلك كان أول المؤلفين في العلوم العربية الأعاجم، كسيبويه وأضرابه خدمةً لأممهم. ووضعت المدارس في الدول الإسلامية لتدريس العلوم العربية إلىٰ يومنا هذا لهذا الغرض النبيل، وكل دولة إسلامية لم تكن العربيةُ لغتَها الرسمية لم تكن دولة إسلامية بالمعنىٰ الصحيح، ولم تفهم من تعاليم القرآن ومفاهيمه إلا فهماً هزيلاً. (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٢: ١٩٥).

ثم ختم هذا الكلام بتنزيه ذات الله تعالىٰ مُنزِّلِ هذا القرآن العظيم الحاوي لسائر الأمور التي تصلح عليها العباد، من الأحكام والآداب، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: علا شأنه وَتَنزَّه عن مماثلة المخلوقين.

ثم علَّم رسوله كيف يتعلَّم هذا الوحيَ المنزَّل، وكيف يُعلِّمُه، فقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ قال مجاهد[١] وقتادة[٢] وأبو مسلم: أي: لا تُمْلِهِ علىٰ أصحابك ولا تقرأه عليهم حتىٰ يتبيَّن لك معانيه[٣].

ثم أكمل له هذا الأدب، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ أي: سَلِ اللهَ عزَّ وجل زيادةَ العلم، فإنه الموصِلُ إلىٰ السعادة. وفي الكلام إلماعٌ بأنَّ في هذا القرآن علوماً راقية، وآداباً عالية، وأهدافاً جليلةً ساميةً، لا معنىٰ للإنسانيَّة والكمال الإنساني سوىٰ هذه الأهداف التي يستهدفها القرآن في أحكامه وتعاليمه ومواعظه وإرشاداته. وكذلك تفيد الآية الحثَّ علىٰ طلب العلم والاستزادة منه، وأن ذلك يكون بهذا القرآن وما فيه من تعاليم وبيان.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٤١٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٣٨٢).

(٣) أما يجوز أن يكون المعنىٰ: لا تقرأ مع جبريل حتىٰ ينتهي من إلقائه عليك، ثم اقرأ ما أُلقي إليك؟ والله أعلم. (المؤلف).

عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

ثم نبَّه إلىٰ حكمة هذا الأدب وسرِّ هذا الدعاء، بما وقع لآدم، حيث نسيَ عَهْدَ الله إليه بعدما بالغ في تحذيره وتنبيهه، فدلَّ ذلك علىٰ ضعف القوة البشريَّة، والاحتياج إلىٰ الاستعانة بالله في التوفيق، لتحصيل زيادة العلم والتجنُّب عن السَّهْو والزلل والنسيان، وكذلك نبَّه إلىٰ أنَّ ما جاء في هذا السياق من إعراض المعرضين عن الهدىٰ إنما هو من تأثرهم بوساوس الشيطان؛ ذلك العدوُّ المُضِلُّ المبين، الذي بيَّن الله عداوتَه في قصَّته مع آدم، مُلْمِعاً إلىٰ أنَّ الإعراض عن الهُدىٰ حالة من حالات الإنسان، تتكوَّن بتأثير وساوس الشيطان، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ وقد فسَّروا العَزْمَ[1] بأحد معنيين: الأول: الثبات، والثاني: التعمُّد، أي: لم نجده تعمَّد ذلك، وعلىٰ الأول يكون لفظ (نسي) للمبالغة في عدم الثبات.

ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ

---

(١) العَزْم: الإرادة القوية التي لا تستجيب لأشد المُغريات، ولا تَضعُفُ أمام المصائب الكبرى التي تحتاج إلى صبر عظيم.

﴿فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ وقد خصَّ الواحدَ بالشقاء بعد خطاب الاثنين لأصالته في الأمر والشأن، ومثل ذلك من خصائص اللغة.

ثم علَّل ذلك الشقاء وعِظَمَه بتَعداد محاسن الجنَّة التي يفقدها بالإخراج، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾، والظمأ: العطش، والضحىٰ: الحرّ، مأخوذ من إصابة حرِّ الشمس في شدَّة الضحىٰ. ومُحصَّل المعنىٰ: إن في هذه الجنة ما يستحق أن يُحرَصَ عليه من سعادةٍ عُظمىٰ ونعيم جليل.

فأزلَّه الشيطان عن ذلك بوساوسه، كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ ولا زال بآدم وحوَّاء حتىٰ أنساهما نهيَ الله لهما عن الأكل من هذه الشجرة، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن عباس: عَرِيَا من النور الذي كان الله تعالىٰ قد ألبسهما، فبَدَتْ بشرتُهما حتىٰ بَدَتْ فروجهما[1].

وقال في «المنار» في تفسير سورة آل عمران[2]: والأقرب عندي في معنىٰ ظهور سَوْءاتهما لهما: أنَّ شهوة التناسل دبَّت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبَّهتهما إلىٰ ما كان خفياً عنهما من أمرهما، فخجلا من ظهورها، وشَعَرا بالحاجة إلىٰ سترها[3].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أي: يلصقان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بهذا الأكل ﴿فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ أي: ضلَّ عن الهدف الأسمىٰ، لكنه تاب فتاب الله عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: قرَّبه إليه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: وهداه بتعاليم

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١١٠).

(٢) بل في تفسير سورة الأعراف (٨: ٣١١).

(٣) هذا تأويل متكلّف، واللفظ لا يحتمل حَمْلَه على هذا المعنى.

الوحي والنبوَّة بعد أن تاب عليه. وإنما جعله عاصياً مع أنه كان ناسياً، تغليظاً عليه، لعدم عنايته بالاحتياط. ولا يَبعُدُ أن يراد بالنسيان: عدم التمسُّك بالنهي. أمَّا إبليس فلأنه أصرَّ على العصيان لعنه الله وأخزاه، وجَعَل النار منقلبَه ومثواه.

ثم حكىٰ سبحانه ما أصدره من الحكم عليهما جزاءَ ذلك، وهو إخراجهما من الجنة، مبالغاً في تنبيه الإنسان إلىٰ شدَّة عداوة الشيطان، تحذيراً منه، حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا﴾ أي: من الجنة إلىٰ الأرض ﴿جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾؛ يحذِّر بني الإنسان من إبليس ووسوسته؛ لأنه عدوٌّ لآدم وذريته، فيكون الجمع بهذا الاعتبار. ويجوز أن يكون الخطاب لآدم وحواء مُراداً بهما النوع الإنساني؛ لأنهما أصله. ويكون المراد من العداوة: تَنَازع البقاء بين أفراد النوع الإنساني بدوام وساوس الشيطان في هذه الحياة الجديدة التي هبط إليها.

ولـما كان خروجهما من الجنة بسبب انحرافهما عن التعاليم، وكانت هذه الطبيعة المحروفة تؤدّي إلىٰ الخروج عن الصراط المستقيم، ذكر سبحانه وتعالىٰ حاجة إرسال الرسل إليهم، وأنه سبحانه مُرسِلُهم، وسيكون المتَّبع لهم سعيداً والمُعْرض عنهم شقياً طريداً، فقال: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ أي: كتابٌ ورسولٌ، والخطاب هنا لآدم وذرِّيته، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ أي: معيشةً ضيِّقةً؛ لأنَّ الضَّنَك معناه: الضِّيق. وقد أقيم المصدرُ مقامَ الوصف للمبالغة.

أقول: وذلك لأنّ في إقامة شـرائع الله والتمسُّك بهُداه علىٰ الوجه الصحيح إصلاحاً للنفوس، وتنظيماً للأحوال، ووقوفاً عند الحدود، وتسليماً بالحقوق، وسلوكاً للصراط المستقيم المنطبق علىٰ السنن الكونية والفطرة الإنسانية، وفي ذلك كلُّ الخير

والصلاح لبني الإنسان في شؤونهم الاجتماعية وتسييرها في راحة واطمئنان، وفي الأحوال الروحيَّة وما يتبعها في الحياة الأخرىٰ من نعيم ورضوان.

ثم تابع الكلام عن المُعْرِض فقال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾، كما جاء في سورة الإسراء في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، أي: كما كانوا في الدنيا لا يبصرون الحق ولا ينطقون به ولا يستمعون له، جزاءً وفاقاً. ولا يبعد أن يكون الجسم الثاني[1] للكافر أعمىٰ حقيقةً جزاءَ عمله في الدنيا.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: في العَمَىٰ والعذاب، بمعنىٰ: تدوم فيه ولا ترىٰ السعادة بعينك أبداً، حيث يُرمَزُ بعدم رؤية الشيء عن عدم الحصول عليه، فيقال: لا ترىٰ كذا بعينك، أي: لا تحصل عليه. وقوله: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ إقرارٌ منه بأنه لم يُخلَقْ مطبوعاً علىٰ العَمَىٰ والضلال، بل علىٰ النظر والهدىٰ، ولكنه ضلَّ بنفسه حين أعرض عمَّا جاءهُ عن الله من التعاليم والتوجيه الصحيح الذي يدفع الإنسان إلىٰ ما هو مستعدٌّ له من كمال الإنسانية وما يترتَّب عليه من السعادتين الدنيويَّة والأخرويَّة، وإنما خصَّ البصر بالذكر لأنه مبدأ الإدراك، فالآية لإفادة أنه كان سالم البصيرة مُستعداً لمعرفة الحق والإيمان بالله والتمسُّك بتعاليمه، في أصل خلقته؛ لقوله ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة»[2] الحديث، ولكنه عميَ قلبُه وساء إدراكُه بسُوء تربيته، فترتَّب علىٰ ذلك أثرُه في الآخرة. وحاصل المعنى:

---

(١) أي: الذي يكون له بعد البعث.

(٢) رواه البخاري (١٣٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنه أفسد فطرته فنتج له هذا الشقاء. ويجوز أن يكون عمى الآخرة بمعنىٰ عدم حَظْوته بسعادتها؛ لأن الذي لا يحظىٰ بالشيء لا يُبصِره، فهو تعبيرٌ باللازم ومشاكلة في الكلام[١]. والله أعلم. وعلىٰ كُلٍّ، فمحصِّل الآية: أنَّ العمىٰ عن الشريعة وتعاليمها يؤدِّي في الآخرة إلىٰ الشقاء الأليم. وقد أفصح الله عن هذا السبب للتأنيب والتنديم.

وقد جاء في بعض بحوث «المنار»: إنَّ نسيان الآيات يكون بإهمالها وعدم العمل بموجبها، فإنَّ العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً عندها. ويُؤْثَرُ عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه أنه قال: يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. وذلك أن العلم إنما يحضر في النفس مُجْمَلاً غير سالم من إبهام وغموض، فإذا برز للوجود بالعمل صار تفصيلياً جلياً، ثم ينقلب النظري منه ـ بالتكرار والمواظبة ـ بديهياً ضرورياً، وبذلك يثبت فلا يُنسىٰ. وأما النسيان فإنه حليف الكفر، وإنه ليصل إلىٰ حدٍّ يُساوي فيه مَنْ لم تسبق له معرفة بالشيء قط؛ لأنَّ المنسيَّ لا أثر له في النفس ولا في الظاهر.

ولا فرق بين مَنْ بَلغَتْهُ دعوة الهداية فسلَّم بها وقبلها، ثم ترك العمل بها حتىٰ نسيها، وبين مَنْ لم تبلغه البتة، ومَنْ بَلغَتْهُ علىٰ وجه غير مُقنع فلم يؤمن، إلا أنَّ الحجة علىٰ الأول أظهر، والثاني معذور عند الجمهور، وكذلك الثالث إذا استمرَّ علىٰ النظر من غير تقصير[٢]. هكذا قيل[٣] فعلىٰ هذا تكون منزلة الناسي هي التي تلي منزلة الجاحد

---

(١) يُضعَّف هذا التجويز مقابلة العمى بالبصر في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٨٢-٢٨٣).

(٣) لا أرىٰ أنَّ الصنف الثاني والثالث معذوران؛ لأنا نرىٰ أنَّ الإنسان قد وَصَل بعقله وعلمه إلىٰ درجة رفيعة من المعرفة والإدراك، بمجرَّد الفحص والتفتيش في أمور كونية واسعة المدىٰ =

المعاند، وهو خليقٌ بأن يُحشر يوم القيامة أعمىٰ عن طريق النجاة والسعادة، حتىٰ إذا لقيَ ربَّه ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

أقول: وإن صحَّ ما قاله الجمهور في الصنف الثاني أنه معذور، فلا أرىٰ صحَّته إلا في عصر الرسول؛ لأن الدعوة قد انتشرت بعده، فلا عُذرَ لأحد.

وإنَّ في هذا لَـحُجةً علىٰ قرَّاء القرآن وسامعيه الذين ليس لهم منه إلا التَّغنِّي بألفاظه والتلذُّذ بنغماته، وهذا أشرُّ أنواع النسيان. وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثلاً بعبيد أقطعهم سيدهم بستاناً، وكلَّفهم إصلاحه وعمارته، وكتب لهم كتاباً يبيِّن لهم فيه

= بعيدة المنال، فإذا كان هذا استعداده العلمي الذي أعطاه الله إياه، فلِمَ لم يفتش عن أمر أراده الله منه لخيره وصالحه، وطبعه الله عليه في خِلْقته وتكوينه، وأرسل له فيه رسلاً محصورين في الكرة الأرضية الصغيرة المحدودة المدىٰ، وأرسل معه كتباً منشورة، وكلَّف الإنسان بالفحص عنهم والأخذ منهم، وجَعَل له في ذلك غاية عظيمة الشأن جليلة العُقْبىٰ، فأيُّ عذْر له إن لم تبلغه الدعوة ولم يفتش عنها، أو بلغته ولم يدرسها درساً وافياً صحيحاً، بهذا العقل والاستعداد الذي وَهَبه الله له ومَنَحه إياه، وقَدِرَ به أن يستنبط الكائنات من مكامنها، والعظائم من خفاياها وحصونها، لا أرىٰ ذلك أبداً. وواجب علىٰ كل إنسان أن يفتش علىٰ الدين الصحيح من بين الأديان. (المؤلف).

قلت: هذا الذي اختاره المؤلف من عدم إعذار مَنْ لم تبلغه الدعوة، لأنه مُلزَم بالانقياد إلى الحق بعقله؛ هو قولُ المعتزلة في التحسينِ والتقبيح العقليين، وإلزامِ العباد بحكم العقل في ذلك، وليس بصواب، لأن العقول متفاوتة في الإدراك، وما لم يأتها رسولٌ يُحفِّزها على التأمل والتفكر فإن الكثير منها لا يُدرك هذه الأحكام، ولذلك جعل الله الحجة على العباد في إرسال الرسل، لا في أحكام عقولهم دون رسالة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

كيف يسيرون في هذا الإصلاح، وكيف يكون شأنهم فيه، ووعدهم على الإحسان بمكافأة وأجر عظيمين، فوق ما يستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته، وتوعَّدهم على الإساءة في العمل بالعقوبة الشديدة فوق ما يفوتهم من خيرات البستان، وما يذوقون من مرارة سُوء المعاملة فيما بينهم. فكان حظُّهم من الكتاب تعظيمَ رقِّه وورقه والتغنِّي بلفظه وتكرار تلاوته بدون مبالاة بالأمر والنهي، ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين، فأهلكوا الحرث والنسل بغياً وجهلاً، فهل يكون حظُّ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجَّةٌ عليهم، وقاطع لألسنة العذر منهم. انتهى.

ثم حسَّس بشدَّة هذا الجزاء وقرَّره، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ بالإعراض ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: نجزيه تلك المعيشة الضَّنك في الدنيا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾.

ثم نبَّههم إلى ما كان من إهلاك أمثالهم في القرون الماضية تخويفاً وإنذاراً، فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ وهم على الدوام ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ﴾ في

طريقهم إلىٰ الشام للتجارة. وقد ضمَّن ﴿يَهۡدِ﴾ معنىٰ: يبيِّن، علىٰ أسلوب القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة)، أي: ألم يُبيِّن لهم مصيرَهم ويُنبِّههم إليه إهلاكُنا لأمثالهم من القرون السالفة، وهم علىٰ الدوام يمشون في مساكنهم وديارهم في طريقهم إلىٰ الشام للتجارة، ويشاهدون تلك الآثار أو أماكنها بأعينهم، وهي ديار عاد وثمود وقرىٰ لوط.

ثم وبَّخهم وأنَّبهم علىٰ عدم اعتبارهم بهذا، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖۗ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ أي: لأصحاب العقول الصحيحة الناهية عن التعامي والتغافل، بخلاف هؤلاء. ومن مباحث اللفظ: أن كلمة ﴿كَمۡ﴾ فاعلُ ﴿يَهۡدِ﴾؛ لأنها للتكثير، بمعنىٰ: كثرة ما أهلكنا، ويُسمَّىٰ استفهاماً خبرياً.

ثم بيَّن سببَ تأخيرِ العذاب عنهم مع عنادهم في الكفر وإصرارهم فيه، فقال: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب إلىٰ يوم القيامة ﴿لَكَانَ﴾ العذاب ﴿لِزَامٗا﴾ لهم واقعاً عليهم في الحال. وقوله: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾ معطوف علىٰ ﴿كَلِمَةٞ﴾، وإنما فَصَله عن المعطوف عليه للمسارَعة إلىٰ بيان جواب (لولا)، وللإشعار باستقلال كلٍّ منهما بنفي تعجيل العذاب. والمعنىٰ: لولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجلٌ مُسمَّىٰ للعذاب ـ وهو يوم القيامة وما يتبعه ـ لكان عذابهم لزاماً في الحال.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِنْ تكذيبك والشِّرك بالله، ﴿وَ﴾ استعانةً علىٰ الصبر ﴿سَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ أي: رجاء أن تَنال من الله ما تَرضىٰ به نفسك.

وقد جاء في «الرازي» ما مُـلَخَّصُه: وقد اختلفوا في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ علىٰ أقوال:

الأول ـ وهو قول أبي مسلم ـ: لا يبعد حَمْلُه علىٰ التنزيه والإجلال، والمعنىٰ: اشتَغِلْ بتنزيه الله تعالىٰ في هذه الأوقات. وهذا القول أقرب إلىٰ الظاهر وإلىٰ ما تقدَّم عليه في السياق، وذلك لأنه تعالىٰ صبَّره أولاً علىٰ ما يقولون من تكذيبه، ومن إظهار الشرك والكفر وتأخير العذاب عنهم، والذي يليق بذلك أن يأمره بتنزيهه تعالىٰ عن قولهم في كلِّ الأوقات، حتىٰ يكون علىٰ الدوام مُظْهراً له وداعياً إليه، فلذلك ذكر ما يجمع كل أوقات الفراغ من آناء الليل وأطراف النهار.

الثاني ـ وهو قول ابن عباس ـ: أنَّ الآية تدلُّ علىٰ الصَّلوات الخمس[١]، فقبل طلوع الشمس: هو صلاة الفجر، وقبل غروبها: هو الظهر والعصر؛ لأنهما جميعاً قبل الغروب، ومن آناء الليل: المغرب والعشاء. وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ كالتوكيد للصلاتين الواقعتَين في طَرَفي النهار، وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب، كما اختصَّت بالتوكيد في قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] علىٰ بعض الأقوال فيها.

الثالث: أنَّ الآية تدلُّ علىٰ الصَّلوات الخمس وعلىٰ النوافل. أما دلالتها علىٰ الصلوات الخمس، فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها، فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين، فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيها. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ هو للنوافل، ولذلك غيَّر الأسلوب[٢]. وعلىٰ هذا، فالمراد بالآية تثبيته ﷺ في مثل هذا الموقف بإقامة الصلاة، علىٰ نهج القرآن في ذلك؛ لأنها تُعينُ علىٰ الصبر والثبات، فيعقَّب به علىٰ المواقف الحرجة.

وبعد أن تكلَّم عن تأخير عذابهم، وأمره أن يستعين علىٰ الصبر عليهم بالتسبيح،

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٦: ١٩٣).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٢: ١١٣).

تكلَّم عن ترفيههم في هذه الحياة مع إصرارهم علىٰ الكفر، وضمَّن ذلك تهوين أمر الدنيا، وأخرج الكلام بصورةٍ من صُور شدَّة البيان الذي يخاطب به القرآنُ النبيَّ ﷺ ويريد أمته، أو هي عبارة للتهوين والتزهيد، لا يُراد بها حقيقةُ معناها، وإنما يُراد بها مجرَّد الاستهانة بالشيء، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ استحساناً ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من الكَفَرة. ويجوز أن يتعلَّق لفظ: ﴿مِّنْهُمْ﴾ بـ﴿مَتَّعْنَا﴾، ويكون ﴿أَزْوَٰجًا﴾ حالاً من ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾، أي: ما متَّعنا به من أصناف المتع بعضَهم.

ومحصَّله: ما متَّعنا به بعضَهم من أصناف المتع ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنُظهِرَ بذلك ما انطَوَوا عليه من خبث النفوس واقتصارها علىٰ ما في هذه الحياة، وهذا أمرٌ يوافق مَسْلكه ﷺ، فهو للمبالغة في التأديب.

ويجوز أن يكون ما كان عليه المسلمون من الفقر والعوز نتيجةَ مقاطعة المشركين لهم، أو هجرتهم عن ديارهم وأملاكهم، وما كان عليه الكفار من التموُّل والغنىٰ، يحزُّ من[1] نفسه ﷺ، لا سيما والحروب تحتاج إلىٰ الأموال، فوعظه سبحانه وتعالىٰ وهوَّن عليه بقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ من الهدىٰ والنبوَّة، أو ما يدَّخره لك في الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾، ومفاد البيان: أن زهرة هذه الحياة وزخارفها ليست بشيءٍ عند الله؛ لأنها متاع قليل، وأنَّ المؤمن إذا حُرِمَها فلأنه سينال في الآخرة الجزاء الأوفىٰ.

ثم طلب منه ما يؤدِّي إلىٰ مثل ذلك الجزاء، وهو الصَّلاة، وأن يأمر أهله أيضاً بها، ويحافظ عليها، فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: ثابِرْ عليها غيرَ مشتغل عنها بأمر المعاش كثيراً حتىٰ يشغلك عنها، فإنا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلِّفك أن ترزق نفسَك ولا أهلَك، بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيَّاهم بعد السَّعي فيه، ولكنْ نكلِّفكم بالصلاة

---

(١) كذا، والصواب: في.

والمحافظة عليها بحيث لا يشغلكم عنها شاغل، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدةُ ﴿لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ لا لزهرة الحياة الدنيا، فالمتَّقون هم الذين يَحُوزون تلك العاقبة السعيدة، وينالون الجزاء الأوفىٰ.

وقيل أيضاً في قوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾: أن المعنىٰ: إنّا لـمّا أمرناك بالصَّلاة فليس ذلك لأنا ننتفع من صلاتك كما ينتفع الأسياد من العبيد، ويبغونهم لذلك. فعبَّر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾.

قال أبو مسلم: المعنىٰ أنه تعالىٰ إنما يريد منه العبادة لصالحهم، ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادةُ الخراجَ من العبيد. وهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

أقول: فيكون هذا المعنىٰ مأخوذاً من حال المُخَاطَبين، ويكثر وقوع ذلك في القرآن وتعابيره، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

ثم إنه سبحانه وتعالىٰ ذكر بعض ما يقولون مما أمره بالصبر عليه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، فردَّ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ أي: أوَلم يأتهم هذا القرآن الموافق لما في كتبهم، مع أنَّ الرسول لم يشتغل بالدراسة ولا بالتعلّم. وقيل: بل المراد بـ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾: ما فيها من البشارة بمحمد ونبوَّته وبعثته. وقال ابن جرير والقفال: المراد: أوَلم تأتهم في هذا القرآن بيِّنةُ ما في الصُّحف الأولىٰ من أنباء الأمم الذين أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها، كيف عاجلناهم بالعقوبة[1].

---

(١) ينظر «تفسير الطبري» (١٨: ٤٠٧).

ثم بيَّن تعالىٰ أنه أزاح عنهم ـ بإرسال هذا الرسول وإنزال هذا الكتاب ـ كلَّ عذر وتعلَّة، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل بَعْثِ محمد ونزول القرآن، ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ لو أرسلت إلينا لاتَّبعنا آياتك وتداركنا الأمر قبل أن يمسَّنا العذاب، أما الآن وقد أُرسِلَ إليهم برسول وكتاب فلم يَبْقَ لهم حُجَّة ولا تعلَّة، فتوعَّدهم علىٰ لسان رسوله وأنذرهم، فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: كلٌّ منا ومنكم مُنتظر عاقبةَ أمره، فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: ستعلمون أيُّ منا ومنكم المهتدي إلىٰ الطريق السَّويِّ الـمُوصِل إلىٰ ساحة النجاة وموطن السعادة. اللهمَّ اجعلنا ممن سبقت لهم منك الحُسْنىٰ والزيادة يا أرحم الراحمين.

❊ ❊ ❊



مكيَّة، وهي مئة واثنتا عشرة آية

وقد جاء في أول هذه السورة بيانُ قُرب ما أُمروا بتربُّصه من العذاب في آخر السورة السابقة.

ثم قرَّر إثبات النبوات، وذكر اختصاص الله سبحانه بأفعال الألوهية.

ثم ذكر قصص أولئك الأنبياء الذين بيَّنوا لأقوامهم بطلان الشرك وحقيَّة التوحيد والنهج المستقيم، وبشَّروهم وأنذروهم بمصير المؤمنين والكافرين.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ نَعَىٰ عليهم غَفْلَتهم عن يوم الحساب الذي قَرُب موعده، وأضاف إلىٰ ذلك إعراضهم عن كلِّ كتاب يُنزِلُه الله فيهم للدعوة إلىٰ النجاة من ذلك اليوم، فقال: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أي: كتاب مُحْدَث التنزيل من الله، يدعوهم فيه إلىٰ سعادة الدارَيْن ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ

﴿يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ بمعنىٰ: لم يُعيروا اهتماماً لسماعه ودرايته، بل كانت ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ عن النظر فيه والتفكير في مشتملاته وتعاليمه وما يدعوهم به إليها من سعادة الدنيا والآخرة.

والآية تدل علىٰ أنَّ الشرائع تحدث الواحدة بعد الأخرىٰ، وأنه يجب علىٰ كافَّة الناس في عصر تنزيل الشريعة وإحداثها أن يتَّبعوها؛ لأنها تنسخ ما قبلها، ولا سيما شريعة القرآن، كما جاء ذلك في سورة آل عمران، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [آل عمران: ٨١].

ثم بيَّن كيف يتمالأ الظالمون المضلُّون سراً فيما بينهم، ويدبِّرون أمر التمويه والتضليل الذي يبثُّونه في الناس، تدجيلاً عليهم وتسويلاً، فقال: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قائلين لمن يُضلِّلونهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ المدَّعي أنه رسول من الله أرسله بهذه الشريعة المُحْدَثة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فكيف تقبلون منه هذه الدعوىٰ؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ أي: مع كونكم تعلمون أن هذا الذي جاء به ـ وهو القرآن ـ سحر مبين، تأتون وتستمعون إليه؟ يُضلِّلونهم ويعبثون بعقولهم بهذين الأمرَيْن؛ الأول: أنه بشرٌ مثلكم، فكيف يكون رسولاً لهم من الله؟ الثاني: أن هذا الذي يُسمِّيه القرآنَ ويدَّعي أنه من الله ما هو إلا كلامُ ساحر قويّ التأثير والتمويه، وكانوا يتخيَّلون أنَّ النبيَّ لا بدَّ أن يكون ذا صفات يفترق بها عن طبائع البشر، أو يكون من الملائكة، وكلُّ مَنْ يأتي بالمعجزات من البشر فهو ساحر.

وإنما جاء بقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، فأتىٰ بواو الجماعة، ثم أبدل منه ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ لأنه أبلغ في التَّنصيص علىٰ الذمّ، وتقرير المعنىٰ الذي بصدده، وهو بيان قوة مكرهم، وأنه ظلم فظيع.

وبعد أن حكىٰ ما أوحىٰ إلىٰ رسوله من أحوالهم وأقوالهم؛ تبييناً لأمرهم وتكشيفاً لسرِّهم، حكىٰ ما قاله عليه السلام في الاستعانة عليهم بالله، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي يُقالُ في السماء والذي يُقالُ في الأرض، جهراً كان أو سراً، فلا يخفىٰ عليه سرُّ المتناجين ومكرُ المفسدين، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ فيُجازيهم عليه جزاءً وفاقاً.

ثم انتقل من حكاية قولهم السابق في التضليل والتنفير، إلىٰ حكاية أقوالٍ أُخَرَ مضطربة في مسالك البطلان، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: إن هذا القرآن تخاليط أحلام يراها في المنام. ثم أضربوا عن ذلك، فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ من تلقاء نفسه، ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: ذو خيال واسع وإحساس عميق، يؤثِّر علىٰ مشاعر الناس بقوة كلامه.

ويجوز أن تكون هذه التقوُّلات والأباطيلُ كلُّها داخلةً في نَجْواهم ومسارَّتهم، وقد تحدَّوه عناداً بقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: وإن كان نبياً ـ كما يدَّعي ـ فليأتنا بالخوارق والمعجزات التي جاء بها الأنبياء قبله، مثل: اليد، والعصا، وإبراء الأكْمَه، وإحياء الموتىٰ.

فردَّ عليهم سبحانه، وكذَّبهم فيما تُنبِئُ عنه خاتمةُ مقالهم من الوعد الضمني بالإيمان إذا جاءهم بآية كما أرادوا، واستشهد علىٰ ذلك بأمثالهم من الأمم الذين طلبوا الآيات، فلما أتتهم لم يؤمنوا فأهلكهم الله، فقال: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ لو جئتَهم بآية كما اقترحوا، وهم أعتىٰ وأنكىٰ؟

وفي قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ إيذانٌ بجَريان سنّة الله تعالىٰ في استئصال المُقْترحين إذا أُعْطُوا ما اقتَرَحوا فلم يؤمنوا. والمعنىٰ: أهلكناها إذ أعطيناها سُؤْلَها فلم تُؤْمن.

ثم أجاب عن قولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟ وضمَّنه الردَّ عما دسُّوه تحت قولهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ من التعريض بأنه ليس مِثلَهم؛ إذ ليست لديه معجزات كأولئك، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ولم نُرسِلْ ملائكة، فما كنتَ بِدْعاً من الرسل. يردُّ بهذا علىٰ مَنْ ينكر رسالة الرسل؛ لأنهم بشر مثلهم.

ثم لفت الخطاب فوجَّهه إلىٰ المنكرين، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ وهم أهل الكتاب الواقفون علىٰ تاريخ الرسل السالفة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ أيها الجَهَلة. وهذا تبكيتٌ لهم وتجهيلٌ في أمر إرسال الرسل وتاريخهم. وكان مشركو العرب يعتمدون علىٰ أهل الكتاب ويثقون بأقوالهم وآرائهم. ويجوز أن يكون الخطاب عاماً للمشركين وغيرهم؛ إذ الغَرَضُ منه تقريرُ الموضوع.

ثم مكَّن الردَّ بسَلْب ضدِّه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: ماكثين طويلاً. فلِمَ يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، ولم يبقَ من الرسل أحد. وهاتان الصفتان المنفيتان هما صفتا الملائكة، يريد: أنَّ الرسلَ لا يكونون من الملائكة، بل من البشر، وطبيعتهم طبيعة البشر. فالآية نفيٌ لما اعتقدوه من أنَّ الرسالة ليست من خواصِّ البشر، وإنما هي من خواصِّ الملائكة، وردٌّ عليهم في ذلك. والجسدُ يُطلَقُ علىٰ جسم الإنسان والجن والملائكة.

ثم توعّدهم وعطف علىٰ ما فُهِمَ من إرساله للرسل ووَحْيه إليهم قولَه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ الذي وعدناهم به من إهلاك أعدائهم، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ ممَّن آمنوا، ﴿وَأَهْلَكْنَا﴾ أولئك المعارضين ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾، وفي هذا تعريضٌ وتوَعُّدٌ لهؤلاء المشركين المعارضين لرسول الله ﷺ.

ثم أعقب التهديد بالإرشاد، علىٰ نهج القرآن، وبيَّن تعالىٰ عِظَمَ مِنَّتِهِ بإنزال هذا القرآن المبين، وسَبَكَه علىٰ تجهيلهم وتقريعهم إذ يُعرِضون عنه ويطلبون آيةً كونيةً، فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: إرشادُكم لتكونوا سُعَداء فيها، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ أنه خيرٌ مما تقترحون من الآيات؛ لأنها تختص بالعاطفة والشعور، وهذا يخاطب العقل بالحجَّة والبرهان، ويُبيِّن المصيرَ أكمَلَ بيان؟!

ثم اعتمد التهديد، وتوعَّدهم بعذاب في الدنيا مثل عذاب الماضين من أمثالهم، فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ بمعارضتها للرسل ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾، وهذه الآية تفصيلٌ واستشهادٌ لقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. وفي كلمة ﴿قَصَمْنَا﴾ إشارةٌ إلىٰ تجبُّر أولئك القوم وعِنادِهم؛ لأنَّ القَصْمَ أفظعُ الكسر للمُتجبِّر.

ثم ذكر للعبرة ما كان من ندمهم وجزعهم الشديد عند ذلك، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ أي: أدركوا عذابنا الشديد ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ أي: من القرية أو العقوبة ﴿يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾، فيُقالُ لهم استهزاء وتندُّراً: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: إلىٰ ما كنتم فيه من النعيم والترف، ﴿وَ﴾ إلىٰ ﴿مَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تتنعَّمون بها وتترفون ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ الأعطيات، علىٰ عادتكم في التفاخر والترائي في ذلك.

فلما يئسوا من الخلاص وأيقنوا بنزول العذاب ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ﴾ أي: يا هَلاكَنا. وفي العربية يُنادَىٰ الشيءُ للتشكِّي منه، ويُسمَّىٰ النُدبة. وأقرُّوا علىٰ أنفسهم باستحقاقهم هذا العذاب، وأنهم هم الذين سبَّبوه لها، وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لأنفسنا مُستوجبين للعذاب، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: فما زالوا يُردِّدون تلك الكلمة

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾، فاستعار لتلفهم وهلاكهم صفةَ الزرع المحصود، والنارَ الخامدة التي أصبحت رماداً، مبالغةً في صورة التلف.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن إهلاك القرية بسبب تكذيبهم، أتبَعَه بما يدلُّ علىٰ استحقاقهم ذلك؛ لأنهم كذَّبوا الدلائل الواضحة والأمور الظاهرة في حقيَّة ما يدعون إليه، ذكر ذلك ضمن بيان دليل وجود اليوم الآخر، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[1]، ولكنْ لمقاصدَ نبيلة، وغاياتٍ جليلة، منها: خَلْقُ الإنسان وحياته في الدارين. وفيه إشارة إجمالية إلىٰ أن تكوين العالم وإبداع بني آدم مُؤسَّسٌ علىٰ قواعد الحكمة البالغة المُسْتَتبِعةِ للغايات الجليلة، ومن ذلك ترتيبُ هذا العذاب علىٰ كفر أولئك الكافرين ترتيباً طبيعياً، والله أعلم.

ثم أردَفَ نفيَ اللعب بما يقرِّره ويلائمه، وهو ردُّ جهالتهم وكفرهم في نسبة

---

(١) سُئل أفلاطون عن الحكمة في إيجاد الله لهذه الكائنات؟ فقال: لإظهار كماله الإلهي. والكاملُ من كل وجه مُنزَّهٌ عن الأغراض والشهوات، وأعمالُه كلها حِكَمٌ ومصالح. (المؤلف).

الصاحبة إلىٰ الله تعالىٰ، علىٰ ما ذكره بعض مُفسِّري السلف في معنىٰ ﴿لَعِبِينَ﴾، ولكن ذكر ذلك بمفهوم عام يشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن وأساليبه في البيان، فقال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مما يليق بشأننا ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ لا مما يليق بشأن البشر من الصاحبة والولد، لكنْ يستحيلُ إرادتُنا للَّهْوِ مطلقاً؛ لمنافاته للعظمة وللحكمة البالغة، ﴿بَلْ﴾ شأننا الجِدُّ وعظمة الأعمال وحكمتها، ومن ذلك أننا ﴿نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يُتلِفُ دماغه، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: كما فعلنا بالكَفَرة من أهل القرىٰ وما كانوا يمكرون.

ثم توعَّد هؤلاء المتقوِّلين مُخاطباً إيَّاهم بقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: مما لا يجوز علىٰ الله سبحانه ولا يليق بشأنه وجلاله.

وبعد هذا الرد ذكر استحقاقه تعالىٰ لأن يُعبَدَ، وضمَّنه إبطالَ نسبته إلىٰ الصاحبة والولد، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ وهم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا يَعْيَوْنَ منها ولا يَكِلُّون، بل ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، فهذه تفسير لما قبلها وتأكيد لها.

وإنما عبَّر عنهم بقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ تنزيلاً لكرامتهم منزلةَ المقرَّبين عند الملوك، علىٰ نهج القرآن في أخذ بعض المعاني من حال المخاطبين، وتعبيره عن شؤونه سبحانه بشؤون الملوك والسلاطين، تقريباً للأذهان، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

فنسبة جميع مَنْ في السماوات والأرض إليه تعالىٰ ـ بما فيهم الملائكة المقرّبون ـ إنما هي نسبة المخلوق إلىٰ الخالق، والمملوك إلىٰ المالك، ليس إلا. ينفي بذلك أن يُنسَبَ إليه شيءٌ نسبةَ المولود إلىٰ الوالد، ويُنكِرُ علىٰ قائليه أشدَّ الإنكار.

ثم تابع السياق في الإنكار علىٰ الشرك وتفنيده، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كحَجَر أو بشر ﴿هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يُحيُونَ الموتىٰ ويَنشُرونهم. والمعنىٰ: هل اتَّخذوا لهم آلهةً لها هذه المقدرة حتىٰ يكون وجه للاشتباه بمشاركتهم لله في شؤونه؟! وفي هذا تجهيلٌ لهم وتهكُّمٌ بهم وإيماءٌ إلىٰ أنَّ الإله يجب أن يكون له هذه الصفة. وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ زيادةٌ في تأييد الحجَّة والإنكار؛ لما فيه من معنىٰ التنقيص والتحقير، وخصَّ النشر بالذِّكْر من بين عَجْزِهم عن عموم الأفعال؛ إيذاناً بالتهويل به والتوعُّد لعَبَدَتِهم من يومه وعذابه.

ثم أقام البرهان علىٰ إبطال تعدُّد الآلهة واستحالته بالدليل النقلي بعد أن أقامه بالدليل العقلي، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات والأرض آلهةٌ غيرُ الله لفسد نظامُهما، لِـمَا يكون بين الآلهة من الاختلاف والتمانع؛ لأنَّ لكلِّ واحد منهم إرادةٌ مستقلَّة حسبما تقتضيه حالة الإله الصحيح، وإلا لَـمَا كان إلهاً، بل كان صاحبُ تلك الإرادة منهم وحده هو الإله، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ المستقلِّ بتدبير الملك ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: من أن يكون من دونه آلهة، وهو المستقلُّ بالإرادة والسلطان، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لأنهم مملوكون له تعالىٰ مُسْتَعْبَدون، وعن قهره وسلطانه لا يَتخلَّفون ولا ينفكّون. وفي هذه العبارة ما لا يُقدَرُ من بيان عَظَمَة سلطانه، إثرَ بيان أنْ ليس له شريك في الإلهيَّة.

وبعد أن أفحَمَهم في إبطال تعدُّد الآلهة بالبرهان العقلي المسمّىٰ ببرهان التمانع، أفحَمَهم كذلك بالبرهان النقلي، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، وهذا معطوف علىٰ محذوف، علىٰ أسلوب إيجاز القرآن، والتقدير: أقَنِعُوا بهذا البرهان العقلي ونزَّهوا الله ربَّ العرش عن الشريك والمثال، أم لم يقنعوا واتَّخذوا من دونه آلـهة؟ فإن فعلوا فرُدَّ

عليهم و﴿قُلْ﴾ في إفحامهم بطريقة النقل أيضاً: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ النقليَّ، من الكتب السماويَّـة. وأمره أن يستند لهذا المنع بقوله: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ وهو هذا القرآن المنزَّل لعظة من معي، ﴿وَ﴾ هذا ﴿ذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ من الكتب السماويَّـة المنزَّلة لعظة الأمم السابقة، فانظروا فيها: هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك؟

ثم أضرب عن إلزامهم إلىٰ بيان جهلهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إنَّ إعراضهم عن الحق ليس إلا لجَهَالتهم فيه وغباوتهم.

ثم صرَّح بما تضمَّنه سَنَدُ المنع مِن كَوْن التوحيد مما نطقت به الكتب السماويةُ قاطبـة، فـقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، وهذه كالنتيجة للبراهين السابقة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ جنايةَ فريق آخر من المشركين يَنسُبون له سبحانه ولداً، وبعضُهم يجعلون الملائكةَ له بناتٍ، وإنما جيء بها لإظهار بطلانها، وتنزُّهه تعالىٰ عن ذلك، إثر بيان تنـزُّهه عن الشركاء علىٰ الإطلاق، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: مقرَّبون عنده. وفي هذا الوصف تنبيهٌ علىٰ مَنْشأ غَلَط القوم، حيث عبدوهم لكرامتهم، وجهلوا أن الكرامة لا تؤهِّل لذلك، وإنما الموجب للعبادة صفات الألوهية، وهي مختصَّة بذاته تعالىٰ لا تتجاوزه ولا تتعدَّاه.

ثم ذكر لهم صفة أخرىٰ مُنْبئةً عن كمال طاعتهم لله سبحانه وخشيتهم منه، فقال:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون حتىٰ يقول، كما هو دَيْدَنُ العبيد المؤدَّبين. وهذا المعنىٰ مستعارٌ من حالة المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). والمراد: أنهم لا يتكلَّمون إلا بما يأمرهم به ربهم، فكلُّ أقوالهم طاعة، ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أتىٰ بما هو تعليلٌ لما قبله، وتمهيدٌ لما بعده، وإيماءٌ إلىٰ أنهم عبيدٌ مُراقَبون، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، فإنهم ـ لعلمهم بإحاطته تعالىٰ بما قدَّموا من الأقوال والأعمال ـ لا يزالون يراقبون أحوالهم، فلا يُقْدِمُون علىٰ قول أو عمل بغير أمره تعالىٰ.

ثم ذكر جملةً تُبعِدُهم عن أن يكون لهم دَخْلٌ في شؤونه تعالىٰ، رُغمَ قربهم وكرامتهم، غير التضرُّع والاسترحام، وضمَّن الكلام تقريراً لمعبوديتهم وربوبية الله؛ يردُّ به علىٰ مَنْ يشركونهم بالله، فقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وذلك لأن الشفيع يكشف للمشفوع منه أحوالَ المشفوع له ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالىٰ غنيٌّ عن ذلك مُطَّلع علىٰ كلِّ شيء، فلم يبقَ مِن معنىٰ الشفاعة إلا الدعاء منه تعالىٰ أن يعفوَ ويصفح، ولا يدعون إلا لمن رضيَ الله له قولاً وعقيدة؛ لأنهم يعلمون أنَّ العفو والصفح لا يكون إلا لهفوات هذا الصنف من الناس[1]، ﴿وَهُم﴾ مع ذلك القرب ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وهذا تقريرٌ لعبوديتهم وعظمة الله.

---

(١) ويجوز أن يكون المعنى: إلا لمن رضي اللهُ أن يُشفَعَ له، أي: أن يكون مشفوعاً له، فتتسع الدائرة ويصير من الممكن أن تشمل الشفاعةُ كلَّ مؤمن وإن كان من أصحاب الكبائر، وهو مما لا يُنكر في سعة رحمة الله تعالى، ويُؤيده قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لكن ينبغي للمسلم أن يُوطِّن نفسَه على العمل الصالح فإن لحقته شفاعة في شيء قصَّر فيه فخير، وإن لم تلحقه كان له من عمله ما ينجيه من العذاب بإذن الله.

ثم أتىٰ بما فيه زيادةُ تقرير لطاعتهم مسبوكاً علىٰ مادة البحث، وهي إبطال الشرك والتوعُّد عليه، فقال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، ثم ذيَّل الكلام بهذا القانون العام، تقريراً للبيان، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وإنَّ الشرك بسائر أشكاله لظلمٌ عظيم. ومعنىٰ الآية: أنهم لا يتفوَّهون بمثل هذا أبداً.

وهذه العبارة من فرضيات القرآن وأساليبه، وهي نوع من أنواع شدَّة البيان، إيذاناً بعِظَم هذا الذنب وعِظَم عقوبته، وإن فُرِضَ صُدُورُه من أقرب الخلق إلىٰ الله. وفيه ردٌّ علىٰ الذين يشركونهم مع الله سبحانه، أو يجعلونهم أولاداً لله، أو وسطاءَ يتقوَّلون بأنهم يَدَّعون ذلك.

ويجوز أن يكون فيه أيضاً تعريض بإبليس. وعبَّر بهذا التعبير عن مخالفته وامتناعه عن السجود لآدم، مبالغةً في عِظَم المخالفة، وإيذاناً بأنَّ عدم الإذعان للعبوديَّة لا يقلُّ شأناً عن ادِّعاء الألوهية.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم شرع في سَرْد دلائل الإبداع والقدرة الدالة علىٰ انفراده سبحانه باستحقاق الألوهية، وصدَّر البيان بـ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ الدالِّ علىٰ تنزيل الأمر المتحقِّق منزلةَ الظاهر المرئي، مبالغةً في تحققه، وسَبَك الكلام علىٰ تجهيل هؤلاء المشركين وتأنيبهم حيث قصَّروا في تدبُّر الآيات الكونية وعَظَمة قدرة مُبدِعها الحكيم الخبير، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي: كانتا شيئاً واحداً ففَصَلناهما. وهذا

قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير وابن عباس[١]، وهو مطابق للنظرية الحديثة القائلة بأنَّ الأجرام السماوية كلَّها كانت جُرماً سديماً واحداً فتفصَّل بالدوران والحركة علىٰ تمادي الدهور[٢].

والمعنىٰ: ألم يعلموا أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يعمل مِثلَ هذه الأعمال العظيمة، ولا يقدر علىٰ ذلك غيره، فكيف يشركون معه في الألوهية؟ وقد نَزَّل الأمرَ المتحقِّق منزلةَ الظاهر المرئيّ، وصدَّره بـ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم أضاف إلىٰ هذه الحقيقة الكونية حقيقةً كونية أخرىٰ مثلها في الدلالة علىٰ عِظَم القدرة، منتقلاً إلىٰ دلائل القدرة والمنَّة والحكمة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ علىٰ ما بين الماء وبينها من الـمُباينات في الظاهر، أي: خلقنا من الماء كلَّ حيوان، كما قال تعالىٰ في سورة النور: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، فالمراد من الحياة: الحياة العُرْفية، وهي حياة الحيوان، وقد جاء في العلم الحديث: أن الحيوان الـمَنَويَّ يحتوي علىٰ تسعين في المئة من الماء، وعشرة في المئة من الزلال النقي.

ويجوز أن تكون الآية للتنويه بشأن الماء الحقيقي، وأن كل شيء يحتاج إليه،

---

(١) روى هذه الآثار الطبري في «تفسيره» (١٨: ٤٣١)، إلا أثر سعيد بن جبير؛ فقد ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥: ٦٢٦) وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) هذه المسألة ما زالت «نظرية» كما ذكر المؤلف، ولم تثبت بَعْدُ لترقى إلى «الحقيقة العلمية»، لذلك ينبغي إيرادها في تفسير الآية احتمالاً لا جزماً، لِـمَا قد يطرأ من بيان غلطها، وعلى هذا فينبغي إيراد الوجه الآخر في تفسيرها، وهو: أن السماء كانت رتقاء لا تمطر، وأن الأرض كانت رتقاء لا تُنبت، ففتق الله سبحانه السماء بالمطر والأرض بالنبات، ولذلك أتبعه الله عز وجل بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، والله أعلم.

فتكون لبيان القدرة وللتمنُّن ببذل الماء. ويكون المراد من الحياة: الحياة العامة التي تشمل النبات، وعلىٰ هذا الوجه يكون في معنىٰ «الجَعْل» شيءٌ من التجوُّز، حيث أراد به دوام الحياة، لا إيجادها، كالتجوُّز في قوله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، إذ أريد به المبالغة في اتِّصافه بذلك. ففي كلا الفعلين تجوُّز واتِّساع. أما العلم الحديث فقد أثبت أنَّ الحياة تتولَّد من الماء[1]. والله أعلم.

ثم ختم الكلام بالحثِّ علىٰ الإيمان بالله وحده الفاعل لهذه الأفعال العظيمة، فقال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بالله وأنه هو الإله دون سواه؟ وفي الصيغة تبكيتٌ لهم وتوبيخ.

ثم تابع تعداد تلك الآيات العظيمة الدالة علىٰ اختصاصه بأفعال الألوهية، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جمع راسية، مِن: رسا الشيءُ؛ إذا ثَبَت ورَسَخ، أي: جبالاً ثوابت، جَعَلناها في الأرض وقايةَ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وتضطرب، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: مسالكَ وضحةً واسعةً ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ إلىٰ مصالحهم أثناء تنقُّلاتهم فيها، ولو كانت كلُّها جبالاً وَعِرةً أو رمالاً رَخْوة؛ لتعسَّر سلوكُها والانتفاع منها، كحالة الصَّحارىٰ الرملية.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ من السقوط مع عِظَم أجرامها، وذلك بعَمَدٍ غير مرئيَّة، وهي الجاذبية العامة ـ والله أعلم ـ التي بها تماسُكُ الأجرام بعضها ببعض، والتعادل الدقيق، كما قال ﷺ: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[2]، ﴿وَهُمْ عَنْ

---

(١) التعبير بالتولُّد مما ينبغي اجتنابه، لِمَا فيه من إيهام القول برأي الفلاسفة والمعتزلة ـ على اختلاف بينهما في ذلك أيضاً ـ، والصواب أن يُقال: إن الماء سبب للحياة، يعني: أنه سبب عادي لا عقلي.

(٢) ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٨: ١٧٧)، وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٣: ١٠٢٠): لم أقف عليه.

﴿ءَايَٰتِهَا﴾ أي: عن آيات السماء العظيمة الكثيرة الدالَّة على اختصاصه تعالىٰ بأفعال الألوهية ﴿مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ لا يتدبَّرون ما في ذلك من قدرة وحكمة وعلم وتدبير؛ يُؤنِّبهم ويُوبِّخهم على موقفهم هذا.

ثم غيَّر الأسلوب من التكلُّم إلىٰ الغيبة مبالغةً في التعظيم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلّٞ﴾ من الشمس والقمر وغيرهما من الأجرام السماوية ﴿فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾. وأتىٰ بلفظة ﴿كُلّٞ﴾ لتشمل سائر التوابع للشمس ولا سيما الأرض التي تضمَّنتها كلمة ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لأنها من حركتها اليومية على محورها تجاه الشمس.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾.

وبعد هذا البيان عن وضوح الآيات الدالَّة على الوحدانية توعَّدهم بما سينالهم بعد الموت، جزاءً لشركهم. وصاغَ الكلام بصورة فيها زيادةُ تحسيس بالموت، وألمع إلىٰ ما كانوا ينتظرونه من موته ﷺ لتنفضَّ عنه أصحابه، لزعمهم أن أمره شيء مؤقَّت ناتج من ذاته، وينتهي بانتهائه، وضمَّن الكلام وعيداً لهم فيما بعد الموت، فقال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ﴾ في الدنيا، ولا لك، ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤﴾، والآية تتضمَّن بصيغتها مزيدَ كرامته ﷺ، وفي طيَّاتها إرهاصٌ لحادثة موته ﷺ وتمهيدٌ لها، حتىٰ إذا جاءت تتلقَّاه النفوس بصبر مكين، بعد أن تتكرَّر على الألسن هذه الآية حيناً من الزمن، وذلك من حكمة الحكيم العليم، وعُلوِّ شأن هذا القرآن العظيم، الذي ينتهز الفرص والمناسبات في تنويع المواعظ والإرشاد، ويَسْبك الكلام على معانٍ ذات أفنان، وعلىٰ مقاصدَ مُنوَّعة الأغصان.

ثم مكَّن ذلك بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ثم ذَكَرَ تعلُّقَ ما بعد الموت بما قبله من ترتيب الجزاء، فقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وتمحيصاً لِـما تصيرون إليه، كما يختبر الذهب بالفتانة، وهي الحجر المخصوص لذلك، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فنجازيكم حَسْبَما يظهر منكم فيما تعملون.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ الكلام عن المعارضين وذكر لهم قبيحةً أخرىٰ مسايرةً للبحث، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بسُوء، يغتارون علىٰ آلهتهم المهينة، ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ خابوا وخسروا، ما أحمقهم وما أجهلهم!

ثم توعَّدهم علىٰ ذلك مُمهِّداً بما فيه زيادةٌ في التهديد، وإلماعٌ إلىٰ أنَّ إصرارهم علىٰ الكفر والمعارضة ناشئٌ عن إنكارهم لما يتوعَّدهم به وتراخيه، فقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والعرب تستعمل مثل هذا التركيب للمبالغة، فتقول مثلاً لمن تصفه بكثرة النوم: خُلِقَ من نوم؛ للمبالغة في اتِّصافه بذلك.

وبعد هذا التمهيد للتهديد، توعَّدهم بوعيد مستقبل، واستمهلهم مُتندِّراً عليهم، وقال مُهدِّداً: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾، فجاء الوعيد في غاية القوة والترهيب بمادته وصورته. والمراد بالآيات: ما يتوعَّدهم بها الرسول من أنواع العذاب. والمعنىٰ: لا تستعجلوا العذاب، فسيأتيكم بحينه وترونه بأعينكم، وينزل بكم وأنتم تُبصِرون.

ثم ذكر استهزاءهم بهذا الوعيد، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾؟ فأجابهم ببيان مصيرهم في الآخرة المضاف إلىٰ عذابهم في الدنيا؛ مبالغةً في تحقيق الوعيد، وتتميماً له، فقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا﴾ يقدرون ﴿يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، فحينئذ يَرَوْنَ العذاب، أي: ولا يُعانون علىٰ كفِّ ذلك عنهم. وهذا المعنىٰ مأخوذ من حال الـمُخاطَبين في النَّجْدة والتناصر، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في أنواع إيجازات القرآن).

ثم أضرب عن الجواب إلىٰ جواب آخر يتضمَّن تقريراً لوقوع العذاب وصورته المدهشة، فقال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ أي: تلك العِدَةُ ﴿بَغْتَةً﴾ دون علامات ومقدِّمات ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: فتحيِّرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: ولا يُمهَلون.

ثم استشهد على ذلك بمصير أمثالهم من الأمم السابقة، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي: نزل وأحاط ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ من العذاب. وفي هذا تسليةٌ له ﷺ، وعِدَةٌ ضمنية بأنه سيصيبهم ما أصاب أولئك المستهزئين قبلهم بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

ثم أمر الرسول ﷺ أن يُهدِّد هؤلاء المستهزئين ويُبصِّرهم بمنَّته وقدرته، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: مَنْ يمنعكم ويحفظكم من بأسه إذا نزل بكم ليلاً أو نهاراً. ويجوز أن يكون المعنىٰ إنكاراً عليهم غفلتَهم عما يحيطهم به الرحمن من حفظه وألطافه، فيكون قوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من جانب الرحمن. وفي التعرُّض لعنوان «الرحمن» إيذانٌ بأنه ليس هناك إلا رحمته العامة، فهي مصدر إمهالٍ لكم. لذلك أضرب إلىٰ قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فلا يَقدُرون فضلَه، ولا يخشون بأسَه.

ثم أضاف إلىٰ تجهيلهم الضمنيّ تجهيلاً آخر؛ في طيَّاته زيادةُ وعيد وسخرية، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي: آلهة تحفظهم منَّا وتُخلِّصهم من عذابنا، كلا، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وهذه جملة مستعارة من حال المُخاطَبين أيضاً، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). أي: لا يُؤمِّلون أن يجدوا منا صُحبة، كما يؤمِّل المغلوب من الغالب بعد تمام الغلبة. وهذا المعنىٰ للمبالغة في الوعيد، وبيان استمرار العذاب في الآخرة.

ثم أضرَبَ عن ذلك إلىٰ بيان السبب الحقيقي الذي سوَّغ لهم هذا الاستهزاء، مُبيِّناً أن مصدر ذلك فيهم إنما هو ما أنعم الله به عليهم من الجاه والمال، وفضَّلهم به علىٰ

غيرهم، فاغترُّوا وتجبَّروا. وفيه زيادةُ تقريع وتأنيب بأنَّ إساءتهم نشأت من إحسانه بهم، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ في هذه الحياة الدنيا ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، وهم علىٰ ذلك، فحسبوا أنْ لا يزالوا كذلك، واعتقدوا أن هذا المتاع الحَسَن بسبب ما هم عليه من الدِّين والأعمال. خابوا وخسروا، بل هو من رحمة الله.

وفي الكلام تقريرٌ لمضمون ما قبله، ومُحَصَّله: أنَّ ما هم فيه من القوَّة والمَنَعة ليس من إله آخر يمنعهم من إهلاكنا لهم، وإنما نحن أمهلناهم ومتَّعناهم في هذه الحياة؛ لِيَسْتَوفوا نصيبَهم منها إلىٰ حين، فلا يحسبوا بذلك أنهم هم المقرَّبون عند الله، وأنهم هم الذين سيفوزون علىٰ المؤمنين ويغلِبون.

وقد أَنَّبهم علىٰ هذه الجهالة الجَهْلاء، وبصَّرهم بهذا الحُسبان الخاطئ، وألمع إلىٰ أن العاقبة للمؤمنين في الغَلَبة والسلطان، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بتسليط المسلمين عليها، فتتَّسع رقعتُهم، وتضيق رقعة المشركين. وفي هذا تصويرٌ لما يُجريه الله تعالىٰ علىٰ أيدي المسلمين من تسليطهم علىٰ مَنْ حولهم، واستيلائهم علىٰ بلادهم، وتحسيسٌ بأنَّ العاقبة للمسلمين وليست لهم. وقرَّر ذلك بهذا الاستفهام التهكُّمي، فقال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾؟ يُنكِرُ عليهم ما يحسَبُونه من أنهم لا يزالون أحسن من المسلمين حالاً ومآلاً، وجاهاً وسلطاناً، ويستدلُّون بذلك علىٰ صحَّة خطَّتهم وحقيَّة ديانتهم التي هم عليها، وعلىٰ رضاءِ الله سبحانه وتعالىٰ بها، وأنهم سيغلبون محمداً وأتباعه.

ثم أمره أن يكرِّر لهم الإنذار مُجْمَلاً، بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ أي: إني أنذركم من عذاب الله بما أوحىٰ الله إليَّ، إن أصررتم علىٰ الإعراض.

ثم ختم السياق بما يُلمعُ إلىٰ أنَّ هذا الإنذار والتحسيس لا يُرجعهم عن غيِّهم، وإنما هو لقطع معذرتهم، حتىٰ لا يقولوا: ما جاءنا من نذير، ونَعَىٰ عليهم بأنه لا

يُـجْديهم نفعاً ولا إيقاظاً، لتمكُّن الكفر منهم وانطباعهم عليه، فقال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾، فنزَّلهم منزلة الصُّم؛ لعدم استفادتهم من سماعهم ما يُنْذَرون به.

ثم توعَّدهم وشرح حالتهم النفسيَّةَ عند نزول العذاب، وانتباههم حينئذ لِغَلَطِهم وسَفَهِهم، وندَّمهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أي: وقعة يسيرة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الذي يُنْذَرون به ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾ أي: يا هَلاكَنا، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ لأنفسنا. وهذا بيانٌ لسُرعة تأثُّرهم من العذاب وندمهم عند نزوله، إثْرَ بيان عدم تأثُّرهم من الوعيد به.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم أردف هذا ببيان دقَّة الحساب يوم العرض؛ زيادةً في التهديد، وجمعاً بين العذابين، فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

قال الأستاذ الإمام[2] في الكلام علىٰ الميزان: ومن عجيب ما قاله البعض أنه ميزانٌ بلسان وكفتَيْن، كأطباق السماوات والأرض، ولا يعلم ماهيته إلا الله، فليت شعري ماذا بقيت من ماهيَّته بعد بيان لسانه وكفتيه، حتىٰ يفوَّض العِلمُ فيه إلىٰ الله بعد ذلك البيان؟ ومثل هذا الكلام جرأة علىٰ غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر عن المعصوم ﷺ، ولم يَرِد

(١) أي: لأجل يوم القيامة، وإنما جمع «الموازين» إما لتعدُّدها، فهناك ميزان لأعمال القلوب، وميزان لأعمال القوالب والجوارح، وميزان لأقوال اللسان، وميزان للأخلاق، وميزان لأحوال القلوب، وميزان لأحوال النفوس، وميزان وميزان...، وقيل: جمعها لاعتبار تعدُّد الأعمال والأقوال الموزونة بها. وقيل: جمعَ الموازين مع أنها ميزان واحد لتعظيم شأن الميزان.

(٢) هو الشيخ محمد عبده.

في الكتاب إلا كلمة «الميزان»[١]. فعليك ـ أيها المؤمن المطمئن ـ أن تُوقن بأنَّ الله سبحانه يَزِنُ الأعمال ويُميِّز لكلِّ عمل مقداره، ولا تَسَلْ كيف يزن، ولا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وإنَّ البشر اليوم قد اخترع من الموازين ما هو أتقن وأضبط من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ[٢]. علىٰ أنَّ الموزون هنا معانٍ ومعقولات[٣]، فما هو وجه احتياجها لكفّة بوسع الأرض والسماوات، وإنما ذلك قول من لا يعرف الإيمان بالغيب. انتهىٰ بتصرُّف.

---

(١) بل العجيب إنكار كون الميزان بلسان وكفتين، وقد ثبتت هذه الكيفية في غير ما حديث صحيح، واشترط نص متواتر في ذلك مما يُتَعجَّبُ منه أيضاً، فما دام ثبت «الوزن» و«الميزان» بالقرآن الكريم، فلا محذور في إثبات بعض تفصيلاته بحديث الآحاد الصحيح، ألا ترى أن نعيم الجنة وشجرها وثمرها مما ثبت بالنصوص القطعية في القرآن والسنة، ثم نأتي بعد ذلك نُثبتُ ـ بحديث الآحاد الصحيح ـ شجرةً يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، [رواه البخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] كما نثبت ـ بحديث الآحاد الصحيح بعض صفات ثمر الجنة وطعمه. وكذا يُقال في سائر الغيبيات.

(٢) كون الميزان يوم القيامة بلسان وكفتين لا يعني أنه هو نفسه ميزان البشر الخشن القديم غير المتقن، بل هو ميزان لا كموازين الدنيا، جعله الله بلسان وكفتين لأنها الصورة التي تُعبِّر عن آلة الوزن في الغالب، حتى في هذا العصر الذي صُنعت فيه الموازين الالكترونية، ما زالت صورة الكفتين هي رمز مُعبِّر عن الميزان والعدل.

(٣) اختلف علماء السلف في الموزون: أهو الأعمال والأقوال، أم كتب الأعمال والأقوال؟ ولكلٍّ وجهة ودليل.

فذهب كثير من العلماء إلى أن الأقوال والأعمال توزن في الميزان.

وذهب طائفة من العلماء إلى أن الذي يوزن يوم القيامة هو كتب الأعمال والأقوال، واستدلوا على ذلك بحديث البطاقة الذي رواه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والآية ترغيب وترهيب ببيان دقة الحساب وضبط الأعمال، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ بل ينال كلُّ ذي حقٍّ حقّه، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿وَإِن كَانَ﴾ العملُ ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: في غاية القلَّة والحقَارة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾، وقد أنَّثَ ضمير «المثقال» لإضافته إلىٰ الحبة[1].

وربما أكسَبَ ثانٍ أوَّلا ... تأنيثاً إن كان لحذفٍ مُوهِلا[2]

يعني: في المضاف والمضاف إليه. أي: أحضرنا ذلك العمل المقدَّر بوزن حبة الخردل في الصغر ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ إذ لا مزيد علىٰ دقَّة علمه وعدله تعالىٰ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ولما كان من سُنَّة القرآن تسليتُه ﷺ إثرَ بيان عناد المنكرين ومكابرة الجاحدين، ببيان ما جَرَىٰ لأمثاله من المرسلين مع أممهم الذين لم يعتبروا بهذه البراهين الواضحة القاطعة الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته علىٰ البعث والنشور، وعلىٰ إنجاز ما يتوعَّد به الكافرين؛ ذكر قصص الأنبياء بعد هذا السياق، وقدَّم ذِكرَ موسىٰ عليه السلام؛ لمشاركته له ﷺ في الأمور الآتية المساوقة للبحث، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[3]، واختلف المفسرون في المراد بـ«الفرقان» هنا علىٰ أقوال:

---

(١) ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

(٢) هو لابن مالك محمد بن عبد الله الطائي صاحب الألفية المشهورة في النحو (ت ٦٧٢هـ)، وهو في «ألفيته» (البيت رقم ٣٩٤).

(٣) استعرض القرآن في هذا القَصص تاريخ الأنبياء في البشر، وألمع إلىٰ أنّ الدين السماوي واحد =

فقيل: هي التوراة تفرق بين الحق والباطل. وهذا مرويٌّ عن مجاهد وقتادة[١]. وعلىٰ هذا المعنىٰ، تكون الأوصاف الثلاثة للتوارة.

= في أصوله، وإن اختلفت بعض مظاهره في فروعه، وبيَّن أنه ضياء وذِكرٌ للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون.

ثم ذكر أن القرآن الذي هو أحد هذه الكتب، يمتاز عليها، إذ فيه ما ليس فيها من أصناف الهدىٰ والرشاد، ولذلك وصفه بأنه: مبارك. وإنما جعله سبحانه كذلك؛ ليكون شريعةً باقية إلىٰ يوم القيامة. ثم أنكر علىٰ الكافرين كفرهم به، وهم يَدَّعون أنهم يؤمنون بالتوراة، ولم يدركوا أن التكذيب بالقرآن تكذيب بالتوراة؛ لأنهما من جنس واحد، ومن مصدر واحد، فالإيمان بأحدهما إيمان بالآخر، والتكذيب لأحدهما تكذيب للآخر، وهذا حكم كل مثلين متشابهين.

ثم ألمع إلىٰ أن تاريخ الأنبياء قديم في البشر، من أول وجوده، وذكر منهم قليلاً من المتقدِّمين، وعدداً من المتأخرين، وقد عانوا في نشر الدعوة صنوفاً من المعارضة والأذىٰ، فصبروا حتىٰ أتاهم نصر الله، وأخذ المعارضين أَخْذَ عزيز مقتدر، ونجَّىٰ الله المؤمنين وأدخلهم في الصالحين.

وذكر في قصة داود وسليمان مثلاً مما يمنحه سبحانه للأنبياء من الكرامات التي تساعدهم في نشر الدعوة، ومن الفهوم التي تُعينهم علىٰ استنباط الأحكام، وقد يتفاوتون في ذلك، فكان أنبياء بني إسرائيل في هذا الأمر كعلماء المسلمين المجتهدين في استنباط الأحكام وما يتدرَّبون عليه من الأفهام.

ثم عاد إلىٰ مواقف الأنبياء الصعبة وذكر أن الشدة قد تبلغ عندهم أقصاها، كما كان في تاريخ أيوب عليه السلام، ولكن العاقبة مكفولة لهم، والنصر والتأييد مضمون كل الضمان، بشرط الثبات والصبر المتين، ولذلك حثَّهم عليه، ورهَّب عن الضعف فيه، بما جرىٰ علىٰ يونس عليه السلام، فتداركه سبحانه بألطافه الخفيفة.

ثم أكمل نماذج كرامات الأنبياء بقصة زكريا وعُقمه واستجابة دعائه في كشف ذلك عنه، وإكرامه بيحيىٰ عليهما السلام من أبوين قد بلغا من الكبر عتياً، وبقصة مريم وابنها عليهما السلام بمثل عجيبة زكريا وابنه، وما لاقته من الشدائد والصعوبات حتىٰ تمنَّت الموت والفقدان، ولكن كان لأمرها هذا عاقبة حُسنىٰ، وكرامة عظمىٰ، وعُلو شأن. (المؤلف).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٧١)، (١٨: ٤٥٣).

وقيل: إنه النصر الذي أُوتي موسىٰ عليه السلام، أي: علىٰ فرعون وملئه، حيث أغرقهم الله، فيكون الكلام نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يعني: يوم بدر، حين فرق فيه بين الحق والباطل. وهذا مرويٌّ عن ابن عباس[1]. وعلىٰ هذا، يكون الوصف بالضياء والذكر للتوراة دون الفرقان.

ثم بيَّن صفة المتقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخشون عذابه، وهو غير مُشاهَدٍ لهم. ففيه تعريضٌ بالكفَرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا العذاب، ثم قال في إتمام الوصف: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فهم علىٰ ضدِّ ما اتَّصف به المستعجلون للعذاب.

وبعد أن ذكر ما يعلمونه من إعطاء التوراة لموسىٰ وهارون، ذكر إنزال هذا القرآن المماثل له، رداً لإنكارهم عليه، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ أي: فيه زيادةٌ عظيمةٌ علىٰ التوراة، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تذكيراً لكم بالنبأ العظيم الذي أنتم عنه مُعْرضون، وهو أمر الآخرة، وعلىٰ وتيرة كتاب موسىٰ وهارون، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟ وأيُّ وجه لإنكاره وهو علىٰ وتيرة أمثاله؟

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٥٦١).

﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ
إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ
﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا
فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ
ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم أضاف إلىٰ الاستدلال بمُماثلتِهِ لكتاب موسىٰ، الاستدلالَ بمماثلته لصُحُف إبراهيم قبله في هذا الرُّشْد، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: أرشدناه من قبل موسىٰ إلىٰ هذا النبأ العظيم، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي: بأنه أهلٌ لِـمَا آتيناه من الرُّشد، وصالح للنبوة. وهذه الجملة علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومرمىٰ الآية: أنه تعالىٰ آتىٰ إبراهيم الرُّشْد إلىٰ الحق، قبل موسىٰ وهارون، فكيف يُشرك بالله مَنْ يدَّعي اتِّباعه، ويُعرِضُ عن متابعة هذا القرآن المماثل لشريعة إبراهيم عليه السلام؟

ولزيادة تأنيب المشركين علىٰ ذلك، وتحقيق أنَّ ديانة إبراهيم عليه السلام إنما كانت توحيد الله خالصاً، وأنَّ رسالته إنما كانت لدعوة الناس إلىٰ هذا التوحيد، فصَّل ما كان من أمره مع قومه بعد إعطائه الرُّشْد والنباهة، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

فلما سمعوا مقالته ﴿قَالُوٓا۟﴾ استبعاداً وتعجُّباً واستغراباً: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجِدِّ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فتقول ما تقول علىٰ وجه المداعبة والممازحة؟ كأنهم ـ لاستبعادِهم إنكارَ عبادة الأصنام عليهم واستغرابِهم من ذلك ـ ظنُّوه يُمازحهم، أو نزَّلوه منزلة الممازح. وفي إيراد الشقِّ الأخير بالجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبات إيذانٌ برجحانه عندهم.

فأجاب عليه السلام بالإضراب عما بَنَوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أرباباً لهم، وقرَّر التوحيد، و﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خلقهنَّ، فهو وحده الإله لا شريك له في الألوهية كما لا شريك له في هذا الخلق. وقيل: هذا إضراب عن كونه لاعباً إلىٰ إقامة البرهان علىٰ ما ادَّعاه، بطريقة الاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر، وأيَّده بقوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: العالمين به علىٰ سبيل الحقيقة، فإن الشاهد علىٰ الشيء متأكِّد من تحقُّقه.

ثم صمَّم في نفسه أن يُدبِّر لهم هذه المكيدة؛ ليُفحِمَهم بها، ويبيِّن لهم بالفعل أنها ليست بآلهة لعجزها عن الدفاع عن نفسها، كما حكىٰ ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ قال ذلك سرّاً في نفسه بطريقة التصميم، ونفَّذ القول والعَزْم بالفعل، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

﴿يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: كسَّرها قِطَعاً قِطَعاً، وترك كبيرها؛ ليجعله موضوع المناقشة في الإلزام، ويبني عليه التبكيت الآتي.

ثم حكىٰ سبحانه ما كان من أمر قومه تجاه هذا الحادث، فقال: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؟ يقولون ذلك علىٰ طريقة الإنكار والتَّشنيع والتهديد. لذلك أردفوه بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾. وبعد أن حكىٰ قول السائلين حكىٰ قول المجيبين، فقال: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيبُهم، فلعلَّه فعل ذلك بهم، وهذا الفتىٰ ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: يُطلَقُ عليه هذا الاسم، ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بمرأىٰ منهم ومَسْمَع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ مُحاكمَتَه، فأرادوا محاكمَتَه علناً أمام الرأي العام ليتهيَّج عليه.

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وحاصل كلامه: كيف يجرأ علىٰ الآلهة إلا كبيرها؟ قال في «مجمع البيان»: يشير إلىٰ الذي لم يكسره، سالكاً مسْلك تعريض يؤديه إلىٰ مقصده، وهو إلزامهم بالحجَّة علىٰ ألطف وجه وأحسنه، ليحملهم علىٰ التأمُّل في شأن آلهتهم. وفي التعاريض مندوحةٌ عن الكذب. وقد ضمَّن الكلام أشنع التهكُّم عليهم والاستهزاء بهم، فهو ليس بخبر حقيقيّ حتىٰ يحتمل الكذب، وإنما هو إلزام وتهكُّم أُخرج مَخْرَجَ الخبر، والإلزام تارةً يأتي بصورة السؤال، وتارةً بصورة الأمر، وتارةً بصورة الخبر. ووجه الإلزام: أنَّ هذه الأصنام إن كانت آلهة كما تزعمون، فإنما فعل ذلك بهم كبيرهم؛ لأنَّ غير الإله كيف يقدر أن يجرأ علىٰ هذا العمل؟ ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: ألا تسألون منهم وهم الآلهة؟ يقول هذا ليضيف إلىٰ الإلزام إلزاماً آخر في تحقيق سخافتهم بعبادتهم ما لا يقدر علىٰ الدفاع عن نفسه، ولا علىٰ شيء، ولا يدري، ولا ينطق؛ ليريَهم مبلغَ حمقهم وجهلهم، وأنهم يعبدون ما هو دونهم بمراحل.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قالوا في أنفسهم: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾ لا إبراهيم، حيث تعبدون ما لا يقدر علىٰ الدفع عن نفسه. وهذه وَهْلةُ الصَّدْمة بالإلزام الفاضح، تَلمَعُ لمعة ثم تذوب، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: انقلبوا إلىٰ الـمُجَادَلة بعدما استقاموا بالمراجعة. فشبَّه عَوْدَهُم إلىٰ الباطل بعد اعترافهم بالحق بصَيْرورة أسفل الشيء أعلاه، أو المعنىٰ: أنَّ عودتهم إلىٰ الـمُجادَلة فَضَحَتْهم أكثر من ذي قبل، حيث اضطروا أن يقرُّوا بعَجْز هذه الآلهة وجمودها وأنها لا تنطق، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾.

وهنالك بكَّتهم هذا التبكيت الـمفحم ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾، وهذا إفحامٌ واضح، في طيَّاته تبكيتٌ لاذع فاضح. وحاصله: أتعبدون مَنْ هذا شأنه وهذا هوانه أيها الحمقىٰ؟ وهكذا شأن سائر المعارضين للحقِّ إذا صَدَمهم البرهان القاطع فأبصروه بعقولهم، أذْعَنوا للحق قليلاً، ولكنهم لم يلبثوا حتىٰ يعودوا لباطلهم وانطباعاتهم الأولىٰ، كما هو شأن المنطبع علىٰ الضلال.

ولما أُفحِموا بالحُجَّة، لزموا طريق السَّفاهة الغاشمة والـمُناصَبة والتعسُّف في الـمُعانَدة، كما هو شأن الـمُبْطِل المتجبِّر، و﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾، وهذا الشرط للزيادة في الإغراء والتحميس، وقد فعلوا فنجَّاه الله تعالىٰ، كما حكىٰ ذلك بقوله: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ حيثُ هاجر من العراق ـ أرض بابل إذ ذاك ـ إلىٰ الشام، وقيل: إلىٰ أرض المقدس، وقيل: إنه نزل بفلسطين، ونزل لوط بالـمُؤْتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة. ولوط: هو ابن أخي إبراهيم عليهما السلام.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ما أنعم به علىٰ إبراهيم، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: عطيَّة. قال ابن عباس وقتادة: ﴿نَافِلَةً﴾[1] راجع إلىٰ يعقوب، فإنه زاده من غير دعاء، حيث طلب ولداً فأعطاه ولداً وولَدَ ولد، ﴿وَكُلًّا﴾ يعني الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقْتَدَىٰ بهم في أمور الدين، و﴿يَهْدُونَ﴾ إلىٰ الحق والصراط المستقيم ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بأمرنا لهم بذلك وإرسالنا إياهم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وهذا استشهاد آخر لوحي محمد ﷺ، وأنه مثلُ أمثاله من الأنبياء، فلمَ أنتم له منكرون؟

قال أبو مسلم: ثم عطف علىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، قولَه: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: نبوةً ورشاداً، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، وهي قرية «سدوم»، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾، وفي ذِكرِ هذه التَّنْجية إيماءٌ بالوعد الكريم له ﷺ أن ينصره كما نصر أمثاله من الأنبياء.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم عطف علىٰ لوط نوحاً لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء المذكورين، أو: من قبل نداء لوط، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ وهو الطوفان الذي حلَّ بقومه، وقيل:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٤٥٧).

أذية قومه له، ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾، وقد ضمَّن (نَصَرْناه) معنىٰ: نجَّيناه، وعدَّاه تعديته، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم عطف علىٰ نوحٍ داودَ وسليمانَ لنفس الغرض السابق، وذكر لهما ما خصَّهما به تعالىٰ من العلم والحكمة، فقال: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي: في الزرع أو الكرم، ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: انتشرت فيه ورَعَتْهُ ليلاً. وقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ يفيد مزيدَ الاعتناء بهذا الحكم، وإنما جمع الضمير لعودته عليهما وعلىٰ المتحاكمين إليهما؛ لأن الإضافة هنا للاختصاص، وهو يشمل مَنْ قام به الفعل ومَنْ وقع عليه. ويجوز أن يعود عليهما فقط، إذ قد يطلق ضمير الجمع علىٰ الاثنين، وهو من خصائص اللغة، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، وإن كان المراد بهما صنفين.

وقد مهَّد بهذه الجملة لقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أي: الحكومةَ والفُتْيا ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، قال الـجُبَّائي: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ سليمان بما نَسَخَ به حكم داود عليهما السلام، أي: وحيَ الإلهام. والله أعلم. وقال غيره: إنما هو الاجتهاد فيه. قال ابن مسعود وشريح

ومقاتل: إنَّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كَرْم، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر، فأكلت القضبان وأفسدت الكرم، فذهَبَ صاحب الكرم في الغد إلىٰ داود عليه السلام، فقَضىٰ له بالغنم؛ لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت، فقدَّر ضرر الكرم بقيمة الغنم كلِّها، فخرجوا ومرُّوا بسليمان، فقال لهم: كيف قضىٰ بينكما؟ فأخبراه، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فأُخْبِرَ داودُ عليه السلام بذلك، فدَعا سليمان، وقال: ما هو الأرفق الذي تعنيه؟ فقال: تُسلَّم الغنم إلىٰ صاحب الكرم، حتىٰ يرتفق بمنافعها، ويعمل الراعي صاحبُ الغنم في إصلاح الكرم، حتىٰ يصير كما كان، ثم تُردُّ الغنم إلىٰ صاحبها، فقال عليه السلام: إنما القضاء ما قَضَيْتَ، وحَكَمَ بذلك[1].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2] فلِدَفْعِ ما عَسَىٰ يُوهمه تخصيصُ سليمان عليه السلام بالتفهيم من كون حكم داود عليه السلام حكماً غير شرعي. وهذا الدفع يدل علىٰ أن خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهداً، وعلىٰ أنه قد يكون أحدُ المجتهدَيْن أهدىٰ للصواب في الحكم، ويُدرك وجهاً لا يدركه الآخر، وكلاهما مصيب يجوز للمقلد العمل به.

وبعد أن ذكر ما آتاهما من الرُّشْد، ذكر ما خصَّ به كلاً منهما من النِّعَم والكرامة، وبدأ بداود فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، ثم تمجَّد سبحانه وتعالىٰ بذلك، فقال: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: من شأننا أن نفعل أمثال هذا، فليس ذلك عجيباً منَّا، وإن كان عجيباً عندكم.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٤).

(٢) قيل: إن داود عليه السلام حكم بالغنم لصاحب الحَرْث، وبالحَرْث لصاحب الغنم، وكان سليمان بن داود حاضراً، فرأىٰ أن ينتفع صاحب الحَرْث بما تنتجه الغنم فترةً يُصلحُ فيها صاحبُ الغنم الحَرْثَ ثم يترادّا. (المؤلف).

وقد اختلفوا في بيان هذا التسبيح:

فقال مقاتل: إذا ذكر داود عليه السلام ربَّه، ذكرت الجبال والطير ربَّها معه.

وقال الكلبي: إذا سبَّح داود أجابته الجبال.

وقال سليمان بن حيَّان: كان داود عليه السلام إذا وجد فترةً أمَرَ الله تعالىٰ الجبال فسبَّحت، فيزداد نشاطاً واشتياقاً[١].

أقول: والأنبياء مُزوّدون بمواهب بحكم كمالهم.

وقيل: عندما كان داود عليه السلام يستغرق في التَّسبيح، يشعر بأن الجبال والطير يُـشَارِكْنَه في ذلك. والله أعلم. فالكلام إلماعٌ لهذه الظاهرة في الشعور[٢].

وقال البلخي: يجوز أن يكون هذا إشارةً إلىٰ ما أعطاه الله من حُسْن الصَّوت بقراءة الزبور، فإذا قرأه بين الجبال ردَّت عليه مِثلَه من الصَّدىٰ، فسُمّي ذلك تسبيحاً[٣].

وقال الـجُبَّائي: معناه: وفَّقنا الجبالَ له، فحيثُ سار صادف جبالاً يتَّخذ منها مقاعد مكينة للقتال، فالمراد: توفيقه في القتال وتهيئة الأسباب له، وعبَّر عن هذا بالتسبيح لما فيه من الآية العظيمة، وهي استجابةُ الأشياء للمتَّقين بتسخير الله إيَّاها لهم، لا سيما في حروبهم الدينية أثناء دعوتهم؛ لأنها لنشر الدين. وكذلك تسخير الطير له ليستخدمها في المرسلات وغيرها، فهو تسبيحٌ بهذا المعنىٰ[٤].

---

(١) هذه الآثار ذكرها الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٣).

(٢) ليس في هذا خصوصيَّة لداود ومنَّة وفضل عليه، لو كان مجرَّد شعور كما ادعاه المؤلف غفر الله له، بل المراد أنها تسبِّح الله بنُطق منها علىٰ الحقيقة.

(٣) هذا قولٌ فيه نظر؛ لأنَّ صدىٰ الأصوات عند الجبال لا يختصُّ بداود، ولا يكون في ذلك مِنّةٌ وفضل علىٰ داود عليه السلام، بل هو تسبيحها النُّطقي معه عليه السلام.

(٤) الجبال والطيـر تُسبِّح بنُـطق منها علىٰ الحقيقة، وليس هو من باب الاستجابة له، وخضوعها =

وقيل: سخَّر له الجبال في كلِّ ما يتطلَّبه منها من استخراج معدن أو اتِّخاذ محلات لمقاعد القتال، أو استنباط عَيْن، أو غير ذلك مما يحتاجه لحربه وسلمه.

ومثل هذه المعاني أكثر ملاءمةً لمعنىٰ التَّسخير، وأوفر مناسبةً لما يأتي بعدها من التمنُّن عليه بأمور ماديَّة مساعدة لسلطانه. والله أعلم.

واقتران (سَخَّرَ) بـ﴿مَعَ﴾ دون اللام يدلُّ علىٰ تضمينها معنىٰ الملاءمة والتوفيق. هذه هي أحسن الأقوال في هذه الآية، وكلها آراء مجرَّدة. والله أعلم بالصواب.

ويجوز أن تختصَّ صفة التسبيح بالجبال فقط دون الطير، ويشتركان في التَّسخير، ويكون معنىٰ تسخير الطير: مساعدتها له في كلِّ ما يطلب منها، ولا سيما في استكشاف أمر العدو وإرسال الرسائل، كما جاء عن الهدهد في قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام. والله أعلم.

والأَوْلىٰ أن نُحيلَ الأمر إلىٰ علم الله سبحانه[1] ولا نخوض فيه، ونعتقد بالجملة أنه كرامة أكرم الله بها نبيَّه وخصَّه بها.

ثم قال في إتمام ما خصَّه به من النِّعم والكرامة: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ قيل: إنه أوَّل مَنْ أُلهم بها وبسَرْدِها حِلَقاً حِلَقاً. وقيل: إنما أُلهم

= لاسمه. يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ ـ فيما أكرم به نبيَّه داود ـ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۞ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ - ١٩]، فكانت الجبال تُسبِّح مع داود، وتردِّد التَّسبيح معه في العشيِّ والإشراق، فلو كان ذلك من باب التَّسخير ودلالة الحال ونحو ذلك؛ لما اختصَّت بذلك في هذين الوقتين.

(١) بل الأَوْلى أن نُثبِتَ التسبيح على حقيقته، ثم نُحيل الكيفية في ذلك إلى علم الله تعالى، لأن الحقيقة غير ممتنعة، والكيفية غيبٌ لا تدركه عقولنا إلا بخبر، فنقف عند حدود النص ولا نتجاوزها.

بإدخال إصلاحات كبيرة عليها في الخفة والتحصين، ثم شاعت في المحاربين. ومثل هذه تكون من المنافع العامة التي يُلهم سبحانه بها بعضَ أفراد البشر ليستفيد منها الجميع بعد كشفها ونشرها بين الناس ليعملوا بها، فوجب عليهم شكر الله. لذلك حثَّهم سبحانه وتعالىٰ عليه، فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟

ويحتمل أن يكون قد علَّمها لصُنَّاع مملكته، فعملوا بها.

ويجوز أن يكون المراد بالآية: ما كان علىٰ عهد مملكته من صنعة ماهرة في الدروع مُلْهَمَة لصُنَّاع ماهرين؛ إذ هي نعمة عليه ﷺ، ومنَّة من منن الله. ويُنسَبُ ما حَدَث في مملكة صاحب السلطان إليه. والله أعلم.

ثم ذكر ما خصَّ به سليمان من النِّعَم والكرامة، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام أو أرض المقدس. قال الكلبي: كانت تسير من إصْطَخْرَ إلىٰ الشام بصورة سريعة، يركب عليها سليمان وأصحابه. وقال قتادة: وَرَّثَ الله تعالىٰ سليمان من داود ملكَه ونبوَّتَه، وزاد عليه أمرَيْن: الريح والشياطين[1]. أما الريح فقد سخَّرها تجري بأمره طائعةً منقادةً إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها ليِّنة كانت لينة. أقول: ويجوز أن يكون ذلك في تسيير السفن الشراعيَّة الحربية وغير الحربية. والله أعلم.

وجاء في سورة صٓ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [صٓ: ٣٦]. وقال الرازي: ويمكن الجمع بينهما من وجهين: الأول: أنها كانت في وقت عاصفة، وفي وقت رخاء. الثاني: أنها كانت رخيَّةً في نفسها قويةً في عَمَلِها[2].

---

(١) ذكر هذه الأقوال الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٩).

(٢) انظر التعليق السابق.

أقول: ويجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿رُخَآءً﴾: أنها مطيعة له وموافقة لمراده، فلا تعارض أيضاً.

ثم تـمجَّد سبحانه وتعالىٰ بمـا هو كالتعليل لذلك، فقال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: لعلمنا الأزليِّ بالأشياء وأسبابها دبَّرنا هذا التدبير لرسلنا، علىٰ سنن لا تعلمونها[١]، ليكون ذلك معجزةً لهم، تؤيِّد نبوَّتهم وتدير أمورهم.

ثم ذكر الأمر الثاني الذي زاده لسليمان علىٰ الملك والنبوة من النَّعم والكرامة، فـقال: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قال في «مجمع البيان»: كانت الجنُّ تعمل لسليمـان عليه السلام في تحصيل الرُّخام والمها[٢] الأبيض الصافي من معادنه، فبنىٰ المدينة وجَعَلها اثني عشر رَبْضاً، كلُّ رَبْض لسِبْط من الأسباط. ولما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد، وقسَّم الجنّ فِرَقاً لتحضير المواد: فرقة يستخرجون الذهب واليواقيت من معادنها، وفرقة يقلعون الجواهر والأحجار من أماكنها، وفرقة يأتون بالدُّرِّ من البحار. ثم أحضر الصُّنَّاع وأمرهم بنَحْت تلك الأحجار ومعالجة تلك الجواهر واللآلئ، وبنىٰ سليمـان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعُمُدَهُ بأساطين المها الصافي، وفصَّص سقوفه وحيطانه باللآلئ

---

(١) لا دليل على ذلك، بل معجزات الأنبياء إنمـا تأتي على غير السُّنن، فهي أمورٌ خارقةٌ للعادة، أي: للسُّنن والنواميس والقوانين، ولو كانت معجزة النبي جارية على سنة غير معلومة لكان وصوله بنفسه إليها واطلاعه هو عليها وإجراؤه هو لها على يده مما لا ينكره العقل ولا يحكم باستحالته، فلا تُفيدُ المعجزةُ حينئذ اليقينَ بأنه نبي مُرسَل من عند الله سبحانه. وعليه، يجب أن تكون المعجزة مما لا يمكن للبشر أن يصلوا إليه ـ ولو تجويزاً عقلياً ـ، وذلك بكونها خارقة للسنن الكونية، سواء كانت معلومة أم لا.

(٢) المها: من الـحَجَر. «لسان العرب» (موه).

واليواقيت والجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيرزوج، فلم يكن في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد.

ولم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزا بخت نصّر بني إسرائيل، فخرّب المدينة وهدمها ونقض المسجد، وأخذ ما في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدُّرِّ واليواقيت والجواهر، فحملها إلىٰ دار مملكته في أرض العراق.

ثم قال تعالىٰ في بيان إتمام النعمة علىٰ سليمان في أمر الجنّ: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: من أن يَزيغُوا عن أمره، أو يفسدوا عليه بمقتضىٰ جِبِلَّتهم، أو يهربوا منه، فهم لا يتمكَّنون من كلِّ ذلك.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

ثم عطف علىٰ داود وسليمان أيوبَ لنفس الغرض السابق، وهو تسليتُه ﷺ في أمر قريش، وتثبيته علىٰ مقاومتهم له. فذكر صَبْرَ أيوب علىٰ امتحانه بالبلاء في نفسه وأهله في سبيل نشر الدعوة، وما أنعَمَ الله به عليه من كشف الضُّرِّ عنه في نفسه وأهله نتيجةَ صبره حتىٰ تمَّ له الأمر، فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بعد أن وَصَل به البلاء في نفسه وأهله إلىٰ حدٍّ لا يطاق، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[1] أي: وَصَل إلىٰ

(١) الذي أظنه ـ والله أعلم ـ أنَّ ذلك كان في سبيل نشر الدعوة. (المؤلف).

حدٍّ لا أُطيقه، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: أعطيناه ضعف ما كان له، أو أعطيناه ضعفي المعتاد من الأهل والأولاد بعد ذلك الضيق العضال ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾، حيث يكون ذلك داعيةً لهم علىٰ الصبر والاحتساب. وفيه تثبيتٌ وتسليةٌ للنبي ﷺ.

وروىٰ الليث قال: أرسل مجاهد إلىٰ عكرمة وسأله عن الآية، فقال: قيل له: إنَّ أهلك لك في الآخرة، فإن شئتَ عجَّلناهم لك في الدنيا، وإن شئتَ كانوا لك في الآخرة وآتيناك مِثلَهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة وأوتىٰ مثلهم في الدنيا[1].

وقد علَّقتُ علىٰ قصة أيوب عليه السلام في سورة (صٓ) فارجع إليه. وكان أيوب عليه السلام من ولد عيص بن إسحاق علىٰ ما قيل.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ثلاثة من الأنبياء الصابرين بصورة مُجْملة من دون تنبيهٍ علىٰ شيءٍ من صبرهم، اعتماداً علىٰ السياق، حيث ذكرهم في سياق أيوب وذي النون وأحاطهم بهما، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾، وإنما جمعهم مع تفرُّقهم في الزمن ـ فإدريس أبو جدِّ نوح، وإسماعيل ابن إبراهيم، وذو الكفل بعد سليمان ـ لتقاربهم في شدَّة الصبر. والله أعلم.

أردفهم بقصة ذي النون، وفصَّلها بذكر ابتلائه وما أنعم به عليه من تنجيته من بلائه، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومه؛ لأنه دعاهم إلىٰ الإيمان مدَّة طويلة فلم يؤمنوا، فأنكر الله سبحانه عليه ذهابه من دون أن يُؤْمَرَ بأشدِّ صور الإنكار،

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٣).

وقال: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ والكلام علىٰ طريقة القرآن عندما يُريد الشدَّة في الزجر يأتي بشدَّة البيان. وحاصل المعنىٰ: أن لن نُضَيِّقَ عليه، أو: أن لن نقضيَ عليه ما قضينا.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ معطوف علىٰ محذوف، كما هو أسلوب القرآن. والتقدير: فابتليناه تدريباً له علىٰ الصبر والثبات فنادىٰ في الظلمات. وقد قيل: إنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت؛ نادىٰ فيه ربَّه مُسْتَرحِماً ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وإنما أفرده في الذكر لصعوبة أمره، والله أعلم. وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، ووعدٌ له وللمؤمنين بالنصر والتأييد.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم ذكر زكريا عليه السلام، وما أنعم به عليه من الكرامة والنَّجْدة، وما آتاه من الرُّشد، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ يدعو الله سبحانه أن يجعل له مَنْ يقوم بإدارة بني إسرائيل من بعده، ثم أشفع دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: فإن لم ترزقني مَنْ يرثني فلا أبالي لأنك خير وارث، فالكلام علىٰ وجه الثناء علىٰ ربه والتوسُّل إليه، فيرزقه ولداً لهذه الغاية، وإلا فإنه سبحانه خير وارث، يُدبِّر الأمر حسب إرادته وحكمته.

وقد قَرَنَ الله سبحانه دعاءه بالإجابة، فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ

﴿يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، وهذا من عطف السبب علىٰ المسبَّب، وكان ذلك بإزالة أسباب العقم وإعادة قوة الولادة[١].

أما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فيجوز أن يكون بياناً وثناءً علىٰ زكريا ويحيىٰ وأمه. ويجوز أن يعود لجميع مَنْ تقدَّم من الأنبياء، فيكون تعليلاً لما فصَّل سبحانه من فنون إحسانه عليهم وكرامته لهم، والله أعلم.

ثم ذكر كرامته علىٰ مريم وعيسىٰ عليهما السلام؛ لما بينها وبين قصة زكريا من التناسب في الكرامة وخَرْق العادة، وابتدأ قصتها بوصف يُنزِّهها به ويُفرِدُها بكرامة عدم المساس من الزوج، فقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[٢] أي: من هذا النوع الذي عندنا المسمَّىٰ بالروح. وهذه الإضافة علىٰ معنىٰ المُلك، كما

---

(١) القول بحصول التوالد بالقوة غير صواب، بل الولد إنما يكون بخلق الله تعالى له، والزوجان وصلاحهما للإنجاب سبب عادي أجرى الله تعالى سنته في الكون بأن يخلق الولد عنده، وفي حال زكريا عليه السلام خرق الله السنة الكونية، فخلق الولد ـ وهو يحيى عليه السلام ـ من غير اكتمال السبب، أعني: وجود الزوجين لكن من غير صلاحية الإنجاب في جانب المرأة.

(٢) يُعبِّر القرآن عن خلق الروح بالنفخ، وذلك للإشعار بأنَّ الروح جسم لطيف خفيف، وأنه مستقل عن البدن، لا ممتزج به، وأن البدن كالظرف له والغلاف. والله أعلم. فالتعبير بالنفخ عن خلق الروح من أساليب القرآن وخصائصه في أيِّ سياق كان، وبأيِّ موضوع اتصل. ولذلك جاء في قصة مريم، كما جاء في قصة آدم؛ إذ كلاهما بيان لخلق الروح في فرد من أفراد الإنسان. ومُحصَّل المعنىٰ في الآية: أن الله سبحانه خلق الروح في ولد مريم كما خلقه في سائر بني آدم، وإن كان حمل مريم علىٰ سنَّة غير معتادة في اللقاح والحمل. وقوله: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ تقرير لهذا المعنىٰ، أي: أنها حيية حصينة، ولكن لقاحها علىٰ غير المألوف من لقاح بني الإنسان. والمعنىٰ: أننا خلقنا الروح في ولدها كما خلقناه في ولد غيرها سواء بسواء. (المؤلف).

يقول القائل: أعطيناه من مالنا، وسقيناه من شرابنا. وعلىٰ حدِّ قول القائل: منحناه من نفائسنا وتُحَفِنا. وكما يقول صاحب معمل فخار مثلاً: بُني هذا الدار بفخارنا، يتمجَّد بذلك. والله أعلم.

والغاية من هذا البيان: الإشارة إلىٰ أنَّ عيسىٰ عليه السلام لا يمتاز عن النوع الإنساني المنفوخ فيه من هذا الروح، كي لا يظنّ أنه جارٍ علىٰ خلاف تلك النواميس الطبيعيَّة[1]، غاية ما هناك أنه امتاز في خلقه من دون أب، بناموس طبيعيّ غير معروف لنا[2]، مغاير للقانون العام؛ ليكون معجزةً وكرامةً له ولأمه عليهما الصلاة والسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾، ويؤيِّد ما قلت مجيءُ مثلِ هذه الآية في حقِّ آدم عليه السلام، فقد قال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]. وإنما خصَّ آدم بهذا التعبير أيضاً لأنه أوَّلُ مظهر من مظاهر تلك القدرة الإلهية، إذ هو أول فرد من أفراد هذا النوع الممتاز المختصِّ بالروح في عالم الشهود، فإنَّ سائر أنواع الحيوان ليس فيها إلا الحياة المجرَّدة كبقية المخلوقات من عالم الشهود، كما بيَّنتُ ذلك في سورة الحجر.

وقد أشار سبحانه بقوله في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] إلىٰ مساواتهما في الخروج عن القانون العامِّ في خِلقة البشر، بل آدم أكثر خروجاً من عيسىٰ عليهما السلام، حيث خلقه من تراب دون أم وأب، ثم قال له: كن، فيكون.

---

(١) كان خلق عيسى عليه السلام على غير الطريقة المعتادة في غيره بل مع وجه خارق للعادة، فحُقَّ له أن يخصَّص بما يميِّزه عن غيره.

(٢) تقدم التعليق على هذا المعنى في مواضع، ومنها ما تقدم عند الآية ٩٠ من هذه السورة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم ختم قصص الأنبياء ببيان اتِّحاد سائر شرائعهم في جوهرها وأُسسها، وإن اختلفت في بعض مظاهرها وفروعها، نظراً لتدرُّج رُقيِّ النوع الإنساني في مدارج العلوم والمعارف، ولكن أتباعهم عَبَثوا بها بعد أن تَقادَم عليهم العقد، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

وهذا التعبير تصريحٌ وتنصيصٌ علىٰ أنَّ الأنبياء كلَّهم مشتركون في أصول الدين، وهي التوحيد والتَّنزيه، وإن اختلفوا في صالح الأعمال؛ لِتَباعُدِ الأزمان وتَدَرُّج الإنسان في العلم والمعرفة، كما يدرج الطالب للعلم درجات كثيرة ينتهي بها إلىٰ الكمال. والله أعلم. أي: إنَّ مِلَّتَكم التي يجب أن تكونوا عليها ملَّة واحدة بأُسسها، وهي التوحيد الخالص والإيمان باليوم الآخر علىٰ حقيقته، كما جاءت به الرسل، وعبادة الله سبحانه علىٰ الصورة التي ارتضاها كما نزل بها هذا الذكر المُحْدَث. وكذلك الأعمال الصالحة فيما بين البشر وبين الله، وما بين البشر أنفسهم، تلك الأعمال التي فيها كمال الروح وغذاؤها وصلاح الحال في الدارين.

وعلىٰ هذه الأسس جاءت سائر الرسالات المنزلة، إلا أن الذي يفسد طبيعته من البشر يعبث بالشرائع بعد أن يتقادم عليها العهد، فيخرج بها من التوحيد إلىٰ الوثنية، ومن الصلاح إلىٰ الفساد. وإذا أنزل سبحانه شريعة جديدة ينسخ بها تلك الشريعة المحرَّفة، ويراعي فيها ما تدرَّج إليه الإنسان في مدارج العلم والمعرفة، بحسب سُنَّة الله في نسخ الشرائع وتبديلها، لم يتَّبع هذا الصنفُ الفاسدُ الشريعةَ الجديدةَ، ويبقىٰ مُصرّاً علىٰ شريعته التي حَرَّفها. وبذلك أصبح لهذا الصنف الفاسد أديان منوَّعة، أدَّت إلىٰ تناحر وعداء، خلافاً لما أراده[1] سبحانه من الوفاق، وإلىٰ ذلك أشار سبحانه بقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ فتوعَّدهم بقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾ أي: المصلحون والمفسدون.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾ أي: يُحصيه لهم، ولا يهمل شيئاً من حقِّهم ولو كان مثقال ذرَّة، ويُجازيهم عليه الجزاءَ الأوفىٰ.

ثم ذكر مصير المفسدين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، وضمَّن الكلامَ إثباتَ البعث والحساب بأسلوب وبرهان بديع، مؤدَّاه توعُّدهم بعذاب الآخرة بعد عذاب الاستئصال في الدنيا، الذي جرىٰ علىٰ مَنْ مَضىٰ من الأمم الفاسدة أمثالهم، فقال: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾، ومحصَّل معنىٰ هذه الآية: أنَّ استئصال الأمم الفاسدة المعارضة للأنبياء ـ كعاد وثمود وقوم نوح وقوم فرعون وأَضْرابِهم ـ دليلٌ علىٰ ثبوت الحشر والحساب ومُجازاة المجرمين. ووَجْه الاستدلال: أنه لو لم يكن حَشْرٌ وحسابٌ لجميع الناس، يكون جزاءُ هؤلاء وحدهم في الدنيا دون

---

(١) يعني: لما طلبه الله عز وجل وأمر به، وإلا فمراد الله لا يتخلف.

غيرهم من المجرمين جزاءً غير عادل، لا يقبله العقل، ولا يُجوِّزه الوجدان. وعبَّر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَحَرَامٌ...﴾، وهي عبارة بديعة في إثبات الحشر. وهذا الأسلوب في البرهان علىٰ إثبات البعث والحساب يُبطِلُ قولَ من يُنكره، ويقرِّر ما تقدَّم من أنه لا كُفران لسعي أحد.

وبعد أن أثبت الحشر والحساب فصَّل أحداثه، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ والحدب: النشر من الأرض، و﴿يَنسِلُونَ﴾ بمعنىٰ: يأتون ويسرعون. ويطلق لقب «يأجوج ومأجوج» علىٰ غوغاء الناس وهَمَجهم، وعلىٰ الكثير المرتبك منهم، وعلىٰ السفلة المتسرِّعين إلىٰ الشر. وأراد به هنا المعنىٰ الثاني من بين المعاني الثلاثة[1]؛ يُهوِّل به عن كثرة الخارجين من قبورهم يوم الحشر، المائجين ببعضهم فزعاً وارتباكاً. والله أعلم.

وكان مجاهد يقرأ: (من كل جَدَث)[2]، وهو: القبر، فالآية بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، ويُؤيِّد ما ذكرتُ من إطلاق «يأجوج ومأجوج» علىٰ الكثرة المختلطة من الناس الخارجة من قبورها يومئذ: ما أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وقد جاء فيه: «إن تسعمئة وتسعة وتسعين من كل ألف يكونون من أهل النار»، فقالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا، فإنَّ منكم واحداً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً». ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثُلُث

---

(١) تقدَّم نَقْدُ هذا التفسير ليأجوج ومأجوج في تفسير الآية ٩٤ من سورة الكهف، لما فيه من مخالفة لما ثبت في السنة الصحيحة من أنهم صنف من الناس.

(٢) نسب ابن جني القراءة في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢: ٦٦) لابن مسعود رضي الله عنه.

أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود»[١].

أقول: فالذي يظهر من سياق الحديث أنَّ المراد من يأجوج ومأجوج عموم الناس الذين يُحشرون يوم القيامة، كما يظهر من سياق هذه الآية أيضاً. والله أعلم.

ويزيده تأييداً تعقيبُه بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الحساب ودخول الجنة أو النار، فإنه تعقيبٌ للنشور بالحساب ونتائجه[٢].

ثم صوَّر حالة المشركين عند ذلك، وقال: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من هَوْل ما يَرَونَ ويُبصِرون ويخافون، والضمير للقصة أو مُبهَمٌ يفسِّره ما بعده. و(إذا) هذه هي الفجائية، تُصَوِّر ما يفاجئهم من الهَوْل، فيقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، إذ لم يكونوا في الدنيا يعتقدون بضلال عبادتهم، أو يعتقدون بصحَّة الحشر والحساب، أي: لم نكن نعلم أنه حقٌّ واقع، ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ لأنفسنا بتكذيبنا لذلك.

فخُوطبوا بهذا الخطاب، زيادةً في الإرعاب، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وهو ما يُرمىٰ به إليها ويُحْصَب، مأخوذٌ من

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٨)، ورواه مسلم (٢٢٢) أيضاً، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) ليس في الحديث الذي استدلَّ به المؤلفُ ما يُفيدُ أن معنى: ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: هو خروجُهم من القبور، بل يُفيدُ كثرة أهل النار منهم في الآخرة، وليس في الآية ما يدلُّ على ما ذهبَ إليه المؤلفُ أيضاً. واقترابُ الوعد الحق: دنوُّ يوم القيامة، وبدوُّ علاماتها وأهوالها. وهذه الآيات يُفسِّرها ما ما تقدم في الآيات ٩٤-١٠٠ من سورة الكهف، وما ثبت في الأحاديث الصحيحة التي تُفيدُ خروجهم بعد فتح السَّدِّ قُرْبَ يوم القيامة.

قولهم: حَصَبه؛ إذا رماه بالحصباء. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ والمراد بهم: فرعونُ وشبهه، أو المضلِّلون المحرِّفون للشرائع.

ثم أفحمهم بهذا الإفحام الفاضح والإلزام الواضح، المبنيّ على البيان السابق، فقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، ثم سجَّل بهذا الحكم، فقال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: العَبَدَةُ ومَنْ أضلُّوهم، إذ هم المراد من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، على طريقة التوسُّع في استعارة صفة المسبَّب للسبب، على حدِّ قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقد سمَّاهم أرباباً لأنهم يتَّبعونهم في التَّحريم والتَّحليل. أو المراد مُدَّعو الألوهيَّة كفرعون وشبهه، أو كلاهما معاً.

ثم تابع المعنى في تصوير شقائهم، فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: أنين وتنفُّس شديد من شدَّة الحر، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدَّة الهول. اللهمَّ احفظنا يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ

﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ولما فرغ من بيان مصير المشركين الرهيب، أخذ يتكلم عن مصير المؤمنين، كما هو دأب القرآن في المقابلة، وصدَّره بتسجيل الأمان لهم من ذلك الهوْل، وجَعَل صيغة الكلام عامة، أخرج بها ما يعبد الكفرة من دون الله من أموات بعض الأنبياء والصلحاء والملائكة المقرَّبين، وأدخلهم في هذه الزمرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ بإيمانهم المؤدِّي إلىٰ السعادة في الأخرىٰ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن جهنَّم ﴿مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: ما يحسُّ منها من صوت أو حركة أو اضطراب أو غير ذلك. والجملة مبالغة في الإبعاد، أضاف إليها المبالغة في الإنعام عليهم في الجنة، فقال: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم أضاف إلىٰ ذلك بيانَ نجاتهم من فزع ذلك اليوم، فقال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، وهو هَوْلُ ذلك اليوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

ثم أردف ذلك ببيان كرامتهم والاحتفاء بهم، فقال: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مُهَنِّئين لهم قائلين: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ به وتُبشَّرون. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ويشمل هذا الصنف كلَّ من كان علىٰ طريقة محمد ﷺ وأصحابه، وكلَّ من كان علىٰ طريقة نبيٍّ من الأنبياء[1] عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

---

(١) ما لم يُكذِّب بنبي آخر، لا سيما النبي الذي بعده، حيث يجب عليه أن يؤمن به وينقاد ويخضع لشريعته وحكمه.

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]. اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم عاد لذكر هَـوْل ذلك اليوم الذي تقوم فيه القيامة، وتُـفتَحُ فيه يأجوج ومأجوج، وبيَّن صفة أخرىٰ من صفاته الهائلة، فقال: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ وهو نوعٌ من الطيِّ، صورته: أن يُدرَجَ الكتابُ المتَّخذُ صحيفةً واحدة مستطيلة، دَرْجاً يجعله شبيهاً بالأسطوانة. وهذا النوع من الكتب وهذا الطيُّ لها معروفان قديماً، فطيُّ السجل: مصدر نوعيّ. والمراد هنا: المبالغة في بيان تداخل الأجرام السماوية والتفافها ببعضها بنتيجة الاصطدام والارتباك لفساد نظامها. هذا ما أفهمه من الكلام، والله أعلم بما سيكون. ولكن الكلام بجملته يدلُّ علىٰ خراب هذا العالم خراباً كلياً، فيعود رتقاً وكتلةً واحدة كما كان في مبدأ خلقه قبل فتقه وتفصيله الذي ذكره بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[1] [الأنبياء: ٣٠]، وعَوْدُها رتقاً وكـتلة متجمِّعة هو المراد بقوله: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾. والله أعلم.

وفيه أيضاً تدليلٌ إقناعي في القدرة علىٰ الإعادة، ووَجْهُ هذا التدليل: أنَّ الذي قدر علىٰ إيجادكم أولاً يقدر علىٰ إعادتكم، لأنهما علىٰ حدٍّ سواء. وقوله: ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾ توكيد للإعادة والحشر. وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ توكيد للوعد والحساب، أو مبالغة للتأكيد الأول.

ثم تابع الكلام عن أحوال المؤمنين في الآخرة، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ﴾ ما كتبناه في ﴿ ٱلذِّكْرِ ﴾ وهو التوراة ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِىَ

---

(١) انظر ما تقدَّم تعليقاً على تفسير المؤلف لهذه الآية (١: ١٥٤).

﴿ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة والسُّدِّيّ وأبي العالية[1]. قال تعالىٰ في سورة الزمر: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]. وهذا المعنىٰ هو الموافق للسياق والملائم له.

وقيل: بل المراد: أرض الدنيا، ويعني بالصلاح: صلاح الدين بالمعنىٰ الصحيح؛ إذ هو الكفيل بحُسْن صلاح الدنيا من تسييرها ونشر العدل فيها، واستثمار ما حَبَاها الله به من القوىٰ والمواهب المادية. وقد كانت الآية وعداً لسلف المسلمين الصالح بظهوره علىٰ أكثر الأمم لحصوله علىٰ صلاح الدين حقاً. وتتضمَّن بمفهوم المخالفة وعيداً لهم إن فقدوا ذلك الصلاح، إذ يكون الغير الذي يُحرِزُ صلاح الدنيا أحقَّ بالوراثة. وقد أنجز الله لهم وعليهم ذلك الوعد والوعيد، فقد امتدَّ سلطانهم إلىٰ أكثر المعمور، حتىٰ دبَّ فيهم الفساد فانخذلوا، وما زالوا مُنحدرين إلىٰ أن تسلَّط عليهم أرذلُ الناس أجمعين.

ثم ختم الكلام بما فيه حثٌّ وإنذار، فقال: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ أي: فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والوعد والوعيد ﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾؛ لأنَّ العبادة الصحيحة فَرْعُ الإيمان الصحيح، وهو ينوِّر العقل ويجْلي البصيرة.

ثم نوَّه بشأن هذا البلاغ، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بهذا الذكر الحكيم الذي يُبيِّن للناس ما يؤدِّي بهم إلىٰ السعادة، وما يُؤدِّي بهم إلىٰ الشقاء في الدنيا والأخرىٰ ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾؛ لأنه سببٌ لسعادتهم في الحياتين، إذا علموه عملوا به. وذلك لأنه ﷺ أُرسل بهذا البلاغ المبين والذكر الحكيم في فترة من الزمن، غَشِيَها سحابة كثيفة

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٥٤٩-٥٥٠)، (٢١: ٣٤٢) عدا قول عكرمة.

من الشرك والجهل والرذيلة والظلم والانحطاط، وقد عمَّ الضلال والفوضىٰ الروحيَّة كلَّ ناحية من نواحي الحياة في هذا العالم، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وسرىٰ بجميع ضروبه من عقليّ وخلقيّ وروحيّ في سائر أصناف الناس، فأسدلت الظلمات أستارها علىٰ المعمورة، فعميت البصائر وضلَّت الأعمال، وأصاب الكُتُبَ السماويةَ ما أصابها من التحريف والتبديل، وحجبت كلمات الله عن العقول البشرية.

فمن رحمة الله بعباده: أن لا يَدَعَهم يتخبَّطون في دَيْجور الضلال، ويتيهون في بيداء الرذيلة والسّفال، بل يُجدِّد لهم وَحْيَه، ويعيد لكلماته صفاءها وجمالها، فأرسل محمداً ﷺ، وأنزل عليه الذكر المبين، حتىٰ قام بأعظم إصلاح، فقال تعالىٰ ممتناً علىٰ المؤمنين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. هذا هو الدين الفطري المبين، فتَعساً وسُحقاً للضالِّين والمكذِّبين.

وبعد أن ذكر الحجج المنوّعة الدالَّة علىٰ أنْ لا إلهَ سِواه، وبيَّن أنه أرسل رسولَهُ بهذا الدين رَحمةً للعالمين، أمرهُ أن يُبلِّغ رسالتَهُ بالتوحيد، تقريراً لهذه العقيدة الناجية، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾، فكان هذا إعذاراً وإنذاراً قرَّره بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم كما أعلم، ولم أطوِهِ عن أحدٍ منكم. يشير إلىٰ تسويتهم بنفسه في إعلامهم بما أوحي إليه به، وما يعلم من أمر التوحيد والحشر والحساب، ثم قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: ولكن لا أعلم متىٰ يكون ذلك اليوم.

ثم علَّل هذا الوعيد باطِّلاعه سبحانه وتعالىٰ علىٰ نيَّاتهم وأقوالهم وأعمالهم لسَعَة علمه ودقته، وألمع إلىٰ اختصاص الله سبحانه بعلم الوقت الذي يُنْجزه فيه، فقال:

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وما تكتمونه من الإحَن والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه عاجلاً أو آجلاً، ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: تأخير جزائكم ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وامتحانٌ يظهر به غاية الظهور ما في نفوسكم من الكفر والطغيان، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: وتمتُّعٌ لكم في هذه الحياة إلىٰ أجل مقدَّر اقتَضَتْهُ مشيئتُه المبنيَّة علىٰ الحِكَم البالغة، ليكونَ ذلك حُجَّةً عليكم واستيفاءً لحظوظكم من الدنيا.

ثم حكىٰ سبحانه ما دَعَا به ﷺ بعد إعراضهم بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اقضِ بيننا وبين مُشركي مكة بالعدل، ثم خاطبهم بقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ به ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ من وَصَمَاتكم لهذا الدِّين، والسعي في معارضته ومقاومة المؤمنين. وفي صفة «الرحمن» إيماءٌ إلىٰ رحمته بهم في تمديد أجل وعيدهم، حتىٰ يستوفوا حظوظَهم من الدنيا. والله أعلم.

* * *

خاتمة

في ترتيب الأنبياء المذكورة أسماؤهم في القرآن حسب أزمانهم في التقدم والتأخر

أولهم: آدم ثم إدريس ونوح علىٰ الولاء، وبعد فترة من الأزمان جاء هود وصالح.

وبعد فترة من الأحقاب جاء إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف.

وبعد فترة جاء شعيب وموسىٰ وهارون، ثم داود وسليمان وأيوب وذو الكفل ويونس وإلياس واليسع، ثم زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ ومحمد، صلوات الله عليهم أجمعين.

هؤلاء الأنبياء والرسل الذين جاء ذكرُهم في القرآن، ولكن هناك أنبياء آخرون لم يذكرهم القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

* * *



بعضها مكّي وبعضها مدني

وهي ثمان وسبعون آية

وهي من السور التي بيَّنت أصول الإسلام وقواعده الكليَّـة.

وابتدأت بذكر أهوال القيامة، وذُكِرَ فيها الإذن بقتال مَنْ يؤذي المسلمين من المشركين وغيرهم.

وبهذه المناسبة ذُكِرَت بعد سورة الأنبياء التي خُتمت بتهديد المشركين بالفزع الأكبر في يوم القيامة وبتسليط المؤمنين عليهم في الدنيا، بوعيدهم المنتظر.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ حثَّ سبحانه وتعالىٰ علىٰ التقوىٰ، ثم ذكر ما هو كالتعليل لذلك، فنبَّه لهَوْل الساعة مُحذِّراً مما يتبعه من الحساب والجزاء الأخروي. وزلزلة الساعة: هي حادثة خراب العالم الكوني عند انتهاء عمره الطبيعي[1] ـ والله أعلم ـ واختلال الجاذبية العامة فيه، واصطدام الأجرام السماوية ببعضها، بما فيها الأرض، وهو حادث عظيم مدهش يحدث فجأة.

وقد بيَّن القرآن في كثير من آياته الرائعة صفحات من حوادث هذه الزلزلة المروِّعة، وعبَّر عنها بالطامَّة والصَّاخَّة والقارعة والقيامة وغير ذلك من عبارات التهويل. ومن ذلك هذه المقدمة المجملة التي فصَّلها بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

(١) قيام الساعة من الأمور الغيبية، والقول بأنها تقوم عند انتهاء عمر العالم الطبيعي يحتاج إلى دليل، بل ظواهر الأدلة ـ كتلك الدالة على أن الساعة تأتي بغتة ـ على خلاف ذلك، أعني: أنها تقوم بأمر الله من غير سبب طبيعي لذلك.

عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾﴾.

وبعد أن أمر الناس بتقوىٰ الله حذراً من ذلك الحادث الجَلَل وما يتبعه، وخوَّفهم به وأنذرهم منه؛ بيَّن أن منهم مَنْ لا يؤمن به، ويجادل في ذات الله وما جاء عن الله بغير علم ولا هُدىٰ، ويتَّبع في ذلك شياطين الإنس المضللين، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في توحيد الله وفيما بيَّنه للناس في الكتاب من أمر الحشر والحساب، يجادلُ ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾﴾ أي: خبيثٍ مُغْوٍ قويّ الإغواء والتَّضليل.

﴿كُتِبَ﴾ أي: قُضِيَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ حتماً ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: من اتَّخذه ولياً وتَبِعَه في شأنه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ أي: بالحَمْل علىٰ ما يُؤدِّي إلىٰ ذلك. والآية تصوير لقوَّة إغوائه وتضليله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

وبعد أن أنكر علىٰ هذا الضال المشرك المنكر للبعث سَفاهةً وضلالاً، ذكر ما يدلُّ علىٰ تحقيق وقوعه والقدرة عليه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ وقدرةِ الله عليه، فانظروا إلىٰ مبدأ خلقكم وتطوُّراتكم ليزول رَيْبُكم، ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم

﴿مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه من نسبة ما للأصل إلىٰ الفرع، والمراد به: خلقة آدم، إذ موادُّ الأصل وعناصرُه تبقىٰ في الفرع. والثاني: أن المنيّ يتولد من الأغذية بما فيها النبات. وهو متولِّد من الأرض ومكوَّن من موادها.

ثم ذكر الأطوار التالية، فقال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو المنيُّ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي قطعةُ دم جامدةٌ يتطور إليها المنيُّ في الرحم، ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي اللحمة الصغيرة التي تتحوَّل إليها العلقة، ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ويعني بغير المُخلَّقة: المضغة قبل أن تتصوَّر، أو التي تفسد فلا تكون جنيناً. وقيل: المخلَّقة: هي الجزء الذي يكون جنيناً. وغير المخلَّقة: هي الغشاء الذي يحيط بهذا الجزء ليحميَه ويمدَّه بالغذاء من الرحم.

وقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: قدرتَنا البالغة وضؤولةَ البعث في جانبها. جاء هذا في أثناء البحث علىٰ نهج القرآن في تعجيل ما يقتضي التعجيل، بمقتضىٰ البلاغة العالية. والمعنىٰ: فإن كنتم في رَيْب من صحَّة البعث فإنا نذكركم بأنا خلقناكم ...؛ لنبيِّن لكم صحَّة البعث، ونبرهن عليه بالتنبيه إلىٰ قدرة الله العظيمة، والتذكير بأنَّ تكوُّن الإنسان وحياته الأولىٰ مع حياته الثانية سلسلة أطوار متواصلة، لو تدبَّرتم الأولىٰ لأيقنتم بالثانية المتمِّمة لها، استدلالاً بالأطوار المعلومة علىٰ الأطوار المجهولة؛ لأنها كلَّها موضع إعجاب ومظهر قدرة لا يعجزها شيء مهما كان عظيماً، وإلىٰ هذه العظمة أشار سبحانه في آخر سورة لقمان بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، يتمجَّد بذلك ويُظهِرُ قدرته البالغة التي لا تعجزها الإعادة.

ثم تابع الكلام عن الحياة الأولى، فقال: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ويسقط ما يشاء بحسب سُنن الله الكونيَّة مخالفةً وانطباقاً. وهذا بيان لتطوُّرات المضغة المخلَّقة إلىٰ حين تبلغ حدَّ الولادة، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وهذا الإفراد باعتبار كلِّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس الصَّادق علىٰ الواحد والمتعدِّد، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ

﴿أَشُدَّكُمْ﴾ جمع «شِدَّة»، مثل: أنعُم ونعمة. وهذا طَوْرٌ آخر من أطوار الإنسان، أخرجه مَخْرَج التعليل لسابقه، وعَطَفَه علىٰ أطوار مقدَّرة مدرجة تنتهي به. والمراد: لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتمييز.

ثم ذكر طَوْراً آخر من أطواره البارزة، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ وهو علىٰ قوَّته وكماله قبل أن يعتريَه دَوْرُ الضَعف والهرم المذكور بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ المنتهي بهذه العاقبة المبيَّنة بقوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ فيرجع كما كان في عهد طفولته؛ ضعيفَ البنية سخيفَ العقل قليلَ الفهم. ويكون هذا في بعض الهرِمين، وذلك لأن الحواس الباطنة التي في الدماغ تضعف كما تضعف الحواس الظاهرة، أما العقل فمحلُّه الروح، وهي لا تهرم، فإن كان مثقفاً بقي صاحبه فاهماً، وإلا خرف.

قال زياد أمير العراقين للحسن البصري: لولا سنّك لوظَّفتك، قال: إن كنت تريد العمل فكما تقول، وإن كنت تريد العقل فأنا اليوم أحسن من ذي قبل.

أقول: ويؤيِّد هذا قوله تعالىٰ عن روح الميت: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله تعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، يعني: عند الاحتضار[1] فيتيقَّن اليهودي أنَّ عيسىٰ رسولٌ من الله، ويتيقَّن المسيحي أنه رسولٌ من الله وليس ولداً له. والله أعلم.

ثم أعود إلىٰ السياق فأقول: وقد أقام الغاية مقام التعليل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وهذه أطوار للإنسان معروفة لديه، نبَّه الله تعالىٰ إليها حتىٰ انتهت إلىٰ حلقة

---

(١) وهو أحد القولين في تفسير هذه الآية، وانظر التفصيل هناك (٣: ١٥٦).

الموت وما بعد الموت من البرزخ ثم البعث والنشور، فانقطع إمكان علم البشر ببقية سلسلة التطورات في ذلك؛ لأنها من عالم الغيب والخفاء، وجارية علىٰ نواميس طبيعية غير النواميس المعروفة في عالمنا، فبيَّنها تعالىٰ بأقرب النظائر والأشباه من أحوال عالمنا، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ميتة يابسة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾[1]، فهذا تلميحٌ إلىٰ أنَّ البعث بعد الموت نظير إحياء الأرض بعد يبسها، والذي يقدر على هذا يقدر علىٰ ذاك، وهو العظيم القدير. فكما أنَّ لزمن الربيع طبيعة إنعاش النبات وإحيائه[2]، فلزمن الحشر أيضاً طبيعة إحياء الأجسام وإعادتها من عَجْب الذنب[3]. والله أعلم.

وبعد أن أتمَّ سبحانه هذه المقدِّمات الدالة علىٰ أعماله العظيمة وقدرته البالغة، ذكر النتيجة المطلوبة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُثبِتٌ ومُبَرهِنٌ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الإلهُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾، وأنَّ ما يدعون من دونه الباطل، لاختصاصه تعالىٰ بهذه الأفعال العظيمة والآثار الجليلة، ﴿وَ﴾ مُثبِتٌ كذلك ﴿أَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، لأنّ من يقدر علىٰ هذه الأعمال المذكورة المنوّعة ـ التي منها إحياء الأرض بعد يبسها وقحولها ـ يقدر علىٰ ذلك ﴿وَ﴾ مُثبِتٌ ﴿أَنَّهُۥ﴾ تعالىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَ﴾ إذا ثبت ذلك ثبت ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

---

(١) وقد جاء في كتاب «محاسن الطبيعة»: أن أنواع النبات علىٰ الأرض تبلغ خمسمئة ألف نوع، منها ما هو للدواء، وما هو للقوت، وما هو للفاكهة، وما هو للبهائم، وغير ذلك. (المؤلف).

(٢) نسبةُ إحياء النبات وإنعاشه إلى طبيعةٍ لزمن الربيع قولٌ غير سائغ، ومعناه فاسد، فالطبيعة والزمن لا فعل لهما ولا تأثير، وإنما هما ظرفٌ لفعل الله وتأثيره، ربطه سبحانه به بعلاقة سببية عادية، أي: جارية وفق قانون وسنة كونية، لكن يبقى التأثير منسوباً إلى الله سبحانه وحده.

(٣) وهو العصعص الموجود في نهاية العمود الفقْري.

ويجوز أن تكون الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ للسببية، والمعنىٰ: وكان ذلك بسبب أن الله.

وقد بيّنت هذه الآيات أن بقية سلسلة التطوُّرات للإنسان بعد الموت من البعث والنشور، يمكن أن تُدرك وتُسْتنار مُجْملاً بتطور حالة الأرض بعد يبسها وقحولها، كيف تنزل عليها الأمطار، ويجيء دَوْرُ حياتها الثانية بعد اليبس والقحول، وهي شبيهة بالحياة بعد الموت، فالذي يقدر علىٰ هذه يقدر علىٰ تلك؛ إذ ليست هذه بأقلَّ عظمةً منها لو تدبَّرها المتدبِّرون، ولكنها أُلِفَت فلم يُلْتَفَت إلىٰ ما فيها من قدرة بالغة وظاهرة عجيبة، ليست الإعادة بأعجب منها. هذا ما ظهر لي في تفسير هذه الآيات. والله أعلم.

الكلام عن الروح

وعن اتصالها بالبدن وعن مستقرِّها بعد مفارقتها له

أرىٰ أولاً: أنَّ الروح إنما هي للإنسان دون سائر الحيوان، وأما الحياة فهي عامَّة في سائر المخلوقات من حيوان ونبات ما دامت علىٰ تسويتها التي خلقها الله عليها، فإذا فقدت تَسْويتها بمَرَض أو عطب فَقَدت حياتها وعَرَض لها الموت، فالحياة عَرَضٌ كالموت. أما الروح فجسم لطيف كالمَلَك. والله أعلم. وإطلاق الروح علىٰ الحياة في عُرف التخاطب لا يُعارض العلم والواقع؛ لأنَّ عُرْفَ التخاطب مبنيّ علىٰ التساهل والاتِّساع في التعابير.

ومدار الحياة في الأجسام: الدورة الدموية، ومحرِّكها القلب، فمتىٰ كان القلب سليماً كانت الحياة، ومتىٰ عطب أو عطب عضو من أعضاء الدورة ووقفت الدورة انعدمت الحياة.

وأرىٰ ثانياً: أن جسم الإنسان إذا كان حياً ـ وذلك بكمال تَسْوية جهاز الدورة الذي خلقه الله عليها ـ اتَّصلت به الروح، وإذا فقد الحياة باختلال تسويته انفصلت عنه الروح وفارقته، حيث أصبح لا يصلح محلاً لها، كمصباح الكهرباء إذا انقطعت أسلاكه لا تظهر فيه الكهرباء؛ إذ لا يصلح أن يكون مظهراً لها. فإذا أراد الله سبحانه أن يصل به الروح مرة ثانية بعد البعث، أنشأه وأعاده سوياً، وبصفةٍ قابلة للخلود في هذه المرة. ويحتمل أن يكون ذلك بتكوُّنه وتنميته داخل الأرض من بذرة عَجْب الذنب، أي: نواة الحياة، أو بطريقة أخرىٰ يعلمها الله سبحانه كما خلق آدم، إذ لا يعلم أسرار الخليقة إلا هو. هذا ما أراه، والله أعلم.

وقال العلماء: إنَّ تعلُّق الروح بالبدن يكون علىٰ خمسة أنواع متغايرة:

الأول: في بطن الأم.

الثاني: بعد الولادة.

الثالث: في حال النوم، إذ لها تعلُّق بالجسد من وجه، ومفارقة له من وجه.

الرابع: في البرزخ، فإنها وإن كانت قد فارقت الجسد بالموت، لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لم يبق لها إليه التفات.

الخامس: تعلُّقها به يوم البعث، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]. وهو أجلُّ أنواع التعلُّقات، ولا نسبة لما قبله إليه، إذ لا يقبل البدن معه نوماً ولا حاجة له به كما في الدنيا. أقول: ولا يقبل فساداً، وذلك لأن الله سبحانه يُعيده علىٰ طبيعة يصلح معها للخلود، لا كما كان في الدنيا محتاجاً لأشياء، ومستعداً للانحراف والأمراض، وقابلاً للفساد والفناء.

أما أنا فأقول: إنَّ الجنين في الرحم يكون فيه حياة خاصّة دون تنفُّس، أما الحياة

التامَّة فتكون بعد خروجه من الرحم، ومتىٰ خرج اتَّصلت به الروح، ولذلك قال سبحانه في آية ١٤ من سورة المؤمنين بعد ذكر الأطوار في الرحم: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يشير إلىٰ اتصال الروح فيه. والله أعلم.

وقالوا: إنَّ الجسم في الحياة الدنيا ظاهر والروح خفيَّة، وفي حياة البرزخ خفيٌّ والروح ظاهرة، وفي الحياة الأخرىٰ ظاهران معاً.

ويروىٰ عن عبد الله بن عمر: أنه دخل علىٰ أسماء بنت أبي بكر يُعزِّيها عندما صَلَبَ الحجَّاجُ ابنَها عبد الله بن الزبير، فقال لها: عليكِ بتقوىٰ الله والصبر، فإن هذه الجثث ليست بشيء، والأرواح عند الله.

وقال الإمام مالك عن مستقر الروح بعد الموت: بلغني أن الروح مُرسَلة في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت[١]. وهو قول سلمان الفارسي رضي الله عنه[٢]. والبرزخ: هو الحاجز بين الشيئين. فكأنه أراد: في عالم بين الدنيا والآخرة. وهو قولٌ قويٌّ، فإنها فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة.

وإني أذكر عن بعض علماء العصر من الفرنجة المشتغلين بعلم الروح، يقول ما معناه: إنَّ الأرواح في الفضاء، ولكنها مفصولةٌ عنا بحاجز لا نعلم كُنهَه.

ويُروىٰ أيضاً عن الإمام مالك وغيره ما معناه: إنَّ صُورة الروح كصورة الجسد، إلا أنها لطيفة[٣].

---

(١) سبق تخريجه (٤: ٤٢٩).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١: ٤٦٠) بلفظ: «... أما المؤمنون فإن أرواحهم في الجنة وهي تذهب حيث شاءت...».

(٣) سبق تخريجه (٤: ٤٢٩).

ويُروىٰ عن جعفر الصادق: أنَّ الروح تبقىٰ علىٰ مثل قالبها في الدنيا، وإذا قدم عليهم قادم عرفوه. وقال مرة: علىٰ صور أبدانهم، لو رأيته لقلت: فلان.

ويروىٰ عن سعيد بن جبير: إنَّ الأموات تأتيهم أخبار الأحياء، فإن أصاب قريبَه خيرٌ سُرَّ به، وإن أصابه شرٌّ حزن له[١].

أقول: وربما يعلمون ذلك بأنفسهم؛ لأن الله سبحانه يقول في حقهم: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، فالروح إذا فارقت البدن لم يكن عندها بعيدٌ من الأماكن، ولا يمنعها من الوصول كثيفٌ من الحواجز. والله أعلم.

ويروىٰ عن وهب بن مُنبِّه: أنه إذا مات الميِّت تلقَّته الأرواح يسألونه عن أخبار أهل الدنيا، كما يسأل الغائب عن أهله إذا كان في سفر[٢].

وجاء في بعض الكتب الحديثة عن استحضار أرواح الأموات: أنها تقول عندما يسألونها عن عالمها: إننا لا نستطيع أن نُعبِّر عن عالمنا بعبارات أرضيَّة، لأنها لا تفي به[٣].

وغاية ما نقول: إنَّ هذا العالم بنعيمه وشقائه تابعٌ لما يعمله الإنسان علىٰ الأرض من الأعمال المؤدية إلىٰ ذلك.

وقال البقاعي: جاء في الأحاديث: «إن روح المؤمن في طيور تسرح في الجنة»[٤]،

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٤٧).

(٢) ذكره السيوطي في «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور» (١: ٢٣١).

(٣) دعوى استحضار الأرواح دعوى باطلة، وما هي إلا استحضار للقرين من الجنّ.

(٤) رواه مسلم (١٨٨٧) عن مسروق قال: سألنا عبد الله ـ يعني: ابن مسعود ـ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، =

وجاء أيضاً: «إن الميت المؤمن يعرض عليه مقعده من الجنة»[1]، ولا منافاة بينهما، لأن دخول الجنة التام إنما يكون بعد اقتران الأرواح بالأبدان المعادة في الحياة الأخيرة الكاملة. ودخولُ الروح المجرَّدة عن البدن أمرٌ دون ذلك.

وقال ابن حزم وطائفة من العلماء: مستقرُّ الروح بين الموت والبعث: حيث كانت قبل خَلْق أجسادها.

أقول: وهذا رأيٌ لبعض الفلاسفة: يدَّعون أنَّ الأرواح موجودة قبل أجسامها. وهو رأي مجرَّد عما يَثبُتُ به مِثلُه من سنة أو كتاب. والله أعلم.

وأُكمِلُ هذا البحث بقصَّة ثابت بن قيس:

استشهد ثابت بن قيس في معركة الرِّدّة، وكانت عليه درع ممتازة، فمرَّ به أحد المجاهدين فأخذها، فبينما رجل من المجاهدين نائم، أتاه ثابت في منامه وقال له: أُوصيك وصيَّة، فإيَّاك أن تقول: هذا حُلُم فتضيِّعه. إني لما قُتِلتُ أمس مرّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصىٰ الناس، وعند خبائه فرس، وقد وضع رحلاً علىٰ الدرع غطّاها به، فأْتِ خالد بن الوليد قائد الجيش، فقل له: أن يبعث إلىٰ درعي فيأخذها، وإذا قدمتَ إلىٰ المدينة علىٰ خليفة رسول الله ﷺ ـ يعني أبا بكر ـ فقل له: إن عليَّ من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان. فأتىٰ الرجل خالداً

= قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ...».

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٤٠)، ومسلم (٢٨٦٦)، عن ابن عمر بلفظ: «قال النبي ﷺ: إذا مات الرجل عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فالجنة، وإن كان من أهل النار فالنار، قال: ثم يقال: هذا مقعدك الذي تبعث إليه يوم القيامة». ولكن هذا ليس خاصاً بالمؤمنين فقط.

فأخبره، فبعث إلىٰ الدرع فأتىٰ بها. وحدَّث أبا بكر رضي الله عنه، فأجاز وصيته. قال: ولا نعلم أحداً أُجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه[١]. ذكر هذا ابن عبد البر في «الاستيعاب»[٢].

أقول: لم يعتبر أبو بكر رضي الله عنه قولَ ثابت إنجازَ عتق بعد الموت، وإنما اعتبر أنه خبر صحيح عن عتقه لعبديه قبل الموت، ولـمَّا صحَّ خبره في أمر الدرع صحَّ خبره في أمر العتق والدَّين.

ويؤيِّد هذا الحُلُمَ قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، صدق الله العظيم، والحياة عامة في الأرواح، ولكن الشهداء يمتازون عنهم بالرزق والعيش الرغيد.

ثم تابع[٣] الكلام إلىٰ أن قال: وإنها أجسام حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر، إلىٰ أن قال: فلا تزال الأرواح هناك وَفْقاً لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ...﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩][٤]، ولا تـزال هكذا حتىٰ يعيدها الله إلىٰ الأجساد.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٠٣٦)، وسكت عنه هو والذهبي.

(٢) (١: ٢٠٢).

(٣) أي الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ في كتاب «سر الروح» الذي اختصر فيه كتاب «الروح» لابن القيم. وكلاهما مطبوع.

(٤) جاء في كتاب «هذا ديننا» لمحمد الغزالي المصري: ما أشبه عقاب القبر بما يحدث للمجرمين في دنيانا هذه: يُقبَضُ علىٰ أحدهم، ثم يقتاد إلىٰ قسم الشرطة، فيجرىٰ معه تحقيق ابتدائي، ثم يوضع في سجن احتياطيّ ريثما تجري محاكمته، وذلك يوم الحشر والحساب. وما أشبه ثواب القبر بما يقع لمن تقرَّرت له جائزة سَنِية، فإنه يُطلب برفق ويستقبل بحفاوة، ويجلس في بهو كريم تكتنفه البشاشة والإيناس، حتىٰ ينال مكافأته المرتقبَة بعد الحشر والحساب. (المؤلف).

أقول: ويوافق بعضَ هذا قولُه سبحانه وتعالىٰ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وجاء في الأثر عن أم هانئ الأنصارية: أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! أنتزاور إذا متنا ويرىٰ بعضنا بعضاً؟ قال ﷺ: «يكون النَّسَمُ طائراً يَعلَقُ بأشجار الجنة، حتىٰ إذا كان يومُ القيامة دخلت كلُّ نفس في جسدها»[1]. ويريد بالنَّسَم: الأرواح الصالحة.

والحاصل: أن الروح جسم لطيف كالملَك، يتَّصل بالجسد في اليقظة، وينفصل في النوم، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. أما الحياة فعَرَضٌ كالموت، تعرض عندما تكمل تسوية الجنين ويخرج من الرَّحِم، والموت عَرَضٌ يحدث إذا عطبت التَّسويةُ بمرض ونحوه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالىٰ ما أيَّد به البعثَ، وقُدرةَ الله عليه، واختصاصَ الله سبحانه بالألوهيَّة، لاختصاصه بصفاتها وأفعالها؛ عادَ إلىٰ ذكر حال المعارضين الذين

---

(١) رواه أحمد (٢٧٣٨٧)، والطبراني (٢٤: ٤٣٨) عن أم هانئ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣: ٧٤): رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام.

لا ينتبهون لهذه البراهين، ويُعارضون أحكام القرآن المبين، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾[1] أي: يجادل في توحيد الله وفيما يُبيِّنه للناس في الكتاب من الحشر والحساب، غيرَ مُتَّبع في مجادلته طريقاً من طُرق المجادلات الصحيحة المعقولة أو المنقولة، ولكنه الجهل والعناد.

وقال أبو مسلم: إنَّ الآية السابقة في أول السورة الشبيهة بهذه الآية إنما هي في حقِّ الأتباع، أما هذه ففي حقِّ المتبوعين، أي: إنَّ هذا الـمُضلِّلَ لا يرجع فيما يقوله ويَدَّعيه في ذات الله وإنكار قدرته علىٰ البعث إلىٰ درايةٍ وتعقُّل، ولا إلىٰ استدلال صحيح، ولا إلىٰ كتابٍ سماويّ ووحيٍ مُظْهر للحق، فمجادلتُه لا تستند علىٰ حُجَّة نظرية معقولة، ولا بُرهان سمعيّ منقول، ولكنها الضلال والسفاهة، حالَ كونه ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: متكبّراً متجبِّراً داعياً إلىٰ الضلال. وقد جعل تجبُّره مُسْتَنداً للإضلال، كما تُشعِرُ به صيغةُ التعليل، بمعنىٰ: ليس له سَنَدٌ في دَعْواه إلا التجبُّر والعناد. فحَكَم الله تعالىٰ عليه بهذا الحكم وسجَّل عليه به وتوعَّده فيه، فقال: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: عذاب يَخْتزي منه، وهو عذاب الاستئصال الذي يكون تاريخاً سيئاً لهم، وعبرةً لمن بعدهم، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ فمأواه جهنَّم وبئس المصير.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا العمل منه إنمـا هو من تحريفه لطبيعته، وإفساده لسلامة

---

(١) في وصف الكتاب بالمنير ـ أي: الواضح ـ إلماع إلىٰ أنه لا يجوز الاستدلال والتمسُّك بالآيات التي فيها خفاء، والتي هي محلُّ تأويل، فإنّ التمسُّك بمثل هذه الآيات قد أضل كثيراً من الناس، وتعلَّق صاحبُ كل مذهب أو بدعة في الاستدلال علىٰ رأيه بأحد الوجوه، فتعدَّدت المذاهب والفِرَق، وكل واحد يدَّعي أن الكتاب ناصره، وأنه مع الحق لم يفارقه، والكتاب العظيم منهم بريء. (المؤلف).

فطرته، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾؛ إذ لم يخلقهم ضالِّين، ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم حين يخرجونها عن الهداية الطبيعية إلىٰ الضلال، وذلك بمفاسد التربية والنشأة وسُوء القدوة والصحبة، ويُحرِّفونها بذلك عمَّا خلقها الله عليه ممَّا يحفظ لها السعادة إلىٰ ما يؤدِّي بها إلىٰ البلاء والشقاء.

ويدخل في هذا الوصف الـمتأثِّرون بأعداء الدين، الذين يعترضون علىٰ تعدُّد الزوجات والطلاق والتفريق بين الذكر والأنثىٰ في الميراث، وعلىٰ الحدود والربا، وأمثال ذلك مما أنزله الذي يعلم السرَّ في السمـاوات والأرض لخير عباده، بمقتضىٰ حكمته البالغة وعلمه الدقيق، خابوا وخسروا.

وبعد أن ذكر حال المشركين المجاهرين بالشِّرك المجادلين فيه، عقَّبه بذِكرِ حال صنف آخر دخل في إيمان مُضْطرب، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ والحرف: طرف الجبل، يكون القائم عليه مضطرباً غيرَ مستقر. فاستُعيرت حالـتُه القلقة لهذا الـمُضْطرب في إيمانه وأداء عبادته.

وقد فصَّل حالته الـمُضْطربة، بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وثبت علىٰ إيمانه وعبادته؛ لاعتقاده أنَّ هذا الخير من جرَّاء ذلك، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وابتلاء، بمثل مرض أو قلَّة مال أو معارضة عدو، ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: رجع إلىٰ شركه وكفره؛ لاعتقاده أنه لم ينفعه شيئاً إيمانُه وعبادتُه، ولو كانت حقاً لَـمَا ناله هذا البلاء. وذلك لأنَّ إيمانه لم يكن عن علم ويقين، ولجهله بأنَّ ما جرىٰ عليه إنما هو من تقصيره في الأسباب، وليس للإيمان وعدمه مَدْخل في ذلك. فنعىٰ عليه سبحانه بقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾.

ثم شرح حاله بعد انقلابه عن الإيمان إلىٰ الشِّرك، مُجهِّلاً له ومُشنِّعاً عليه، فقال:

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾، ولا تعارض بين هاتين الجملتين؛ إذ الأولىٰ لنفي الضرر الذاتي، بمعنىٰ: أنها لا تقدر أن تضرَّ وتنفع، أي: لا تقدر علىٰ شيء أصلاً، فكيف تكون آلهة. والثانية: لإثبات الضرر العارض المسبَّب عن عبادتها، واعتقاد أنها تضرُّ وتنفع؛ لأن ذلك يُفسِدُ العقول ويُشبعها بالأوهام، ويأسر النفوس فيقيِّدها بسلاسل من الخرافات، ويؤدِّي إلىٰ اضطراب كبير في الحياة، مضافاً إلىٰ غضب الله وعقابه. فقد أزاح بالجملة الثانية ما عسىٰ أن يُتوهَّمَ من الجملة الأولىٰ من أنَّ هذا الأمر لا ضرر فيه، وبيَّن ذلك بنوع بليغ من أساليب اللغة.

ويجوز أن يُراد بقوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾: ما يعتقده فيه من أنه سيشفع له عند الله، ولكن الله سبحانه سَيُعذِّبه عليه عذاباً نُكراً.

واللام لتأكيد مضمون الجملة.

ثم حمل عليهم وشنّع بمهانة هذا المدعوّ، وذمَّه وبالغ في تهجين أمره بقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ أي: لبئس الوليّ والناصر، وبئس الصاحب والمعاشر، هذا المدعوُّ العاطلُ المهين. يؤنِّب بذلك هذا الداعي ويُجهِّله وينعي عليه ويُلحيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

ثم قابل صفةَ هذا المشرك وصفةَ معبوده بصفة المؤمنين وصفة معبودهم وما

ينتفعون منه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ من الحق والعدل والإكرام، فقابل سبحانه بين عظمة الله وإكرامه للمؤمنين بدخول الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وبين عدم نفع ما يدعو هذا المشرك من دون الله.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ اعتقادَ قسم آخر من المشركين في أنَّ محمداً ﷺ سيُخْذَل، وهم يتوقَّعون ذلك غيظاً وحنقاً. فردَّ عليهم سبحانه بما يغيظهم، وصوَّر ذلك بصورة هازئة بهم، غائظة لهم، لحبوط أملهم بعد تحقُّق نصرة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، والضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ للنبيِّ ﷺ، وخصَّه بالذكر لأنه الرئيس، ونَصْرُ المؤمنين تَبَعٌ له. وقوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جاء زيادةَ مبالغة في تصوير حَنَقهم علىٰ رسول الله ﷺ، واعتقادهم بطلان ما جاء به. وقد عقَّب به شَرْحَ حالة المؤمنين، ووعدهم بالجنة، لأنها من آثار نَصْرِهِ تعالىٰ لهم في الآخرة، وألمع بقوله: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ إلىٰ ما نال المشركين من عذاب الخِزْي والخِذلان يوم بدر، لأنه من آثار نَصْر الله لرسوله في الدنيا. أي: مَنْ كان يظنّ ذلك فهذا أثر النصر في الدنيا والآخرة فلْيُعارِضْه، أو فَلْيَمُتْ غَيْظاً.

وقد عبَّر عن هذا التَّحدِّي وعن هذه الإغاظة بقوله: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ أي: ما يغيظُه من نصر الله لنبيِّه، أي: فَلْيتَوصَّل إلىٰ السماء، وَلْيَقطع المسافة البعيدة، وَلْيُعارض نَصْرَ الله إن قدر، وَلْيَشفِ غليلَه. فالكلام علىٰ الإغاظة لهذا الظانِّ والسخرية والتيئيس له من أمله، والتحقيق لما سيكون من إكمال نصرة النبي ﷺ والمؤمنين. والمعنىٰ مبنيّ علىٰ العُرْف العام، وهو أنَّ الأمر الذي يأتي مِن قِبَلِ الله يأتي من السماء، أي: فليقاوم السماء إن قدر. وقيل: المراد: فلْيَمدُدْ بحبل يخنق به نفسه ويقطعه.

وعلىٰ كلٍّ، فالآية تمثيل أدبيٌّ بليغ مأخوذ من عُرْف المخاطبين، سيق إغاظةً وتهكماً بمن كان يعتقد أنَّ رسول الله ﷺ ضالٌّ في دعوته وأعماله فاشلة، فبينما كان ينتظر خذلانه وفشله، إذ يرىٰ قد نصر الله نبيه، وأعلىٰ دينه، حتىٰ انتشر انتشاراً عظيماً علىٰ مرأىٰ منه ومَسْمَع، فخَنَقَه الغيظ. وهؤلاء الظانُّون هم الذين سَبَق ذِكرُهم في إنكار البعث والمجادلة فيه.

ثم علَّق علىٰ السياق بما يتضمَّن التَّنويهَ بشأنه والنَّعيَ علىٰ هؤلاء الظانِّين المكذِّبين بالقرآن، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: كما صَدَق هذا القرآنُ في بيان وَعْدِهِ لرسوله بالنصر والظفر وظهور الدين، فهو صادقٌ بيِّنٌ في كل ما يقوله ويُقرِّره من أمر هذه الحياة وتلك الحياة، وأسباب السعادة والشقاء فيها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾، وإرادتُه سبحانه لا تَجْري جُزافاً واعتباطاً، وإنما تجري في أمور عامَّة وقواعد كلِّية[1] مقرونة بالحِكَم البالغة. وقد مضت إرادتُه وسُنَّته تعالىٰ في أنَّ من حافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته ـ حيث نشأ نشأة غير متأثِّرة بسُوء التربية وجمود التقليد ـ يُوجِّه عقله بمقتضىٰ الفطرة وإرشاد الدين لسلوك سبيل الهُدىٰ واليقين.

ففي الآية تعريضٌ بهؤلاء الضَّالِّين الذين أفسدوا نورَ بصيرتهم بالتقليد الأعمىٰ للآباء والأجداد.

ثم مخض السياق بهذا البيان المتضمِّن لوعد المهتدين ووعيد الضَّالِّين المعارضين لهذا الدين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما أنزلنا من الآيات البيِّنات، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟

---

(١) لم يُوضِح المؤلف رحمه الله تعالى مقصده من هذه العبارة، وهي موهمة. وعلى كُلٍّ، فكلُّ ما يقع في هذا الوجود من صغير الأمور وكبيرها، ودقيقها وجليلها، وعامِّها وخاصِّها، وكليِّها وجزئيها؛ إنما هو واقع بإرادة الله تعالى.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بحكمه وإظهار المُحِقِّ من المُبْطل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ لا يخفىٰ عليه من أمرهم خافية، فيجازي كلَّ واحد بما يستحق.

وإنما أُعيدت ﴿إِنَّ﴾ لمزيد التأكيد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أشفع السياق بما يتضمَّن التأنيبَ لهؤلاء الضَّالِّين علىٰ انفرادهم بهذا الضلال دون سائر مخلوقات الله ـ علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ...﴾ [الأحزاب: ٧٢] ـ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾[1] سجودَ انقيادٍ[2] لما أراده الله

---

(١) جميع العوالم تسجد لله تعالىٰ خالقها، ولكن سجود كلِّ نوع حَسْب هيئته، وصورة خلقته، فليس سجود الأشياء لله علىٰ سبعة أعضاء كسجود الناس، لأنَّ الهيئة والصورة الخلقية مختلفة، فكلٌّ يسجد علىٰ حسبه سجوداً حقيقياً.

(٢) سجود هذه الأشياء الواردة ليس من باب المجاز بالاستعارة، باعتبار انقيادها لأمر الله التكويني، =

منها وأودعه فيها من سنن طبيعيّـة ومواهب فطريّة ومطالب مرعيّة، لا تنحرف عنها ولا تتخلَّف، ﴿وَ﴾ يسجد له ﴿كَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ سجودَ طاعةٍ وعبادة لسلوكهم سبيل الهُدىٰ بمقتضىٰ الفطرة التي حافظوا علىٰ سلامتها وبإرشاد المؤمنين إلىٰ ذلك، ﴿وَكَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1] حيث أعرض عن هذا الرَّشاد، بإفساده لطبيعته وطَمْسِهِ لبصيرته بنشأته الضالة، فانحرف عن سنن فطرته، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بهذا الإفساد لنفسه، وهذا الإعراض عن هَدْيه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾؛ إذ لا أحد يقدر علىٰ إصلاحه بعد هذا الانحراف، حيث مَضَت سنة الله تعالىٰ في أخلاق البشر إذا تشبَّع بأمر وانطبع عليه لا يمكن أن يميل إلىٰ ضدِّه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ من السنن الطبيعيَّـة، حسبما تقتضي الحكمة من ذلك في مخلوقاته، مع حفظ التوازن والاحتياط، ولا يظلم ربُّك أحداً. فإنَّ مشيئته سبحانه كإرادته[2]، لا تجري جُزافاً واعتباطاً، وإنما تجري في قواعد كليَّة، وسُنن طبيعيَّـة، كلها خير ورشاد. فمن تمسَّك بها سايره الهناء، ومن انحرف عنها هوىٰ إلىٰ الشقاء.

وبعد أن بيَّن أن الناس قسمان: قسمٌ يعبد الله ويطيعه، وقسمٌ حقَّ عليه العذاب، فصَّل جزاءَ كلٍّ منهمـا، فقال: ﴿هَٰذَانِ﴾ الصنفان المؤمنون والكافرون من الناس، ﴿خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: في ذات الله تعالىٰ وصفاته واختصاصه بالألوهية،

= بدليل قوله تعالىٰ في الآية نفسها: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المؤمنون الساجدون لله تعالىٰ اختياراً. ولو كان المراد خضوعهم لأمر الله التكويني لَـمَا قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، بل لقال حينئذ: (وجميع الناس)، لأنهم كلهم خاضعون لقدر الله وقضائه وأمره التكويني.

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ صريحٌ في أن المراد تَـرْكُهم السجود الاختياري، فهم لم يسجدوا لله تعالىٰ في الدنيا.

(٢) الجمهور على عدم التفريق بين إرادة الله ومشيئته.

وكذلك أنزل الله عليهم من دينه، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ﴾ أي: فُصِّلت ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ يكنِّي بهذا عن غشيان النار لهم وانغمارهم فيها، وأنها لا تفارقهم، وكذلك ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾، وهو الماء في منتهىٰ الحرارة، ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يُحرَقُ به ويُذابُ ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من الأمعاء والأحشاء، ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ جمع مَقْمعة، وهذه آلة القمع، يُضربون بها.

ثم صوَّر دوامَ ذلك الحال واستمراره فيهم، فقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ من غمومها هذه ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، وهذا التَّصوير مأخوذ من حال المُخاطَبين في الدنيا، فإنَّ مَنْ يمسُّه العذاب يُحاول بكلِّ قُواه أن يهرب منه، ولكنْ لا نجاة من عذاب الآخرة، ﴿وَ﴾ يقال لهم زيادةً في التعذيب والإيلام: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾، أعاذنا الله. اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أُشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم.

وبعد أن ذكر عذاب الكافرين ذكر نعيم المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[1] وهي كالأوسمة التي تُعطىٰ للتقدير،

---

(١) أيجوز أن يعود هذا إلىٰ النساء فقط؟ لأن من خصائص اللغة وأساليب القرآن: إدماج النساء في تعابير الرجال والكلام عنهم إذا لم يكن الموضوع من خصائص الرجال، وكذلك من خصائص اللغة: إسناد الشيء إلىٰ أمرَيْن يصح في أحدهما دون الآخر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧] فالمن ينزل والسلوىٰ طير يأتي، وأوقع الإنزال عليهما. وقال تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩] وأراد بهما العذب والمالح، ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وهو لا يخرج إلا من المالح. والله أعلم. وعلىٰ كلٍّ، فالذي لا يصح في الدنيا يصح في الآخرة، لأن السنن في عالم الآخرة مباينة للسنن في عالم الدنيا. والله أعلم. =

وتتفاوت درجتُها بتفاوت الأعمال، مع العلم أنَّ السنن الكونية والأنظمة الاجتماعية هناك لا تُشابه السنن الكونية والنظم الاجتماعية في الدنيا، ولا مُشابَهة بين ما في الدنيا وما في الآخرة إلا بالاسم، فلا غَرَابة في الأساور. والله أعلم. وقولُه: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ علىٰ محلِّ ما قبلها.

وبعد أن ذكر نعيمهم وزينتهم في الحُلي، ذكر ذلك في اللباس، فقال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم ذكر ما هو في مقام التعليل والسبب لهذا النعيم، فقال: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: إلىٰ الاعتقادات الصحيحة وما ينجم عنها من ذِكرِ الله بما يليق به وتوحيدٍ له وثناءٍ حسن عليه، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ الأمر ﴿ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ وهو دين الإسلام، ذلك الصِّراط الذي يَصِلُ سالكه إلىٰ سعادة الدارين. وإنما هُدوا إلىٰ ذلك بمحافظتهم علىٰ نُور البصيرة، وعلىٰ الهداية الطبيعية العامَّة في خِلْقة الإنسان، وعدم إفسادهم لها بمفاسد التربية وسوء القدوة. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ

= ولكن جاء في الأثر: أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ تاج كسرى وسِوَاريه»؛ ما يدلُّ على أن لبس السوارين كان من شارات الملوك. (المؤلف).

قلت: هذا الذي صار إليه المؤلف رحمه الله في آخر كلامه هو الصواب، أعني: لبس المؤمنين ـ رجالاً ونساء ـ الذهب يوم القيامة تنعُّماً وتزيُّناً، وانظر في قصة سراقة: «الإصابة» لابن حجر (٣: ٤١). أما ما ذكره أولاً من إرجاع ذلك إلى صنف النساء فقط فضعيف، لأن المعروف في اللغة تغليب الرجال على النساء لا العكس.

وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ
مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾
ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ
لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ
ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ
فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا
لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ
سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ
مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾.

ثم عاد إلىٰ الكلام عن المشركين، وذكر فَظاعةَ صنيعهم في شأن البيت الحرام، حيث جعله سبحانه لـمنافع الناس وموضعَ نُسُكٍ خاصّ لهم ليُعْبَدَ الله فيه وحده، ويُتَصَدَّق فيه بالذبائح علىٰ الفقراء، فغيَّر المشركون تلك العبادات وحرَّفوها ودنَّسوها بشركهم، وصدُّوا المؤمنين عنها يوم الحديبية، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والمراد: استمرار الصَّدِّ من دون تقييد بحال واستقبال، ولذلك صَحَّ عطفُه علىٰ الماضي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقولُه: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويَصُدُّون المؤمنين عن المسجد الحرام ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ بينهم ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾ أي: المقيمُ فيه ﴿وَٱلْبَادِ﴾ أي: الظاهرُ عنه، أو الآتي إليه من البادية. وإنما خصَّ البادية بالذكر لأنها الطريق إليه من كل فجّ، وللإشارة إلىٰ صعوبة المسير. وفي هذا الوصف للمسجد زيادةُ تشنيع علىٰ المشركين الصَّادِّين عنه، لاعتدائهم علىٰ حقوق الناس أجمعين.

ولمفهوم هذه الآية، كان بعض العلماء يرىٰ النهيَ عن بيع دُور مكة وإجارتها، وأن تُغْلَقَ في المواسم عن أحد.

وتُؤْذِنُ الآية أيضاً بأنه لا يجوز لأحدٍ من أهل مكة أو غيرهم أن يَسْتأثر ببعض مآثر هذا البيت، وإنما كلُّ مآثره مشاعٌ بين المسلمين.

وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثله، والتقدير: لهم عذاب أليم لفعلهم هذا وشركهم بالله وتحريفهم لواجبات هذا التمسُّك. وإنما حُذِفَ اعتماداً علىٰ قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ أي: ومن يُرِدْ فيه عدولاً عما قرَّره الله فيه من الأحكام والشرائع ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾. وقد ضمَّن ﴿يُرِدْ﴾ معنىٰ: (يأمر)، فعدَّاه تعديتَه. وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ متعلِّق بـ(إلحاد) أو حال منه. وخرج به ما إذا كان لحرج أو إكراه.

ثم أخذ يُبيِّن تلك الأحكام والشرائع التي شرعها فيه، مبتدئاً بالكلام علىٰ بنائه، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: بيَّنا له مكانه وهيَّأناه له بالتحديد المضبوط، وهذا يدلُّ علىٰ أنه لم يكن مُبيَّناً قَبْلُ، وفسَّر ذلك بالغرض منه والعناية به، فقال: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم ذكر ما يدلُّ علىٰ شدّة الاهتمام بهذا الواجب، وأنه عُلم في كلِّ مستطيع، فقال:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: نَادِ فيهم بالدعوة إلىٰ حجِّ هذا البيت يأتوك بسائر وسائط المجيء؛ يأتوك مُشَاةً راجلين، ﴿وَ﴾ يأتوك ﴿عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: بعير مهزول لِبُعْد السفر. وقوله: ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ﴿ضَامِرٍ﴾، محمولة علىٰ المعنىٰ في التأنيث أو لإفادته العموم بلفظ ﴿كُلِّ﴾، أي: تأتي هذه الضوامر ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: من كلِّ ناحية سحيقة وطريق بعيد، ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ فبيَّن أنَّ الغاية من هذا البيت أمور مادية دنيويَّـة، وأمور دينيَّـة روحيَّـة.

ومن جملة الأمور الماديَّـة: التعارف بين بعيدي الديار من المسلمين، وتقوية الروابط الاجتماعية والسياسية بينهم، وعلىٰ المصلحين أن ينتهزوا هذه الفرصة لبثِّ الإصلاح. ولعلَّ هذا هو السرُّ في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فإنَّ في التعبير بالأفئدة إلماعاً إلىٰ ذلك، لأنها هي محل الفهم في لسان العرب. والله أعلم.

أما الأمور المعنوية الروحية فكثيرة أيضاً، خُصّ منها بالبيان: ذِكرُ الله علىٰ ما رزقهم من بهيمة الأنعام؛ لكثرة ما يُنسك هناك من الذبائح.

ثم بيَّن حكمها، وقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾، وقد أبطل بهذه الآية ما كانت تفعله العرب من التَّحرُّج من الأكل منها، ومنهم من كان يعتبرها محرَّمة لله، ويمنع الناس من الأكل منها. فأباحت الأمرين، وحَضَّت علىٰ إطعام الفقراء والمُعْوزين.

وبعد ذلك ذكر بعض أحكام الحج وواجباته، فقال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: لِيُزيلوا وَعْثاءَ السفر وشَعْثَ الإحرام بعد إتمام الحج، ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾

التي نذروها لأهل الحرم إن كانت. وقيل: بل المراد بها: ما يجب عليهم من الفدي، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: القديم، فإنه أوَّلُ بيت وُضعَ للناس، أو الكريم؛ من العتاقة، بمعنىٰ: الجُودة والكرامة.

ثم فصَّل البحث وخلَّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبالغةً في الحثِّ علىٰ ما تقدَّم، أي: الأمر ذلك.

ثم قرَّر هذا الحثَّ بالحضِّ علىٰ تعظيم حُرماته، فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، والمراد بهذه الحُرُمات: ما جعلها الله محترمة من الشعائر في مواطن الحج. وتعظيمها إنما يكون علىٰ الوجه الذي شَرَعه لنا، كالطواف بالبيت، والسَّعي بين الصَّفا والمروة، والوقوف بعرفة، ورَمْي الجمار، لا نزيد علىٰ الوجه المشروع ولا ننقص، وإن جهلنا سَبَب تشريع بعض تلك الأعمال وحكمتها، إذ من العبادات ما لا دَخْلَ للعقل فيها لبُعد مَرماها، بل قد تكون لمجرَّد الامتثال والطاعة لله تعالىٰ، والتَّنسُّك له بها، وتَغْذية الإيمان بالطاعة الصادقة، في كلِّ ما يأمر به الله سبحانه، سواء عُلمت حكمتُه وفائدتُه أو لم تعلم؛ ومن هذا النوع: بعض أعمال الحج ومناسكه. وقد تكون فيه حِكَمٌ عميقة، إذ ربما كان لرمي الجمار مدخل في قَمْع الوساوس الناجمة عن عدم إدراكنا لتلك الحِكَم والأسباب، إظهاراً للسخط علىٰ تلك الخواطر والتبري منها، والله أعلم. فإنَّ له سبحانه مقاصد سنيَّة، ومرامي عليَّة، في كلِّ أمر يأمر به أو ينهىٰ عنه، لم ندركه بعقولنا، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولما كانت الجاهلية تذبح القرابين لأوثانها في هذا المكان، أزاح ما عَسَاه يغشىٰ الأفهام من التَّحرُّج من ذلك، ولما كانت تحرِّم الأكل من النُّسُك أو تتحرَّج منه، أبطل ذلك كلَّه ببيان حِلِّ الذبائح في كلِّ مكان ما اجتنبت الأوثان، وجَعَل الأكل منها مطلقاً

إلا ما حرَّمه القرآن، فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا المضارع لمجرَّد الاستمرار، من دون تقيُّد بحال أو استقبال. والمراد: إلا ما يُتلىٰ عليكم باستمرار في آية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ والذبحَ لها، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ وهو الشِّرك بالله وادِّعاء أن الأوثان تقرّبكم إلىٰ الله زُلفىٰ، وكونوا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: مائلين عن كلِّ دين زائغ، مُخلِصين الدين لله ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

ثم صوَّر المشرك في سُوء المصير، والابتعاد عن الهدف الجليل الخطير، بهذه الصُّورة الرهيبة، تنفيراً من الشِّرك، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: بعيدٍ عن الهدف والمكان المراد. يُمثِّل الإيمان في عُلوِّه بالسماء، ويُمثِّل الشِّرك والضلال البعيد بهذا السقوط والهلاك الرديء. والمعنىٰ: أنَّ مصيره السقوط الشنيع، والجزاء الفظيع، والبُعد عن الهدف الرفيع.

ومُحصَّل الكلام: تشبيهٌ لحال المشرك بحال مَنْ يسقط من السماء، فلا يملك لنفسه أمراً، فإما أن يندقَّ ويتفسَّخ ويكون نصيبَ الطير، وإما أن ترمي به الريح في مكان بعيد عن غرضه الذي يرمي إليه، فَضْلاً عمَّا في ذلك من المهاوي والمهالك، أي: إنّ الذي يستبدل التوحيد بالشرك يسقط مِثلَ هذا السقوط، ويبعد كلَّ البعد عن الحق وعن السعادة في الدارَيْن وأسبابها الصحيحة.

ثم فصَّل الكلام وخلَّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تقريراً لما قبله، أي: الأمر ذلك لا ريب فيه.

ثم أعاد تعظيم الشعائر؛ مبالغةً في الحثِّ عليها، وبياناً لبعض حِكَمِها العامة،

ومقابلةً للإشراك، فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: معالم دينه تلك المعالم والأعمال التي وضعها لطاعته، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: إنَّ هذه العبادة هي من تقوىٰ القلوب وطاعة الله؛ إذ القلوب تَتَغذَّىٰ وتَصْطلح بالإيمان، والإيمان يُغذَّى بمثل هذه الشعائر، فتتَّقي القلوب ما لا يرضىٰ به الله.

وقد مرَّ الكلام عن معنىٰ الشعائر في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وخلاصته: أنها عبادة أعلىٰ من مستوىٰ العقل، فيكون الامتثال لها من أكبر مظاهر الطاعة والانقياد لله تعالىٰ.

ولما كانت البُدْن التي تُساق هَدْياً للكعبة هي من جملة هذه الشعائر، أفردها بالذِّكْر، وبيَّن حُكمَ الله فيها، فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي: لكم فيها منافع درِّها وظَهرِها، لا مانع من ذلك حتىٰ تصلَ إلىٰ البيت العتيق وتُنحَرَ فيه. وذلك عندما يحين الأجل المسمَّىٰ وهو يوم النحر، لأنها هدايا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ مشروعية القرابين موجودة في سائر الشرائع الإلهية، وفيها ذِكرُ الله سبحانه وتعالىٰ وشكره، حيث أحلَّ لهم ذَبْحَ هذه البهائم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مُتعبَّداً وقُرباناً يتقرَّبون به إلىٰ الله، ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أي: وأحلَّ ذَبْحَها لهم، والذبح أمرٌ عظيم لو لم يأذن به الله، فاذكروا اسم الله عليه، للإشعار بأنكم تذبحونه بإذنه، ولا تذكروا معه غيره كفراً وضلالاً، ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: أخلِصوا الذكر بحيث لا يشوبُه إشراك، واتَّبعوا ما يأمركم به وينهاكم عنه. ثم وعدهم علىٰ ذلك بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: المطيعين المتواضعين لله، لمعرفتهم الصحيحة به تعالىٰ.

ثم ذكر أربع صفات من أثر هذا الإخبات، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ثقةً بأجر الله وبما عند الله ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وفي التنبيه والتحسيس بأنَّ ما في أيديهم من المال إنما هو من رزق الله، استدرارٌ لهم وحَثٌّ علىٰ الإنفاق.

ثم تابع الكلام عن المنسك، وخصَّ البُدْنَ بالذِّكر، وبيَّن كيفية نَحْرها وتفريقها، فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: جعلنا فيها عبادةً لله وإشعاراً بطاعته، و﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: منافع دينيَّة ودنيويَّة، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي: اذكروا الله عند نحرها قياماً مُقيَّدة، وقد صُفّت أيديها وأرجلها. وقيل: تُعقَلُ إحدىٰ يديها فتقوم على ثلاث، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: خَفَقَت علىٰ الأرض بعد سقوطها، وفي هذا الوصف تحريكٌ لعواطفنا، وإشارةٌ إلىٰ عِظَم هذا الأمر الذي أحلَّه الله لنا، فلنقدر ذلك ونشكره تعالىٰ عليه، ونُطْعم القانع والمُعْتر، كما قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[1] قال مجاهد: القانع: جارك الذي ينتظر ما دَخَل بيتك، بمعنىٰ: ينظرك من وراء قناع، والمعتر: هو الذي يعترُّ ببابك ويُريك نفسه ولا يسألك شيئاً.

ثم نبَّهنا إلىٰ موضع النعمة علينا في هذا الأمر، وحثَّنا علىٰ الشكر عليها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ذلَّلناها وسلَّطناكم عليها، وحَلَّلناها

---

(١) قال الشافعي في كتاب «اختلاف الحديث» في باب لحوم الضحايا: القانع: السائل، والمعتر: الزائر والمارُّ بلا قوت. يعني: الزائرين لكم والطوَّافين عليكم. وهذا مضاف إلىٰ ما مرَّ من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]. وقيل: القانع: الذي يقنع بما يعطىٰ، والمعتر: هو الذي يتعرَّض أو يسأل. وقيل: القانع: القاعد في بيته، والمعتر: الذي يسأل. وقيل: القانع: المتعفِّف، والمعتر: السائل. (المؤلف).

لكم، تتصرَّفون بها هذا التصرُّف العظيم، وتتحكَّمون عليها هذا التحكُّم الأليم، لعلكم تُقدِّرون ذلك لله، ولا سيما بالتصدُّق منها على الفقراء.

ثم قرَّر ذلك ببيان أنَّ منافعها تعود إليكم، لا إلى الله سبحانه، لأنه غنيٌّ عن العالمين، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ بإطاعته في ذلك، وتعظيم أمره.

ثم كرَّر التذكير ولوَّن التعليل؛ مبالغةً في التنبيه والحثّ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: لتعرفوا من قدرته على ما لا يقدر عليه غيره من الأعمال أنه هو الكبير المتعال، فتكبِّروه على ما بيَّن لكم وأرشدكم لمناسك حَجِّه ومعالمِ دينه الذي فيه سعادتُكم، وتقوموا بهذا الواجب حقَّ القيام.

ثم ختم الآية بما يحمل على التمسُّك بها، والعمل بما جاء فيها، على سُنَّة القرآن في أساليبه وتعابيره العامة، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن ذكر أحكام الحج ـ ومكةُ بيد المشركين ـ ذكر حكم القتال، لأنَّ مكة دار المؤمنين، أخرجهم المشركون منها، ولأنهم صَدُّوهم عن الحجِّ عام الحديبية. وقد ضمَّن الكلام الحثّ على القتال في سبيل استعادة مكة من الكفار، كما ضمَّنه الوعد بالنصر،

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[١] غائلةَ المشركين. وصيغة الـمُفاعَلة إما للمبالغة، أو للدلالة علىٰ تكرار الدفع، كما في الممارسة والمعارضة والمراقبة.

ثم علَّل هذا الوعد الضمني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ يعني: هؤلاء المشركين، والوَيْل كل الوَيْل لمن لا يحبُّه الله.

ثم جعل مفتتح البحث ترخيص المؤمنين لقتال المشركين، مع بيان الموجب، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾[٢] أي: أن يُقاتِلوا لأنهم ظُلِموا. فأقام العلّة مقام المعلول، علىٰ نهج القرآن[٣].

---

(١) وهناك وجه آخر للربط: وهو أنه عاد بالسياق إلىٰ محوره السابق، وهو الكلام عن المؤمن والكافر والمتخاصمين في ربهما، فبيَّن أنه سبحانه كفيلٌ بنصر المؤمنين، وجَعَل هذا البيان مقدمة لإنزال حكم الجهاد، ووجوب قتال خصومهم المقاومين لهم، وقَرَنه بعِلَّة هذا الوجوب، وحفَّزهم بها عليه. (المؤلف).

(٢) بعد أن أقام المسلمون في المدينة صابرين علىٰ ظلم المشركين منتظرين لأمر الله لهم بالدفاع، وكلما همَّت نفوسهم في الردِّ علىٰ الظلم والعدوان، ردَّهم رسول الله ﷺ بقوله: «لم أومر بذلك، لم أومر بقتال»، حتىٰ نزلت هذه الآية. (المؤلف).

والحديث ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٣: ٢٣٤) بلفظ: «اصبروا فإني لم أومر بقتال حتى هاجر»، قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢: ٣٨٧- ٣٨٨): غريب جداً، وعزاه الواحدي في «الوسيط» (٣: ٢٧٣) للمفسرين.

(٣) هذا هو أول الإذن بالجهاد. ويحمل الكلامُ الأسبابَ الداعية إلىٰ ذلك، حيث يبيِّن أن الباعث لهذا الإذن هو ما وقع علىٰ المسلمين من ظلم وطغيان، وما أُكرهوا عليه من هجرة للأوطان، لا لشيء إلا لأنهم يقولون: ربنا الله. ثم بيَّن أن سنَّة الطبيعة تقضي بقمع الباطل بالقوة، إبقاءً لعوامل الإصلاح، ويومئ إلىٰ أنَّ مثل هذا يجري في كلِّ دِين، ولولاه لَفَسدت الأرض وتلاحم شرُّ الظالمين. =

ثم صرَّح بالوعد لهم بالنصر، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾، وجعل الصيغة تأكيداً لما مرَّ من العِدَة الكريمة بالمدافعة عنهم. وفي نظم الآية الشيءُ الكثير من العطف علىٰ المسلمين، وتطمينهم بتحقيق النصر وبالغلبة وحُسن العاقبة. وهذه هي أول آية نزلت في القتال.

ثم ذكر بعض ما جرىٰ عليهم من الأمور التي اقتضت أن يُؤْذَنَ لهم بالدفاع عن أنفسهم منها، وأن يُعطَفَ عليهم ذلك العطف الرقيق الشفيق، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا البيان أكبر مُسوِّغ للقتال وحافز إليه، نَجْدةً لهم ودفاعاً عن الدين. وهذا الاستثناء من أبلغ الكلام، فقد استثنىٰ من الحكم ما يُؤيده ويُقرِّره، ومن الوصف المُحسِّس المفزِّز ما يزيده تهييجاً في الشعور، علىٰ الطريقة البلاغية المسَّماة في فن البلاغة: تعقيب المدح بما يشبه الذم، أو العكس.

ثم بيَّن سبحانه حكمة الجهاد بأنه لحفظ الأمن والنظام، ودفع الظالم الشرير الذي يحول دون نشر الدين الصحيح وإقامته، فقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ﴾ للرهبان، ﴿وَبِيَعٞ﴾ للنصارىٰ، ﴿وَصَلَوَٰتٞ﴾ وهي كنائس اليهود، قيل: هي معرَّبة عن «صلوتا» بالعبرية، ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ للمسلمين عندما كان ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا﴾

= وقد عقب بهذا بيان مناسك الحج، للحثِّ علىٰ استنقاذ مكة من أيدي المشركين. وكان هذا بعد الهجرة إلىٰ المدينة وبداية شوكة المسلمين.

وترد الآية علىٰ مَنْ يقول: إنَّ الإسلام نُشِرَ بالسيف، فإن الإذن اقترن بأسباب دفاعيَّة لا غير. ولكن علينا أن ندعو إلىٰ الإسلام ببيان محاسنه وحقيقته، فإن مُنعنا من ذلك وَجَبَ علينا الجهاد. والله أعلم. لأن القرآن نزل ناسخاً لكلِّ الشرائع، وأن يكون ديناً للبشر كله، فهو عالميٌّ، ولغته العربية يجب أن تكون عالمية، يتعلّمها كلُّ ذي لغةٍ مع لغته، ليعرف مفاهيم هذا القرآن وما يطلبه من البشر، ويدرك مزاياه العظيمة الإنسانية. (المؤلف).

أي: في هذه الأماكن الدينية ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، وذلك أيام أنبيائهم وأوائل أديانهم قبل التحريف. فالمراد: أنه يحفظ كل صنف من هذه المعابد في العصر الذي كان فيه علىٰ حقّ، فيدفع الله غوائل المعارضين منهم بقوة المؤمنين.

فالآية تقرِّر أنَّ الدفاع عن الدين جارٍ في جميع الأديان، والآية تبيِّن أنَّ الدين الجديد لا يقوم إذا لم يُدافَعْ عنه شرُّ المعتدين، وإن لم يُفعَل ذلك لم يبقَ في الأرض ذكرٌ لله تعالىٰ علىٰ الوجه الصحيح.

وفي هذه الآيات إيماءٌ إلىٰ أنَّ قتال المسلمين إنما هو دفاع عن النفس وعن الدين، لأنه لا يستغني عن دفاع وصَوْن، لا سيما عند نشره في الناس.

ثم وعد سبحانه بنصر هؤلاء القائمين بالمدافعة عنه، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه صفةَ هؤلاء المؤمنين المدافعين الذين وعدهم الله بالنصر، مشيراً إلىٰ ما استحقُّوا به ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالـمُلكِ والسلطان ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: كانوا علىٰ أتمِّ ما يُرادُ منهم في ذلك المقام، من تقوىٰ الله والقيام بواجباته، وإقامة العدل والإرشاد، ودعوة الناس إلىٰ الرَّشاد.

فالآية تُبيِّن أن الغاية من نصرهم ليس توسُّعاً في الـمُلك كما تفعل الدول المستعمرة، ولا وَضْعَ اليد علىٰ موارد الثروات وكنوز الأرض، ولا عُلُواً واستكباراً في الأرض ليكون من البشر جنسٌ أعلىٰ من جنس، ولكنْ لنشر المكارم والفضائل، ومساعدة الناس وتدريبهم علىٰ صفات الإنسانيَّة والكمال الإنساني، والسَّيْر بهم إلىٰ ما فيه سعادة الدارين.

قال جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: لم تكن القوة هي العامل في انتشار الإسلام وفتح الممالك، ولكن العامل اتِّصاف العرب الغالبين بضروب من العدل، لم يكن للناس عهدٌ بمثله، وما كان عليه الإسلام من سهولة لم تعرفها الأديان الأخرىٰ(١).

ثم ختم البيان بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أي: بيده نتائج الأمور وعواقبها، لأنَّ سنته الكونية لا تتبدَّل. وهذا تأكيدٌ للوعد بالنصر، ووعدٌ بالثواب العظيم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

---

(١) فلو كان البشر كما أراده الله منه، وأمره به، متنقلاً من ديانة منسوخة إلىٰ ديانة ناسخة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [آل عمران: ٨١]، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الديانة العالمية التي نزل بها القرآن، وقال لرسولها ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] إلىٰ كثير من الآيات، وكان حزباً واحداً هو حزب الله كما سمَّاه القرآن، ويتكلم إلىٰ جانب لغته بلغة القرآن، كما أراد الله، يعلم بها قرآنه ويتفاهم بها مع سائر الأمم، لا نزاع ولا خصام ولا جدال، إخواناً علىٰ الأرض متحابين، يعمرونها ويستفيدون من خيراتها وكنوزها، متشاركين؛ لعاشوا سُعداء سعادةً أبديَّة علىٰ وَجْه الأرض، وكانوا في الآخرة مُتنعِّمين في جنَّات النعيم، ولكن كانوا كما قال عنهم تعالىٰ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]. (المؤلف).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

ثم أردف الوعد بما يزيد في تأكيده، وهو الاستشهاد بما وقع للأنبياء من نصرهم علىٰ المعارضين، وسبكه علىٰ تسليته، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ علىٰ وضوح آياته، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: صبرتُ عليهم مدَّة، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب أخْذَ عزيز مُقْتَدر، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: نكيري عليهم وإهلاكي لهم، أما كان واقعاً علىٰ أفظع الصور وأدهشها؟

ثم فصَّل بعض ذلك بقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ مستحقةٌ للإهلاك، ﴿فَهِىَ﴾ الآن ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وهذا تصوير للإهلاك والإتلاف، أي: ساقطة حيطانها علىٰ سقوفها، بأن سقطت السقوف أولاً، ثم بعد حين سقطت فوقها الحيطان. وهذا علىٰ تضمين ﴿خَاوِيَةٌ﴾ معنىٰ: ساقطة.

وقال أبو مسلم: المراد: أنَّ تلك القرية خَلَت منهم مع سلامة بنائها وقيام عروشها، أي: سقوفها كما هي.

أقول: وعلىٰ كلٍّ، فهي وضعيَّة تُنبئ بالخراب الطويل لانقطاع دابرهم واستئصالهم.

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿وَ﴾ كَمْ من ﴿بِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ في هذه القرية، ﴿وَ﴾ كم من ﴿قَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ فيها وهو معطَّل كذلك لبوار أولئك السكان المتجبِّرين؟

ثم زاد في تأنيبهم علىٰ غفلتهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، ثم بالغ في تعنيفهم بقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ يُنكِرُ عليهم أشدَّ الإنكار عَدَمَ اعتبارهم بما يمرُّون عليه من مَصَارع الطغاة وأماكنهم الخالية الخاوية، واستهزاءَهم برسول الله ﷺ حين يَعِدُهم بالعذاب.

وقد أفصح عن ذلك بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، فليصيبنّهم بعد حين.

ثم بيَّن أنَّ التأخير إنما هو لطول صبره تعالىٰ، فإنَّ المدة الطويلة بنظركم عنده قصيرة، فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾، قال في «مجمع البيان»: قال الزجَّاج: والمعنىٰ: إن يوماً عند ربك وألفَ سنة واحدٌ في قدرته تعالىٰ، فلا فرق في القدرة بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وبين تأخُّره، إلا أنه سبحانه تفضَّل بالإمهال[1]؛ إذ لا يفوته شيء، فالله سبحانه وتعالىٰ يصبرُ عليهم، لعلَّهم إلىٰ رُشْدهم يرجعون.

أقول: فالآيةُ تمثيلٌ لسَعَة حِلمِه وطول صبره وقِصَرِ المدة الطويلة عنده لِعِظَم شأنه.

ثم استشهد علىٰ إنجاز وعيده بعد طول الصبر بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ مستحقّةٌ لتعجيل العذاب، فاغترَّت بذلك التأخير، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بعذاب الدنيا، ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ في الآخرة، فلهم هناك عذابٌ عظيم.

ثم أمره سبحانه أن يُديمَ لهم الإنذار غيرَ مُلتفت إلىٰ استهزائهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾، فخصَّ الإنذار بالذكر ملاءمةً للسياق.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٤٣٣).

ثم جعل التفريع شاملاً له وللتبشير، علىٰ طريقة إيجاز القرآن، فشرح مصير المؤمنين ومصير الكافرين، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: معارضين ومعاندين، ليقاومونا ويُعاجِزونا بزعمهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ لا ينفكُّون عنها أبداً.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾.

ثم تابع السياق ببيان ما يعترض كلَّ دعوة لرسول أو مُصلح من معارضة الأشرار ومقاومة الفجَّار، ليزداد ﷺ علماً بطبائع البشر وسنن الاجتماع، ويتسلَّىٰ بذلك عن

معارضة المعارضين وعناد المعاندين، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: هيَّأ له في نفسه خطَّة لنشر الدعوة، أو حكم من أحكامها، راجياً أن ينجح فيها ويقبلها سائر الناس، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ بالوسوسة للمعارضين، أن يبذلوا الجهد للحصول علىٰ ألوان من الخطط والدسائس الشيطانيَّة، يعارضون بها خُطَطَ الدعوة ويقاطعونها، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يُزيله من طريق نشر الدعوة، ويذهب به ويُبطِلُه، فتسير الدعوة في طريقها إلىٰ النجاح، حتىٰ تتكلَّل بالفوز والقبول، وهو معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: سُننه، كما قال تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقيل: المراد من الآية: أنَّ مُتمرِّدة الإنس بوسوسة مَرَدَة الجن لهم، يتأوَّلون ما يُمكن تأويلُه من مُطْلَق ومُجْمَل ومُتَشَابه وعامٍّ ومشترك، إلىٰ أمثال ذلك في آيات الكتاب المنزل، فيحملون ذلك علىٰ غير محمله، مما يتموَّه ظاهره في خاطف النظر وبادئ الرأي علىٰ الجُهَّال، ويصرفونه إلىٰ ما يريدون من الشُّبه والشكوك، أو الألاعيب، إلا أنَّ كتاب الله المبين بمثانيه ومتابعاته، ومكرَّر الحُجج، ومُنوَّع البراهين، لا يَدَعُ شبهةً لمشتبه، ولا تمويهاً لمموِّه مِنْ مَرَدَةِ الإنس والجن، بل يفسِّر بعضه بعضاً، ويُحكم المعنىٰ المراد.

ثمَّ أزاح ما يَرِدُ علىٰ الوهم والخاطر من الاعتراض علىٰ تمكين الشيطان من ذلك، وعدم قَمْعِهِ من أول الأمر، ومَنعِهِ من التدخُّل، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾.

ثم بيَّن شيئاً من تلك الحكمة، فقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: اختباراً وإظهاراً لحالهم، لإثبات الحُجَّة عليهم إذا عمَّهم العقاب. والذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون، والقاسية قلوبهم: هم المشركون. وهذان الصنفان من أشدِّ المعارضين، وألدِّ المعاندين. وقد أفاد ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ أي: ذوو عَداوة شديدة وخصام عميق.

هذه بعض حِكَم تلك الخطة فيما يخصُّ الكافرين، وأما بعض حِكَمِها فيما يخصُّ المؤمنين، فقد ذكره بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: إنهم لا تخدعهم أباطيل المعارضين وشُبههم، وإنما تكشف لهم النقاب عن وَجْه هذا الحق، ويزدادوا إيماناً ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتنقاد، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ يصلُ سالكه إلىٰ سعادة الدارَيْن. وإنما هداهم إلىٰ ذلك بمحافظتهم علىٰ الهداية الطبيعيَّة العامة في خِلْقة الإنسان، وعدم إفسادهم لها بمفاسد التربية وسوء القدوة.

ومثلُ هذه الآية قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، ومعنىٰ هذا الجَعْل: أنَّ سنَّة الله تعالىٰ مَضَت بأنَّ الشرير العاتي الذي لا ينقاد للحق كِبْراً وعناداً، يكون عدواً للدعاة من الأنبياء والمُصلحين، خوفاً علىٰ زعامتهم أن تدول[1]، ومراكزهم أن تزول، بتبديل الخطط والأوضاع، ولكن العاقبة للمتقين.

ثم أنَّب المكذِّبين المعارضين وتوعَّدهم بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك من القرآن، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ لا مثيل له في هَوْله وشدَّته، شبَّهه بالعقيم الذي لا يلد، فلا يكون له ثانٍ ولا نظير.

ثم بيَّن ما بعد الساعة وما فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم، ترغيباً وترهيباً،

---

(١) يقال: دال الثوبُ يَدُولُ، أي: بلي. «لسان العرب» (دول).

وفصَّل مصير أصناف الناس فيه، فقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وفي هذه المقدِّمة زيادةٌ في الترغيب والترهيب المفصَّل بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾، وتصديرُ خبر الموصول الثاني بالفاء؛ للإيذان بأن تعذيبهم بسبب أعمالهم: الكفر والتكذيب، كما أنَّ تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين المضاعفة هي بطريق التفضل من الله تعالى.

ثم خصَّ بالذكر من بين المؤمنين هذا الصنف بزيادة النعيم، ترغيباً لهم، وتتميماً للكلام عن مقاومة المعارضين والتثبُّت تجاههم، وتحمُّل المشاق في سبيل ذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو ما لا ينقطع أبداً من نعيم الجنة، أو هو مما استأثر الله بعلمه من جليل النِّعَم في الآخرة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾، وإنما سوَّىٰ في الوعد بين مَنْ قُتل ومَنْ مات حَتْفَ أنفه لاستوائهما في العمل والقصد، وفي التعرُّض لخطر القتل والموت في هذا السبيل.

ثم قرَّر النعيم الممتاز وبيَّنه مُجْمَلاً بقوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾؛ إذْ يَرَوْنَ فيه «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»[1].

ثم علَّق علىٰ سائر مندرجات الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾، فلا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا يحصيها، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن

---

(١) يشير إلى أصل الحديث الذي رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. «قال الله عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]».

﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ومن حلمه: لا يعاجل بهذه العقوبة، ولكن يُؤخِّرها إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، لعلَّ أن يعود المسيء لرُشْده.

ثم فصَّل الكلام وخلَّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ مبالغةً في التنبيه له، أي: الأمر ذلك، لا شك فيه. ثم أضاف إلىٰ هذا الوعد الكريم في الآخرة للمهاجرين في الله وَعْدَهُم بالنصر في الدنيا، وذكر ذلك بصُورة حُكم عام، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما يأتيه المؤمنون إنما هو دفاع عن النفس وأنهم منصورون، لأنَّ المشركين تجاوزوا عليهم بالبغي والعدوان دفاعاً عن الباطل. وإنما سُمِّي التَّحرُّش من الكفار بالمؤمنين عقاباً أيضاً، للازدواج والـمُشاكَلة، أو لاعتقاد المشركين أنَّ عملهم عقابٌ للمسلمين، لخروجهم علىٰ الدين بزعمهم. والآيةُ تبشيرٌ عام بالنصر لكلِّ مَنْ كان كذلك.

أما فَصْلُ الكلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ فهو للمبالغة في نَدْب الـمُعاقِب إلىٰ العفو بعد المقدرة، اقتداءً بصفته تعالىٰ، فهو متضمِّن أو مشير لمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورىٰ: ٤٣]. كما أنه سبحانه أوْمأ بذكر العفو والمغفرة علىٰ أنه قادرٌ علىٰ العقوبة؛ لأنه لا يُوصَف بالعفو إلا القادر علىٰ ضدِّه. وفي هذا ما يدلُّ علىٰ ما في قواعد الدين الإسلامي من الإنسانيَّة، وأنها لا تتمُّ إلا به وبتعاليمه.

ثم ذكر من صفاته الربَّانية ما يُبرهن علىٰ انفراده بالألوهيَّة، ولفَّ ذلك مع دليل قدرته، تأييداً لما تضمَّنته منها صفة العفو، وتقريراً لما تضمَّنه السياق من الوعد والوعيد، والنصر والتأييد، إيماءً للقدرة علىٰ إنجازه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ

﴿فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ يشير إلىٰ التدبير الدقيق في نظام حركة الأرض السنوية حول الشمس، واليومية علىٰ نفسها، مع الميل علىٰ محورها، حتىٰ تولَّد من ذلك تعاقبُ الليل والنهار واختلافُهما طولاً وقصراً، تحقيقاً لما يقتضي ذلك من الحِكَم والمصالح الكونية في الحيوان والنبات. أي: فمن يقدر علىٰ هذا فهو الإله الحقُّ، وأحكامه كلُّها متقنة وبالحق، ويقدر علىٰ إنجاز النصر الذي وَعَدَ به المؤمنين علىٰ الكافرين. ومَنْ يُراعي هذه المصالح فيما تعلمون وتشاهدون، يُراعيها في تعاليمه وتشريعاته وقوانينه وتوجيهاته، لا يَدَعُ صالحاً إلا راعاه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ وكلُّ تعاليمه مُتْقَنة، ولا يغادر شيئاً إلا أحصاه، ويُجازي عليه بقدرته هذه جزاءً وفاقاً إذا كان شراً، وجزاءً أوفىٰ إذا كان خيراً، ويعفو عن كثير.

ثم بيَّن أنَّ موجبَ ما سبق من الجزاء للمشركين، إنما هو شركهم بالله علىٰ وضوح أدلة التوحيد وبطلان الشرك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾، فلا مثيل له في كبريائه، وعُلوِّ شأنه، وصحَّة أحكامه، حتىٰ يكون له شريك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

ثم تابع الآيات في دلائل القدرة والربوبيَّة لما تقدَّم من الغرض، وقرَّر بدليل الواقع عَظَمَته وعُلوَّ شأنه، واختصاصَه بالربوبيَّة وبالألوهيَّة، علىٰ نهج القرآن في مثل

ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، فعطف المضارع على الماضي للدلالة على الحَدَث دون تقييد بحال أو استقبال، ثم أشار إلى الدقَّة في هذا العمل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ واللطف: الدقَّة في العمل. يشير إلى الدقَّة في نظام الإنبات، وإلى سَعَة العلم في وضع ذلك النظام، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

ثم أتبع دليل القدرة بدليل العزَّة والتَّمَجُّد، مشيراً إلى أنَّ ما أراده سبحانه من الإنسان من عمل الخير لا غَرَض له فيه، وإنما هو أمرٌ يعود بالنفع على فاعله، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ أي: المحمود بذاته، ولا حاجة له إلى شيء أبداً، ولا إلى حامدين وعابدين.

ثم تابع السياق في دليل المِنَّة والقدرة والربوبيَّة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الرياح والسحاب والبحار والأنهار والنبات والحيوان وغيرها، أي: جَعَلها مُذلَّلة لكم مُهيَّأة لمنافعكم، ﴿وَ﴾ سخَّر ﴿ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، حيث خَلَقَ في الماء قابلية حَمْل الأجسام إذا كانت على وَضْعٍ خاص حسب نظرية العَوْم، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يشير إلى ما بين هذه الأجرام الفلكية من الجاذبية العامَّة والتماسك، ففيها من القدرة العظيمة والحكمة الباهرة والمنَّة الكبرى، ما يدلُّ على عَظَمةِ الله وجليل نعمته وانفراده بأفعال الألوهية وصفاتها. وقولُه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ استثناءٌ يشير به إلى أمر القيامة وخراب هذا العالم بإذن الله، وذلك عند اضمحلال تلك القوة في هذه الأجرام[1]، كما يَخْلَق الثوب ويتمزَّق. والله أعلم.

---

(١) كون القيامة تأتي بسبب طبيعي، وهو اضمحلال القوى في الأجرام الفلكية، مما لا دليل عليه، وقد تقدَّم نَقْدُه في مواضع تعليقاً.

ثم ختم هذه المنن والتوجيهات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾، حيث أنعم عليهم بهذه النِّعَم، وأوضح لهم مناهج الخير والسعادة، وأوقفهم علىٰ الحقائق الثابتة في عالم الغيب والشهادة، مُدلِّلاً علىٰ ذلك بالدلائل العقليَّة والوجدانية، وبالآيات الكونية منها والتنزيليَّة، وهو العليُّ الكبير، ويمهل الكافر إلى حين.

وبعد أن ذكر هذه الأمور الدالة علىٰ القدرة البالغة، ذكر البعث والنشور، إيذاناً بأنه ليس بشيءٍ في جانب هذه القدرة العليَّة، وأيَّد ذلك بالإحياء الأول، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: أوجدكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فالذي يقدر علىٰ الإحياء الأول والإماتةِ ـ علىٰ عظمتها ـ لِـمَ لا يقدر علىٰ الإحياء الثاني؟ وهو ليس بأعجب من الإحياء الأول[1]، ولكنه لما كان مألوفاً لم تشعر بعجبه وعظمته، وأيُّ عجب أعجب من أن يتطور الجنين في الرحم تطوُّراته العجيبة من قَطْرة ماء مهين، ثم يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ولا يزال ينمو ويتطوَّر بجسمه وعقله، حتىٰ يبلغ أشُدَّه، وقد يكون عظيماً في أعماله، سمياً في أفكاره، وربما كان مكتشفاً معجزاً، أو ملكاً جباراً، أو قائداً قهَّاراً، أو مصلحاً عظيماً، وأصله من ماء مهين.

لا شك أنَّ هذا الأمر العظيم لو تدبَّرناه لم نره أقل شأناً من حشر الأجسام وإعادتها في النشأة الأخرىٰ من عَجْب الذنب الذي هو نواة للحياة، وبمثابة البذرة للنبات، ولكنه الكفر والعناد، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ عنود. وهذا حكمٌ علىٰ الجنس ببعض أفراده، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، لأنَّ الجنس يتحقَّق ببعض أفراده.

---

(١) بل هو أهون عليه، وله المثل الأعلىٰ، لأنَّ الأول من العَدَم، والثاني من بذرة عَجْب الذنب، التي لا يؤثر عليها شيء أبداً أين كانت، حتىٰ تكون الأرض كتلة ترابية، فيأتيها سائل من السماء، تنبت به وتربو في باطن الأرض، حتىٰ تشقَّق عنهم سراعاً فيخرجون. والله أعلم. (المؤلف).

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل البحث، وهو مجادلتهم في الحقائق بغير علم، وأجاب عن شبهة لهم، وهي أنَّ بعض مناسك الشريعة الإسلامية مخالف للشرائع السابقة، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ فلا يكون منسكاً لـمن بعدهم، ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ بأنك خالفتَ مَنْ قبلك، أي: لا تلتفت إلىٰ نزاعهم؛ لأنَّ الله سبحانه قد جَعَل لكلِّ أمة صُوَراً من العبادات والمناسك، تختلف بعض الاختلاف عن الأمة الأخرىٰ، بحكم تَدَرُّج النوع الإنساني في المدارك والمعرفة والعلوم.

والمراد: أنَّ عليهم اتِّباعَك فيه وتَرْكَ مخالفتك، لأنَّ الشريعة الجديدة تَتَبدَّل بعض فروعها بسبب تدرُّج الرقيّ المكتَسَب للنوع البشريّ في العلوم والمعارف، وبعُلُوِّ عقلِه وإدراكِه، وقد تجدَّدت الشرائع وترقَّت إلىٰ شرعك هذا، واستقرَّت عليه عندما وصل الإنسان أوَّل كمال إدراكه، وذلك من نِعَم الله علىٰ الناس.

وتدلُّ الآية علىٰ أنَّ الله سبحانه يرفعُ من الشريعة اللاحقة بعضَ أحكام الشريعة السابقة وصُور عبادتها، ويُضيفُ إليها ما ليس في الأُولىٰ، حسب مُقْتضيات الأحوال،

بعد مرور الآماد والأزمان، وتطوُّرات نوع الإنسان بالرقيّ العقلي المكتَسَب بمرور الزمان، وذلك فيما عدا الأُسس الثابتة، كالتوحيد وأمر البعث وما يتبعه، والإيمان بالوحي والنبوة، فإنها لا تتبدَّل.

وهذه الآية شبيهة بآية المائدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وبعد أن بيَّن أنَّ لكلِّ أمة مَنْسكاً هم ناسكوه ينتهي حكمُه بتجدُّد شريعة أخرىٰ، أمره بالدوام علىٰ الدعوة إلىٰ شريعته الجديدة المستقيمة، فقال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ﴾ في ذلك ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: من محاولة الأباطيل. فأمره بترك المجادَلة معهم إن لم يُسلموا للحق بعد بيانه، وأن يُفوِّض أمرهم إلىٰ الله، فهو يتولىٰ ذلك.

وفي الكلام تهديدٌ لهم وتوعُّدٌ قرَّره بقوله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين، فيحكم فيما تختلفون فيه من أمر الدين، ويُجازي كلاً بعمله.

ثم قرَّر منطوقَ قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومفهومَ ما تضمَّنه السياق من تبدُّل الشرائع بحسب المقتضيات بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، فيشرع الشرائع ويُحصي الأعمال بعلمه هذا الأزلي الأبدي، لا يتبدَّل ولا يعتريه غفلة ولا نسيان، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، وأحكامُه كلُّها حقٌّ واقع محفوظ.

ثم أكَّد ثبوت علمه هذا بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾، قال أبو مسلم: معنىٰ الكتاب: الحفظ والضبط، أي: إنه مضبوط محفوظ[1].

---

(١) لكن ثبت في السنة في أحاديث كثيرة ذِكرُ اللوح المحفوظ، وأنه كُتب فيه ما هو كائن على ما سبق في علم الله تعالى، فالمصير إليه أَوْلى من قول أبي مسلم.

ثم بالغ في التقرير بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ملاحظته وحفظه وضَبْطه مع عِظَم سَعَته ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾، لا كُلفة فيه عليه. وفي الآية تأييدٌ للوعيد السابق أيضاً.

ثم شرح حالهم بعد هذه البيانات في ذات الله، مُبَكِّتاً إيَّاهم علىٰ الإصرار، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وهذا القيد لزيادة البيان في البطلان، وللإيماء إلىٰ أنَّ الحقَّ لا يثبت إلا بالبرهان والعلم والإيقان. وهذا التبكيت تعليق علىٰ مضمون ما تقدَّم من اعتراضهم علىٰ تبديل بعض مناسك الشريعة، وتكميلٌ للجواب السابق، ومؤدَّاه: أنهم كيف يعترضون علىٰ تبديل مناسك اقتضته الحكمة الإلهيَّة، وهم قد بدَّلوا الأساس الذي تُبْنىٰ عليه سائر الشرائع السماوية، وهو توحيد الله واختصاصه بالعبادة دون سواه، وأخذوا يعبدون أهواءهم وما تُوحيه إليه أوهامهم في الكفر والضلال. فهدَّد علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾، يكنِّي بهذا عن استدامة عذابهم وخلودهم فيه.

ثم تابع الكلام عن بيان حالهم السيء في تنكُّرهم لهذا الدين المبين، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الإنكار عليها والتنكُّر لها والتَّغيُّظ منها، لِفَرْط كفرهم، ولما تبيّنه من سَخَافة عقولهم وبطلان دينهم ومهانة آلهتهم. وللإيماء إلىٰ هذا التعليل وَضَع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ موضع الضمير.

ثم صوَّر درجة غيظهم بقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يكادون أن يبطشوا بهم من شدَّة غيظهم منهم. والآية شبيهة بآية سورة (والقلم): ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١-٥٢].

وبعد أن حكىٰ شدَّة تمرُّدهم، أمر رسوله أن يقابلهم بالوعيد، بأسلوب بليغ بديع

ينطبق علىٰ مقتضىٰ حالهم، فقال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي: مما سمعتموه عن حالكم، هي: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر بُطلان ما يعبدون من دون الله وتوعَّدهم علىٰ ذلك، ضَرَبَ لهم هذا المثل تسخيفاً لعقولهم، وتبييناً لما هم عليه من الضلال الفاضح، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ وهذا الأمر بالاستماع للمبالغة في التنبيه والإشعار بأهمية ما يأتي بعده، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذا من خطاب العام مُراداً به الخاص، وهم المشركون، فهم الذين يشركون بالله شركاء، ولداً أو وسيطاً، ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ وهذا الوصل للمبالغة في بيان ضعفهم وعدم قدرتهم.

ثم أوغل في ذلك، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كأنه سبحانه قال: أترُكُ أمرَ الخلق والإيجاد جانباً، وأتكلَّم عنهم في أتفه الأمور، وهو أنَّ الذباب إنْ يسلبهم شيئاً لا يقدرون علىٰ استنقاذ ذلك منه مع ضعفه.

ثم بالغ في تهوين أمرهم وحِطَّة شأنهم، فقال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ أي: معبودهم والذباب.

ثم أنَّبهم بقوله: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، حيث جعلوا هذه الأصنام أو هذه المعبودات علىٰ ضعفها وخساستها شريكةً له تعالىٰ. فما أسخف عقولهم! وأشدَّ بلادتهم! حيث لم يدركوا عَظَمة الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ فأنَّىٰ لهذا المهين أن يكون شريكاً لربِّ العالمين؟!

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وبعد أن ذكر ما يتعلَّق بالإلهيات، ذكر ما يتعلَّق بالنبوات، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وأكمل به البحث بالردِّ الضمني علىٰ مَنْ يتَّخذ الملائكة والنبيِّين أرباباً، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾ أي: يختار ﴿ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ يتوسَّطون بينه وبين الأنبياء بالوحي لا غير، وهؤلاء الأنبياء هم الذين ذكرهم بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: ويَصْطفي من الناس أيضاً رُسلاً يدعون سائرهم إلىٰ الحق اليقين، ويُبلِّغون لهم ما أنزل إليهم من وحي الله المبين. فإنَّ الله سبحانه يختار من البشر مَنْ يحتمل عبء الرسالة ويتحمَّل الاتصال بالمَلَك، وهو الإنسان الكامل الرفيع، المستوعب لحدود الإنسانيَّة، فيَصْطفيه لإمكان اتِّصاله بالمَلَك[1]، بحكم الكمال والتقارب من الملأ الأعلىٰ، فيرسله ويوحي إليه بالعقيدة والتعاليم، ثم يتركه يجاهد في سبيلها بالوسائل البشريَّة، حتىٰ يَتَغَلْغَلَ الدين من تلقاء نفسه في نفوسهم، ولا مُؤثِّر له سوىٰ جمال ذلك الدين وسطوع نوره الباهر المبين. يختار سبحانه وتعالىٰ من البشر مَنْ يكون بحكم الكمال رجلاً لا كباقي

---

(١) بل الله يصطفي من عباده من يشاء، وإذا اصطفاه أقدَرَه على الاتصال بالملك، وقد تقدم بيانُ هذا المعنى تعليقاً بأوسع من هذا (١: ١٦١).

الرجال، عظيماً في ذاته، صادقاً مخلصاً، لا مَطْمَع له في المطامع البشريَّة التي يسعىٰ إليها الناس في هذه الدار، ويواجه البشر بيدٍ خالية من أغراض البشر، حتىٰ يُعرَفَ أنه مُجَرَّد من الغايات الدنيوية.

فالله سبحانه وتعالىٰ يختار من الملائكة رُسلاً للذين يختارهم من الناس رُسلاً علىٰ هذه الصفة، ليبلِّغوا للناس ما يريد الله تبليغه لهم من الوحي والهداية والإرشاد. أما هؤلاء الجهَّال من البشر: فإما أن يعارضوهم ويقاوموهم، وإما أن يعبدوهم من دون الله، أو يجعلونهم وسطاء لهم عند الله، وهو نوعٌ من الشرك لا يرتضيه السميع البصير. فأنذرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ فلا تخفىٰ عليه من أَمْرِهم خافية، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٧٦﴾ فيجازي عليها جزاءً وفاقاً في الشر، ومضاعفاً في الخير.

وغاية أمر الرسل: أنهم من الـمُصْطفَيْنَ الأخيار، فكيف يكون عيسىٰ إلهاً أو ابن إله؟! وكذا عُزير، وكيف يُعتَقَدُ أن الأنبياء لهم دخل في شؤون الله أو يتوسَّطون للناس عند الله، وليس للأنبياء ولا للملائكة شيء من التأثير، وهم يخشون الله ويرجون رحمته، ولا يدعون الناس إلىٰ عبادتهم، بل يكذبونهم يوم القيامة غاية التكذيب؟!

ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ متعلِّقاً بهؤلاء الرسل الـمُصْطَفَين الأخيار؛ لبيان أنه سبحانه يعلم أخبارهم، فهم يؤدُّون الرسالة علىٰ وجهها، ولا يقولون للناس: كونوا عباداً لنا من دون الله. يقيم بذلك الحجَّة علىٰ هؤلاء المشركين والكافرين الذين يتَّخذون الملائكة والنبيين أرباباً.

وبعد هذا البيان والتأنيب للمشركين والكافرين، التفت إلىٰ المؤمنين وحثَّهم علىٰ عمل الخير المؤدِّي إلىٰ الفلاح، والـمُبْعد عن مصير أولئك الضالين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ في سائر ما تعبَّدكم به وما أمركم بأدائه، بأن لا تألوا جهداً في تلك الأعمال التي منها الجهاد في سبيل الله.

ثم حثَّهم على ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم لنشر دعوته ولعبادته والاشتغال بطاعته.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذه الشرائع التي كلَّفهم بها، لم يكن فيها ما يشقُّ على البشر، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: جعل التكاليف الإسلامية داخل حدود الطاقة البشرية، فهي في يُسْر وسهولة.

ثم رغَّبهم فيها بقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فهذا إغراءٌ لهم، لأنَّ العرب يحبُّون أباهم إبراهيم عليه السلام، أو بيان لموضع الكرامة منهم حَمْلاً على التمسُّك بها، لأنه يثير النخوة والتحمُّس. وفيه ردٌّ وتعريضٌ لهؤلاء المشركين الذين يدَّعون أنهم متمسكون بملَّة إبراهيم عليه السلام.

ثم بالغ في الإغراء بقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يشير إلىٰ ما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. وقيل: إنَّ الضمير يعود لله سبحانه وتعالىٰ، أي: إنه هو سمَّاكم المسلمين في سائر الكتب الماضية وفي هذا القرآن.

وقولُه: ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، وفي هذا التعليل إيذانٌ بأنَّ الله سبحانه اختار العرب ليحملوا نبراس هذا الدين للخلق أجمعين، وجَعَل الرسول شهيداً عليهم في ذلك؛ لأنَّ المبلِّغ يشهد علىٰ مَنْ بلَّغه، بأنه قَبِلَ ذلك أو لم يقبل، وقام بواجبه أو لم يقم، وجعلهم شهداء

علىٰ الناس كذلك في نشر هذا الدين بين العالمين، وشهادتهم علىٰ مَنْ قَبِلَه ومَنْ لم يَقْبَلْه، كما جاء الإيذانُ به في أمثال هذه الآية، وكما بيَّناه في لاحقة المقدمة الثانية في التعليق علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

لذلك ختم الكلام بقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في نشر هذا الدِّين، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

اللهمَّ رَحمَتَكَ أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طَرْفةَ عين، وأصلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت.

❊ ❊ ❊

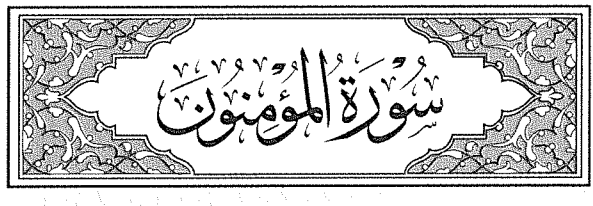

مكيَّة، وهي مئة وثماني عشرة آية

ولما ذكر في السورة الماضية الإذن بالقتال، افتتح هذه السورة بالشروط التي يتوقَّف عليها نَصْرُهم وفلاحُهم.

وقد اقتضىٰ هذا ذِكرَ أخبار بعض الرسل السابقين الذين نصرهم علىٰ أعدائهم، ونالوا النجاح والفلاح.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ من أرباب كلِّ دين سماوي قبل نسخه والتلاعب فيه، أي: فازوا بالمرام، فنالوا السيادة في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ. والكلامُ وَعْدٌ بفلاحهم، وَعَدَهم به سبحانه علىٰ سبيل التحقيق والتأكيد.

ثم ذكر صفاتهم التي استحقوا بها ذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[1] أي: خائفون متذلِّلون، لأنهم يُشْعِرُون أنفسَهم بمَنْ يعبدون، فيما

---

(١) عندما يقوم الإنسان للصلاة ويتوجَّه إلىٰ الله بالعبادة تتنازعه خواطر دنيوية، يشرد بها فكره ويشيع. والخاشع في صلاته: هو الذي لا يحضره ـ إذا دخل في الصلاة ـ إلا التوجُّه إلىٰ الله، واستحضار عظمته، والشعور بمناجاته في أقوال الصلاة وأفعالها. وهذه الحالة تحتاج إلىٰ كثير من الدربة والمران وقوة العزم والإرادة، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

ويقول علماء النفس: إن العقل الإنساني يصبح أداةً مدهشة الكفاءة، إذا ركّز تركيزاً قوياً متقناً. والفرق بين العبقري وغيره من الناس: هذا التركيز وإتقانه لا غير. وكيفية اكتساب هذه الحالة =

يقولون وفيما يفعلون، ويُحْضِرون قلوبهم في ذلك. وهذا هو معنىٰ إقامة الصلاة التي لم يذكرها القرآن إلا مقرونة بها، فهي صفتها الكاملة. وقد جاء في الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١]، وذلك يستلزم حضور القلب، وأن يعقل المصلِّي ما يقرأ وما يقول من دعاءٍ وثناءٍ، وما يفعل من حركات ركوع وسجود وقيام وقعود. وقد جاء أيضاً في الحديث: «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها»[٢]، وذلك لأنه إن لم يعقل ما يقوله ويفعله، وكان غير حاضر القلب؛ فصلاته بلا روح، ومثلُه لا ينهىٰ عن الفحشاء والمنكر، ولا يقوي العزم في المهمات.

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ واللغو: كلُّ قول أو فعل لا فائدة فيه يُعْتدُّ بها. وذلك لأن الإنسان لم يُخْلَق عبثاً، ولا للعبث. ففي اللغو تغييرٌ لخَلْق الله، وتحويرٌ له عمَّا أراده منه وارتضاه. وقيل: هو كلُّ قبيح محظور أو باطل مهجور.

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وهنَّ النساء اللاتي أسرَهُنَّ

= يتطلَّب مراناً وصبراً عليه؛ لأن الانتقال من شرود الذهن إلىٰ التعوُّد علىٰ حَصْره في الموضوع حَصْراً مُحكماً هو ثمرة الجهد المستمر، فإذا استطعت أن تردَّ عقلك عن الشرود مرةً بعد أخرىٰ، وواظبت علىٰ ذلك، حَصَلت عليه بعد المران الطويل. فتصبح تلك الحالة عادةً لك متىٰ قمت إلىٰ الصلاة. ومتىٰ حصل الإنسان علىٰ مَلَكة التركيز هذه أدخلها في سائر شؤونه، وكل شأن اقترن تدبيره بتركيز العقل نجح غالباً بإذن الله، فينال صاحبُ هذه المَلَكة فلاحَ الدنيا، وفلاحَ الأخرىٰ. والله ولي التوفيق. (المؤلف).

(١) سبق تخريجه (٣: ٢٥٧).

(٢) سبق تخريجه (٤: ٤٠٣).

المسلمون في الحروب الصحيحة التي هي لإعلاء كلمة الله، ولم تُؤْسَر معهنَّ أزواجهنَّ، ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين يتصرَّفون بهذه الفتيات بشرائطه الشرعية ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ لما في ذلك المِلكِ من المصلحة العامة، والحفظ لهذه الفتيات، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وراء الزوجات الأربع والمملوكات، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ المتجاوزون لحدود الله.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: إنَّ المُخاطَبين بهذا الحكم: الرجال، فلا يحلُّ للمرأة أن تكون مُتَسرّية بما ملكت يمينُها من العبيد.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ المحافظة تتضمَّن نفي الكشف والإظهار، لذلك عدَّاها بـ«على»، والاستثناء مفرَّغ[1].

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ أي: محافظون على ما يُؤْتَمنون أو يُعاهَدون عليه، سواء كانت تلك الأمانات والعهود بينهم وبينه سبحانه، أو بينهم وبين الناس، وفي أمر مهمّ أو تافه، لأن احترامها ومراعاتها من أهمِّ دعائم المجتمع ومصادر الخير فيه، ولا فرق فيما كان من جانب الخالق أو الخلق.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ فالمحافظةُ فضيلةٌ برأسها، والخشوع الذي تقدَّم ذِكرُه فضيلةٌ أخرىٰ، وفَصَل بينهما كي لا يلتبسا بالوحدة.

وقد ختم الكلام بما بدأه به من الوعد الكريم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾، وهذا هو الفلاح الذي لا يشبهه فلاح، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

---

(١) الاستثناء المفرَّغ لا يكون إلا في الجملة المنفية، إذا جاء بعد أداة الاستثناء شبهُ جملة أو جملةٌ اسمية أو فعلية يكون الاستثناء مفرغاً. (المؤلف).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

ثم شرع في تنبيه الإنسان علىٰ عجائب خِلْقَتِه، وقُدرة الله العظيمة فيه، ومنَّته تعالىٰ عليه، ليُحرِّك شعوره نحوَ دواعي هذا الفلاح ومقتضياته، وليوصل هذه الحلقات الآتية من سلسلة تطوُّراته بحلقات الموت وما يتبعه، تبصرةً له وتنبيهاً إلىٰ أنَّ البعث حلقة من تلك السلسلة، فيوقظه من غفلته، بما يوضِّحه له من حُجَّته، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ يجوز أن يُراد بذلك: أصلُ الجنس، وهو: آدم، فيكون الكلام من باب إسناد ما للأصل إلىٰ الفرع، وهو جارٍ في اللغة العربية وأساليب القرآن، ولأن عناصر الأصل لا تفارق الفرع، والسُّلالة: ما يُسَلُّ من الشيء أو يُقطَعُ منه لمرونته. ويجوز أن يُراد بذلك: ما يتكوَّن منه الجسم، وهو: الخلية. ويجوز أن يُراد بالإنسان: أفراد الإنسان، وبالسُّلالة: ما تتكوَّن منه إفرازات المني، لأنَّه مسلولٌ من الطعام، وأكثرُ الطعام مَسْلولٌ من التراب والطين، بطريقة الإنبات ونماء النبات.

والمعنىٰ علىٰ الأول: إنا جعلنا مادة الإنسان في خلقة آدم طيناً، ثم جعلنا مادتَه في نَسْلِهِ نُطفةً تلقىٰ في الرحم... إلخ. وعلىٰ الثاني: إنا جعلنا مادة الإنسان في أفراد نوعه من خلاصة الطين المتحوِّلة إلىٰ غذاء الآباء ونُطَفِهم من طريق المطعومات.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ وهو: الرَّحِم، أي: ثمَّ جعلنا من الخُلاصة من الطعام نطفةً من المنيّ تُلقىٰ في الرَّحِم، تحوي ملايين من الحُيَيّات، يكون التلقيح بواحد منها، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي: دماً جامداً، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي: جعلناها قطعةَ لحم، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ

﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وذلك لأنه ـ والله أعلم ـ طالما كان في بطن أمه، فهو في دَوْر تدرُّج الحياة فيه، ومتىٰ تمَّ هذا الدور خَرَج من بطن أمه حائزاً علىٰ تمام التَّسوية إن لم تكن هناك علةٌ عارضةٌ مانعة، ومتىٰ ما تـمَّت تسويتُه اتصلت به الروح، فكان خلقاً آخر، وقد تمجَّد سبحانه علىٰ ذلك وتمنَّن وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم تابع الكلامَ عن التطوُّر، فوَصَل ما هو معلوم بما هو مجهول؛ ليستدلَّ به عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾، فعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ مُجمَلَ هاتين الحلقتين من أحوال الإنسان علىٰ تلك الحلقات من أطواره، للإيذان بأنهما طَوْران متراخيان من تلك الأطوار، وقال ﷺ: «والله إنكم لتموتُنّ كما تنامون، ولتُبعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً وبالسُّوء سوءاً»[1].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم أيَّدَ الكلام عن البعث بقدرته الباهرة في مخلوقاته العظيمة، إيذاناً بأن البعث ليس أعظم منها، فالذي يقدر علىٰ هذا يقدر علىٰ ذاك، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ والطريقة: النسيجة المستطيلة، ومنها طريقة بيت الشعر، يتمُّ البيت من كل ثلاث منها فما فوق[2]، وما كان من سبع فهو عظيم. ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).

(٢) الطرائق: جمع الطريقة. سماها الله عز وجل هنا طرائق؛ لأن بعضها يحيط ببعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء آخر: طريقة، فالأرض التي يسكنها الناس تحيط بها السماء الدنيا، والسماء =

بها طبقات النجوم المتفاوتة في البُعد؛ إذ الأجرام السماوية طبقاتٌ وطوائفُ يبعد بعضها عن بعض بُعداً شاسعاً، ولكلِّ طائفة منها نظام عام، وأقرب تلك الطوائف إلينا ما يُسمَّىٰ بالنظام الشمسي.

ويجوز أن يُراد بها: هذه المجرَّات السماويَّة التي اكتشف منها العلم الحديث عدداً غير قليل[١]، وإن كلَّ واحدة منها مستقلّة عن الأخرىٰ، وتحتوي علىٰ عوالم من النجوم لا يُحصيها إلا الله، أما عدد «السبع» فيأتي به القرآن للتكثير لا للتحديد[٢]. وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

وقد تقدَّم البحث عن هذه المجرَّات والنظام الفلكي في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، فارجع إليه لترىٰ عَجَائب مخلوقات الله العظيمة في هذه السماوات.

= الثانية تحيط بالسماء الدنيا، وهكذا إلىٰ السماء السابعة المحيطة بالسماء السادسة، فالسماء الأولىٰ تمثلها مجرّات لا يعلم عددها إلا الله، وبعدها مجرّات لا يعلم عددها إلا الله، ذات نظام حركي تمثل السماء الثانية، وهكذا إلىٰ غاية السماء السابعة، وفي كل مجرة من النجوم العظمىٰ ما لا يعلم عَدَدَه إلا الله، يقدِّر بعضها علماء الكونيات بالملايين، ويقدِّرون بعضها بالمليارات، والله أعلم. (المؤلف).

(١) السماوات: سبع طباق متطابقة، بعضها فوق بعض، ولا يجوز تأويل سبع سماوات إلىٰ معنىٰ آخر، فإنَّ القرآن أُنزل بلسان عربي مبين، وكيف يسوغ تأويل السماوات السبع إلىٰ معنىٰ آخر وقد جاء في أحاديث المعراج الثابتة: أن النبيَّ ﷺ لما عرج به إلىٰ السماوات استفتح له جبريل أبواب السماوات سماءً بعد سماء، وصعد فيها سماء فوق سماء.

(٢) هذا الكلام فيه نظر؛ لأنَّ السماوات سبعٌ بالنصِّ القرآني القاطع الذي لا احتمال فيه ولا إجمال. أما الكواكب والمجرَّات فهي أكثر من ذلك، والقرآن أخبر أنَّ هذه الكواكب زينة للسماء الدنيا، ومن المعلوم لغةً وعرفاً وعقلاً أنَّ زينة السقف غير السقف، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

وبعد أن أبان عن قدرته، وكشف النقاب عن عَجَائب مصنوعاته التي ليس البعث في جانبها إلا أمراً يسيراً، وطَوْراً طبيعياً مأثوراً، وسنةً كونيةً كسائر السنن؛ هدَّد هؤلاء المنكرين له، وتوعَّدهم بأنه تعالىٰ لا يغفل عن عباده، وإنما يُحصي لهم كلَّ عمل، فيجازيهم عليه خيراً أو شراً، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ كلا، بل استوىٰ علىٰ العرش يُدبِّر الأمر. وفيه وجه آخر، وهو الإيماء إلىٰ التَّنويه بدقَّة صُنعه تعالىٰ، والتَّمجُّد بإتقانه وإحكامه في مخلوقاته هذه، وسُننه الكونيَّة في حفظها. وحاصل المعنىٰ: أنَّ المخلوقات الكونية بسائر أطوارها وأدوارها مصحوبة بعلم الله، وطبق إرادته العليَّة.

ثم نبَّهنا إلىٰ مواقع آثاره العظيمة، وذكَّرنا بنِعَمِهِ الجليلة فينا، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، وفي قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ إيماءٌ وإشارةٌ إلىٰ دقَّة علمِه وحكمته في صُنعه تعالىٰ. ومن ذلك: أنه أنزل الماء من السماء علىٰ القدر اللازم، وبنظامٍ قائم، ولم يجعله هاطلاً مُتواصلاً، ولا قليلاً نادراً. فكان بهذا النظام بحيث لا ينقص عن المصلحة العامة، ولا يزيد إلى حد الضَّرر بحسب النظام لا بحسب السنين، أي: أنزلناه بقَدَر ما تقتضيه المصلحة وتَسْتَدعيه الحكمة، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سلكناه ينابيع في الأرض، كانت كالخزانات، يخرج منها بقدر الحاجة بصورة عيون وأنهار.

ثم فزَّز شعورنا بمنَّةِ الله علينا في ذلك، وقدرته علىٰ إهلاكنا بسَلْبها لو أراد، تنبيهاً لوجوبِ شكره، وترهيباً من كفره، فقال: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، ما أرهَبَ هذا التهديد! وما أعظم منَّة الله فيه! أي: كنا قادرين أن نجعَلَ النظام يُبخِّره أو يُضيعه في باطن الأرض، ولكن لم نجعل ذلك؛ رحمةً منا وفضلاً، أفلا تشكرون هذه النِّعَم الجليلة؟!.

ثم تابع الكلام عن هذه المنة في إنزال الماء، فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ

﴿وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لكم في تلك الجنات فواكهُ كثيرة وأقوات. ويجوز أن يكون الضميران[1] للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه، كالعِنَب وعصيره، والرُّطب ونبيذه، وأما ما يُؤْكل منهما فالتمر والزبيب. لأن الفواكه: ما يُتنعَّم بها، والمأكولات: ما يُشبَعُ بها وتتَّخذ لذلك.

﴿وَ﴾ كذلك أنشأنا لكم به ﴿شَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهو جبل موسىٰ عليه السلام، ويقال له: منبت الزيتون. وإنما خصَّ شجرةَ الزيتون بالذِّكْر لما فيها من العبرة الظاهرة؛ لأنها تحوِّل هذا الماء إلىٰ دهن يُدهن به ويُؤتَدَم به، كما ذكر ذلك بقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾، وسُمِّي صِبْغاً لأنه يُدْهَن به الخبز ويُصْبغ إذا غُمس فيه، وكذلك غير الخبز من المأكولات. وإنما خصَّ شجر هذا المكان بالذكر لأنه أحسن أنواعه، أو لأنه أبركُها لبركة هذا الجبل.

ومِثْلُ هذه في النعمة والعبرة: ما تُعطينا الأنعام من دَرّ يخرج من بين فَرْث ودم، أي: يخرج من جسم يحوي هذين الأمرين، لذلك عطفها عليها، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ علىٰ قُدرة الله البالغة ونعمته العظيمة، فصَّلها بقوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ فوق ذلك ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ فتنتفعون بلحومها كما تنتفعون بما يحصل منها، وكذلك تنتفعون بالحَمْل عليها، كما قال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وإنما قَرَنَ الحَمْلَ عليها بالحَمْل علىٰ الفُلك لتكميل البيان، ولإفادة أنَّ بعض الأنعام لحَمْل الأثقال في الصحاري مثل الفلك في البحار والأنهار، لا تقلُّ عنها شأناً.

---

(١) يعني: الذي في قوله: ﴿فِيهَا﴾ والذي في قوله: ﴿مِنْهَا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم أردف هذا بذكر أحوال الأنبياء مع أقوامهم الذين لم يعتبروا بهذه المظاهر الدالَّة على وحدانية الله وقدرته على البعث والنشور؛ تحذيراً للمخاطبين من أن يُهملوا النظر في هذه العِبَر، ويكفروا في هذه النِّعَم، ويُشركوا مع الله إلهاً غيره مع وضوح بطلانه، فيحيق بهم مِثلُ ما حاق بأولئك المكذِّبين.

وابتدأ بقصَّة نوح عليه السلام لتقدُّمها في الزمن، ولتتَّصل بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، لما في ذلك من لطف المسلك في فُلكِ نوح، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لاقتصار أفعال الألوهية وصفاتها عليه، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ غضبَه وجزاءَه إنْ أشركتُم به وكفرتم؟!

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ معارضين له ومشاغبين عليه في أتباعهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يجعل هذه الدعوةَ واسطةً للسيادة عليكم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يُرسِلَ رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلاً، لا واحداً مِثلَنا يُريد منا أن نترك عبادة آلهتنا، ونُغيِّر مسلك آبائنا، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: الأمر بعبادة الله وحده وتَرْكِ عبادة ما سواه من الوسطاء والشفعاء ﴿فِىٓ

﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾، ويجوز أن يكون المراد: ما سمعنا أنَّ بشراً كان رسولاً من الله. يقولون هذا القول متجاهلينَ تاريخ الرسل، وأنهم لا يكونون إلا من البشر.

ثم أضافوا إلىٰ هذه سخافةً أخرىٰ، إذ حملوا هذه الدعوىٰ منه علىٰ الجنون، فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ وإلا كيف يَدَّعي أنه رسول من الله ويدعونا إلىٰ ذلك؟ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ لعله يفيق من جنونه هذا أو يموت وينتهي أمره.

فلما رآهم عليه السلام قد أصرُّوا علىٰ الكفر والعناد، والمعارضة والخصام، أجيالاً ودهوراً، ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحِفظِنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ متىٰ أوحينا إليك بالصُّنع، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قيل: هي كنايةٌ عن شدَّة الغضب، مثل: حمي الوطيس، وقيل: كناية عن قوَّة انبعاث الماء، لأنَّ التنُّور يُطلَقُ علىٰ كوّة عين الماء. ولا يشترط في الكناية صحَّةُ إرادة المعنىٰ الحقيقي، كما لا يمتنع، وعليه فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتِّفاق أقدار لأقدار[1]، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ، يكون المعنىٰ: فإذا اشتدَّ طغيان الماء، ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أدخِلْ في هذه الفُلك ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: من كلِّ صنف، ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[2] ذكراً وأنثىٰ، كي لا

---

(١) لم يكن الطُّوفان في عهد نوح عليه السلام حَدَثاً طبيعياً موافقاً للسنن الكونية، حتى يكون الأمرُ اتفاقَ أقدار لأقدار، نعم... أمر الله الأرض أن تتفجر عيوناً، لكنْ على خلاف المعهود في الطبيعة، وكيف يكون ذلك جارياً على مقتضى الطبيعة وقد بلغ الأمر أن تجري السفينة في موج كالجبال، كما ذكر الله تعالى في الآية ٤٢ من سورة هود.

(٢) الذي يظهر لي: أن الحيوانات لما غمرها الماء طافت مذعورة تطلب النجاة، فلم تجد غير السفينة، فازدحمت عليها، فأُمِرَ نوح أن يحمل من كلِّ زوجين اثنين، لأنَّ ذلك هو الممكن، ولبقاء النسل، ولشدَّة اندهاشها وذعرها لم يعتدِ القويُّ فيها علىٰ الضعيف، أو لمعجزة من الله =

ينقطع النسل، ﴿وَ﴾ واسلك ﴿أَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ وهو ابنه الذي جاء الكلام عنه في سورة هود. وقد نهاه أن يسترحم لهم بعد أن حكم عليهم بالعذاب، فقال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ رأفةً ورحمةً بهم، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: مَقْضيٌّ عليهم بالإغراق.

ولم يذكر مَنْ سَلَكهم فيها من المؤمنين، اكتفاءً بقوله: ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ في الآية الآتية، أو أومأ إليهم بقوله: ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾.

ثم أمره أن يُثني علىٰ الله بهذا الثناء، ويدعو بهذا الدعاء، إذا استقرَّ في السفينة، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أنزلنا في موضع يَسْتَتْبع خيراً كثيراً. والأمر بهذا الدعاء بشارةٌ لهم بمفاده.

ثم ختم الكلام بالتَّحسيس بما جاء في السياق، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: بمحق الكافرين، وإننا لمختبِرون بهذه الآيات والعِبَر عبادَنا؛ ليتميَّز المعتبر من غيره، أو لموقِعون علىٰ المجرمين البلاء. وهذه الجملة تشبه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]. وإنَّ سائر الأديان حتىٰ الخرافية تروي قصة الطوفان بصورة من نمط دياناتها لبقائها في الأذهان.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ

= لنبيه ﷺ. هذا ما أراه والله أعلم. وقيل: أُمِرَ أن يحمل من الحيوانات المنتفع بها، ويجوز ـ والله أعلم ـ أن الحشرات الأرضية بقيت كامنة. (المؤلف).

أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن قصص الأنبياء مع أقوامهم الذين لم يؤمنوا بهم، فذكر ذلك بصورة عامَّة مجملة، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: أهلَ قرون آخرين، وهم قوم عاد وثمود، ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ لاقتصار أفعال الألوهية وصفاتها عليه، فإنكم لا تشكُّون أنه وحده خالق هذا الكون، فهو وحده الذي يستحقُّ أن يُعْبَد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ غضبَه إن أشركتُم به؟

ثم بيَّن تعالىٰ ما قابلوا به هذه الدعوة، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ﴾ كنا قد ﴿أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أفضْنا عليهم النِّعم فقابلوها بالكفر، وقالوا لأتباعهم والدَّهْماء فيهم مُضلِّلين لهم: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وهذا الوصف تمكين للمماثلة التي بَنَوا عليها قولَهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مخدوعون.

ثم زادوا في إغوائهم باستبعادهم الحشرَ الذي جاء به في دعوته هذه، فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ من قبوركم أحياءً تُحشَرون للحساب، ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ و﴿هَيْهَاتَ﴾ معناه: بَعُدَ، واللام للتقوية،

وهذا التكرار لتأكيد البُعْد الذي قرَّروه بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموتُ مَنْ يموت ويُولَد مَنْ يُولَد، كما يقول الدَّهْري[1]: أرضٌ تَبْلَع، وأرحامٌ تدفع. أي: إنَّ الأمر لا يتجاوز الحياة في هذه الدنيا، يبتدئ بالولادة وينتهي بالموت؛ من المهد إلى اللحد، ولا شيء وراء ذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القائلُ بهذا القول، ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ في ادِّعاء الرسالة والقول بالبعث، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ أي: لا نُصَدِّقه فيما يدَّعي ويقول.

فلما يئس هذا الرسولُ من إيمانهم ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ﴾ تعالىٰ إجابةً لدعائه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۝٤٠﴾، وذلك عند مُعاينتهم للعذاب الذي سيَحيق بهم.

ثم ذكر ما كان من ذلك، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل من الله تعالىٰ، أو بالوعد الصدق، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: كغثاءِ السيل، وهو ما يحمله ما بَلِيَ واسْوَدَّ من الأوراق والعيدان. ثم نعىٰ عليهم ولَحَاهُم بقوله: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤١﴾ أي: لأنفسهم بما هيَّؤوا لها من هذا البلاء، وعرَّضوها لما لا يتناهىٰ من الشقاء.

ثم تابع الكلام المُجْمَل عن الأنبياء مع أقوامهم، فقال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ۝٤٢﴾ فجَمَعَ «القرونَ» هاهنا للإيذان بأنَّ هذه الفترة كانت أضعافَ الفترة الأولىٰ لعاد وثمود التي عبَّر عنها بـ«القرن».

وقد أجمل البحث عن هذه القرون، وأومأ إلىٰ أنه قد جَرَىٰ عليهم ما جَرىٰ علىٰ

---

(١) نسبة إلى الدهر بفتح الدال وضمها. يقال: رجل دَهْري: مُلْحِد لا يؤمن بالآخرة «لسان العرب» (دهر).

سابقيهم بقوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بمعنىٰ: أنَّ عذاب الاستئصال لكلِّ أمة استَحَقَّتـه كان له موعد معيَّن، لا يتقدَّمه ولا يتأخَّر عنه. وفي هذا الحكم العام وعيدٌ للمشركين، وتعريضٌ بهم، وردٌّ لاستبطائهم العذاب واستهزائهم به. وقد تكرَّرت هذه الجملة في القرآن، وكلُّها بهذا المعنىٰ.

ثم تابع الكلام عن الرسل والأقوام، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: مُتَتَابعة، ويظهر من صورة هذا التعبير أنَّ الرُّسُلَ قبل هذه الطبقة كانت تأتي متقطِّعة مُتَباعِدَة، بين كل واحد وآخر أزمان مُتَطاولة، بخلاف هذه الطبقة، فإنها جاءت متتابعة. وتبتدئ هذه الطبقة بإبراهيم عليه السلام، وبينه وبين صالح أحقاب لا يستوعبها التأريخ، وهي ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وقد أجمل البحث أيضاً عن استئصال المكذِّبين من أمم هذه الطبقة بالعذاب، فقال: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالإهلاك والاستئصال، كقوم لوط وقوم شعيب عليهما السلام، ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّث بها الناس، ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا دعاءٌ عليهم وتقبيحٌ لهم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم ساوق البحث عن الرسل والأقوام بعد هذه الطبقة، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: برهان ظاهر مبين، أرسلنا بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: متكبِّرين متمرِّدين.

ثم فسَّر ذلك الاستكبار بقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: مُسْتَعبَدون لنا أذلّاءُ منقادون؟! ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم ذكر مُجْمَلَ أمر بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون وقومه المُهْلَكين، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هُدىٰ لبني إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فلم يهتدوا.

ثم اختَزَل الكلام بعد ذلك عن أمر عيسىٰ في بني إسرائيل، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ لهم، مثل كلامه في المهد، وولادتها له من دون مسيس. فلم يؤمنوا بهذه الآية، وصمَّموا الفَتْكَ بهما، فأنجيناهما ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾﴾، ويظهر من قوله هذا أنها كانت مأمناً لهما من بني إسرائيل، فاستقرّا بها، وكانت موفورة الخير بطعامها وشرابها. وذلك أنَّ مريم فرَّت إليها بابنها مع ابن عمِّها يوسف النجار، وبقيت بها اثنتي عشرة سنة، ثم رجعت إلىٰ قومها بعد أن مات مَلِكُهم. هكذا قيل. والله أعلم.

وقد اختلفوا في هذا المكان؛ فقال قتادة وأبو العالية: هو إيلياء، أرض بيت المقدس. وقال أبو هريرة: إنها الرملة. وقال الكلبي وابن زيد: هي بمصر. وقال الأكثرون: إنها دمشق. وقال مقاتل والضحَّاك: هي غوطة دمشق[1]. وقيل: غير ذلك. والمعين: الماء الظاهر الجاري، اكتفىٰ بذكره عن ذكر الرزق السهل الواسع.

وأقول: أما يجوز أن يُراد بها محلُّ ولادتها، حيثُ كانت فيه في مأمن حفيظ، وكان فيه معين، فكانت تأكل من النخلة، وتشرب من الماء؟ والله أعلم.

---

(١) هذه الآثار ذكرها الرازي في «تفسيره» (٢٣: ٢٨٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ
هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾
نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ
أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن
دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟
ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ
لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ
أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا
عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم خاطب الرسل مُجْمَلاً، ووصف طبيعة ما أرسلهم به إلىٰ الناس، تنويهاً بشأنه، وحَمْلاً علىٰ التمسُّك به، فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾**﴾ فأجازيكم عليه. وهذا من خطاب الخاصِّ مُراداً به العموم، وهم أمم الرسل. وفي الآية إشارةٌ إلىٰ أنَّ كلَّ ما حرَّمه الله في شرائع الرسل فهو من الخبائث،

وما أحلَّه لهم فهو من الطيِّبات، وكلَّ عمل أمرهم به فهو صالح، وما نهاهم عنه فهو خبيث. وعلىٰ هذا الأساس تتمشَّىٰ أصول الشرائع.

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ملَّتكم ملَّة واحدة بأسسها الأصلية، وهي التوحيد والاتِّحاد والوئام، يشير إلىٰ ما قلتُه غيرَ مرة في أمثال هذه الآية من أنَّ الأديان السماوية الصحيحة واحدة بأُسسها، وهي الدعوة إلىٰ الاتحاد والتوحيد، والإيمان بالبعث، والأعمال التي تُغَذِّي الإيمان وتكمل الروح وتُصلح النفوس، كالصوم والصلاة والحج والزكاة، لتكون طيبةً فيما بينها وبين الله، وبينها وبين الناس، وإن اختلفت بعض صُور تلك الأعمال برقيِّ الإنسان علىٰ مرور الزمان.

وبعد أن انتدبهم لهذه الشرائع؛ حثَّهم عليها وحَذَّرهم من التفريط بها، بقوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: فيما آمرُكم به وأنهاكم عنه، ولا تعبدوا أحداً غيري؛ إذ لا ربَّ لكم سواي.

وهذا الأمر مُوجَّه إلىٰ الأمم بخطاب رُسلها؛ لأنهم هم المأمورون بالتبليغ، وهو جارٍ علىٰ طريقة التخاطب المألوفة في الجماعات، حيث تخاطب الرؤساء بما يجب أن تفعله الاتباع، فيقال للرئيس: إذا فعلتَ كذا كانت عاقبته كذا وكذا. والمراد: إذا فعلت أمتك وأتباعك. أو عليك أن تفعل كذا، والمراد: علىٰ أتباعك أن يفعلوه. فالمراد توجيه الطلب إلىٰ الأنبياء والأمم معاً[1].

---

(١) فلو كان البشر كما أراده الله وأمره به متنقِّلاً من ديانة منسوخة إلىٰ ديانة ناسخة ـ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [آل عمران: ٨١] الآيات، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الديانة العالمية التي نزل بها القرآن، وقال لرسولها ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ =

ثم حكىٰ ما كان من أمر الأمم بعدهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم وشرائعهم، فقال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ أي: الأتباع المفهومون من السياق ﴿أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا ﴾ أي: قِطَعاً وفِرَقاً، أو كتباً؛ كلُّ حزب نظم له كتاباً حَسْبَما أوحت إليه فكرة رؤسائه وتدجيلهم واقتضته مصالحهم، مُدَّعياً أنه الكتاب المنزل والشريعة الإلهية. أما كيفية تكوين هذه الكتب والديانات بالتفصيل، فمما يحتاج إلىٰ بحث طويل.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ كلاً منهم مُغْتبط بما اتَّخذه ديناً لنفسه، مُعْجَبٌ به، يرىٰ أنه الحق الرابح، وغيره بطلان خاسر، فقال: ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ ﴾ وذلك مبنيٌّ علىٰ سُنَّة من سُنن الله في أخلاق البشر، وهي أنه متىٰ انطبع الإنسان علىٰ أمر أو عقيدة لا يرىٰ غيره جديراً بالنظر والاعتبار.

ولما ذكر سبحانه تفرُّق هؤلاء في دينهم، أتْبَعَه بالوعيد، فقال: ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ٥٤ ﴾؛ يأمر النبيَّ ﷺ أن يصبر علىٰ هؤلاء المشركين والكفار، ويَتحمَّل منهم حتىٰ يَرَوْا العذاب في الدنيا، أو الموت والحساب في الآخرة.

ولما كان بعض هؤلاء القوم في نِعَم عظيمة في الدنيا، ويظنُّون أن تلك النِّعَم إنما هي من رضا الله عنهم، ردَّ عليهم بقوله: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ كلّا ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦ ﴾ أنَّ هذا زيادةٌ في إقامة الحجَّة عليهم يوم

= [الفرقان: ١] إلىٰ كثير من هذه الآيات ـ وكان حزباً واحداً هو حزب الله كما سمَّاه القرآن، ويتكلَّم إلىٰ جانب لغته بلغة القرآن كما أراد الله، يعلم بها قرآنه، ويتفاهم بها مع سائر الأمم، لا نزاع ولا خصام ولا جدال، إخواناً علىٰ الأرض متحابين يعمرونها ويستفيدون من خيراتها وكنوزها متشاركين؛ لعاشوا سعداء سعادة أبديَّة علىٰ وجه الأرض متنعِّمين في جنات النعيم، ولكن كانوا كما قال عنهم تعالىٰ: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠]. (المؤلف).

القيامة. وفي الآية تسفيهٌ لما يظنُّه بعض الأغنياء من أنَّ ما هم فيه من نعمة دليلٌ على عناية الله بهم ورضاه عنهم.

ثم ذكر الأمة التي يُسارع لها في الخيرات، ويدَّخر لها أسْنَى الكرامات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: من خوف عذاب ربِّهم حَذِرون، فيُديمون الطاعة له سبحانه، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وهذا تعريضٌ لأولئك المشركين، وتقريرٌ لما قبله من الإيمان بآيات الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فيخشون أنْ لا يكونوا قد قاموا بالواجب، أو أنهم لم يفعلوه لوجه الله خالصاً، فيجهدون كلَّ الجهد في أن يؤدُّوا كلَّ ذلك حقَّ الأداء، ويُعطوا ما عليهم، في أكمل صورة من الوفاء، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: يفعلون ما به السَّبْق والجهد لأجلها، فيُسارَعُ لهم بها لمسارعتهم إلى ما يؤدِّي إليها، أو المعنى: أنهم ينالونها قبل الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم حثَّ على اتِّباع طريقةِ هؤلاء السابقين، ببيان سهولة التكاليف المؤدية إلى هذه الخيرات، وكَوْنها غير خارجة عن حدِّ الوسع والطاقة، فقال: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وأضاف إلى ذلك أنَّ الأعمال مَحْصيَّة[1]، فقال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ﴾ أي: إحصاءٌ للأعمال[2] ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ ولا يُهمل شيئاً، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بنقص ولا زيادة، أي:

---

(١) الصواب لغةً أن يُقال: مُحصاة.

(٢) الأَوْلى أن يُقال: «كتابٌ فيه إحصاء الأعمال»، والفرق بين العبارتين: أن الأولى لا تتضمن =

لا ينقص شيء من جزائهم، بل يستوفونه كاملاً موفوراً في الحسنات، وجزاءً وفاقاً في السيِّئات.

ثم عاد إلىٰ المشركين، وأضرب عمَّا تضمَّنه السياق من حثِّهم لاتِّباع طريقة المؤمنين إلىٰ بيان حالهم المغاير لذلك؛ للإيذان بأنَّ هذه المواعظ لم تُجْدِهم نفعاً، فقال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: إنَّ هؤلاء المعارضين في غفلة عمَّا ذكرنا من الطريق التي سينال المؤمنون بها الخيرات، وعمَّا لدينا من كتاب ينطق بالحق عن الحسنات والسيِّئات، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، فهم عن كلِّ ذلك غافلون مُعرِضون، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وهي معارضتهم لهذا الدِّين، ومقاومتهم لسَيْر الدعوة، وإصرارهم علىٰ الكفر، وهم مستمرون علىٰ ذلك. أو المراد من الأعمال: ما اتَّخذوه ديناً لهم من دون ذلك الدين الصحيح.

وقال أبو مسلم: إنَّ الآية ليست من صفة الكفار، وإنما هي من صفة المؤمنين الـمُشفِقين؛ تصفهم بالحَيْرة والتفكُّر في أنَّ أعمالهم مقبولة أم غير مقبولة، وهو المراد من قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾. وأما قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ فالمراد بها: النوافل ووجوهُ البر سوىٰ ما ذكر لهم.

ويبتدئ العَوْدُ بالكلام عن الكفار عنده بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾، فقال صاحب «الكشاف»: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه هي التي يبتدأ بها الكلام[1]. وهؤلاء هم الذين

= إثبات كتاب حقيقي تُسجَّل فيه الأعمال وتُكتَب، وإنما المراد بالكتاب: الإحصاء، فيكون المعنى مجازياً أما الثانية ففيها إثبات هذا الكتاب على وجه الحقيقة، وأن الإحصاء هو أثر من آثاره. وهذا المعنى هو الموافق للأحاديث النبوية الصحيحة.

(١) «الكشاف» (٣: ١٩٣).

أمدَّهم الله سبحانه بما ذكر من المال والبنين، فأصرُّوا على الكفر، فلما أخذهم العذاب ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: يصيحون جزعاً واستغاثةً، فيأَّسهم من الخلاص، وقال: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لا أحد يقدر أن ينصركم وينجيكم منا. وهذا المعنىٰ مأخوذ من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن). ومفاد هذه الجملة: التيئيس من النَّجاة والخلاص بعد هذا الأخذ بالعذاب.

ثم علَّل ذلك وسببه علىٰ التنديم والتقريع، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: ترجعون إلىٰ الوراء، بمعنىٰ: تُعرِضون عنها إعراضاً شديداً، ﴿مُّسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾[1] أي: متجبِّرين ومتعالين علىٰ الناس بهذا البلد، أي: بكونكم أهلَ هذا البلد، يعني: مكة، ﴿سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: تفحشون علىٰ هذا الدين، وهذا الرسول، وهذا القرآن، أثناء سَمَركم في الليل.

---

(١) يجوز أن يكون الضمير عائداً إلىٰ البيت الحرام أو إلىٰ مكة، أي: متعالين بهذا البلد، فإنهم يفتخرون ويتعالون علىٰ الناس بأنهم من أهل مكة وقُوَّام البيت الحرام. وشهرتهم بهذا الأمر تحقِّق مرجع الضمير؛ لأن عَوْد الضمير علىٰ ما يدركه الذهن ـ وإن لم يتقدَّم له معنىٰ ـ هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، كقوله تعالىٰ: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، أي: علىٰ ظهر الأرض، ولم يتقدم للأرض ذِكرٌ في السياق، ولكن يدركها الذهن من هذا الضمير بسهولة، يعين عليها نظم الكلام.

ويجوز أن يعود الضمير للقرآن المفهوم من كلمة الآيات، علىٰ أن تكون كلمة ﴿مُّسْتَكْبِرِينَ﴾ متضمِّنة لمعنىٰ: مكذِّبين أو مستهزئين، أي: مكذِّبين مستهزئين بالقرآن، وبذلك يَقْضُون سَمَرَهُم ليلاً. والتضمين من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية)، والترف يؤدي إلىٰ فساد الأخلاق وتحطيم الإنسانية. (المؤلف).

ويجوز أن يعود الضمير علىٰ القرآن، ويُضمَّن ﴿مُّسْتَكْبِرِينَ﴾ معنىٰ: مُكذِّبين، أي: تَقْضون سَمَركم ليلاً بتكذيب هذا القرآن والاستهزاء به.

ثم لفت الكلام إلىٰ التوبيخ والإنكار لعددٍ من مظانِّ التُّهَم مضطربة في مسالك البطلان، علىٰ نهج القرآن في مثله. وعَدَلَ عن الخطاب إلىٰ الغيبة مبالغةً في ذلك، كأنه أبعدهم عن ساحةِ الخطاب لقلَّة فهمهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ الذي ينطق به هذا القرآن؛ ليعلموا أنه الحقُّ من ربهم، ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾ فيه وبه ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ حتىٰ استَبْدَعوه واستَبْعَدوه؟ كلّا، ما قيل لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، وما كنتَ بدعاً من الرسل. فالآية تنكر عليهم كتمانَهم لما يعلمون من تاريخ الرسل في القرون الماضية، ولما هو أمر معروف لا يجهله أحد. فالمعنىٰ: أن مجيء الكتب من جهته تعالىٰ إلىٰ الرسل عليهم السلام سُنَّة قديمة له تعالىٰ، معروفة لدىٰ الناس، لا يتسنَّىٰ إنكارها، وأنَّ مجيء القرآن إنما هو من تلك السنة، فلِمَ ينكرونه؟

ثم عطف علىٰ هذا قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصِّدق والكمال منذ الصغر ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟ و﴿أَمْ﴾ في مثل هذا السياق للانتقال من توبيخ بوجهٍ إلىٰ توبيخ وإلزام بوجهٍ آخر، أي: ألم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصِّدق وحُسْن الأخلاق وغير ذلك من الكمالات اللائقة بالأنبياء، فلِمَ يُنكِرون نبوَّته؟

ثم أردفه بتوبيخ وإلزام آخر، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ مع أنه أرجَحُ الناس عقلاً، وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانةً ووقاراً، فكيف يقولون: إنه مجنون؟

ثم أضرب عن الإنكار عليهم إلىٰ بيان الحق في القضية، فقال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ليس الأمر كما يتقوَّلون في حقِّ القرآن والرسول ﷺ، بل جاءهم بالحق

الثابت، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ لما في نفوسهم من الزَّيْغ والزَّيْف والانحراف، فكرهوا الحقَّ الأبلج، ومالوا للباطل الأفلج.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ الحقَّ لا يميل مع الهوىٰ، وأنَّ اتِّباع الهوىٰ يؤدِّي إلىٰ الفساد الكبير، فقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، لأنها كلَّها قائمةٌ بالحق والعدل والإتقان والسَّداد في البنيان وسُنن الأكوان. ولو كانت تأتي الأنظمة الكونية والشرائع التأديبية كما يهوىٰ الهاوون، لأدَّىٰ الأمر إلىٰ خراب العالم، وفساد المجتمع، وانحلال الأخلاق، وحطَّة الأرواح وشقائها.

وبعد هذا الإبطال أضرَبَ إلىٰ الحق، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ وإعلامهم بالحق الواقع ليتبصَّروا الطريق الواضح، ولكنهم أهملوا هذا النبأ العظيم، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تكميل مظانِّ التُّهَم والموانع المضطربة في البطلان، فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: ضريبةً علىٰ الرؤوس، فيتَّهمونك بأنك تطلب بهذه الدعوىٰ والدعوة نَيْل ثروة أو رياسة، كلّا. وإنما تطلب الأجرَ من ربِّك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، وهو رزقُه لك في الدنيا، وثوابُه في الآخرة. وعبَّر عن هذا بالخراج للمشاكلة، ثم أفصح عنه بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ والخرج: ما يأخذه الملوك علىٰ الرؤوس، والخراج: ما يأخذونه علىٰ ما تنبت الأرض من المحاصيل. والمعنىٰ: لست طالباً للملك عليهم فيتَّهموك. والأصل في الخراج: هو نفس ما تُخرجه الأرض من الغلال، ثم استعمل فيما يؤخذ علىٰ الغلة من الضرائب، من ذِكر الكل وإرادةِ الجزء.

وبعد أن استقصىٰ سائر الوجوه التي تسوِّغ الإنكار والاتِّهام، وسائر الموانع التي يمكن أن تَرِدَ علىٰ الأفكار والأوهام، وتستدعي الإعراض عن هذا المرام،

وأنكرها عليهم أمراً أمراً، عدا كراهتهم للحقِّ وقلّة فِطنتِهم؛ أتبعه ببيان ما جاء به الرسول من صالحهم الأعظم الذي أعرضوا عنه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ يصل سالكُه إلىٰ سعادة الدارين، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: عادلون عن هذا الصِّراط ويبغونها عوجاً.

ثم ربط بين هذه الآية وبين قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤] علىٰ نهج القرآن في الاعتراض، وأشار سبحانه إلىٰ أنَّ التمرُّد والعِناد قد تمكَّن منهم، وقد بلغوا منه حداً لو كشف معه العذاب عنهم ـ بأن يصيبهم فيستكينوا فيجأروا منه ويطلبوا العفو ـ لعادوا إلىٰ التَّمادي في الكفر والعِناد، فقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: لعادوا وتَمادَوْا في ضلالهم عن الهدىٰ.

فالآيةُ امتدادٌ لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤] وعُذرٌ لذلك، وبيانٌ لطبيعة الإنسان إذا تمكَّن منه الضلال، من أن لا يتركه إلا في حال الشدَّة من جرّائه، ثم يعود متىٰ زالت الشدّة. والعَمَهُ: شدَّة العمىٰ. قال الجُبّائي وأبو مسلم: والآيةُ مثلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد استشهد سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك بما جَرَىٰ لهم قبل عذاب الاستئصال تحذيراً وإنذاراً فلم يرتدعوا، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وهو: القحط والجدب ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾، بل أقاموا علىٰ عُتوِّهم واستكبارهم وكفرهم وضلالهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كان فيه استئصالُهم، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ متحيِّرون يائسون ساكنون علىٰ حُزن عميق.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا

﴿تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم أردف هذا البيان بتنبيههم إلىٰ الهُدىٰ وإيقافهم علىٰ ما في أنفسهم من عِبَر ودلائل، ونِعَم وعظائم لله تعالىٰ، قد أغفلوا أمرها ولم يهتدوا باختصاصها به تعالىٰ إلىٰ اختصاصه بالألوهيَّة، وجَعَل ذلك امتداداً للسياق واسترسالاً فيه، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فتستعملونها فيما خُلِقَت له، وتُدركون بها الحق، وتُعرضون عن الباطل واللَّجاج فيه. والقلَّة لا أثر لها في النفوس. وإنما التفت إلىٰ الخطاب ليكون الكلام دالاً علىٰ العموم.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم متناسلين وبثَّكم فيها إلىٰ حين، ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، فتُجْزَوْنَ علىٰ أعمالكم.

ثم ذكر دليل قدرته علىٰ الحشر وَوَبَّخهم علىٰ الإنكار، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وليس الحشر والإعادة بأعجَبَ من الحياة الأولىٰ والإماتة. فالقدرة التي تجعل من الماء المَهين جنيناً لا يزال يتطوَّر في الرحم حتىٰ يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ثم لا يزال يتطوَّر حتىٰ يبلغ الكمال، وقد يبلغ العظمة والجلال، ثم يفقد هذه الحياة، ويصير جسماً هامداً لا إدراك ولا حراك بعد تلك الدراية الواسعة وعظم الفعال؛ فالقدرة التي تفعل به ذلك، هل يُعجِزُها إعادتُه من عَجْب الذَّنَب ونواة الحياة، كما يُعادُ النبات من البذرة وينمو في الأرض كالكمأة، لو كانوا يعقلون؟

ثم تابع دليل القدرة بقوله: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، يشير إلىٰ عَظَمة القدرة في نظام تعاقب الليل والنهار، والنقص والزيادة فيهما. ويكون ذلك من مجموع حركة الأرض السنوية واليومية، ومَيْلها علىٰ محورها.

ثم أنَّبهم علىٰ غَـفْلتهم عن مثل ذلك، وعن عدم استدلالهم به علىٰ قُدرة الله البالغـة ونظامه السَّـديد، وإدراكهم أنَّ الحشـر في جانبها ليس بشيء، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وتتفكرون؟

﴿ بَلْ ﴾ جمدوا علىٰ العَمَىٰ والتقليد الأعمىٰ، و﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾، حيثُ ﴿ قَالُوا ﴾ مُنكِرين للبعث: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ينكرون ذلك ويَسنُدون الإنكار بقولهم: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: إنَّ هذا الوعد كما وقع لنا من محمد وقع لآبائنا من غيره ومن أمثاله، ولم نجد لذلك أثراً مع طول العهد. يستـدلّون بعدم وقوعه علىٰ عدم صحَّته، تَـغَابياً منهم مفروضاً بأنَّ المراد وقوعُه في الدنيا، فهم كمَن يتطلَّب طبيعة الربيع في قوة الإنبات[1] واخضرار الأرض بأنواع النبات لطبيعة الصيف أو الشتاء، ولم يفكروا في أنَّ الله سبحانه قد جَعَل لكلِّ زمن طبيعة لا تَتَعدّاه، فكما خصَّ طبيعة زمن الربيع بقوة إعادة الأرض الهامدة إلىٰ الإنبات، خصَّ زمن الحشر بطبيعة إعادة أجسام البشر إلىٰ الحياة من حبَّة عَجْب الذنب ونَوَاة الحياة.

ثم أشفعوا الإنكار والجحود بقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ جمع «أسطورة»، وهي: الخرافة. أي: إنَّ هذه المقالة من خرافات الأوَّلين، تقال لنا كما قيلت لآبائنا، ويُكذَبُ بها علينا كما كان يُكذَبُ بها عليهم.

---

(١) هذه عبارة غير سائغة، لِـمَا فيها من نسبة الإنبات والاخضرار إلى قوة في الربيع، والربيع ما هو إلا ظرفٌ للإنبات والاخضرار، وهما فِعلُ الله تعالى، وقد أجرى سبحانه العادة (السنة الكونية) بأن يخلق هذا الاخضرار والإنبات في هذا الظرف، فاقترانهما سببٌ عادي، ليس له من قوة التأثير شيء.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فعقَّب سبحانه علىٰ هذا الإنكار بالاستدلال علىٰ قدرته البالغة بما يعرفونه ولا ينكرونه، وليس الحشر بأعظم منه، فقال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ ملكاً وإيجاداً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنهم لا ينكرون ذلك مهما بلغ العناد وفساد العقل والبلادة، لذلك أمره أن يوبِّخهم علىٰ قِلَّة التذكُّر، فقال: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أنَّ مَنْ خلق الأرض ومَنْ فيها ابتداءً قادرٌ علىٰ إعادتهم ثانياً؟

ثم ذكر أمراً آخر من جنس هذا الإلزام، فقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ فإنها أعظمُ من الأرض ومَنْ فيها؟ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: ملكاً وإيجاداً، وذلك لِبَدَاهة الأمر وعدم إمكان الإنكار فيه. ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ عقابَه فلا تُشركوا به بعضَ مخلوقاته، ولا تنكروا قدرتَه علىٰ البعث الذي هو أهوَنُ مقدوراته؟!

ثم تابع الكلام بهذا النوع من الإلزام، فقال: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والملكوت: المبالغة في المُلك، وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ وَصْفٌ يدلُّ علىٰ التميُّز والتفوُّق في العَظَمة والقدرة، مستعارٌ من حالة المُخاطَبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة)، وهي أنَّ القويَّ العظيم يَقْدِرُ أن يُجيرَ مَن استجار به إذا كان المستجار منه ضعيفاً له، ولا يقدر أن يُجير ممّن هو أقوىٰ منه وأعظم. والله سبحانه يُجير ولا يُجار عليه، ولله المثل الأعلىٰ، وله

القوَّةُ والعَظَمةُ جمعاء، وهو القويُّ العزيز. وقد استَفزَّ شعورهم للتفكير والدراية، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة؟

ثم ذكر أنهم سَيُقِرُّون به إذ لا يمكنهم إنكاره، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لله تلك الصفة والعظمة، إذ لا يُمكِنُهم خلافُ هذا الجواب.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بغير لام فيه وفيما قبله[1]. أما اللام فللإشارة إلىٰ الملكية.

وبعد اعترافهم بما فيه إلزام لهم أنَّبهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: فكيف تُخْدَعون وتُصرَفون عن الرُّشْد، مع ظهور الأمر وتوفُّر الأدلة؟ فكيف يُخيَّلُ إليكم الحق باطلاً والباطل حقاً، رغم وضوح الحق وعُلُوِّه علىٰ الباطل؟

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وبعد هذا الإلزام القطعي قرَّر حقيقة شأنهم في هذا الأمر، وردَّ عليهم ما يُسحَرون به ويُخدَعون، من تلقينهم الشرك والإنكار للحشر، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ الذي لا

---

(١) انظر: «الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه ص٢٥٨، و«النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢: ٣٢٩).

مَحيدَ عنه ولا خفاءَ فيه من تحقيق أمر التوحيد والوعد بالبعث، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فيما يقولون من الشِّرك وإنكار البعث؛ لأنه غير مطابق للواقع.

ثم بَرهَنَ على بطلان الشرك بعد أن بَرهَنَ عن قُدرته على البعث، فقال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، وإنما تَتوالد المخلوقات السريعة العَطَب ليخلف الوَلَدُ الأبَ، واللهُ سبحانه هو الخلَّاق الباقي بلا زوال، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ آخر، ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ واسْتَبدَّ به، وامتاز مُلكُه عن مُلكِ الآخرين، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالتنازع، واختصَّ العالي بالألوهية دون من سواه؛ لأنَّ العاجز الضعيف لا يكون إلهاً، ويسمَّىٰ هذا: برهان التمانع.

وقد بالغ في التنزيه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ من أن يكون له نـدٌّ أو ولد، بل هو الواحد الأحد، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[1] ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ثم توعَّدهم بنزول العذاب بهم، وتحقيقاً لذلك أمر النبي ﷺ أن يَدْعُوَ اللهَ بإنجائه من بينهم، فقال: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ من عذاب الاستئصال، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: احفظني من شرِّ ذلك العذاب إنْ أَرَيْتَنيه. أو: إن أنزلتَه بهم الآن فأخرِجْني من بينهم. ويجوز أن يكون الكلام بفَحْواه إلماعاً إلىٰ أناتِهِ سبحانه وتعالىٰ بهم لعلَّهم إلىٰ رُشدهم يرجعون، وإيماءً إلىٰ طلب السماح له بالهجرة والخروج من بينهم؛ ترويحاً عليه، وترويحاً للدعوة في غيرهم الآن، وقد كان ذلك، والله أعلم.

---

(١) الله عالم الغيب مما غاب عن ذوي الإدراك من خلقه، وعالم الشهادة من الأكوان الظاهرة التي تُدرَك بالحواسّ، فلا يغيب عن علمه شيء.

ثم بيَّن صفته سبحانه في الأناة، مشيراً إلىٰ أنه تعالىٰ إنما يُمهِلُهم لعلهم يُنيبون إلىٰ ربِّهم، فقال: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ﴾ علىٰ عَجَل ﴿مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، ولكننا نصبر عليهم لعلّهم يهتدون.

ثم أرشد نبيَّه ﷺ إلىٰ الصبر والأناة، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ به اللهَ ويتقوَّلون عليه، فسنُجازيهم إن أصرُّوا علىٰ ذلك جزاءً وفاقاً. وهذا تثبيتٌ له ﷺ وتوعُّد لهم.

ثم أرشده إلىٰ ما يكون به ذلك الثبات، ويُستَعان به عليه، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ أي: إني أعتصم بك وأستجير من وساوسهم المُغْرية علىٰ خلاف ما أمرتَ به من المحاسن التي منها الصبر والأناة.

وأصل الهمز: النَّخْس، ومنه: مهماز الرائض. شبَّه حثَّهم الناس علىٰ المعاصي بهمز الرائض الدوابَّ علىٰ الإسراع أو الوثب.

ثم أمره بأن يعوذ به من حضورهم عنده بعدما أمره بالعَوْذ به من هَمَزاتهم؛ للمبالغة في التحذير من ملابستهم وهمزاتهم، فقال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يقربوني. فأعاد الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به. وهذه الاستعاذة للتأييد والتقوية علىٰ الدفع بالتي هي أحسن.

ثم ذكر نَدَم أولئك المشركين الـمُمْهَلِينَ إذا أصرُّوا علىٰ شركهم وشاهدوا الحقَّ عند الموت، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾، وفيه خطاب الجَمْع بعد الواحد، (كما جاء في المادة الحادية عشرة من المقدمة الخامسة في أنواع الخطاب في القرآن). والمراد بضمير ﴿ٱرْجِعُونِ﴾: الملائكة الموكَّلون بقبض الأرواح. والمراد من الإرجاع: التأخير، ويؤيِّده ما جاء في مثله من قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

فهذا الكافر إذا احتُضِرَ يقول لملائكة الموت: أخِّروني ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ بمعنىٰ: أتلافىٰ ما فرَّطتُ فيه. فزَجَره سبحانه بقوله: ﴿كَلَّآ﴾، فهذا جوابٌ له في المنع مما طلب، قرَّره بقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: لا تُسمَعُ منه ولا يُجابُ إليها، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ وعبَّر هنا بصيغة الجَمْع باعتبار المعنىٰ؛ لأنَّ الكلام عن صنف المشركين. والمراد: أنَّ بين هؤلاء المشركين وبين الرجعة حائلاً لا يزول إلىٰ أن يأتي يوم الرَّجْعة العام، وهو يوم البعث من القبور. ففي بيان هذه الغاية مبالغةٌ في المنع من هذا الطلب، وإلماعٌ إلىٰ أنها رَجْعةٌ لهم فيها أشد البلاء. ومن هذه الآية أُطلِقَ عالم البرزخ علىٰ ما بين الحياتين.

والآية تُشعِرُ بأنَّ الحقائق تنكشف عند الموت، فيعرف المُبْطِلُ أنه كان مُبطِلاً. وعلىٰ هذا جاء قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾[1] [النساء: ١٥٩] أي: يعتقد ويعلم حينما يحضره الموت أنَّ عيسىٰ عليه السلام إنما هو نبيٌّ ورسولٌ من الله لبني إسرائيل، لا أكثر، كبقية الرسل.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ

(١) على قول في تفسيرها.

هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ
رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

ثم أكمل السياق ببيان المصير العام بعد البعث، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ والمراد: النفخة الثانية، وهذا تصويرٌ للهول العظيم، وانشغال كلِّ واحد بنفسه، فلا استِنجاد ولا تعاطف بين الأقارب كما في الدنيا. فالمرادُ من قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ نفيُ حكم النسب وثمرته وطبيعته إذْ ذاك، وبيان أنْ لا حكم إلا للأعمال.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن كان لأعماله زنةٌ وقيمة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: لم يكن له من الأعمال والعقائد ما له وزنٌ قيِّم، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ أسلموها إلىٰ الشقاء الدائم الأليم، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ والكلح: قِصَرُ الشفتَين عن الأسنان، كما هو حالها إذا شوي الرأس بالنار.

وقد مرَّ الكلام علىٰ الوزن والميزان في سورة الأعراف، عند قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]، وفي سورة الأنبياء، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فارجع إليه[1].

---

(١) وتقدم التعليق عليهما، وأضيف هنا على ما علقته هناك:

قال الطبريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] بعد أن صرَّح بأن المقصود بالميزان: «هو الميزانُ المعروفُ الذي يوزن =

وبعد أن شَرَحَ عذابَهم، ذكر ما كان سبباً له، وحكاه بصورة تقريع لهم وإعذار، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

فأجابوا بجواب ملؤه الندم والحسرة و﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: أسبابُها من الإعراض عن الحق، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

ثم عادوا إلىٰ مثل طلبهم سابقاً، إلحاقاً بالطلب الأول، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من هذه الدار إلىٰ دار الدنيا، ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلىٰ شركِنا ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ نستحقُّ كلَّ ما يُفعَلُ بنا.

فزجرهم سبحانه وتعالىٰ عن هذا المقال و﴿قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾، فما أوضَحَ وأعظَمَ هذا التنبيه والإيقاف علىٰ المصير للمشركين والضالِّين، لو كانوا يعلمون!

= به»، قال: «فإن أنكر ذلك جاهلٌ بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه وِجْهَته، وقال: أوَبالله حاجة إلى وَزْن الأشياء، وهو العالـمُ بمقدار كلِّ شيء قبل خَلْقه إياه وبعده وفي كل حال؟ أو قال: وكيف تُوزَن الأعمال، والأعمالُ ليست بأجسام تُوصَفُ بالثِّقَل والخِفّة، وإنما تُوزَن الأشياء ليُعرَفَ ثِقَلُها من خفّتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التى توصف بالثقل والخفة، والكثرة والقلة؟

قيل له في قوله: «وما وَجْه وزن الله الأعمـالَ، وهو العالم بمقاديرها قبل كونها»: «وزنُ ذلك نظيرُ إثباته إياه في أمِّ الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب، من غير حاجة به إليه، ومن غير خوف من نسيانه، وهو العالم بكلِّ ذلك في كلِّ حال ووقت قبل كونه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجّةً على خلقه، كما قال جلَّ ثناؤه في تنزيله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٨-٢٩]، فكذلك وزنُه تعالى أعمالَ خَلْقِه بالميزان، حُجّة عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته أو التضييع، وإما بالتكميل والتتميم».

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: انصرفتُم ـ مع الحنق عليهم والـهُزْءِ بهم ـ عن التعقُّل بالأمر والتبصُّر فيه، أو إنَّ احتقاركم لهم جعلكم تَصُدُّون عن الدين، لاعتناق هؤلاء له، ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ كما كان حال عُظماء المشركين مع ضعفاء المؤمنين وفقرائهم.

ثم سجَّل لهؤلاء المؤمنين بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

ثم صوَّر شقاءَ المجرمين وخلودَهم، وأنَّ مدَّة حياتهم في الدنيا لم تكن شيئاً يُذكَرُ بالنسبة لذلك الخلود في الشقاء، وجعل الكلام تقريعاً وتبكيتاً علىٰ إنكارهم الحشر، فسألهم للمبالغة في التنديم و﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾؟

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يقولون ذلك استقصاراً لمدَّة لُبثهم فيها بالنسبة إلىٰ طول البرزخ.

ولتردُّدهم في تعيين إحدىٰ هاتَيْن المدَّتين قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: الذين يتمكَّنون من العدِّ لـخُلوِّ بالهم وراحتهم في النعيم. أما نحن فقد فقدنا العقل لِـمَا دَهَمنا من العذاب الأليم.

وفي قولهم: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ إيذانٌ بشدَّة ارتباكهم وانشغال بالهم، وبراحة المؤمنين وخُلوِّ بالهم.

ويجوز أن يكون الكلام مجرَّد تمثيل وتصوير لحالهم[1].

---

(١) بل الكلام على الحقيقة، كما هو صريحُ لفظه، ولا داعي لحمله على مجرَّد التمثيل، كما تقدَّم من المؤلف في أمثاله أيضاً، وتقدَّم تعقُّبه في ذلك.

وعلىٰ كلٍّ، فالآية لونٌ بَليغٌ من التقريع، مُؤَدَّاه أنَّ حياتكم الدنيا بالنسبة لما أعقبها من الخلود في الشقاء هي في غاية القِصَر، فكيف أدَّت بكم سخافةُ عقولكم أن تبيعوا هذا القليل التافه بالعظيم الدائم، وتكونوا في هذا الشقاء الخالد؟! وفي طيَّات هذا التقريع تنبيهٌ وإيقاظٌ للمعتبرين، فالإنسان بطبيعته يغبط مَنْ أحرز السعادة وينافسه عليها، ويَجْتنب سبيلَ مَنْ وقع في الشقاء.

ثم صدقهم في تقليلهم هذا، وبنىٰ عليه المبالغة في التنديم، و﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: لو كنتم من أهل العلم والبصيرة في الدنيا، لعلمتُم يومئذٍ ما علمتُموه اليوم واتقيتموه وعَمِلتُم له.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ لا غاية لكم، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾؟ فردَّ علىٰ هذا الحسبان بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أن تكون أعماله عبثاً، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

ثم توعَّد المشركين علىٰ الشِّرك، فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وهذا القيد للإيغال والتمكين في المعنىٰ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والغرض منه: المبالغة في النفي، والزيادة في النقد والتوبيخ، أي: فمَنْ فعل هذا الفعل الفظيع وارتكب هذه المقالة الشنعاء ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾، وفي صورة هذا التعبير زيادةُ تهويل لهذا الحساب، قرَّرهُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ لما سينالهم من الشقاء العظيم الدائم.

ثم أمر رسوله بطلب الغفران والرحمة، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾؛ إيذاناً بأنهما من أهم الأمور، واستعاذةً مما سجّل لهؤلاء الكافرين من عدم الفلاح والثبور، وتبشيراً له ﷺ بأنه وأمتَه قد سَلِموا من هذا القصور.

اللهمَّ رحمتَكَ أرجو، فلا تكلني إلىٰ نفسي طَرْفةَ عين، وأصلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت.

❊ ❊ ❊



مدنية، وهي أربع وستون آية

وقد جاء في هذه السورة من الأحكام ما يتعلَّق بحفظ الفروج، وما يُلابس ذلك وما فيه وقاية له، فذكر حكم الزنىٰ، والقذف، والنظر، وغيرها من الأحكام والأنظمة التي تقي من الوقوع في هذه المهاوي، وتُوفِّر للنساء الحشمة والكرامة. ومن ذلك نظام الدخول علىٰ البيوت.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ وفي هذا المبدأ رَوْعةُ التنبيه والتحسيس إلىٰ أهمية ما سيُفرَضُ فيها من الأحكام، ومن ذلك حكمُ الزانية والزاني.

والمراد من الزانية: المرأة المطاوعة للزنىٰ، الممكِّنة منه، كما تُنبئ عنه الصيغة، لا المزنيُّ بها كُـرْهاً. وقدَّمها علىٰ الزاني لأنها الأصل في الفعل، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: رحمةٌ ورقَّـة ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في إقـام حدوده وتنفيذ أحكامه ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وفيه حثٌّ علىٰ تنفيذ الحدود

وإقامتها، لأن في الوقاية من هذه الجريمة رفعةً عن التسفُّل والاختلاط في الأنساب، ومنعاً لوقوع هذا العار، وطهارةً للمجتمع من الأدناس والأرجاس. وقد أكمل الحكم وشدَّده بقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ أي: لتحضره ولتشاهده زيادةً في التنكيل. فإنَّ التفضيح قد ينكِّل أكثر مما ينكِّل التعذيب. والمراد بها: جَمْعٌ يحصل به التشهير والزَّجْر.

هذا حكمُ القرآن في الزانية والزاني، ولكن النبيَّ ﷺ أمر برجم الـمُحصَن منهما، فقد أمر برجم ماعز الأسلمي والغامدية لاعترافهما بالزنىٰ وهما مُحْصَنان، ولكنه أرجأ المرأة حتىٰ وضعت وأرضعت وفطمت ولدها. وقد جاء هذا في سائر كتب الصحاح[1]. لذلك كان يفهم الصحابة رضي الله عنهم من هذه الآية أنَّ المراد بها غير الـمُحصَنين، كما جاء ذلك عن عمر رضي الله عنه.

وجاء في «المنار» في سورة النساء عند تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ما ملخَّصه: جاء في «الصحيحين» عن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت ابن أبي أوفىٰ: هل رَجَم رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قلت: قبل سورة النور أم بعدها؟ قال: لا أدري[2]. وظاهر هذا السؤال والجواب: أنَّ السائل يريد أن يعلم هل كان الجلدُ ناسخاً للرجم الذي ربما

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (١٦٩٥) عن بريدة قال: «جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهِّرْني...، ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت: يا رسول الله طهِّرْني، فقال: ويحكِ ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه، فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز ابن مالك، قال: وما ذاك؟ قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: آنت؟ قالت: نعم، فقال لها: حتى تضعي ما في بطنك... ».

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٦٨١٣) ومسلم (١٧٠٢).

كان عملاً بحكم التوراة، أم كان الرجمُ مخصِّصاً لعموم الجلد، بجعله خاصاً بغير الـمُحصَنين والـمُحصَنات بالزواج[١]. فقد كان في ذلك خلاف بين العلماء.

ومن جملة ما يستدلُّ به الـمُنكِرون للرجم في الزنىٰ قولُه تعالىٰ في سورة النساء في حقّ الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، إذ لو كان علىٰ الحرَّة المُحْصَنة رَجْمٌ لزم أن يكون الواجب علىٰ الأمة نصف الرجم، وهو لا يُنَصَّف، لأنه يجب أن ينتهي بالموت؛ والموت لا يُنَصَّف.

ويمكن أن يجاب بأن مُحصَّل هذا يدلُّ علىٰ أنْ ليس علىٰ الإماء رَجْم، بل عليهم نصف الجلد فقط في الإحصان وغير الإحصان، رحمةً بهم من عند الله[٢].

وروىٰ البخاري عن الشعبيِّ أنَّ علياً رضي الله عنه حين رَجَم المرأة، ضربها يوم الخميس، ورَجَمها يوم الجمعة، وقال: جَلَدتُها بكتاب الله، ورجمتُها بسُنَّة رسول الله ﷺ[٣]. وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ علياً رضي الله عنه لا يقول بأنَّ الرجم نزل في كتاب الله، ولا أنه يدلُّ عليه، كما يقول بذلك عمر وابن عباس، ولكنْ يجعلُه من حكم رسول الله.

وقد ثبت في «الصحيحين»: أنه ﷺ حكم برَجْم اليهودي واليهودية عندما تحاكم إليه اليهود في أمرهما إذ أتيا الفاحشة[٤]. والحديث صريحٌ في أنه ﷺ حكم في ذلك بنصِّ التوراة. قال العلماء: ويجب اتِّباعه فيما حكم به مهما كان سبب الحكم؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٢).

(٢) وقوله في الآية الكريمة: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يُشعِرُ بأن حَدَّ الأمة الزانية هو الجلد فقط، لأن معنى العذاب فيه أظهر، أما الرجم فمعنى القتل فيه أظهر.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٨١٢)، وأحمد في «مسنده» (٧١٦).

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩)، عن ابن عمر.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الرجمُ في كتاب الله، لا يغوصُ عليه إلَّا غـوَّاص، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [المائدة: ١٥][1]. يريد: أنَّ هذا مما بيَّنه لهم وحكم به، فصار مشروعاً لنا.

أقول: وهذا يطابق كذلك ما يقوله الأصوليون: إنَّ ما ثَبَت من شرع مَنْ قبلنا يكون شرعاً لنا ما لم ينسخه ناسخ من شريعتنا، وهذا إذا كان الرجم بعد نزول آية النور لا قبله، أو نقول: إن فعل الرسول ﷺ هذا يُبيِّن أنَّ المراد بالآية غير الـمُحصَنين، لأنَّ الرسول يُبيِّن عامَّ القرآن وخاصَّه، خفيَّه ومُجمَلِه[2]. ولا شك أنَّ الزنىٰ كما قال فيه سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، والمحيط الملوَّث به مُحيطٌ دنيء سافل، فليس غالباً علىٰ المحيطات الإسلامية تحصينُها من هذا الداء الوبيل برجم أفراد قلائل.

وبعد أن ذكر حكم الزِّنىٰ، ذكر حكم الزاني والزانية، فقال: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾، وفي هذا الحكم مبالغة في الزجر والتأديب والتنفير من الزنىٰ. ومَنْ أعدلُ من الله حكماً وقولاً وفعلاً؟

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤: ٤٠٠) بلفظ: «من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [المائدة: ١٥]، فكان مما أخفوا». وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، لثبوت الرجم في السنة الصحيحة في غير حديث، ولعدم ورود نص يُبيِّن أنه قبل سورة النور، ولإجماع العلماء عليه في حَدِّ الزاني المحصن.

ثم ذكر حكمَ مَنْ يتَّهم الـمُحصَنات بالزنىٰ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون عليهنَّ بما رموهنَّ به، ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ أي: مدَّةَ حياتهم وإن تابوا وأصلحوا. وفي هذا تتمةٌ للجزاء، ومبالغةٌ في الزجر، بتسجيل صفة الكذب عليهم مدَّة حياتهم. ثم سجَّل عليهم صفة الفسق بصورة القَصْر تغليظاً عليهم، فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾، ثم استثنىٰ من ذلك التسجيل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أنفسَهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾، وهذا تعليلٌ لما يفيده الاستثناء.

وبعضهم جعل هذا الاستثناء إخراجاً من الأمرين معاً: الفسق، والنهي عن قبول الشهادة. فجعله ينتهي بالتوبة أيضاً، فتُقبل شهادته بعدها.

ولا فرق بين أن يكون القاذف والمقذوف من الرجال أو من النساء، كما بيَّنت ذلك السنة. وإنما ذكر المقذوفين بصيغة المؤنَّث نظراً للغالب، ولفظاعة القذف في النساء، وما يَنْجُمُ عنه من أنواع البلاء.

ثم ذكر حكم الـمُتَّهِمين لأزواجهم، بعد بيان حكم الـمُتَّهِمين لغيرهنَّ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ فجُعِلوا من جملة الشهداء؛ إيذاناً من أول الأمر بعدم إلغاء قولهم بالمرة، ونَظْمِهِ في سلك الشهادة في الجملة، وبذلك ازداد حُسنُ إضافة الشهادة إليهم في قوله تعالىٰ: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ أي: فيما رَمَاها به من الزنىٰ.

فإنْ لاعَنَ الزوجُ حُبِسَت عليه الزوجةُ حتىٰ تعترف فتُرجَم، أو تُلاعِنَ فيُدْرَأَ عنها العذابُ. وقد أجمل ذلك بقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: فيما رماها به من الزنىٰ، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾، وبعد هذا تحرم عليه حُرمة مؤبَّدة، ويُلحَقُ الولد بها، وينقطع نَسَبُه من الـمُلاعِن.

ثم بيَّن ما في حكم هذا اللعان من اللطف والسَّتر والرحمة والحكمة، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان. فحذف الجواب للتهويل، وللإشارة إلىٰ لطف هذا الحكم الجليل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة الإفك علىٰ عائشة الصِّدِّيقة رضي الله عنها، وخلاصة الحادث: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَصْحَب بعض زوجاته في الغزوات، وقد خرج لغزوة بني الـمُصطَلق بعائشة رضي الله عنها، وذات ليلة ذهبت لبعض حاجتها، وكان لها عِقْدٌ انسلَّ من عنقها ولم تشعر به حتىٰ عادت إلىٰ الرَّحْل، فرجعت تبحث عنه، فلما عادت إلىٰ هَوْدجها، وَجَدت القوم قد رحلوا؛ يحسبونها في الهودج، وكانت صغيرة، فجلست تنظر أن يفطن قائد هودجها إلىٰ خُلُوِّه منها فيعود إليها، ولكنه لم يفطن، فبقيت في محلها وغلبها النوم، فلم تـفق إلا علىٰ حَوْقلة صفوان ـ أي: قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ـ فأفاقت

والشمس طالعة. وكان صفوان بن المعطِّل قد أُرسِلَ لأمر، فصادف أن عاد ووجد امرأة نائمة، فأدرك أنها ضالة، ولـما قَـرُبَ منها علم أنها عائشة فتَحَوْقَل، فانتبهت، فأناخ راحلته فركبت، وانطلق بها حتىٰ لحق بالجيش[1].

ولم يكن لهذا الحادث أثر في بادئ الأمر، ولم يخطر بشيءٍ علىٰ بال أحد، ولا علىٰ بال الرسول ﷺ. فوجد المنافقون الذين ينتهزون الفُرَصَ للنَّيْل من الإسلام ومن الرسول عليه السلام مجالاً للكلام، فتقوَّلوا.

ورغماً عن أن عقلَ عائشة النابه، وأخلاقَها العالية، وصِغَرَها النزيه، وأنها زوجة الرسول، والوحي إليه مستمر النزول يخبره بكلِّ شيءٍ يمسه وينالـه؛ لا تَدَعُ ريبة لمرتاب. وأنَّ الافتـراء في هذا الأمر بهذا الوضع المكشوف ظاهرُ البطلان. يظهر بطلانه بأبسط النـظر الصحيح، ورُغْمـاً عن ذلك كلِّه أجرىٰ النبي ﷺ تحقيقاً دقيقاً بعد أن لجَّ فيه المنافقون، أثبت به إثباتاً حاسماً أن هذه الفِرْيةَ بعيدة عن الحقيقة بُعْدَ الأرض عن السماء، ولم يفعل ذلك ﷺ إلا للمبالغة في تكذيبهم.

وعلىٰ إثر ذلك نَزَل الوحي ببراءتها، وإجراء الحد علىٰ المتقوِّلين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي: بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء والبهتان هم ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، وفي هذا القيد نقدٌ للمؤمنين بما وقع من هؤلاء، وهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين ـ وجعله من المؤمنين لأنه يُظْهِرُ الإيمانَ ـ وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش.

ثم بيَّن تعالىٰ ما فيه من عِظَةٍ، فقال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وذلك لأن هذا الحادث عَلَّم المؤمنين دروساً اجتماعيّـة عظيمة يجب أن تعرف.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، عن عائشة.

ومنها: أن هذه التهم قد تُوجَّه إلىٰ نساء العظماء من الرجال، بقَصْدِ الحطِّ من منزلتهم وكرامتهم، لا سيما من تصدَّىٰ منهم للتجديد والإصلاح الاجتماعي، القاضي علىٰ سيطرة المتجبِّرين، فتَنتَصِبُ شياطين الإنس للمشاغبات عليهم باستغلال هذه التهمة، وتنفير الناس منهم، وينطلي الحال علىٰ العوام فيفيضون فيه، وذلك إثم عظيم وبهتان فظيع. فهذا الحادث عرَّف المؤمنين ونبَّههم عن مثل هذه المسالك الخسيسة، وهذه المقاصد الخبيثة من المشاغبين، وفواتها علىٰ المؤمنين.

ثم توعَّد الباهتين المختلقين لهذا الإفك بقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: بقدر ما خاضَ به وعقيدته فيه، ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: تولَّىٰ أساسَ بَعْثِهِ واختلاقه ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكر ما كان يلزم المؤمنين من الإتيان به تجاه هذا الحادث، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فكذَّبوه وكفُّوا قائلَه ومَنَعوه وزجروه، ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: ظاهر مكشوف؛ إذ لا يمكن أن يصحَّ في العقل أن تَقْترف زوجةُ النبي ﷺ مِثلَ هذا الإثم، وهي في هذا المركز الرفيع، والمرتبة السامية، من الكرامة عند الله وعند الناس، فضْلاً عمَّا لها من العقل الرصين، والحشمة الممتازة، وعُلوِّ الجناب، فوق ما أنها تعلم أنَّ النبيَّ ﷺ متَّصل بالوحي، يخبره بكلِّ شيء، كما لا يصحُّ في العقل أن يتجرأ مسلم علىٰ التعرُّض لزوجة النبيِّ ﷺ وفيه ذرة من إيمان. ولا يمكن أن يصح في العقل أن من يرتكب هذا العمل يأتي به علىٰ هذه الصورة المكشوفة الظاهرة، ولا سيما فيمن دونها وقع السنا وخفق الجنان، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ثم بيَّن الحكم العام في مثل هذا الحادث، على نهج القرآن في تقرير الحوادث وبَدْئها بالآداب التي تلزم فيها وفي علاجها، ثم قَرْنِها بالأحكام وذِكرِه في طيَّات

التهديد على الإفك في عائشة رضي الله عنها؛ ليزيد الكلامَ تـقريعاً، والحادثةَ تكذيباً، فقال: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فبيَّن تعالىٰ أن الدعوىٰ في مثل هذه التُّـهم لا تُسمع إلا بأربعة شهداء، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ وقيل: هو من جملة المقول، تقريراً للتكذيب والرد، وتلقيناً للحكم في مثله. وعلىٰ كلٍّ، فالآية بيانُ حكم عام بحسب الصيغة، وتقريعٌ وتكذيبٌ بحسب السياق، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنىٰ: في حكم الله.

ثم هدَّد العموم بذنب هؤلاء المتقوِّلين، لأنهم لم يفعلوا كما بيَّن لهم تعالىٰ، ولكنه قَرَنَه بالعفو واللطف، حيث صدر منهم قبل البيان، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾، وهذا تعبيرٌ رهيب، وأسلوبٌ شديد، وصواعقُ داوية، يَرُدُّ به الفِرْيةَ العظيمةَ عن عائشة رضي الله عنها، ووسامٌ لها ثقيل، فهنيئاً لأمِّ المؤمنين بهذا السوار الجميل. ونسب الإفاضة علىٰ العموم لجريانها بينهم، وللمبالغة في فظاعة هذا الجريان.

ثم فصَّل تلك الإفاضة بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: يرويه بعضكم لبعض، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

ثم أعاد عليهم ما كان يجبُ أن يقولوه تجاه هذا الحادث، تقريراً لهذا الأدب وتأكيداً له، فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من الأفَّاكين المشاغبين ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً لهم وتهويلاً لما ارتكبوه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، وهذا نفيٌ بليغٌ مَسْبوك علىٰ الاستفظاع والاستعظام، أمرهم أن يشفعوه بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ تبرُّؤاً منه وتنصُّلاً واستبعاداً.

ثم أردف هذا بالزَّجْر الشديد، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم ختم الكلام بما يزيد في الاهتمام بما تقدَّم من الأحكام، فقال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، يضع الأحكام حسب علمه وحكمته في المصالح العامة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد أن أَنَّب المؤمنين بما فيه لطف وسَماح، توعَّد المنافقين الأفَّاكين المشاغبين بهذا الوعيد العام الرهيب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا نصٌّ ثالث جليل بأنَّ الأمر كان مشاغبةً فظيعةً وبهتاناً وقذفةً صارخةً ألقاها على هؤلاء الكاذبين. أي: يحبُّون أن تنتشر الخَصْلةُ المفرطة بالقبح، وهي الفِرْية والرمي بالزنى، ويَسعَوْنَ في مثل هذا البهتان الفظيع والإفساد العظيم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أما في الدنيا فهو الحدُّ وغيرُه من البلايا الدنيوية، وأما في الآخرة فهو عذاب النار، وما يتبعه مما لا يعلمه إلا الله.

ثم زَجَرَ المتطاول بالنقد علىٰ الوقائع والمقدرات وعلىٰ أحكام الله فيها؛ لجهله عمَّا تتضمَّنه من الحِكَم والمصالح الخفيَّة، ولغفلته عن أسبابها وبواعثها الاجتماعية، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾، ومن ذلك علمه تعالىٰ بأنَّ منشأ هذا البهتان من المنافقين: الحنق علىٰ رسول الله ﷺ، والإفساد لأمره.

أقول: وانحدر معهم أفراد في بادئ الرأي بدافع الغيرة العادية التي تثور بمجرد السماع، ومن دون تفكير سديد.

ثم كرَّر المنَّة بترك المعاجلة بالعقاب علىٰ شدة عِظَم الجريرة، فقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾ وهذا نصٌّ خامس شديد علىٰ التكذيب والتنزيه بشأن عائشة رضي الله عنها. أي: لمسَّكم فيما أفَضْتُم فيه عذاب عظيم. وقد حذف هذا الجواب اكتفاءً بذكره سابقاً، علىٰ أسلوب القرآن في الإيجاز والاكتفاء.

ثم عقَّب ما تقدَّم بهذا التأنيب والإرشاد العام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾، ثم امتنَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ لكم بمثل هذه البيانات والإرشادات وإنزال الشرائع ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب متىٰ شاء، بالتعاليم العالية والآداب الراقية. ومشيئتُـه تعالىٰ تكون موافقةً للحكمة وللمصلحة العامة، فمتىٰ اشتدَّت حاجة الأمم لذلك فعل، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ لا تَخْفىٰ عليه منكم خافية، ويعلم متىٰ تشتدّ الحاجة إلىٰ تجديد الشريعة والإرسال.

ولما كان أحدُ العصبة المتفوِّهين بالإفك ـ وهو مِسْطَحٌ ـ قرابةً لأبي بكر رضي الله عنه، وكان فقيراً ينفق عليه، فحَلف أن يقطع عنه برَّه وإحسانَه حَنَقاً عليه، أرشده سبحانه إلىٰ ما فيه كمالٌ للنفس وسُمُوٌّ في الأخلاق والمروءة، وجَعَل ذلك أدباً عاماً

للمؤمنين، علىٰ نهج القرآن في صور الإرشاد والبيان، فأدَّبهم بهذا الأدب العالي، وهو أن لا يُعْرضوا عمَّن يُسبِّب لهم الضرر من أقربائهم الفقراء، ويقطعوا عنهم صِلاتِهم حنقاً وانتقاماً، وعليهم أن يتحمَّلوا منهم؛ لأنَّ هذا الإنفاق عليهم إنما هو لوجه الله تعالىٰ، فلا يتركوه لأذىٰ يصدر منهم نحوهم، فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الأَلِيَة، وهي الحَلِف، أي: ولا يَحلِفْ ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ من المال ﴿مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا صدر منهم ما يُؤْلم أو يُؤْذي، ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فرط منهم، ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغماض عنهم.

ثم أردف الأمرَ والنهيَ بالترغيب، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: إنَّ عَفْوَكم عنه يُقابَلُ بعفو الله عنكم، فتحمَّلوا منهم لتنالوا هذا الجزاء الثمين. ثم زاد في الترغيب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فاقتدوا بتلك الصفات الحُسْنىٰ.

وجاء في أسباب النزول: أن مِسْطَحَ بنَ أُثاثةَ هو ابنُ خالة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وكان من الفقراء المهاجرين، وأبو بكر ينفق عليه، فلما اشترك بتقوُّلات الإفك عن عائشة رضي الله عنها، حَلَفَ أبو بكر أن لا ينفق عليه، فنزلت مع آيات البراءة هذه الآية، فعاد إلىٰ الإنفاق وكفَّر عن يمينه[1].

ثم أردف هذا السِّياق ببيان عِظَم جريرة القذف للمُحْصَنات، وضمَّنه الوعيد لأولئك المتقوِّلين علىٰ عائشة رضي الله عنها بأعظم الجزاء، ولمن علىٰ شاكلتهم ممَّن يرمون البريئات والأبرياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يوم الحساب والجزاء.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم الذي يُدانون به ويستحقونه بالحق، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ وهذا نصٌّ سادس يتضمَّن براءة عائشة رضي الله عنها.

ثم ختم السياق بهذا البيان العام في حكم الكفاءة، وفيه صَفْعٌ لأولئك المتقوِّلين وتشنيع، وفيه تقديسٌ وإجلالٌ لعائشة رضي الله عنها، وتنزيهٌ لها ووسامُ شرفٍ عظيم، فقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾، بمعنىٰ: أنَّ هذا الطيِّب يؤدِّي إلىٰ رضاء الله ودخول الجنة والنعيم المقيم، وإنما حكم بالبراءة للصنف كلِّه إيذاناً بأن عائشة تزيد عليهنَّ بخُلقها العظيم، ومركزها الرفيع، وعقلها الرزين، فمن المحال أن تقترف ذلك، فضلاً عن أنها في سنٍّ لا تشتد صاحبته في الرغبة إلىٰ الرجل، فكل الدلائل العقليَّة تدل دلالة قطعيَّة علىٰ كذب هذه القضية. وكلُّ مَنْ هُنَّ في خُلُق عائشة كذلك.

وقد أشار بهذا البيان إلىٰ امتناع وقوع هذا الأمر الذي تآمروا باختلاقه وتزويره علىٰ عائشة رضي الله عنها. وفيه دقَّة إشارة أيضاً إلىٰ أنَّ الله سبحانه لا يبتلي الطيِّب بالخبيث، وأنَّ الطيِّبين والطيِّبات ذوو نُهيَةٍ عن الفحشاء، ومبرَّؤون من مثل ذلك. وفيه تعريضٌ بالمشركين المُختَلِقين للإفك، وردٌّ للوصف عليهم، أي: أما الخبث فهو في نسائكم؛ لأنَّ الخبيثات للخبيثين، يعني المشركين بما فيهم من السفلة والمنحطِّين، والزانيات والزانين. وتفيد الآية تحريم نكاح المتضادَّيْن في ذلك. والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ

يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وبعد أن ذكر أحكام الزنىٰ ورَمْيَ العفائف وزَجَرَ عنهما، أردف ذلك بالزَّجْر عمَّا يؤدي إليهما، وهو الفوضىٰ في الاختلاط بين الجنسين ودخول البيوت بلا استئذان، ووضع نظاماً للتزوار ومخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهنَّ في أوقات الخلوات، وفرض آداباً عالية في ذلك، حافظةً من الوقوع في الرذائل والتقوُّلات، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي: حتىٰ تحسُّوا بأُنس أصحابها بكم، وقبولهم لكم. وذلك إنما يكون بالاستئذان وأخذ الإذن، فإن أذنوا تدخلوا ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عند الدخول، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في حفظ الأخلاق والشرف، و﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ما تؤدِّي إليه المخالفة من الوقوع في الوبال السابق، من الملاعنة أو إجراء الحد.

ثم تابع البيان فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ أي: في هذه البيوت ﴿أَحَدًا﴾ يأذن

لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ لأنهم ليسوا مُتأهِّبين لِقَبولكم أو هناك موانع تمنع من القبول، ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ في التزاور وحفظ الأخلاق.

ثم حملهم علىٰ التَّمسُّك بهذا النظام وتطبيقه بدقة، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾، فلا تخالفوا أوامرَه ونواهيَه.

ثم استثنىٰ من الاستئذان المحلات العامة، كالمحلات التجارية والصناعية ودُور السَّمَر وغيرها، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا﴾ بلا استئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي: حقٌّ تتمتَّعون به أو أمتعة للبيع والشراء، كالحمامات والمحلات التجارية والمجتمعات العامَّة وشبهها.

ثم حملهم علىٰ إخلاص النيَّة وعُلوِّ الأخلاق ودقَّة التطبيق في هذه المداخلات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه الآداب الواجبة في هذه المداخلات، وفي المخالطة الضروريَّة بين الجنسين في بعض الأحيان، كأثناء السير في الطرقات، وفي حال المبايعات مثلاً، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وحِفظُ الفرج مُسبَّبٌ عن غضِّ الأبصار، فهو من عطف المسبَّب علىٰ السبب، أي: فَلْيغضُّوا من أبصارهم ليحفظوا فروجهم. ولهذا جَعَلَ في موضع التعليل قولَه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: غضُّ الأبصار ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾؛ إذ النظرة سهمٌ إبليس، يَنْبعث عنها كلُّ شرٍّ خبيث.

ثم حملهم علىٰ التمسُّك والإخلاص في هذه الآداب، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾، ففيه تهديدٌ وتحذيرٌ لمن يبعث النظرات خلسة أو ما شابه ذلك.

ثم أمر النساء بما أمر به الرجال، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، ثم زاد في أمر النساء علىٰ ما أمر به الرجال بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ

﴿زِينَتَهُنَّ﴾ لمن لا يحلُّ له النظرُ إليهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وقد اختلفوا في المراد بالزينة، فقال بعضهم: إنها تشمل الأمرَيْن: محاسن الخِلقة، وما يُتزيّن به من لباس وحُلي. وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة علىٰ الخِلقة، وخصَّه بالثاني، ومن القائلين بشمول الزينة لمحاسن الخِلقْة: القفَّال، فقال في معنىٰ الآية: إلا ما تُظهِرُ المرأة في العادة الجارية، وهو الوجه والكفّان. فأُمِرْنَ بستر ما لا تؤدي الضرورة إلىٰ كَشْفه، ورُخِّص لهُنَّ في كَشْف ما اعتيد كشفه وأدَّت الضرورة إلىٰ إظهاره، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يُرىٰ منها إلا هذا وهذا» وأشار إلىٰ وجهه وكفَّيه[١].

وقال في «مجمع البيان»: في الآية أقاويل للسلف، فقد قال ابن عباس: إن الزينة الظاهرة: الكحل والخاتم، والخدان والخضاب في الكف[٢]. وقال الضحَّاك[٣] وعطاء[٤]: إنهما الوجه والكفان. وقال الحسن: إنها الوجه والبنان[٥]. وقال قتادة: إنها الكحل والسوار والخاتم[٦]. وقال ابن مسعود: إنَّ الظاهرة: الثياب، والباطنة: الخلخالان والقرطان والسواران[٧].

---

(١) رواه أبو داود (٤١٠٤) عن عائشة، وقال: هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة، ورواه البيهقي (٢: ٢٢٦) وقال عقب قول أبو داود: مع هذا المرسل قول مَنْ مضى من الصحابة رضي الله تعالى عنهم في بيان ما أباح الله من الزينة الظاهرة، فصار القول بذلك قوياً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ١٥٧).

(٣) المصدر السابق (١٩: ١٥٨).

(٤) المصدر السابق (١٩: ١٥٧).

(٥) المصدر السابق (١٩: ١٥٨) بلفظ: «الوجه والثياب».

(٦) المصدر السابق (١٩: ١٥٧).

(٧) المصدر السابق (١٩: ١٥٥).

ثم أرشدَهُنَّ إلىٰ كيفيَّة إخفاء بعض مواضع الزينة، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمُر: المقانع، جمع خمار، وهو غطاء رأس المرأة المنسدل علىٰ جبينها لتغطية الوجه. والجيوب: جمع جيب، وهو طَوْق القميص. فقد أُمِرنَ بإلقاء المقانع علىٰ جيوبهنَّ، تغطيةً لنحورهنَّ؛ إذ قد قيل: إنهن كُنَّ يُلقينَ مقانعهن علىٰ ظهورهن، فتبدو نحورهن. وقيل: إنهنَّ أُمِرنَ بذلك لِيَسْتُرْنَ شعورَهنّ وقُرُطَهنّ وأعناقَهنّ.

قال في «مجمع البيان»: قال ابن عباس: تُغطِّي شعرها وترائبها وسوالفها[1]. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت خيراً من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية قامت كلُّ واحدة منهنَّ إلىٰ مِرْطها[2]، فصَدعت[3] منه صدعةً فاختمرت، فأصبحن علىٰ رؤوسهن الغربان[4].

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ مَنْ يحلُّ الإبداء له ومن لا يحل، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ التي لا يجوز كشفها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ وقد قال المفسِّرون: المراد: جميع النساء، والإضافة لبيان الجنس، أي: لجنسهنَّ، أو هي للانتساق، حيث إن هذا الضمير قد انتسق في الآية كلِّها، فجيء به هنا ولم يقطع؛ لتكون الكلمات كلُّها مضافة للضمير، ولا غاية منه. والمراد من ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: جميع النساء، أي: جميع هذا الجنس. وقال بعض المفسِّرين: المراد بهن: النساء المسلمات.

---

(١) لم أجده.

(٢) المِرْط: واحد المروط، وهي: أَكْسِية من صوف أو خزٍّ كان يُؤتَزَرُ بها. «الصحاح» (مرط).

(٣) يقال: صدعت الرِّداء صدعاً إذا شققته. «النهاية في غريب الحديث» (٣: ١٦).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٤٠٥).

أقول: ويجوز أن تكون الإضافة لبيان النوع، والمراد بـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: نساء خاصتهنَّ من الأقارب، وإنما خصَّهُنَّ بالذكر جَرْياً علىٰ الغالب؛ لأنهنَّ أكثر اتصالاً بهن، أو تكون إلماعاً إلىٰ تحديد اتِّصالات النساء وتضييقها بين نساء العوائل. والله أعلم. ويجوز أن يُراد بهنَّ: الحرائر؛ بقرينةِ ما يأتي. وعلىٰ كلٍّ، فالضمير ليس نصاً في الاحتراز.

ثم تابع البيان فقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾، وظاهر اللفظ يعمّ الإماء والعبيد، وقد رُوِيَ عنه ﷺ أنه أتىٰ فاطمة بعبد وَهَبَه لها وعليها ثوبٌ إذا أقنعت به رأسها لم يَبلُغ رجلَيْها، وإذا غطَّت رجلَيْها لم يبلغ رأسها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك»[1].

وقيل: بل المراد الإماء فقط، وعبد المرأة كالأجنبيّ منها، وهو الأقرب لروح الشريعة وآدابها.

وعليه، فيكون قد ذكر الإماء بعد الحرائر، ويكون المراد بيان أنهنَّ كجنس النساء في هذا الحكم، لا يَنقُصْنَ عنهن في هذا الأمر، وإن نَقَصْنَ عنهن في بعض الأحكام.

وعلىٰ هذا، فيكون المراد من ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: الحرائر، والله أعلم.

ثم قال: ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: الذي لم يبق ـ أو لم يكن ـ لهم حاجة بالنساء، وهم الشيوخ الفانون، والبُلْهُ الذين يتَّبعون الناس لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمر النساء.

وذكر المدائني[2]: أن معاوية دخل ذات يوم علىٰ امرأته فاختة، ومعه خصيّ،

---

(١) رواه أبو داود (٤١٠٦)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقن في «البدر المنير» (٧: ٥١٠).

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني (١٣٥-٢٢٥هـ) راويةٌ مؤرِّخ كثير التصانيف، له: «المردفات من قريش» و«التعازي». انظر: «الأعلام» للزركلي (٤: ٣٢٣).

وكانت مكشوفة الرأس، وكانت ذاتَ عقل وحَزْم، فغطَّت رأسها، فقال لها معاوية: إنه خصيّ. فقالت: يا أمير المؤمنين، أترىٰ الـمُثْلةَ به أحلَّت له ما حرَّم الله عليه؟ فاسترجع معاوية، وعلم أنَّ الحقَّ ما قالته، فلم يُدخِلْ بعد ذلك علىٰ حَرَمِهِ خادماً، وإن كان كبيراً فانياً[١].

وقد روىٰ هشام بن عروة عن زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ دخل عليها وعندها مُخَنَّث ـ وهو المطبوع علىٰ خلق النساء ـ فأقبل علىٰ أخي أم سلمة فقال: يا عبد الله، إنْ فَتَحَ الله لكم غداً الطائف، دَلَلتُكَ علىٰ بنت غَيْلان، فإنها تُقبِلُ بأربع وتُدبِرُ بثمان. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يَدْخُلَنَّ عليكم هذا»[٢].

وكان ﷺ قد أباح دخوله عليهن ظناً أنه من غير أُولي الإرْبة، فلما رآه يعرف أحوال النساء وأوصافهنَّ، أمر بمنعه من الدخول. أما قوله: «تُقبِلُ بأربع وتُدبِرُ بثمان»، فيريد به: أنَّ لـها عُكَناً أربعاً في بطنها، وهي الثنيات والطيَّات في البطن تنتهي رؤوسهن في الظهر بأربع من كل جانب، فتكون ثماني إذا أدبرت، وتعدُّ هذه العكن والثنيات في البطن من الجمـال الباطن فيها. وفي «القاموس»: خنث الرجل: إذا كان علىٰ صورة الرجال وأحوال النساء[٣].

ثم تابع البيان بقوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم بلوغهم حدَّ الشهوة. والطفل: جنسٌ وُضِعَ موضع الجمع.

ثم عطف علىٰ النهي عن إبداء الزينة لغير مَنْ ذكر قَولَه: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ

---

(١) لم أجده.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠).

(٣) ينظر: «القاموس المحيط» (خنث).

﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، وذلك بأن تشدَّ في نَقْل خطاها، فيظهر صوت الحُلي مثلاً. وتدلُّ الآية بمفهومها علىٰ النهي عن كلِّ دواعي إلفات النظر إلىٰ المستور الخفيِّ؛ من الزينة والبهرجة، وما ينمُّ عن المحاسن، وما يهيج النظر إليهنَّ. فيشمل حتىٰ التَّصنُّع في الخطوات والتعطُّر لمن تريد المشي في الطرقات.

ثم ختم السياق بهذا الأمر العام الحامل علىٰ التمسُّك بالأوامر الإلهيّة، والإقلاع عما كانوا عليه قبلها في الجاهلية، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: بسعادة الدنيا والأخرىٰ. وفي الآية تغليب الذكور علىٰ الإناث، والمراد: المؤمنون والمؤمنات، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة السادسة من المقدمة الثانية).

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وبعد أن زَجَر سبحانه عن السِّفاح ودواعيه، أمر بالنكاح ورغَّب فيه، فقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أيُّها الأحرار. والأيامىٰ: جمع أيِّم، وهي المرأة التي لا زَوْج لها، سواء كانت بكراً أو ثيِّباً. وإنكاح النساء التي لا أزواج لها يستلزم إنكاح الرجال التي لا زوجات لهم، فيدلّ عليه الكلام بالدلالة الالتزاميَّة. وإنما خَصَّهُنَّ بالذِّكْر لأنهُنَّ مَظْهَرُ الشرِّ والفتنة من بين النوعين، ولأنهنَّ ضعفاء يَحتَجْنَ إلىٰ مَنْ يقوم عليهن.

وقيل: بل «الأيم» يُطلق لغةً على الذكر والأنثى ممَّن لا زوج له، بكراً كان أو ثيِّباً. فيدلُّ الكلامُ على الصنفين معاً بدلالة المنطوق، ويشمل غير المتزوِّجين على الإطلاق.

وعلى كلٍّ، فمعنى الآية: زوِّجوا ـ أيها المؤمنون ـ مَنْ لا زوجَ له من أحرار رجالكم ونسائكم، ﴿وَ﴾ زوِّجوا ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للنكاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

ثم نهاهم عن أن يكون الفقر سبباً للصدِّ عن الإنكاح، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: إذا سَعَوْا في تحصيل الرزق بتعاطي الأسباب، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا نَفَاد لخزانته، ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ يضع الأحكام في مواضعها بحسب علمه وحكمته. ومن ذلك حُكمُه بتزويج مَنْ لا زوج له من الرجال والنساء، لأنَّ في ذلك حفظاً للأخلاق وجرياً على الطبيعة.

وقد عُلِمَ مما يأتي ـ على طريقة الاكتفاء والإيجاز في القرآن ـ أنَّ المراد بالفقراء هنا: مَنْ يملكون نفقات النكاح من المهور وغيرها، ولكنهم لفقرهم يتخوَّفون من إعاشة المرأة والأولاد.

أما مَنْ لا يملك نفقات النكاح، فقد أمره سبحانه وتعالى بالصبر وضَبْط النفس حتى يملك تلك النفقات، وقد وَعَده سبحانه بها إن صبر، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسباب النكاح، وهي: المهر والسُّكنى والنفقة، بحسب العُرف والعادة، فعلى هؤلاء أن يحفظوا أنفسَهم من الوقوع في الفاحشة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

ثم أمر سبحانه بما يُسهِّل سبيل النكاح الحر المُطْلق في العبيد والإماء تتميماً للموضوع، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: قدرةً على الاكتساب. والمكاتبة: أن يُكاتِبَ السيِّدُ عبدَه هذا على مبلغٍ يتَّفقان أن يُسدِّده العبد أقساطاً إلى أجل مُعيَّن، فإذا سدَّده كان حراً.

وعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: واجبٌ عَلَيَّ إن عَلِمتُ لعبدي مالاً أن أُكاتِبَه؟ قال: ما أراه إلا واجباً[١].

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ خطابٌ للأمة؛ يأمرهم به أن يُعطوا هذا المكاتَب من زَكَوات أموالهم، مُعَاونةً له علىٰ ما يكسبه بنفسه ليفكَّ رقبته.

وهذا واحد من أحكام ومُوجبات عديدة جاءت في الدين الإسلامي لفكِّ الرقاب والمساعدة عليه، فضلاً عما فيه من أنواع الترغيب والوعود بالأجر الجزيل للمعتقين لهذه الرقاب؛ إذ في روح الشريعة الإسلامية وقواعدها غايةُ السَّعة ونهايةُ اليُسر فيما يُرغِّب في العتق وما يُوجبه، وما يُسهِّل علىٰ المملوك فكَّ رقبته وتحرُّره، بخلاف ما كان عند الـمِلَل الأخرىٰ من أحكام الرقيق ومعاملته القاسية السيئة الشنيعة، وليس عندهم عتق ولا مُكاتبة ولا معاملة إنسانية. فلْيَخْجَل أعداءُ هذا الدين الذين ينكرون عليه إبقاءَ الاسترقاق الذي قابل به قوانين المحاربين إذ ذاك في أخذهم الأسرىٰ من المسلمين، حفظاً للتوازن في هذا الأمر الخطير، ولولا ذلك لما اتخذ الإسلام الأرقاء. وقد رغّب الإسلام كثيراً في عتق الرقاب بسبب وبغير سبب، كما هو معلوم في علم الفقه والدين، ثم رغَّب وسهَّل بكل الوسائل تحرير هذا الأسير.

وبعد أن بيَّن ما يلزم من تزويج العبيد والإماء، أتبَعَ بمَنْعِ ما كان يتعاطاه بعض السفلة في الجاهلية من إكراه الإماء علىٰ الفجور والتجارة بأعراضهنَّ، فقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أقول: وهذا القيد لزيادة التشنيع في بيان الواقع، فلا مفهومَ مخالفة له، ولكنه أُخرِجَ مَخرَجَ الشرط مبالغةً في التفظيع، واستفزازاً للشعور، وإثارةً للنخوة. وكذلك قوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فالكلام مَنَعَ من ذلك

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقاً مجزوماً به، في باب المكاتب. ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٥٧٦).

مطلقاً، وإنما خصَّ هذه الصورة عند التحدُّث علىٰ المنع المطلق، لأن البشاعة فيها أفظع، ومثل ذلك من البلاغة العالية.

وفي الخطاب نسبةُ ما للبعض إلىٰ الجميع، هزّاً لهم، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. ومثله في القرآن كثير، يُلمع به إلىٰ تكافل الأمة وتسانُدها، وأنه يجب أن يَرْدَعَ عقلاؤُها ذوي الرذالة والسفاهة منها، فإن لم يفعلوا كانوا مشتركين بالإثم، فهو يُسنِدُ إليهم الفِعلَ وإن كان القائمون به بعضَ سَفَلتهم وأرذالهم، لأن في إسناد الفعل للعموم زيادةَ استفزاز للشعور العام ضدَّ هذه الرذيلة من هذه الفئة السافلة.

وكلُّ أمة لا يَردَعُها دينٌ ولا يزجرُها خُلقٌ تتخذ للفحش بغايا، وكان مِثلُ هذا عند سفلة العرب في جاهليتها، إلا أنهم ترفَّعوا أن يتَّخذوا لهذا الغرض السافل الحرائر من العربيات، فاتَّخذوا له الإماء، ولذلك إذا وصفوا المرأة بالحصانة يقولون: إنها حرّة، فجاءت هذه الآية مُشنِّعةً علىٰ هذه العادة، ومُطهِّرةً منها بهذا الحكم العامِّ المستمرِّ المدىٰ، وحافظةً للأمة الإسلامية من الزنىٰ ومهيئاته، لأنه كان فاحشةً ومَقْتاً وساءَ سبيلاً.

وقال بعض المفسِّرين: بل الآية تعقيبٌ وإردافٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بالشيء بالنهي عن ضده، فهي نهيٌ للأسياد عن معارضتهم في تزوُّج إمائهم خشيةَ أن يفقدوا منافعهنَّ وكثيراً من خدماتهن، لانشغالهنَّ بعد التزوُّج بأمر الأزواج، ومثل هذا المنع من الزواج للإماء يؤدِّي بهنَّ إلىٰ ارتكاب الفحش بسائق الطبع، فيكون الإكراه نتيجةً للمنع من الزواج، لا فعلاً مباشراً.

ويُلمع إلىٰ هذا المعنىٰ ما روي من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما التحصُّنَ بالتعفُّفِ والتزوُّج.

وعلىٰ هذا المعنىٰ، يجوز أن يكون الإلماع بالمغفرة والرحمة إلىٰ ما حطَّ سبحانه عنها في تنصيف الحدِّ، بقوله تعالىٰ: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقد قال بعض الفقهاء: لا حدَّ علىٰ الأمة غير المتزوجة، بل عليها التعزير.

ويحتمل علىٰ المعنىٰ الثاني أيضاً ـ احتمالاً مرجوحاً ـ أن يكون قولُه: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ مقابلاً لقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، أي: وإن لم يُرِدْنَ التحصُّن ـ أي: الزواج ـ ولم يَرْغَبْنَ به فلا بأس من إكراههنَّ عليه حذراً من وقوعهنَّ في شَرَك البِغاء. فتكون الآية حثاً للأسياد علىٰ تزويج الإماء، إنْ أرَدْنَ أو لم يُرِدْنَ، منعاً لتطرُّق الفساد إليهن، وإنَّ الله سبحانه يغفر لمن يُكرِهُهُنَّ علىٰ الزواج هذا الإكراه، لما فيه من المصلحة والإحسان. والله أعلم.

وأما علىٰ المعنىٰ الأول، فقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾: إن جواب الشرط محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثله، والمذكور تعليل له، والتقدير: ومَنْ يُكرِهْهُنَّ فعليه وبالُ إكراههن، لا يتعدىٰ إليها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ لهنَّ. والله أعلم.

وجاء في «البخاري» عند تفسير هذه الآية: قال الطبري: أي: لمن تاب بعد الإكراه[1]. وقال الحسن: غفورٌ لهنَّ لا لمُكْرِهِهِنَّ[2].

أقول: ويجوز ـ علىٰ الاحتمال المرجوح ـ أن يكون المراد برحمتهنّ: تنصيفُ الحد

---

(١) هكذا في الأصل المطبوع، ومن المعلوم أن البخاري لا ينقل عن الطبري؛ إذ توفي البخاري سنة ٢٥٦، وتوفي الطبري بعده سنة ٣١٠. ولم أقف عليه أيضاً في «تفسير الطبري».

(٢) لم أجده، وروى أبي داود (٢٣١٢) عن سليمان التيمي ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال: قال سعيد بن أبي الحسن: غفور لهنَّ المُكرَهاتِ.

عليهن، أو أن تكون هذه الآية قد جاءت علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام التي يقمع بها رذيلة من الرذائل، بما يُؤْذِنُ بالعفو عمَّا سَلَف من ذلك، ممَّن آمن وامتثل أمر الله وتابَ وأصلح، فإنَّ الله توَّاب رحيم. والله أعلم.

ثم ختم هذا السياق المندمج فيه هذه الأحكام بالتنويه بشأنها، حَمْلاً علىٰ التمسُّك بها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ممَّن آمنوا بوحي الله ومن لم يؤمنوا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، يُنوِّه بشأن هذا القرآن العظيم وما احتوىٰ عليه من أنواع الهدىٰ والبصائر، وقصص الأوائل.

وذكر بعض المفسرين في قوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أن المعنىٰ: أن حادثة إفك عائشة رضي الله عنها، هي من أمثال حادثة الافتراء في إفك مريم ويوسف عليهما السلام في العصور الغابرة.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم قرَّر الحمل علىٰ التمسُّك بما سبق من الأحكام، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ الذي شرعها وأتقنها هو مُتقِنُ هذا الكون العظيم، فهي علىٰ أحسن تشريع، وأكمل نظام، ألمع إلىٰ ذلك ضمن التوجيه والتحسيس إلىٰ ما في هذا الكون من ظهور جلال الله تعالىٰ

وعَظَمته في بديع صُنعه، فشبَّه الكون بمصباح مُسْتَوْفٍ لأوفر صفات المصباح الكامل، وشبَّه ظهور الله به سبحانه وتعالىٰ بالمشكاة التي يُضيئها ذلك المصباح في شدَّة الوضوح والجلاء وجوداً وتوحيداً، وعظمةً وإجلالاً، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] أي: إن هذه السماوات وما فيها من عجائب، وهذه الأرض وما فيها من بدائع، مظهرٌ لنور وجوده وعظمة جلاله. فقد نقل أبو بكر بن العربي للسلف عدَّة معان في نور الله هذا منها: أنه سبحانه جليٌّ ظاهر بآثاره في السماوات والأرض، ومنها: أن الله سبحانه مُنوِّر السماوات والأرض، أي: جعل فيها من نور البدائع ما يدلُّ علىٰ عظمة الصانع واختصاصه بالألوهية.

وقال أبو مسلم: نـوّر الله سبحانه الأدلة الكونية الظاهرة في بداعة السماوات والأرض وما فيها من الكائنات الدالة علىٰ وجوده ووحدانيته وعظمته وعجيب صنعه سبحانه، تلك الأدلة التي هي في الظهور والوضوح مثل النور. انتهىٰ.

أقول: فكما أنَّ الشمس يتجلَّىٰ خفاؤها ووجودها ليلاً بنور القمر المُنْبعث منها إليه، حيث يدلُّ عليها دلالة قاطعة، فكذلك وجودُه سبحانه وتعالىٰ وعظمتُه ووحدانيتُه تُدرَك جلياً بآثاره في السماوات والأرض، فهي التي تلقي عليه الضياء، فلا يَخْفىٰ ذلك علىٰ العقول السليمة، لأن الناظر في هذا الكون وعجائبه يعرف بداهةً أنها محكومة بقوانيـن مضبوطة. وقد شَـرَحَتِ الكثيرَ منها علومُ الطبيعة والفلك، تلك القوانين والأنظمة التي تدلُّ دلالةً واضحة علىٰ الصانع الحكيم، والمدبِّر العليم، وهو الله العلي العظيم.

---

(١) الذي أراه في وجه الربط: أن من نهج القرآن أن يردف الأحكام بدلائل قدرة الله، وهنا عقَّبها بدليل القدرة ضمن دليل الوجود الظاهر الباهر، فالآية لإثبات العقيدة بذاتها والتمسك بالأحكام، نظراً لما قبلها، علىٰ نهج القرآن في ذلك. (المؤلف).

ويقول فلاسفة العصر من الأجانب: اسم الله مكتوب في صفحات كتاب الطبيعة كلِّها. يعنون: أنها تدل عليه دلالة واضحة.

وقد ضرب اللهُ الـمَثَلَ لـهذا الجلاء والظهور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مَثَـلُ نور وجوده ووضوحه تعالىٰ في هذا الكون، وظهور صفاته في بدائعه، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وقد اختلفوا في المشكاة، والأظهر: أن المشكاة كوَّة غير نافذة، أي: شبيهة بالمَخْدع الصغير، أو الحُجرة الصغيرة، وفيها هذا المصباح العظيم الـمُسْتوفي لسائر صفات الجُودة والكمـال. فأراد سبحانه أن يصفَ ويُشبِّـهَ دلالةَ هذا الكون وبدائعه عليه تعالىٰ وعلىٰ صفاته في الوضوح والجلاء، بإنارة حُجْرة صغيرة بأعظم مصباح مُسْتوفٍ لصفات الكمال في أسباب الإضاءة وقوة الإنارة والإيضاح والإظهار، وهو هذا المصباح الموصوف بقوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ ودراريُّ الكواكب: عِظامُها اللامعة. ويُطلِقُ عليها علماء الفلك: القدر الأول، فيقولون مثلاً: الشعرىٰ اليمانية من القدر الأول، والشامية من القدر الثاني، وهلمَّ جراً.

ثم استقصىٰ صفات الكمال في إضاءة هذا المصباح، فقال: ﴿يُوقَدُ﴾ أي: يُسْرَجُ هذا المصباح ﴿مِن﴾ زيتِ ﴿شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: مَنْبتُها بين الشرق والغرب، أي: لا هي في الشمس دائماً، ولا في الظل دائمـاً، ولكنها في مَوْضع بين ذلك يُعطيها أكمل حياة للنباتات، فلا يصيبها حَرٌّ ولا بردٌ مُضِرَّان بها، فتكون في الجودة علىٰ أكملها، لذلك تُنـتجُ أعلىٰ أنواع الزيت وأجودها، بحيث ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، ومصباح الزيت لم ينقطع إلا قبل مئة سنة تقريباً، أي: يكاد يضيء هذا الزيتُ بنفسه في كلِّ حال، حتىٰ إذا لم تَـمْسَسْهُ نار، بمعنىٰ: أنه في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار أصلاً، فكيف إذا أُسرِجَ ومسَّه نار؟ يبالغ في صفائه وتلألؤه من قبل وقوده.

فوَصَفَ الزيتَ بهذه الصفات الممتازة من شجرته إلىٰ نتيجته، بعد أن وَصَفَ المصباح بما وصفه كذلك؛ ليتخيَّل الذهن ما ينبعث عنه من قوة الأنوار الثاقبة إذا أُسرج، وينتقل من ذلك إلىٰ الحقيقة الراهنة المقصودة بالذات من هذا المثل، وهي أن تلك الدلائل الواضحة الجليَّة الدالة علىٰ وجود الخالق ووحدانيته، كما تدل علىٰ اختصاص الألوهية بالله تعالىٰ تدلُّ علىٰ صفاته العلية. فالكلامُ علىٰ أبلغ صورة في وضوح الاستدلال بهذا الكون العظيم عليه تعالىٰ، وعلىٰ عَظَمَته وجلاله واستحقاقه وحده لأن يُعبد، ولإثارة الشعور بسُلطانه القاهر؛ للحَذَر من مخالفة أوامره ونواهيه ووعظه وإرشاده.

ثم صرَّح فيما حصل من التمثيل من جلاء أمر الله سبحانه، علىٰ طريقة الفَذْلكة والإجمال، فقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: شأنُه نورٌ علىٰ نور، أي: جلاء علىٰ جلاء، ووضوح علىٰ وضوح.

ثم بيَّن تعالىٰ أن هذا النور ـ مع وضوحه الناصع ـ لم يهتدِ إليه إلا مَنْ لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة، فقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي حافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه.

ثم ختم الكلام بما فيه تنويهٌ بشأنه، فقال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يُظهِرُ لهم بها الحق، ويُنير الطريق، ويُنبِّه الأفكار، ويُجلِّي الحقائق؛ لعلَّهم يتذكَّرون، لأن الأمثال أبلغ في البيان من صريح الكلام، بإبرازها للمعقول بصورة المحسوس، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ ومن ذلك أن جعل هدايته العامة للناس علىٰ وجوده ووحدانيته وتنزيهه في فنون مختلفة وطرائق شتّىٰ من البيان.

ويُؤْذن هذا المَثَلُ بأنَّ معرفة وجود الله سبحانه أمرٌ بديهي، وليس من مسائل العلوم المعقَّدة والحقائق العويصة، ولولا البيئات الفاسدة التي تَمْسَخ الفطرة ما

كان في الناس مُنكِر ولا مُلحِد ولا مشرك، وإنما جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس في الألوهية، وتذكيرهم بها، وصدِّهم عن الإشراك به تعالىٰ، وأن يقولوا علىٰ الله ما لا يعلمون، وذلك بتنبيههم إلىٰ مثل هذه الدلائل الواضحة الجليَّة.

فآية النور هذه جاءت لتوضيح قوَّة دلالة الكون وجلائها في إثبات وجود الله سبحانه وتوحيده وصفاته العلية؛ لذلك كان الإيمان بالله سبحانه إيماناً سائغاً لكلِّ نفس لم تُفسِدْ فطرتَها بمفاسد التربية والتقليد الأعمىٰ، عكس إيمان الكَفَرة والمشركين الذي سيأتي بيانه في المقابلة الآتية، من أنها ظلماتٌ بعضها فوق بعض.

وبعد أن لمح بقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ إلىٰ أنه سبحانه مع هذا الوضوح والجلاء لم يهتدِ له علىٰ الوجه الصحيح الكثيرُ ممَّن أفسدوا طبائعهم، وطمسوا نور بصائرهم، نوَّه سبحانه بأهل هدايته الذين اهتَدَوْا لنوره هذا، وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فطرهم، فعرفوا الله حقَّ معرفته، واهتموا بعبادته علىٰ الوجه الصحيح، فقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالعبادة فيها والتعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ سبحانه، وهي المساجدُ التي ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَ﴾ عن ﴿إِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ لأنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ حيث تَـفقَهُ يومئذ ما لم تكن تَـفقَه، ﴿وَ﴾ تتقلب فيه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ إذ ترىٰ يومئذ ما لم تكن تحلم به ولا خطر لها ببال. وهذا تمثيل لانكشاف الأمر، ولعِظَم الهول، وشدَّة الهلع من الكافرين في ذلك اليوم العصيب، أعاذنا الله.

وبعد أن ذكر الباعث الترهيبي علىٰ هذه الطاعة، ذكر الباعث الترغيبي بصورة وَعْدٍ منه تعالىٰ، فقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ليجزيَ أولئك المهتدين لنوره ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: بأحسن أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ بسعادةٍ لم تخطر ببالهم، مُؤيِّداً ذلك

بشأنه في سَعَة العطاء، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ لأنَّ الأمر كلَّه بيده، وليس فوقه أحدٌ يحاسبه، فذكر الرزق وتفاوته تنظيراً لحال الآخرة، أو المعنىٰ: أنه يرزق ويُعطي مَنْ يشاء بغير تضييق ولا تَقْتير. وعلىٰ كلٍّ، فهو تذييل مقرِّر للزيادة والكرامة التي يعطيها سبحانه للمهتدين في الآخرة فوق استحقاقهم بما لا يقدر، فقد وضحها بقضيَّة بَسْطِ الرزق وقاسها عليها.

ويجوز أن يكون الكلام من ذكر العام وإرادة الخاص، فإن الرزق يشملها، أو مِنْ ذِكْرِ الخاصّ وإرادة العام، وهو العطاء، أو مِنْ تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن. ويحتمل أن يُلمَعَ بالزيادة لوعدٍ كريم بالخير والحُسْنىٰ، يعطيهم إيَّاه في الدنيا، فوقَ جزاء الأخرىٰ.

ومن مباحث اللفظ في الآية: أن قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلِّق بفعل محذوف يدلُّ عليه قوله: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، فإنَّ الهداية تُفْضي إلىٰ العبادة، أي: يعبد هؤلاء المهتدون في بيوت... إلخ.

ويجوز أن يكون متعلقاً بـ﴿يُسَبِّحُ﴾، وإنما قُدِّم للاهتمام به، وليبالغ في تأكيدها بضمير ﴿فِيهَا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه حالَ المؤمن، وما لديه من جلاء العقيدة، وما لأعماله من ثمرات عظيمة، بيَّن حالَ الكافر وما له من خَيْبة وعكس في آماله، وما عنده من حَيْرة

وارتباك في عقيدته وأقواله وأفعاله، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، زيادةً في التحسيس والتنبيه للفريقين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ جزاءً وفاقاً، وقد قابل بهذا ما ذكره للمؤمنين بقوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾. وقد عبَّر بهذه العبارة عن الانخداع وانعكاس خيبة الأمل في الجزاء، مبالغةً فيه وتهويلاً له، وهو نوعٌ من بديع الكلام وبليغه. ثم قرَّره بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ يوفِّي كلَّ عامل نتيجةَ عمله متَّصلة به. وهذا من سُنَّته تعالىٰ في خلقه، فكلُّ حَسَنة تنكت في القلب نكتةً بيضاء حالاً، وكلُّ سيئة تنكت نتكةً سوداء، والأُولىٰ تُصلح الروح، والثانية تُفسِدها، وعلىٰ هذا يكون الجزاءُ في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء مُتَّصلاً بالموت، وكذلك تكون سرعة الحساب يوم القيامة بإدراك كلِّ واحد عمله من خير أو شر في لحظة واحدة، وما يستحقُّ من نعيم أو عقاب[1]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: ٤٩]. وبما أن الروح تتكيَّف كيفيةً خاصَّة بالأعمال من خير أو شر، فيجوز أن تكون تلك الكيفيَّة تُغني عن النقاش في الحساب[2]. ويجوز أن يكون هذا أيضاً هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤][3]. والله أعلم.

---

(١) ليس الحساب هو الإدراك، بل هو الإدراك مع المناقشة والمعاتبة والسؤال والجواب، ففيه طرفان ولا بُدَّ؛ مُحاسِبٌ ومُحاسَب.

(٢) وهذا ليس بصحيح، لما فيه من خروج عن لغة العرب، لأن العرب لا تفهم من «الحساب» هذا المعنى بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز.

(٣) وهذا أيضاً ليس بصحيح، لأنه تأويل شديد التكلُّف، وفيه مخالفة لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١].

والقيعة: جمع قاع، كجيرة وجار، وهي الفلاة. أما السراب فهو شيء يتكوَّن من طبقات البخار المتصاعد بتأثير حرارة الشمس، منعكساً عليها مناظر ما حولها من وهاد أو تلال أو وديان أو غابات أو مروج أو أعشاب أو رياض، إلىٰ ما هنالك من مثل هذه الأشياء، فيخيل للنظر أنها أنهار أو بحيرات مشطوءة بالحدائق، مجزورة بالغابات.

وهذا الـمَثَلُ فيه تشبيهُ ما لا يقع عليه الحسُّ بما يقع عليه الحس، لإخراج المعقول بصورة المحسوس وإبرازه للعقول، فهو من أوضح وأبلغ الأمثال لأعمال الكفار المخدوعين بأعمالهم، حيث يظنون أنهم يُحسِنون صنعاً يتقرَّبون به إلىٰ الله، فإذا كان يوم الحساب ـ وبالأحرىٰ فإذا ماتوا ـ أدركوا أنهم مخدوعون، وأن أعمالهم هذه ستجرُّ عليهم الوبال العظيم والعذاب الأليم عكس المأمول، وأن الله سبحانه سيُوفِّيهم حسابهم عليها، وسيُدخلهم نار جهنم خالدين فيها. فكان حالهم في انعكاس خيالهم وخيبة آمالهم، كحال من يرىٰ السراب فيظنه ماء وهو شديد العطش، فيقصده فلم يجد شيئاً. فالكافر يشارك حال هذا في الفشل بعد الأمل، ولكنه لا يقف عند هذا الحد، بل يجاوزه إلىٰ أبعد، حيث يجد هناك من ردِّ الفعل وعكس الأمل في أعماله وعقائده هذه وأنواع العذاب عليها أمراً عظيماً، وهَوْلاً جسيماً. ومثل هذه الآية: الآية ١٨ من سورة إبراهيم ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ... ﴾.

وبعد أن ضرب الله هذا المثل لأعمالهم من هذه الناحية، وهي انتهاؤها إلىٰ هذه النهاية الخائبة المخيبة، ضرب لهم مثلاً آخر من ناحية عقيدتهم وظلامها المضاعف، وسقامها الشديد في النفوس، إذ لم يكن فيها قليلٌ من التبصُّر والتَّعقُّل، وقابل بذلك ما تضمَّنه الـمَثَلُ السابق في عقيدة المؤمن بذات الله وتوحيده وتنزيهه من الجلاء

والاستقرار، وأنه ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...﴾؛ قابله فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي: عميق ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ ويجوز أن يكون الموج الثاني من الضباب المتكاثف الذي يكون عادةً في البحار الشمالية، أو المراد: تراكب الأمواج بعضها فوق بعض. والله أعلم.

ثم أجمل الوصف بقوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وقابل به قولَه عن عقيدة المؤمن: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، ثم أكمل الوصف مُجرياً للكلام على الواقع في البحر بعد إجرائه على البحر نفسه، على نهج القرآن في مثل ذلك الانتقال، فقال: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فهذا تمثيل لشدَّة تلك الظلمة والحيرة. والضمائر للواقع في البحر ـ وإن لم يَجْرِ ذِكرُه ـ لدلالة المعنىٰ عليه وفهمه من السياق، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم ذيَّل هذا السياق بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ باتِّباع تعاليمه وشريعته ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾، أي: مَنْ لم يتمسَّك بما جاءه عن الله لهدايته لم يبصر الطريق، ولذلك لم يتوصَّل إلا إلىٰ فَشَل وعذاب أليم. وذلك مَثَلُ هؤلاء الكفار الذين اتَّبعوا خططاً خيَّلتها لهم عقولُهم أو عقولُ رؤسائهم فظنُّوها رشاداً، فكان ذلك عليهم وبالاً. فقرَّر بهذا التذييل ما أفاده التمثيل من كَوْن أعمال الكَفَرة كما فصَّل وأبان.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ

مِن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه بعض الآيات التي جعلها الله نوراً للعقلاء العارفين بالله وصفاته، مُعَرِّضاً بغَفْلة هؤلاء المشركين عنها ومخالفتهم لسائر الكائنات في ذلك، ومُلْمِعاً إلىٰ نوره الذي استنارت به الكائنات، فقامت بما أُنيط بها من واجبات، فقد ذكرها تنويراً لآية النور وتتميماً لها وتكميلاً، وغلَّب العقلاء علىٰ غيرهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: والحيواناتُ الطائرةُ من بين أنواع الحيوانات الزاحفة والماشية، وتسبيحُها هو ما يُرىٰ عليها من الإبداع والإتقان في صفة الطيران، وفي أسبابه ومُهيَّآته من خِلقتها وطبيعتها وهدايتها له، لأن ذلك يدلُّ علىٰ قُدرة المُبْدع وحِكمتِهِ واختِصاصِهِ بصفة الألوهية، وهو معنىٰ التسبيح والتنزيه[1].

---

(١) أخبر سبحانه في هذه الآية عن تسبيح مَنْ في السماوات من الملائكة عليهم السلام والأرواح، وعن تسبيح مَنْ في الأرض من الملائكة والأناسيّ والجان، وجميع أنواع الحيوان والنباتات والجمادات. ثم أخبر سبحانه عن تسبيح الطير، فقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، فهو معطوف علىٰ ﴿مَن﴾، والمعنىٰ: أن الطير تُسبِّح ربَّها في حال طيرانها، وهي صافَّاتٌ أجنحتَها. وإنما خصَّها بالذكر مع أنها داخلة في عموم مَنْ في الأرض، لأنها غير مستمرة في القرار علىٰ وجه الأرض، كما هو في سائر الحيوانات، ليدفع وَهْمَ مَنْ يتوهم أن التسبيح قاصرٌ علىٰ المستقرين علىٰ وجه الأرض من المخلوقات، ولينبِّه إلىٰ التفكر في قدرة الله تعالىٰ الذي يمسكها في جوِّ السماء.

وتسبيح مَنْ في السماوات والأرض لله: هو تسبيح حقيقي، لا ما يُرى عليها من الإبداع والإتقان ـ كما قال المؤلف ـ، وهذا التسبيح الحقيقي يكون على وجه ملائم لكل مخلوق، وكون الإنسان لا يُدركه لا ينفيه.

وخصَّ الطير بالذكر بعد التعميم لأنَّها أظهرُ للعيان في هذا البيان، إذ هي أجرام كثيفة تَطْفُو علىٰ الهواء بما أودع الله فيه من قوة حَمْل الأجسام، إذا كانت علىٰ وَضْعية خاصَّة تلائم ما طبع الله الطير عليه، كما طبع الله كذلك.

وهذا المعنىٰ للتسبيح يَصْدق علىٰ سائر مخلوقات الله: العقلاء وغيرهم، والكافرين والمؤمنين. فالكافر الذي يُشرِكُ بالله، يُنزِّهه عن ذلك بطريقة الدلالة ما فيه من تمام الخِلْقَة وكمال الطبيعة وبديع النظام؛ لأنها تدلُّ بوضوح علىٰ أنَّ الذي أوجَدَها بهذا الكمال هو الذي يستحقُّ الألوهية دون سواه. وكذلك خضوعُه لسنن الطبيعة: فيه استسلام لله سبحانه وانقياد لسُنَنه، كقيامه بما ألزمه الله به من أكل وشرب وتنفُّس وأمثال ذلك مما ينقاد به إلىٰ الله قَسْراً بمقتضىٰ الطبيعة، فإنه لا يقدر أن يستغني عنها ولا ينفك منها.

وتصدق كلمة «التسبيح» علىٰ معناها الحقيقي في حقِّ الملائكة ومُؤْمني العقلاء من المخلوقين، جمعاً بين المعنيين الحقيقيِّ والمجازيِّ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، لهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ اللهُ سبحانه وتعالىٰ ﴿صَلَاتَهُۥ﴾ وهذا في حقِّ المؤمنين من العقلاء، ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[1] وهذا في حقِّ غير العقلاء. فقد قالوا: الصلاة بمعناها العام للإنسان، والتَّسبيح لغيره من المخلوقات.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ جملة استئنافية، جاءت جواباً عن سؤال مقدَّر، وهو أن الله تعالىٰ لما أخبر عن تسبيح الأشياء كلِّها فكأن سائلاً سأل: هل لتلك الأصناف التي تسبِّح ربها حتىٰ الطيور والحيوانات والنباتات والجمادات، هل لها معرفة حقيقية بربها؟ وهل لها علمٌ بصيغة تسبيحه سبحانه؟ فجاء الجواب: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: كلٌّ قد علم حقيقة تسبيحه لله تعالىٰ، وكيفيَّة صلاته كما علَّمه الله ذلك، وألهمه إياه، وكلٌّ يصلي ويسبح علىٰ وجه متناسب معه، وعلىٰ حسب ما علَّمه الله تعالىٰ، وعلىٰ كيفية تليق بذلك الشيء.

أقول: ولا يَبعُدُ أن يُلهِمَها الله ذِكرَه، كما ألهمها دقائق من خصائص الإدراكات والهدايات، لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. ويجوز أن يراد بالتسبيح: نفس هذه المواهب الطبيعية[1]. والله أعلم.

وأفادت الآية أنَّ هؤلاء الكفَرة أحطُّ من الحيوانات والجمادات، لإخلالهم بهذا التنزيه في حقِّه تعالىٰ، بإفسادهم لعقولهم ومواهبهم، وأفاد قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ...﴾ أن الله سبحانه لا يغفل عن شيء ولا يُهمِل شيئاً. وعِلمُه سبحانه بالشيء يدلُّ علىٰ ثبوت ذلك الشيء، فالكلام بيانٌ لآثار نور الله سبحانه في مخلوقاته، في أرضه وسماواته، حيث أعطىٰ كلَّ شيء خَلْقَه ثم هدىٰ.

وقد جعل أبو السعود فاعل ﴿عَلِمَ﴾ ضميراً يعود إلىٰ ﴿كُلٌّ﴾، أي: إنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح. قال: والجملة بيانٌ لكمال عراقة كلِّ واحد مما ذكر في التنزيه ورسوخه فيه، وذلك بتمثيل حاله بحال مَنْ يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل، فيفعلها عن قَصْد ونيَّة[2].

---

(١) هذا التجويز بعيد؛ إذ لو كان تسبيحُ المخلوقات لله تعالى هو نفسَ مواهبها الطبيعية، لكان المُسبِّحُ حقيقةً هو مَن يرى هذه المواهب ويستفيدُ منها، لا مَنْ هو صاحبُها المتصفُ بها من هذه المخلوقات، وإذا كان الأمرُ كذلك فكيف يُقال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، وهل هذه المخلوقات تعلمُ ما هي عليه من مواهب طبيعية؟!

والصحيح ما تقدَّم بيانُه في التعليقات السابقة من أنّ تسبيحَ هذه المخلوقات لله هو تسبيحٌ حقيقيّ، وكلُّ مخلوق له إدراكٌ يناسبُه يعلمُ به ما يجبُ عليه من صلاة وتسبيح لله، فيُؤدِّيها، ولا يفقه الإنسانُ ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٠].

(٢) «تفسير أبي السعود» (٦: ١٨٣).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ يكون علىٰ الأول تقريراً وتعليلاً، وعلىٰ الثاني تذييلاً. ويجوز أن يكون الواو عائداً إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، والجملة وعيداً لهم علىٰ مخالفتهم في الاستجابة لله، كسائر المخلوقات.

ثم ختم السياق بما يدلُّ علىٰ قدرة الله وسلطانه القاهر؛ لإثارة الشعور بالحذر منه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾، وأعاد لفظ الجلالة دون ضميره لتربية العَظَمة والمهابة، وللمبالغة في الترهيب.

ثم تابع الكلام في الآيات التي جعلها الله نوراً للعقلاء العارفين بالله وصفاته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي: يسوقُه، وذلك عندما تبتدئ الأعاصير في البحار، ويبدو منها قِطَعٌ من البخار، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ حيث تَتَجمَّعُ تلك الأبخرة وتتَّحدُ بواسطة نَوْعي التكهرب الموجب والسالب في ذرَّاتها، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً متكاثفاً علىٰ بعضه، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: ترىٰ المطر يتناثر من أثنائه، وإنما ذكر «الخِلَال» لأن السحاب لا ينقلب كلُّه ماء، بل يبقىٰ منه بقية تَتَبخَّر وتذهب. وقد تحقَّق في العلم الطبيعي أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة، يرتفع في الجو ويبرد لوصوله إلىٰ منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيار الهواء البارد، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء وتكوّن السحاب، وسار مدفوعاً بقوّة الهواء، فيتراوح بُعدُه عن الأرض بين ميل وعشرة أميال، حتىٰ إنَّ سكان الجبال الشاهقة يُحاذونه أو يكون دونهم.

وقال الرازي: إذا تَصَاعدت الأبخرةُ من البحار، فإن كان في الهواء من الحرارة ما يُحلِّلُ ذلك البخار، فحينئذ ينحلُّ وينقلب هواءً، فإن لم يكن في الهواء مثل تلك الحرارة، فإن بلغت تلك الأبخرة المتصاعِدة إلىٰ الطبقة الباردة من الهواء، فإما أن يكون البرد قوياً

أو لا، فإن لم يكن قوياً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد، واجتمع وتقاطر مطراً، وإن كان البرد قوياً فلا يخلو: إما أن يصل البرد إلىٰ الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبَّاتٍ كباراً، أو بعد صَيْرورتها كذلك. فإن كان علىٰ الوجه الأول نزل ثلجاً، وإن كان علىٰ الوجه الثاني نزل بَـرَداً[1]. كمـا قال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ...﴾ فأراد بالسماء: الجو، بطريقة المجاز الـمُرسَل، وأراد بالجبال: القِطَعَ العظام من الغيوم التي هي كالجبال في الجو. وضمير ﴿فِيهَا﴾ يعود إلىٰ السماء. و﴿مِنَ﴾ الأولىٰ: ابتدائية، والثانية: بَدَلُ اشتمال منها، أو بَدَلُ بعض من كل. والثالثة: يجوز أن تكون بيانية، والمفعول محذوف. والتقدير: ويُنزِّلُ بَـرَداً من السماء من جبال فيها كائنة من برد، إلخ. ويجوز أن تكون تبعيضية، ومدخولُها قائمٌ مقام المفعول به، والتقدير: ويُنزل من السمـاء من جبال فيها بَـرَداً، إلخ. أو يكون مدخولها مبتدأ مؤخراً، و﴿مِنۢ﴾ زائدة، ومفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾ محذوف، وضمير ﴿فِيهَا﴾ يعود إلىٰ الجبال. والتقدير: ويُنزِّلُ بَرَداً من السماء من جبال فيها بَرَد.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ وإنمـا تجري مشيئـتُه سبحانه وتعالىٰ بحسب الحِكَم والمصالح والعدل في الأحكام، توفيقَ أقدارٍ لأقدارٍ بمقتضىٰ ما أجراه من سنة ونظام.

ثم ذكر آيةً أخرىٰ من عظيم قدرته متَّصلةً بهذه الآية، وهي ما يتولَّد من هذه الغيوم من بروق كهربائية تكون أشدَّ تأثيراً من البَرَد، فقال: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي: ضوءُ بَرْقِ السحاب المذكور ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم أردفها بآية أخرىٰ من نور الله وعِظَم قدرته، فقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٠٤).

أي: يُصرِّفهما في تعاقبهما وتناوبهما طولاً وقِصَراً، وذلك ناتجٌ عن حركة الأرض اليومية وحركتها السنوية ومَيْلها علىٰ محورها، بتقدير العزيز العليم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كلِّه ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم، فأدركوا عَظَمةَ هذا الخالق العظيم والمدبِّر الحكيم، وأنه هو المستحقُّ وحده أن يُعبَد ويُحمَد، ولا إله سواه، وأنَّ هذه المدبِّر الحكيم لا يأمر إلا بما فيه النفع والمصلحة، ولا ينهىٰ إلا عما فيه الضرر والمفسدة، فيجب اتِّباع أوامره واجتناب نواهيه.

ثم ذكر آيةً أخرىٰ من عظمته وجليل قدرته وآثار نوره الدالة عليه وعلىٰ انفراده بالألوهية، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾[1] أي: خَلَقَ سائر الحيوان علىٰ اختلاف أنواعه من النطفة، ونوَّعه أشكالاً متفاوتة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾، وكلُّ ذلك مبنيٌّ علىٰ الحِكَم والمصالح التي لا تُدركونها. وخصَّ المشي بالذكر ـ مع أنَّ الفوارق في أشكال الحيوانات وخلقتها كثيرة وعجيبة ـ لأنه لما كان لا بدَّ من الاكتفاء ببعضها في البيان فالمشي أشهر، وإن كان غيرُه أبدَعَ وأعجب.

وقد أشار سبحانه إلىٰ أن ذلك مُنْبعثٌ عن الحِكَم والمصالح بقوله: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، لأن مشيئته إنما تجري بما فيه الخير والصلاح. وفي هذه الجملة إشارةٌ أيضاً إلىٰ أنه سبحانه قد يخلق أشياء من غير هذا الأصل، وعلىٰ غير هذه الطريقة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم ختم السياق بالتَّنويه بشأن ما جاء فيه وما اشتمل عليه، فقال مكرّراً هذه

---

(١) إن الحيوان المنوي يحتوي علىٰ تسعين في المئة من الماء، وعشرة في المئة من الزلال النقي، وإعادة ضمير العاقل في ﴿مَّن﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾ تغليب له. (المؤلف).

الجملة التي هي جوهرة العِقد في هذا السياق: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل والبصائر، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾ بهذه الآيات ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ممن لم يُفسِدوا طبائعهم ويطمسوا نور فِطَرِهم وبصائرهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾، وذلك بمحافظتهم علىٰ ما أودع اللهُ في فِطَرِهم من الاستعداد للنظر والاستدلال، والتبصرة في الحقائق والأحوال، فيهتدون بهذه الآيات إلىٰ هذا الصِّراط الذي يَصِلُ سالكُه إلىٰ سعادة الدارين.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق ببيان أحوال بعض مَنْ لم يشأ الله هدايتهم، لإفسادهم لطبيعتهم بالكفر والضلال، وهم صنفان: صنف ظاهر، وصنف يتختَّل ويُظهِرُ الإيمان نفاقاً. وقد خصَّ الثاني بالبيان فقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ لأنهم آمنوا علىٰ غير هُدىٰ وبصيرة، فلم يتمكَّن منهم إيمانُهم، فانقلبوا منكوسين، فذكر سبحانه حُكمَه فيهم فقال: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ لأن الإيمان الذي لا يكون علىٰ بصيرة وإذعان؛ لا تأثير له علىٰ الوجدان، ولا يثبت في الجَنان.

ثم بيَّن شنيعةً أخرىٰ لهم أو لفريق منهم، وهم منافقو اليهود، فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩﴾ أي: إذا دُعُوا للمحاكمة أمام رسول الله ﷺ؛ فإنْ شعروا أنَّ الحكم سيكون لهم أجابوا، وإن أدركوا أنَّ الحكم سيكون عليهم أعرضوا عن التحكيم، وطلبوا أن يَتحاكموا إلىٰ رؤسائهم. وكان ذلك في مبدأ الهجرة. والله أعلم.

ثم ذكر أنَّ سببَ ذلك نفاقُهم، وقَرَنَه بشُبَهِهم الظاهرة البطلان، وجَعلَ الكلام على طريقة السَّبْر والتقسيم من طرق الجدل التي ينهجها القرآن، لينحصر السبب في نفاقهم ومرض قلوبهم، فيُسجّل به عليهم، فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؟ يكني به عن النفاق والكفر، ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ في دَعْواه النبوة، وهو الصادق الأمين فيما بينهم؟ ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ﴾ أي: يظلم اللهُ ﴿عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ في هذه الحَكُومة؟

ووجه التقسيم: أن امتناعهم: إما لخلل فيهم، أو في الحاكم. والثاني: إما أن يكون مُحقَّقاً عندهم أو متوقَّعاً. ولما كان كلاهما باطلاً تعيَّن الأول، وهو النفاق.

وفي ذِكرِ الله تعالىٰ إشارةٌ إلىٰ أن حُكمَه ﷺ من حكم الله بمقتضىٰ تعاليمه له، لا حَيْف فيه ولا عدوان.

وقد ردَّ وَصْف الظلم عليهم، وحقَّقه فيهم، وحَصَره بهم، فقال: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ والظلم هنا يشمل معنييه: خلل العقيدة، والحَيْف في الأحكام. وأتىٰ بضمير الفَصْل لنفي ذلك عن غيرهم، سيما عن هذا الحاكم النَّزيه ﷺ.

ثم أردف بيان حالهم هذا ببيان حال المؤمنين حقاً، وخطَّتَهم في مثل ذلك الموقف، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، ليردَّ بذلك دعواهم الإيمان مقروناً بالبرهان، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالحصول على السعادة في الدارين، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بسعادة الدنيا والأخرى.

ثم ذكر حالةً أخرى من حالات أولئك المنافقين، أو حالة فريق آخر منهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: بالغوا بالقَسَم، ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، وحيث كانت مقالتُهم هذه كاذبةً أمر رسوله ﷺ بردِّها، فقال: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ على طاعتكم إنها ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، يشير إلى أنها نفاق، وحالهم معروف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فلا تخفى عليه أسراركم.

ثم أمره أن يُكرِّر لهم التبليغ ويأمرَهم بالطاعة الصادقة، لئلا يكون على الله حُجَّةٌ ولا عُذرٌ بعد ذلك التكرار، فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: فإن تَتولَّوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: ما أُمِرَ به من التبليغ وقد فعل، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: ما أُمِرتُم به من الطاعة فلم تطيعوا، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ إلى الصِّراط المستقيم، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ وقد أبلغكم ما أُرسِلَ به فأبيتُم، فوبالُكم عليكم وأنتم الظالمون.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما سجَّل به للمؤمنين من الوعد بالنصر والتمكُّن في الأرض ونشر هذا الدين المبين، ترغيباً لهؤلاء المنافقين بالإيمان، وترهيباً وتحذيراً لهم من إصرارهم على النفاق والعصيان، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مؤمني الأمم الماضية، كما جاء في غير هذه الآية، من مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣ – ١٤].

ثم تابع الوعد بقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ وفي هذه الجملة تعريضٌ بالمشركين، وثناءٌ علىٰ المؤمنين، وبيانٌ لمقتضىٰ الاستخلاف والتمكين.

ثم توعَّد هؤلاء المُصِرِّين علىٰ الكفر، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: أصَرَّ علىٰ الكفر ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الوعدِ والبيانِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: الخارجونَ علىٰ نور الفطرة إلىٰ الطبع المفسود. وقيل: المراد من الكفر: كفران هذه النعمة التي هي الاستخلاف والتمكّن في الأرض، وذلك يكون بالظلم والعدوان، والفساد والطغيان، والخروج علىٰ السلطان. وأولُ مَنْ فعل ذلك قَتَلةُ عثمان رضي الله عنه، ثم تتابعت الأحداث، ولم يستقر بعد ذلك للمسلمين حال محمودة. وإذا كانت فلا بدَّ أن تكون مُنغَّصةً بنوع قَلَق واضطراب.

وبعد أن وَعَدَ المؤمنين بما وعدهم به، أمرهم بالدوام علىٰ واجباته، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في كلِّ ما يأتيكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وبعد أن بيَّن مصيرَ المؤمنين، بيَّنَ مصيرَ الكافرين وما لهم من الوعيد، فقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُعجزين لله عن إدراكهم وأخذِهم بالعذاب وإهلاكِهم في الدنيا، ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ

لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا
ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾
وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ
بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وبعد أن أكمل السياق الذي أتىٰ به معترضاً، عادَ إلىٰ متابعة الأحكام، علىٰ نهج القرآن في العودة، فتمَّم نظام البيوت، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والخطاب للرجال والنساء علىٰ التغليب، وذلك بمقتضىٰ خصائص اللغة، ونهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة السادسة من المقدمة الثانية)، أي: يا أيها المؤمنون من الرجال والنساء ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من العبيد والإماء، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في ثلاثة أوقات؛ استثناها من عموم الأوقات التي أباح فيها سابقاً للعبيد والأطفال الدخول علىٰ النساء، تلك الإباحة المستفادة من مضمونِ إباحة إبداء زينتهنَّ لهم، وهذه الأوقات الثلاثة هي أوقات الخلوات: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهو وقت القيلولة، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وهو وقت النوم والخلوات،

فهذه ﴿ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾، إذ يختلُّ فيها التستُّر عادةً، وقد يخلو الرجل فيها بأهله، فلا يحلُّ لأحد الدخول عليه ولو كان طفلاً أو مملوكاً.

وبعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: المماليك والصبيان ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أي: إثمٌ في الدخول بغير استئذان ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي: بعد هذه الأوقات الثلاثة. وقولُه: ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بيانٌ للعذر المرخِّص في تَرْكِ الاستئذان في غير هذه الأوقات، وهو المخالطة الضرورية مع الأطفال والعبيد.

ثم نوَّه بشأن هذا النظام حَـمْلاً على التمسُّـك به، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ الدالة على الأحكام، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم مَعَاشاً ومعاداً.

ثم تابع البيان في إتمام النظام، فذكر الحدَّ الأول في الأطفال لوجوب الاستئذان في جميع الأوقات، فقال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم، ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ ﴾ بلغوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ في الأوقات كلِّها. ثم كرَّر التنويه والحث مبالغةً في التمسُّك بهذا النظام، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ فيما يشرعه لكم ويأمركم به، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الحكمة والمصلحة.

ثم استثنى من قوله السابق: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] القواعِدَ من النساء، فقال: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي: العجائزُ اللاتي لا يَصْلُحْنَ للنكاح، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ أي: ليس عليهنَّ إثمٌ أن يَضَعْنَ الجلباب والخمار، على أن يكُنَّ بثياب معتادة غير متزيِّنات بزينة، إلا أنَّ هذه رخصةٌ لهن، ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أي: إنَّ

عدم السُّفور أَوْلىٰ بهنَّ أيضاً. ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ الإخلاص وحُسْن النية في إجراء هذه الأحكام، فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ فلا تَخْفىٰ عليه نيَّاتكم ولا مخالفاتكم.

ثم تابع الكلام عن أحكام البيوت وأكملها، فذَكَرَ حكم الأكل منها والاستطعام، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أن يأكلوا من البيوت التي يُسْتَخلفون عليها ليحافظوها. فقد روىٰ الزهري عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية: أنَّ المسلمين كانوا إذا غَزَوْا وأخلفوا زَمْناهم، أي: العاجزين منهم، يُسلِّمون إليهم مفاتيحَ أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرَّجون من ذلك خشيةَ أن لا تكون هذه الرخصةُ منهم عامة، أو عن طيب قلب، لأنهم مُضْطرون إليها بحكم تسليم المفتاح، وقالوا: لا ندخلها وهم غائبون. فنزلت هذه الآية رخصةً لهم[1]. وهذا قول عائشة رضي الله عنها[2].

فعلىٰ هذا، يكون معنىٰ الآية: نفيُ الحرج عن الزَّمْنىٰ في أكلهم من بيت مَنْ يدفع إليهم المفتاح، إذا خَرَج إلىٰ الغزو.

ويلوح لي ـ والله أعلم ـ أنه يحتمل أن تكون الآيةُ ـ بمعونة السِّياق ودلالةِ الاقتضاء ـ رخصةً للعميان والزَّمْنىٰ والمرضىٰ الذين لا مال لهم ولا مُعيل أن يستطعموا أهل البيوت.

وعلىٰ كلٍّ، فقد سوَّىٰ في الرخصة بين هذا الأكل وبين الأكل من بيوت الأقارب، كما سوَّىٰ بين الأكل من بيوت الأقارب وبين الأكل من بيوت أنفسهم؛ إيذاناً بالإباحة

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٢٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٨٧٥).

في كلِّ ذلك، وأنها كالأكل من بيوت أنفسهم، من دون فرق، سواءً بسواء، وإيماءً إلىٰ أن الأطعمة أمرُها علىٰ السَّعة والسماح، فقال: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فالمراد الإباحة فيها من دون إذن، لأن الأطعمة أمرُها علىٰ السَّعة. والله أعلم.

وقال أبو مسلم: المراد من هؤلاء الأقارب: إذا لم يكونوا مؤمنين، وذلك لأنه تعالىٰ نهىٰ عن مخالطتهم بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ثم إنه سبحانه أباح في هذه الآية ما يتبادر دخوله فيما حظره هناك. قال: ويدلُّ عليه أنه سبحانه أمر سابقاً في هذه السورة بالتَّسليم علىٰ أهل البيوت، إذ قال: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وفي بيوت هؤلاء لم يأمر بذلك، بل أمر أن يُسلِّموا علىٰ أنفسهم، كما سيأتي.

وقال الفرَّاء: إنَّ المراد: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾: بيوت الزوجات، لأنَّ بيت المرأة كبيت الزوج[١].

وقال ابن قتيبة[٢]: أراد بيوت الأولاد، لأن الولد كَسْبُ أبيه[٣]، كما قال عليه السلام: «إنَّ أطيَبَ ما يأكل الرجلُ من كسبه، وإنَّ وَلَـدَه من كسبه»[٤]. والدليل علىٰ

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤: ٤٢٩).

(٢) هو أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري (٢١٣-٢٧٦هـ) من أئمة الأدب ومن المصنّفين المُكْثِرين، له: «أدب الكاتب»، و«المعارف»، و«عيون الأخبار». انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣: ٢٩٦-٣٠٢)، و«الأعلام» للزركلي (٤: ١٣٧).

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤: ٤٢٩).

(٤) رواه أحمد (٢٤٠٣٢)، وأبو داود (٣٥٢٨)، عن عائشة.

هذا: أنه سبحانه وتعالىٰ عدَّد الأقارب ولم يذكر الأولاد، مع أنهم أقرب الأقارب.

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ هو وكيلُ الرجل وقَيِّمُه في ضَيْعَته وماشيته، له أن يأكلَ من ثمر ضَيْعته، ويشربَ من لبن ماشيته دون إذنه، ولا يحمل ولا يدَّخر[١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: أو بيتِ صديقكم دون إذنه. قال الرازي: يحكىٰ عن الحسن رضي الله عنه: أنه دخل داره، فإذا حلقة من أصدقائه، وقد أخرجوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة، وهم مكبُّون عليها يأكلون، فتهلَّلت أسارير وجهه وضحك، وقال: هكذا وَجَدناهم. يريد: كبراء الصحابة رضي الله عنهم[٢].

ثم بيَّن تعالىٰ رخصةً أخرىٰ، وهي أنْ لا فَرْقَ بين أن يأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

ثم ذكر حكماً آخر من أحكام هذه البيوت، فقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وقد ذكر سابقاً مِثلَ هذا الحكم، وجعله للاستئناس، وقيَّد به النهي عن دخول بيوت الأجانب، وهذا الحكم في بيوت الأقارب المذكورة في السياق. ولذلك قال: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

قال الحسن: أي فَلْيُسلِّم بعضكم علىٰ بعض[٣]. فيكون من باب إجراء الوحدة بالجنس مجرىٰ الوحدة بالشخص، كقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٢٢١).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٢٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٢٢٦).

وقال جابر وقتادة والزهري والضحّاك: معناه: فسلِّموا علىٰ عيالكم[١].

وقال أبو مسلم: يُسلِّم علىٰ نفسه إذا دخل بيت قريبه غير المؤمن. وقد ذكرنا رأيه في المراد من الأقارب في الآية السابقة.

ثم نبَّه إلىٰ مكانة هذا التسليم، فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ شَرَعها لكم ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، لأنَّ فيها تآلفاً وتأنساً.

ثم ختم السياق بالتنبيه إلىٰ مكانة هذه الأحكام الاجتماعية؛ حثاً علىٰ التمسُّك بها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ما فيها من المصالح والحِكَم وسعادة الدارين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ حكم البيوت وكيفيَّة المعاشرة مع الأقرباء والمسلمين عموماً، بيَّن سبحانه وتعالىٰ حكم البيوت التي تُفصَّلُ فيها الأمورُ السياسية بطريقة المشاورة، ذاكراً شيئاً من جنس ذلك مع النبيِّ ﷺ ليكون تشريعاً عاماً مستمرَّ

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٦: ٦٦).

المدىٰ، وهو أنَّ المجالس السياسية يكون جَمْعُها وفضُّها تحت إمرة الرئيس، ولا يجوز لأحد أفرادها أن ينسحب أو يترك المجلس من دون إذن الرئيس، ذكر ذلك علىٰ نهج القرآن في إكمال الموضوع، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون في الإيمان هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم، ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وهو الذي يقتضي التعاون أو التشاور ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، ثم بالغ في التنويه بشأن هؤلاء المستأذنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم بيَّن موقفه تجاهَ هذا الاستئذان، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ففَوَّض أمْرَ الإذن له ﷺ حسبما تقتضيه الحال إيجاباً أو سلباً، ثم نبَّه إلىٰ أنَّ هذا الاستئذان ـ وإن رُخِّص فيه ـ لا يخلو من غَضَاضة، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم بيَّن أدباً آخر من آدابهم مع النبيِّ ﷺ، وجَعَل مضمونَه كالتعليل لمضمون ما قبله، أو كالمتمِّم له، وهو احترام الرئيس وإطاعته وإجابة طلبه، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال المُبرِّد والقفَّال: لا تجعلوا أمره إيَّاكم ودعاءه لكم لشأنٍ من الشؤون، كما يكون ذلك من بعضكم لبعض؛ إذْ كان أمرُه فرضاً واجباً لازماً. قال أبو مسلم: لأنَّ في القعود عن أمره قعوداً عن أمر الله تعالىٰ.

ثم توعَّد المنافقين المخالفين في ذلك وفي أمر الاستئذان، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: يلوذ بمَنْ يُؤْذَن له، فينطلق معه كأنه تابعُه. وقيل: بل معناه: إنهم يخرجون من غير استئذان مُسْترين بشيء.

ثم توعَّدهم بهذا التوعُّد العام، فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ وبليةٌ في الدنيا نتيجةَ هذه المخالفة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

في الآخرة، وذلك لأن مخالفة أوامر الله ونواهيه واتِّباع الأهواء يصرف عن الخير، ويُزيِّن الشر، ويُشيعُ البلبلةَ والاضطراب والفوضىٰ في المجتمع، فيفقد الوحدة والألفة والانسجام، وتنشأ فيه الفتن العامة والفساد. وهذا الخطابُ مُوَجَّهٌ إلىٰ المنافقين وضعاف الإيمان وحديثي العهد به.

ثم ختم السورة بما يحمل علىٰ التمسُّك بما جاء فيها، وذلك بالترهيب والترغيب المطويِّ في بيان قدرته سبحانه ومُلكيَّته لهذا العالم، وأنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض تحت تصرُّفه وسلطانه فَلْيَحذَروه، وأنه سبحانه يعلم كلَّ ما يصدر من الناس، وسيرجعون إليه فيُجازيهم علىٰ الإحسان إحساناً، وعلىٰ السوء سُوءاً، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّة في الأرض ولا في السماء.

وعَدَل عن الخطاب إلىٰ الغيبة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ للمبالغة في الترهيب، وهو معطوفٌ علىٰ مضمون ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: يعلم الآن ما أنتم عليه، ويعلمه يوم يرجعون إليه. ويجوز أن يكون الأول عاماً، والثاني خاصاً بالمنافقين. ولفظ ﴿قَدْ﴾ للتحقيق والتأكيد.

* * *

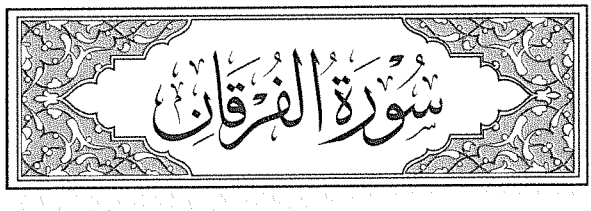

مكيَّة، وهي سبع وسبعون آية

جاء الكلام في هذه السورة عن القرآن، وانقسم الكلام فيه إلىٰ قسمين:

أولهما: في دفع ما أوردوه عليه من شُبه، وتوعُّدهم بما وقع قبله من النُّذر الأولىٰ.

والثاني: في أنهم لم يتأثروا بذلك لجهلهم ولتكبُّرهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تكاثر خيرُه، أو تعالىٰ اللهُ ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾، فالكلام تمجيدٌ لله سبحانه علىٰ منَّة إنزال القرآن.

ثم ذكر صفاتِ قدرته وصفاتِ تنزيهه؛ إرشاداً للتوحيد وتأنيباً علىٰ الشرك، فقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا الوصف لبيان اختصاصه بالألوهية، ولإثارة الشعور بالحذر منه تعالىٰ، لأنه الملك الجبار، ذو السلطان المُطْلق، والقاهر فوق عباده، انفرد بالألوهية والربوبية والتدبير، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ تعالىٰ عن ذلك عُلواً كبيراً، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي﴾ ذلك ﴿الْمُلْكِ﴾ والإيجاد له، خاب المشركون وخسروا.

ثم أتىٰ بما هو كالدليل علىٰ نفي الولد والشريك، ضمن بيان الخلق والإتقان منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ أي: هيَّأه لما أراد له من الخصائص

وأراد به من الفِعَال، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبُّر في الأمور ومزاولة الأعمال المختلفة، وكتهيئة النحل لصنعة العسل مثلاً، وهكذا أحوال سائر الأنواع من المخلوقات وطبائعها وما خُلقت له وما هُديت إليه، فذرات الأكسوجين والهدروجين في الماء بينهما نسبةٌ مضبوطة في الثِّقل والحجم، فالأول أثقل من الثاني، والثاني أكبر حجماً، علىٰ نِسَبٍ لو اختَلَّت وزناً أو حجماً لفسد الماء. ومثل القمح والقطن مركبان من عناصر فوق العشرة، متَّحدة في الأكثر، مختلفة نِسَبِها في تركيب كلِّ واحد منها. وهذا الاختلاف جَعَل مادة القطن صالحة للِّبس، ومادة القمح صالحة للأكل. وهكذا قدَّر سبحانه وتعالىٰ مُركّبات سائر الأشياء ومقدَّراتها ومواهبها وخصائصها؛ لتصلح لِـمَا خُلقت له وأريد منها، فكلٌّ ميسَّرٌ لِـمَا خُلق له. جلَّت حكمة الحكيم الخبير.

ووجه الاستدلال بالآية علىٰ نفي الولد والشريك: أنَّ نسبةَ الأشياء كلها إلىٰ الله تعالىٰ نسبةُ المخلوق إلىٰ الخالق، والمخلوق لا يكون ولداً ولا شريكاً.

وقد نسقت هذه الآية بين عظمة الله وقدرته ونفي الولد والشريك عنه، علىٰ نهج القرآن في الجمع بين المواضيع المتعددة وتنسيقها في سلك واحد. ويجوز أن يكون في الآية إيماءٌ إلىٰ شدَّة حاجة الإنسان لإنزال هذا القرآن؛ لأنه إذا كان كلُّ شيء مقدَّراً تقديراً دقيقاً، ومنه ما يخصُّ شأن الإنسان في دنياه وأُخراه، فلا يُمكنه أن يدركه علىٰ وجهه الصحيح، إلا بتعاليم الله وتوجيهاته، وقد تكفَّلت بذلك تعاليمُ القرآن.

وبعد هذا البيان عن عَظَمة الله تعالىٰ وقدرته البالغة الدالة علىٰ نفي الشريك وعلىٰ استحقاقه وحده للألوهية، شنَّع علىٰ المشركين جهلَهم وحُمْقَهم في ادِّعاء أن بعض المخلوقين شركاء له تعالىٰ، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ أي: ليس فيهم من صفات الإلهية شيء، فكيف يكونون آلهة يُعبَدون؟!

وبعد أن بيَّن سخافتَهم في هذا الشرك، بيَّن سخافتَهم في أمر القرآن، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ أي: كذبٌ واختلاقٌ ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي: اختلَقه محمدٌ ﷺ من نفسه، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾، فأنحىٰ عليهم تأنيباً بقوله: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ أي: بهذه الدعوىٰ الأفوك، والضلال البعيد، والافتراء السخيف، إذ قد تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، ولو كان من عند محمد ﷺ لأمكَنَهم أن يأتوا بمثله وهم الفُصَحاء البلغاء.

ثم حكىٰ زَعْمَ فريقٍ آخر منهم، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ ليحفظه من أفواه مَنْ يُمليها عليه من ذلك المُكتَتَب. وإنما ذكروا هذا القيد وألحقوه بالزعم؛ لكونه أمياً لا يقرأ الكتابة التي كُتبت له، فهي تُقرأ عليه.

فردَّ عليهم سبحانه ببيان الحقِّ فيه، فقال: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ووجه الرد: أنَّ ما في هذا القرآن من أسرار الكون، وأحوال الغيب، ودقائق التربية والتوجيه، يُثبِتُ أنه مُنزَّل من الله سبحانه؛ إذ لا يتأتَّىٰ ذلك إلا ممن يكون عالماً بأسرار السماوات والأرض وسنن الأكوان، فما لكم كيف تحكمون؟

والآية تُؤذِنُ بصلة القرآن بالحقائق العلمية، لذلك لا يناقض في تلميحاته لتلك الحقائق أيَّ نظرية علمية صحيحة، أو سِرٍّ تَعْثُر عليه البحوث. وذلك من جملة الأدلة الكثيرة التي تدلُّ علىٰ أن القرآن العظيم من عند الله سبحانه.

ثم علَّل تأخير عقوبتهم علىٰ أعمالهم الفظيعة وأقوالهم الشنيعة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾، لذلك لا يُعجِّل بعقوبتهم علىٰ ما يقولون ويتقوَّلون، بل يُمهِلُهم لعلَّهم يرجعون.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾.

ثم ذكر أباطيلَهم وشُبَهَهم السخيفةَ في حقِّ الرسول المُنزَّل عليه هذا القرآن، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ مِثلَنا، ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ مِثلَ عوامِّنا والسوقة منا. قال الثعالبي[1]: أي: ليس بمَلَكٍ ولا مَلِكٍ؛ لأنَّ الملائكة لا يأكلون ويشربون[2]، والملوك لا يتسوَّقون، فعجبوا منه ﷺ وأنكروا عليه أن يكونَ مِثلَهم في الحال، ويمتازَ من بينهم في علوِّ المنزلة والجلال.

أقول: وذلك لأنهم كانوا يتخيَّلون أنَّ الرسول لا بدَّ أن يكون ذا صفات يفترق بها عن طبائع البشر، ويستطيع أن يفعل ما لا يفعله الناس من خوارق العادات.

قال البيضاوي: يريدون: إن صحَّ دعواه فما باله لم يخالف حالُه حالَنا. وذلك لعَمَهِهم وقصور نظرهم علىٰ المحسوسات، فإن تمييز الرسل عمَّن عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور نفسانية، كما أشار إليه تعالىٰ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠][3].

ثم تنزَّلوا عن اقتراحهم من أن يكون مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والشرب، إلىٰ

---

(١) هو أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي الجزائري (٧٨٦-٨٧٥ هـ)، مفسِّر من أعيان الجزائر، له: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» و«الأنوار». انظر: «الأعلام» للزركلي (٣: ٣٣١).

(٢) أي: ولا يشربون.

(٣) «تفسير البيضاوي» (٤: ١١٨).

اقتراح أن يكون معه مَلَكٌ يُصدِّقه، ويكون رِدْءاً له في الإنذار والبيان، عندما يتلو القرآن، وقد حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

ثم تنزَّلوا من اقتراح أن يكون مَلَكاً محتجباً عن الناس، إلىٰ اقتراح أن يُلقىٰ إليه من السماء كَنْز يستظهر به ولا يحتاج إلىٰ طلب المعاش في التجارة والأسواق، فيكون ذلك دليلاً علىٰ صدقه، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

ثم تنزَّلوا عن ذلك إلىٰ اقتراح ما هو أيسَرُ منه، فقالوا: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ أي: إن لم يُلْقَ إليه كَنْزٌ فلا أقلَّ من أن يكون له بستان، كما للمُثْرين وأرباب اليُسْر ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، وقرئ: (نأكل) بنون الحكاية[1]، وفيه مزيدُ مُكابَرةٍ وفَرْطُ تحكُّمٍ وتنذُّرٍ.

ثم عقَّبوا هذه الاقتراحات بالتصريح بما تضمَّنته من الإنكار، وهو ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ أي: رجلاً قد غُلِبَ علىٰ عقله. ووضع المُظْهَر مَوضِعَ المُضْمَر؛ تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوُز الحدِّ.

فعَجَّبه تعالىٰ من سَخافة عقولهم، وبَلادة نَظَرهم، وعَجْزهم عن التَّمويه المعقول والخداع الرائج في حقِّه ﷺ، من شبهة ناهضة، أو وصمة غير داحضة، ولكنها اعتراضاتٌ واهية، واقتراحات فاهية، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ إلىٰ تمويه ينطلي علىٰ العقل وينخدع به في القدح بنبوَّتك. وكلُّ ما قالوه أضحوكةٌ للعاقل ومَهْزلةٌ للمازح.

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي كما في «التيسير في القراءات السبع» ص١٦٣.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

ثم ردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ بأن يجعل لك بَدَلَ الجنة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ ولكن أخرَّ لك ذلك إلىٰ الآخرة، لأنه خيرٌ وأبقىٰ، ولأن الأنبياء لا تميل طبائعُهم الكاملة إلىٰ زخارف الحياة الدنيا الفانية، بل يحتقرونها ويَصْدِفون عنها.

ثم علَّل هذا السخفَ منهم بصورة إضراب إلىٰ بيان منشئه فيهم، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فقصر نظرهم علىٰ الدنيا وحطامها، والماديات وغرورها. ثم سجَّل عليهم بهذا التسجيل العام فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ أي: هيَّأنا وحَضَّرْنا لهذا الصنف من الناس ناراً يَسْتعرون بها.

ثم أوغَلَ في وصف تلك النار الهائلة؛ للإيقاف علىٰ أمرها تحذيراً منها، فقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فنزَّلها منزلةَ الطالب الحانق، والأسد اللاحق، وهذا الوصف للمبالغة بالتهويل المنصوص عليه في قوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾، فشبَّه صوت

غليانها من بعيد بصوت المُغْتاظ الحانق وزفيره، والأسد الهاجم وزئيره، كأنها مُغْتاظةٌ منهم حانقةٌ عليهم طالبةٌ لهم.

ثم ذكر حالتَهم فيها، فقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ مُعَدّاً لهم فيها، وهذا الوصف يفيد الزيادة في الشدَّة، وكذلك قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: قُرنت أعناقُهم إلىٰ أيديهم بالأغلال، أو قُرِنَ بعضُهم مع بعض، ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ أعاذنا الله، أي: تمنَّوا الهلاك ونادوه نداءً. وهذا تصويرٌ للشدَّة المتناهية والعذاب الأليم.

فيُقالُ لهم: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾، يُقالُ لهم ذلك تندُّراً عليهم وتيئيساً لهم من الخلاص، أي: لا تنفعكم الشكوىٰ. أو المعنىٰ: إن عذابكم اليوم أنواع كثيرة، كل نوع منها ثبور.

وبعد أن وصف الشقاء المُعَدَّ للمُكذِّبين، أتبَعَه بوصف الهناء المُعَدِّ للمؤمنين، علىٰ طريقة القرآن في المقابلة بين مصير الصنفين، وسَبكه علىٰ التقريع لأولئك المكذِّبين والتهكُّم بهم، زيادةً في التنبيه والتحسيس، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ـ أيها الرسول ـ: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الشقاءُ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ بها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ يصيرون في الآخرة إليها، ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من أنواع السعادة والنعيم حالَ كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ إلىٰ أبد الآبدين، فلا تُنغِّصُهم مخافةُ قَطْع ولا تحويل.

ثم بالغ في تحقيق هذا الوعد والمصير وتسجيله لهم، فقال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾ أي: موفًىٰ به لا مَحَالة. وهذا الوصف مأخوذ من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، فإنَّ الذي يُعطي عهداً مُسجَّلاً في أمر يكون مسؤولاً عن إنجازه.

ثم تابع الكلام عن المشركين، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ

﴿ٱللَّهِ فَيَقُولُ﴾ للمعبودين من الأنبياء والصِّدِّيقين والرجال الصالحين، إلزاماً للعابدين: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن دَعَوْتُموهم إلىٰ عبادتكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ لإخلالهم بفِطَرِهم، حتىٰ فقدوا الاستعداد للنظر الصحيح، واتِّباع المرشد الناصح، والتمييز بين الحق والباطل، وبين الهدىٰ والضلال؟

وهذا الاستفهام للتقريع الصافع، والتبكيت اللاذع، للعَبَدَة الضالِّين، حيث ردَّ المعبودون بما فيه المبالغة في التبرُّؤ والتنزيه، إذ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، فكيف ندعو غيرَنا لذلك، وأنىٰ للمؤمن أن يدعو إلىٰ الشرك!

ثم يذكرون منشأ ضلالهم مسبوكاً علىٰ تقريعهم وتأنيبهم، حيث بدَّلوا نعمة الله كفراً وقُبْحَ فعال، وقد حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بحُسْن الحال وأنواع النِّعَم، فاستغرقوا في الشهوات وأفسدوا طباعَهم ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: غفلوا عن ذِكرِك في آثارك وأعمالك ونِعَمِكَ وأفضالك، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ أي: هالكين بفعلهم هذا.

ثم التفت إلىٰ المشركين مفاجئاً لهم بالاحتجاج والإلزام، وبما فيه تنديم وإيلام، مفاجأةً حسنةً رائعةً، فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ عنهم أنهم آلهة، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم، ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ يُعينكم عليه.

ثم ختم المُحاجَّة مسجِّلاً بالوعيد العام، فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بالشِّرك ـ أيها البشر ـ ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

ثم نقض عليهم شُبْهةً من شُبَهِهم السابقة الماضية، وهي قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ...﴾ [الفرقان: ٧]، وخصَّها بالنقض لأنها أساسٌ لبقية الشُّبَه، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: من البشر، ولم تكن الرسالة مما يُخَصُّ بالملائكة والملوك كما يزعمون، وذلك معلومٌ عند الناس؛ لأن تاريخ النبوَّات غيرُ مجهول فيما بينهم.

ويجوز أن يكون تأخير الجواب عن هذه الشبهة لأنها أَوْهىٰ تقوُّلاتهم الواهية، فأخَّرها إلىٰ آخر الكلام.

ثم ثبَّته ﷺ علىٰ تحمُّل هذا الأذىٰ منهم، ببيان هذه السُّنَّة الاجتماعية العامَّة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً واختباراً، أو المعنىٰ: جَرَتْ حكمتُنا في سُنَنِنا أن تبتلىٰ المرسلون بأممهم، وقد قرَّر التثبيت بهذا الاستفهام التقريري، فقال: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علىٰ ذلك الابتلاء؟ يحملهم بهذا الاستفهام علىٰ الصبر والثبات.

ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: في وَضْع الأمور

وتنظيمها، ولكنّ الحِكَمَ المقتضية لذلك قد تخفىٰ علىٰ الناس. ويجوز أن يكون هذا التذييلُ وعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين.

ثم ذكر لمنكري نبوَّة محمد ﷺ عناداً آخر، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فعَنْوَنَهم بهذا العنوان، لأنه مصدر العناد في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ليخبرونا بصدق محمد، أو هَلّا أُرسِلَ إلينا ملائكة، ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عياناً فيأمرنا بتصديقه واتِّباعه، أو يأمرنا بأوامره، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حتىٰ اجترؤوا علىٰ التفوُّه بمثل هذه العظائم، ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: تجاوزوا الحدَّ في التعنُّت والطغيان تجاوزاً عظيماً، بالغاً أقصىٰ غاياته.

ثم توعَّدهم بردِّ التنذُّر عليهم، وأنهم سَيَرون الملائكة تنزل إليهم، ولكن لا لِـمَا طلبوه، بل لإنزال العذاب بهم، وحينئذٍ يَتمنَّون لو لم يكونوا يرونهم، فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يَرَوْنهم علىٰ ما يسوؤهم، و﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ بنزول الملائكة، بل وبالٌ عليهم وبلاءٌ، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حينئذ ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: عَـوْذاً مُعاذاً. يقول الكَفَرة حينئذ هذه الكلمة استعاذةً واستجارة بالله أن يمنعهم من الملائكة، ويعيذَهم منهم. وهذه الجملة مستعارة مما كانوا يقولونه عند لقاء عدو أو هجوم مكروه، وهي تُمثِّل هَوْلَ ما نَزَل بهم وجَزَعَهم الشديد منه، ولا تُجديهم نفعاً هذه الاستعاذةُ والاستغاثة، ولكنها مظهرٌ للجزع والهلوع.

وفي هذا الرد نوعٌ مما يُسمِّيه البُلَغاءُ: القول بالموجب، وهو أن يجاري المتكلِّمُ السائلَ، ويعكس الأمر عليه. ومحصَّل الرد: أنهم سيَرَونَ الملائكة ولكنْ بصورة تجلب لهم الويلَ والثبورَ، لا كما يريدون ويشتهون. ففي صورة التعبير إيماءٌ إلىٰ أن الذي كانوا يتطلَّبونه من نزول الملائكة عليهم، يتمنَّون اليوم أن لا يروه.

والتعبير بقوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ بصورة نفي الجنس؛ للمبالغة في نفي البُشرىٰ. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ معطوفٌ علىٰ مدلول قوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾، لأن كِلَيْهما يدلان علىٰ عظمة الهول والمكروه الشديد.

ثم ذكر سبحانه مصير أعمالهم التي كانوا يعتقدونها براً ونفعاً، ويظنونها تقرِّبهم إلىٰ الله زُلفىٰ، فقال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: لم يكن لهم منه أيُّ فائدة، لأنهم عملوه لغير الله، أو لأنهم أشركوا معه غيرَه. وتحليل ذلك: أنَّ العمل الصالح إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوس هؤلاء قد أوغَلَ فيها الفسادُ، وفقدت الاستعدادَ لذلك الأثر، فلم تنتفع به. وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الأعمال ـ إذا صَدَرت ممن ليس له عقيدة صحيحة ـ لا تكيِّف النفس بكيفيَّة مؤهلة لسعادة الآخرة ونعيمها. وبعبارة أخرىٰ: لأنهم في أعمالهم كمن يطلب مقصداً ويسعىٰ إليه بطريق لا يُوصِلُ إليه.

وإسنادُ الفعل إلىٰ الله سبحانه لأنه بمقتضىٰ السنن الكونية، والله سبحانه هو واضع تلك السنن والأسباب، والآيةُ شبيهةٌ بآية النور، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ...﴾ [النور: ٣٩].

وبعد أن بيَّن حال الكفار في هذه الخسارة والخيبة، وَصَفَ حالَ أهل الجنة؛ مبالغةً في تحسيس الكفار بخَسارتهم الفادحة، وتنبيهاً إلىٰ أنَّ الحظَّ كلَّ الحظ في طاعة الله تعالىٰ، فقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: موضع قيلولة، وهي استراحة نصف النهار إذا اشتدَّ الحر، استعارها لإحدىٰ حالات الجنَّة الرغيدة[1]. وصيغةُ التفضيل تهكُّمٌ بأهل النار، أو هي علىٰ غير بابها لمجرَّد المبالغة.

---

(١) الراجح في معنى ﴿مَقِيلًا﴾: مكان نوم وراحة في مدة البرزخ بين الموت والبعث، حيث تبقى نفوس أصحاب الجنة يوم يرون الملائكة في حالةٍ تشبه حالة النائم في قيلولته.

ثم تابع الكلام عن حال الكافرين، فذكر يوم القيامة وشأنهم فيه، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ والباء للمصاحبة، أي: تتفرَّق أجرامُ السماء وتتمزَّقُ، فتكون كالبناء المنهدم المتداعي من شاهق، حيث يتخلَّل أوصالَه غبارٌ من مسحوقه يشبه الغمام، وذلك من تأثير اصطدام الكواكب ببعضها وتفسُّخها، أو أنها ترجع إلىٰ أصلها، وهو السَّديم ـ والله أعلم ـ ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أقول: هل للتشقُّق دَخْلٌ في هذا التنزيل، أو هو حال مستقل بذاته لأمر يريده الله منهم؟ والله أعلم بذلك، و﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وأما ملوك الأرض فهم حينئذ أذلاء، ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

وإيراده تعالىٰ بصفة «الرحمن» ـ والله أعلم ـ للإيذان بأنه مع اتِّصافه بغاية الرحمة لا يهوِّن الخطبَ وعُسْرَه علىٰ الكفرة والمشركين، كما أنّ رحمته لا تحول دون العطب والتلف لمن يتردَّىٰ من شاهق إلىٰ مكان سحيق، بحكم السنة الطبيعية، فكما أن التردِّي سببٌ طبيعي للتلف والهلاك، فكذلك الكفر والأفعال السيئة سَبَبٌ كَوْنِيٌّ[1] للشقاء في دار البقاء، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، فلن تحول رحمتُه دون تنفيذ سنَّته وإجرائها علىٰ صورتها للطبيعة الكونية ـ والله أعلم ـ، لأنها قد كُوِّنت ونظِّمت كذلك.

ثم ذكر نَدَمَهم الأليم في ذلك اليوم الرهيب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندماً وتحسُّراً ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يريد: مَنْ أضلَّه في الدنيا، كما قال: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو

---

(١) بل هو سبب شرعي لذلك، يعني: أن الله تعالى رتَّب هذا الشقاء على الكفر والأفعال السيئة في تشريعه الذي أنزله على عباده، وليس هذا الترتيب من النظام الذي وضعه الله للعالم في الدنيا المسمى بالسُّنن الكونية.

القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾، فبيَّن سبحانه منشأ ذلك فيهم فقال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ يواليه ويوسوس إليه حتىٰ يُبعِدَه عن الحق والنجاة، ويُفْضي به إلىٰ الباطل والهلاك، ثم يتركه ويمضي، ويقول: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦].

وفي الآية تصريحٌ بأنَّ الضلال ليس في طبيعة الإنسان، ولا مخلوقاً فيها، وإنما يأتيها من سُوء التربية، ورداءة العشير، وفداحة التقليد.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

ولما أكثروا من الاعتراضات الباطلة ووجوه التعنُّت، ضاقَ صدرُ الرسول ﷺ وشكاهم إلىٰ الله تعالىٰ، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ يعني: هَجَروا القرآن وكذَّبوني.

فبيَّن له سبحانه سُنَّة الله في أخلاق البشر المحرِّفين لِفِطَرِهم، ليزيده علماً بسنن الاجتماع، ويحمله علىٰ التثبيت تجاه معارضتهم، أسوةً بمَنْ قبله من الأنبياء، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما جعلنا هؤلاء أعداءً لك، جَعَلنا لكلِّ نبيٍّ عدواً من المجرمين كذلك. ومعنىٰ هذا الجَعْل: أنَّ سنَّة الله تعالىٰ في طبائع البشر مَضَت بأنَّ الشرير العاتي عن الحق لا ينقادُ له كِبْراً وعِناداً، ويكون عدواً للدعاة إليه من الأنبياء والهداة، خوفاً علىٰ زعامته وشرفه الزيِّف ومركزه، ولكن الله سبحانه

يقذف بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ أي: هادياً وحافظاً لـهدايته ولمن يقوم بها. وهذا وعدٌ كريم له ﷺ بالهداية إلىٰ طرق النجاح والفلاح، والنصر علىٰ الأعداء والمعارضين.

ثم ذكر اعتراضاً آخر لبعض هؤلاء الكفار، وأجاب عنه، لأنه توضيح للهداية والنصر المبين، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[1] كما أُنزِلَت بقيةُ الكتب السماوية، يريدون بذلك: أنه ليس مُنزَّلاً من عند الله؛ لأن الله يُنزل كتبَه جملةً واحدة غير منجَّمة. فأجاب عن هذا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: نزَّلنا كذلك عليك متفرِّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ حيث تنزلُ الآيةُ عند حادثةٍ تحدث، فتكون تثبيتاً لك وتشريعاً، وأكثر تأثيراً علىٰ النفوس، كما هو معلوم من أصول الإرشاد الصحيحة، وأحوال النـفس، وفنون التربية، ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: قرأناه عليك شيئاً بعد شيء، بتُؤَدةٍ وتمهُّل في أكثر من عشرين سنة لهذا الغرض.

وتحرير ذلك: أنَّ الشريعة الإسلامية كثيرةُ الأحكام والتثقيف، لا تُقاس ببقية الشرائع، أنزلها الله عالميَّـةً للبشر، مستمرةً إلىٰ نهاية الدهر، ذات قواعد كلية واسعة مرنة، أودع سبحانه فيها كلَّ ما يحتاجه البشر إلىٰ نهاية العالم، وجعلها خاتمة الشرائع، فاقتضت

---

(١) هذا الاستفهام للإنكار، ومؤدَّاه: لو كان من عند الله لَنَزَلَ جملةً واحدةً كتوراة موسىٰ، ولكنه من عنده يقوله مدرجاً، أو كلما احتاج إلىٰ موضوع منه يسحر به الناس. فأجابهم سبحانه عن سبب ذلك التدرُّج بما يشتمل علىٰ أمرين: الأول: تثبيت الفؤاد، ومراده: دوام الاتصال بوحي الله، فيكون في إحساس مستمرٌّ بصلته بربه سبحانه. والثاني: الترتيل والترتُّث، وذلك لأغراض؛ منها: أن يسهل علىٰ النفوس تبديلُ تشريعاتهم وعادتهم بأحكام الله وتشريعاته في هذا التدرُّج والتمهُّل، وذلك موافق لطبيعة النفس والأصول التربوية والسنن الاجتماعية، ومنها: سهولة حفظه في الصدور، فوق كتابته في السطور؛ لأنَّ حِفظَ المنجَّم أسهَلُ علىٰ النفس وأرفق بها، وباستدراجها لذلك. (المؤلف).

حكمةُ الله سبحانه مراعاةَ التدرُّج في نزولها، إذ من الصعب علىٰ النفوس أن تتلقَّىٰ تلك الأحكام والتثقيفات الكثيرة، وتتخلَّىٰ عن سائر تقاليده جملة واحدة، وقد يكون في ذلك ردُّ فعل لا تُحمَدُ عُقْباه.

ثم ختم السياق المتسلسلَ باعتراضاتهم المقرونة بالردِّ عليها، وذيَّله بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: اعتراضٍ وشَغَب يضربون عليه المَثَل ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ نردُّ به اعتراضَهم ونُوضِّح إشكالهم. يُنكِرُ بهذا علىٰ شُبَههم التافهة الباطلة، ويُزيِّفها عليهم، ويفنِّد آراءهم في ذلك.

ثم جعل خاتمةَ الختام لهذا السياق بيانَ مصير هؤلاء الكافرين، توعُّداً لهم وتبصيراً، وقد ذكره بأسلوب قابَلَ به مصيرَ أصحاب الجنة السابق، وطابق به تضليلَهم لسبيله ﷺ، باعتراضاتهم وتمويهاتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فينتكسون في الآخرة كما انتكسوا في الدنيا، وقد وضعَ للنعي عليهم التسجيلَ الآتي موضعَ التعليل، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾، وصيغة التفضيل ليست علىٰ بابها، ولكنَّها للمبالغة في الوصف.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق، وذكر جماعة من الأنبياء عليهم السلام، وما نزل بمن كذَّب بهم من أممهم من البلاء، ردعاً لهؤلاء المكذِّبين، وتَبْصرةً لهم، وتسليةً له ﷺ،

وتأكيداً للوعد بنصره عليهم، وتفصيلاً لما أجمله بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ يُعاونُه في نشر الدعوة ويؤازره، ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم قوم فرعون، فذهبا فكذبوهما ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بالإغراق ﴿تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾. وقوله: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ معطوفٌ على محذوف، بحسب نهج القرآن في مثل ذلك، وقد اقتصر على حاشيتَي القصة، اكتفاءً بما هو المقصود منها.

وقدَّم قصة موسىٰ وقومِه؛ لأنها أقربُ في التاريخ، ثم عطف عليها قصة نوح؛ لأنها أبعَدُ في التاريخ، ومشابهةٌ لها في الإغراق، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: عبرةً عظيمة، يعتبر بها كلُّ مَنْ سمعها.

وإنما جمع ﴿ٱلرُّسُلَ﴾: إما ليشمل نوحاً ومَنْ قبله من الرسل، وإما لأن تكذيبه تكذيبٌ للجميع، لاتفاقهم على التوحيد والتنزيه لله تعالىٰ. فهؤلاء بإشراكهم كذَّبوا جميعَ الرسل، فتوعَّدهم بهذا الوعيد العام، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾، والشركُ أكبرُ الظُّلْم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ثم عَطَفَ على قصة نوح بعضَ مَنْ كانوا بين تاريخ نوح وموسىٰ من الأنبياء عليهم السلام، فقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ وهم قوم شعيب، والرَّسّ: اسمُ بئر لهم. وقيل: قوم حنظلة بن صفوان.

ثم أردفهم بهذا التعميم، فقال: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: بين عادٍ وثمود وبين أصحاب الرَّسِّ ـ قوم شعيب ـ قرونٌ كثيرة لا يعلمها إلا الله.

وفيه دلالةٌ على أنَّ تاريخ البشر حافلٌ بالأنبياء، وهو طويل جداً، لا يُعَدُّ بالسنين، بل بالقرون، وكله مشحون بمعارضة الأقوام، وتكذيبهم لهم، وإعراضهم عمَّا جاؤوهم

التبصير والإنذار، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بيَّنا لهم الأمر بألوان من البيان، وأثبتنا لهم القضيَّة بكلِّ برهان، ولكنَّ هذا كلَّه لم يُقنِعْهم، ولم يَهْدِهُم للرشاد.

وقد بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: من آيات الله هذه ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من فَرْط عِنادِهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون: الرسول والمؤمنين ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ مزوِّرون.

ثم ذكر سبحانه وتعالى مصدر ذلك فيهم، ببيان سنَّته في أخلاق البشر وطباعهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: جَرَت سنَّته تعالى في الراسخين في الجهالة أن يفقدوا الاستعداد للنظر الصحيح في البحث، ويَعدِموا الفهمَ والدراية، فلا يهتدون إلى الحق سبيلاً.

ثم ثبَّته سبحانه وتعالى تجاه عِنادِهم وعُتوِّهم، وقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذاهم، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وإظهار دينك على الدين كلِّه ﴿حَقٌّ﴾ لا بدَّ من إنجازه، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يحملنَّك على الخِفَّة والعَجَلة إلى الحزن وشدة الغضب عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بما تتلو عليهم من الآيات. أي: لا يَحْمِلنَّك كفرُهم وتكذيبُهم وإيذاؤهُم لك على ذلك، أو: لا يَحْمِلنَّك استخفافُهم بك على الفتور في الدعوة، وتغيير موقفك معهم.

❊ ❊ ❊

إلى الحياة الأخرى، فبيعها بها خسرانٌ مبين، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ في الدنيا، يستقلُّون تلك الحياة بالنسبة لِمَا رأوه بعدها من أزمان طوال، إظهاراً للندم، فقد أدركوا أنَّ الحياة الدنيا إنما هي المرحلة الأولى من سَفْرةٍ طويلةِ المَدَى، عديدةِ المراحل والتقلُّبات، فنَعَى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ويُعبَثُ بعقولهم ويُصرَفون عن هذا الأمر العظيم بالأوهام والخرافات. أو المعنى: أنهم لـمّا رأوا شدَّة العذاب في الآخرة نَسُوا ما لبثوه فيما قبلَ البعثِ من حياة البرزخ الطويل؛ لأنه ـ مع طوله ـ قصيرٌ بالنسبة إلى ما بعده من الحياة الثانية. والله أعلم.

ثم ذكر ما يقوله لهم الملائكة والمؤمنون في تحقيق الأمر، وتقريعهم على الجهل الذي أفضى بهم إلى الكفر، فوقعوا في الوبال، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، وصورة هذه العبارة تُلمع أيضاً إلى طول البرزخ، أي: لقد لبثتم مُدَداً لا يعلمها إلا الله حتى جاء البعث، ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم به تكذِّبون. وقد أقام مقامَ هذه الجملة قولَه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فتنكرون البعث، ولا تُقرُّون به ولا تُصدِّقون، فصار مصيرُكم إلى النار.

وقد أيأسهم من النجاة، فسجَّل سبحانه عليهم بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لا يُدْعَونَ اليوم إلى ما يقتضي إعتابَهم، وهو التوبة والطاعة، كما كانوا يُدْعَونَ إلى ذلك في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ختم السورة ببيان أنه سبحانه وتعالى أزال الأعذار، وأتى بما فوق الكفاية من

ثم ذكر الذين يسمعون الهدى فيتبعونه، فقال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فإنَّ هذا الإيمان قد زاد في مَلَكة استعدادهم للنظر الصحيح في آثار الله واختصاصه بأفعال الألوهيَّة، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ للحقِّ منقادون إليه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن دليل القدرة مُبيِّناً أطوار النشأة؛ ليشير إلى أنَّ الحياة الأخرى أطوارٌ مُكمِّلة لها، يردُّ بذلك على إنكار المشركين للبعث، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، أي: ابتدأكم ضعفاء، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهو دَوْرُ الشباب والكهولة، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وذلك بحسب مُقْتضى علم الله وحِكمتِه ومشيئته، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ يعمل بما يَقْتضيه عِلمُه ولا يُعجِزُه شيء. وإنما أتى بصفة العلم للإيذان بأنَّ مشيئته تعالى لا تجري جزافاً، ولكن بحسب الحِكَم والمصالح العامة.

وفي الآية إلماعٌ للنبيِّ ﷺ أيضاً إلى أنَّ الذي جعل من بعد الضعف قوة، سيقوِّي ضعفكم السياسي، والله أعلم.

ثم تابع السياق على طريقة إيجاز القرآن وطيِّه، ورَمَزَ إلى أن الموتَ وما بعد الموت والبعثَ وما بعد البعث؛ حلقاتٌ من سلسلة تلك الأطوار أيضاً، إذ وصل هذا البيان بالكلام عن القيامة، وجَعَل أساسَ البحث الإشارةَ إلى أن الحياة الدنيا قليلة جداً بالنسبة

هذا المطر ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل إثارة السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: لياسين واجمين متحيِّرين، ولكن إذا أثارت الرياحُ السحابَ جاءَ الأملُ والأمانيُّ العِذاب.

ثم حسَّس بِعظَم نِعَم الله هذه، وأدمج في ذلك إثباتَ القدرة على البعث بقياس النظير، فقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ باليبس، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العظيمَ الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: لقادرٌ على إحيائهم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾. فطبيعة زمن القيامة في صلاحيَّة إحيائه للأموات، كطبيعة زمن الربيع في صلاحية إحيائه للنبات[1].

وبعد أن كان البيان عاماً، خَصَّه بالمشركين وأجراه عليهم عائداً إلى المقصد الأصليّ، مُلمِعاً إلى أنَّ هؤلاء المشركين لم يتأثَّروا بالنُّذُر؛ لِمَا بلغوه من الجهل العميق، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ غيرَ مثيرة للسحاب فيبس منها الزرعُ، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ غيرَ صالح للإنتاج، ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ ناسبين ذلك إلى غضب آلهتهم عليهم، فيندفعون لاسترضائهم. هذا ما قاله بعض المفسِّرين. أو: يَعُدُّونه طبيعياً ولا يعلمون أنه توفيقُ أقدار لأقدار.

وبعد أن ندَّد بالمشركين ونَعَى عليهم إصرارَهُم على الشِّرك رغمَ وضوح الآيات البيِّنات، وعدم تأثُّرهم بالنُّذر والحوادث واتِّعاظهم بها؛ فرَّع على ذلك تيئيس النبي ﷺ من هدايتهم، فشبَّههم بالموتى والصُّمِّ والعُمْي، وقال: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾، وقيَّدَ إسماعَ الصُّمِّ بهذا القيد؛ ليكون أشدَّ استحالةً وأبلَغَ في التيئيس الذي بالغ فيها بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

---

(١) انظر ما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون.

بتجارة البحر، وكذلك بالزراعة بواسطة الأمطار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ نِعَمَ الله عليكم في هذه الغايات الجليلة.

ثم سلَّاه ﷺ بما هو مسبوك على الوعيد، عن عدم اهتداء المشركين من قومه رغماً عن ظهور هذه الآيات البيِّنات، وعن شدَّة معارضتهم له، وذلك بما جَرَى على أمثالهم من الأمم الغابرة عندما عارضوا أنبياءهم، وأدمج فيه الوعدَ الكريم بالنصر للمؤمنين، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كما جئتَ قومَكَ، فمنهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ كفر، ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالتدمير والإهلاك، ونصرنا عليهم الأنبياء وأتباعهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ والانتقامُ: من النقمة، وهو السطوة والعقوبة، ويستعمله عُرْفُ التخاطب بمعنى التَّشفِّي، وهي بهذا المعنى مُحالٌ على الله.

ثم بعد هذا الاستطراد، عاد إلى ذكر الآيات ودلائل القدرة بعد هذا الوعد والوعيد، وجَعَله تفصيلاً لِمَا سَبَق من أحوال الرياح وتكوينها للمطر، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ﴾ بخاراً يكون ﴿سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ﴾ تارةً ﴿يَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ أي: قِطَعاً ومُزناً.

ثم ذكر ما ينتج من هذا السحاب بنوعيه، فقال: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي: المطرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، وقد ثبت علمياً أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة، يرتفع في الجو ويبرد لوصوله إلى منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيار من الهواء البارد، ويسير مدفوعاً بقوة الهواء، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء، وتقاطر المطر من خلاله، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بحسب عِلمِه وحِكمتِه وسُنَنِه ونظامِه ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بمجيء الخِصْب والرخاء، ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ثم عاد إلى ذكر الآيات الدالَّة على اختصاصه بأفعال الألوهيَّة وعلى دلائل قدرته وتحقيق نعمته ومَنِّه، على نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ بالمطر؛ لأنها تثير الأبخرة فتنعقد غيوماً، يشير إلى هذا النظام الكوني الدال على القدرة والحكمة البالغة. وقولُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ إما معطوفٌ على معنى ما سبقه، كأنه قيل: ليبشِّركم به وليذيقكم من رحمته، وإما معطوفٌ على محذوف، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرات (ب) و(ج) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، كأنه قيل: ليكون كذا وكذا، وليذيقكم من رحمته، ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وذلك حيث جَعَل في الماء خاصَّة حَمْل الأثقال إذا كانت على وضع خاص.

وفي عطفها على ما قبلها لطفُ إشارة إلى أن ماء الأنهار من ماء الأمطار ومُكوَّن منه. وفيه وجهٌ آخر من لطف المَسْلَك مع ما قبله، وهو أنَّ الفُلكَ تجري بواسطة الرياح، إذا كانت شراعيَّة، كما كان الحال في الأزمان الغابرة، فيكون المعنى: إنَّ من آياته أن يُرسِلَ الرياح إثارةً للأمطار، وإجراءً للفُلكِ في البحار؛ ليذيقَكُم من رحمته ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾

ثم توعَّد هؤلاء المشركين مستشهداً بما جرى على أمثالهم من الأمم الغابرة، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ كعاد وثمود، ثم بيَّن منشأ ذلك ومُوجِبَه فيهم بقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ مِثلَكم فاستحقّوا تلك العاقبة. وهذه الآية كالاستشهاد أيضاً على تقرير الحقيقة السابقة في ظهورِ الفساد بما كسبت أيدي الناس وعاقبةِ ذلك فيهم.

وبعد هذا البيان والتوعُّد، التفت لإرشاد المؤمنين ـ في خطاب النبي ﷺ ـ بالتمسُّك بهذه التعاليم الكافلة بالإصلاح، ومُحذِّراً من يوم الحساب، على نهج القرآن في تعقيب النقد والتنديد بالإرشاد والدعوة إلى الرشاد، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ الذي يكفل لك صلاح الدارَيْن ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو يومُ البعث والحساب، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يتفرَّقون، فمنهم إلى الجنة ومنهم إلى النار، كما فصَّل ذلك بقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وَبَالُ كفرِه، وهو النار المؤبَّدة، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: يُهيِّئون لأنفسهم منازلَ في الجنة والنعيم المقيم.

ثم بيَّن تعالى أنه يضاعف لهم الثواب، فقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ففيه إشارةٌ إلى عِظَمِ ما سيجزيهم به، وأنه لا يقاس بما عملوه. وهذا هو معنى قوله ﷺ: «لن يدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله»[1] الحديث؛ لأن ذلك الثواب العظيم يكثر أضعافاً مضاعفة عن قيمة العمل، فهو من فَضْل الله وإحسانه.

ثم ألمع إلى أنه سيجازي الكافرين بضدِّ ذلك، ويحرمُهم من هذا النعيم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾، والويلُ لمن لا يحبُّه الله.

---

(١) سلف تخريجه (٢: ١٦٣).

ثم عاد إلى السياق، وهو الإنكار على المشركين وتقرير التوحيد والبعث، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾؟ أما عندكم شيء من العقل والدراية؟! ما لكم كيف تحكمون؟! ثم استنتج من هذا البرهان تَنزُّهَه عن الأنداد والشركاء، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذا الإشراك هو أساسُ الفساد الذي يظهر في الدنيا، من الإعراض عن تعاليم الله التي يُنزِلُها على العباد لصلاحهم وسعادتهم، فقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ لأنَّ كل الأضرار التي تقع في العالم الإنساني ـ من كليَّة وجزئيَّة، شخصيَّة أو أُمميَّة أو عالمية ـ ليس لها علَّة سوى الميْل عن قانون الفطرة، والانحراف عن سنن الله في خلقه، وعن أحكام شرائعه الملائمة لتلك السنن، والمُعينة للفطرة على حِفظِ سلامتها، والمزكية لها، وهذا الأمر يكون في أسباب الدنيا وأسباب الآخرة، فإذا انحرفوا عن تلك السنن يجازيهم سبحانه وتعالى بنتائج ذلك الانحراف؛ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ إلى رُشْدِهم ويتمسَّكون بتعاليم الله بإصلاح الأرواح والأبدان، وتنظيم الأحوال لسائر شؤون الإنسان.

وفي قوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ إشارةٌ إلى عِظَم جزاء الآخرة وعذابها المعدّ لهم على ذلك، وما عذابُ الدنيا في الآخرة إلا قليل وضئيل؛ إذ كلُّ عذاب دون النار عافية.

والآية تُـؤْذن بأن البشر لو سار كله على تعاليم الله هذه؛ لعاش أجمل عيش في أتمِّ وئام، فهي تنعى عليه تفريطه بهذا الأمر القيم والشأن الخطير، إذ لو كان البشر كما أراده الله ـ له دين واحد، ولغته لغة عالمية في جانب سائر اللغات، وحزب واحد وهو حزب الله ـ لعاش سعيداً في الدنيا وفي الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠].

ثم استطرد إلى بيان وجوب إنفاق مَنْ يُبسَطُ له الرزقُ على مَنْ يُقدَرُ له، ليتمَّ التوازن ويكمل النظام، مبيِّناً أحقَّ الأصناف بالإنفاق عليهم، فقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من الصِّلة والصدقة وسائر المبرَّات، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما يستحقّانه من ذلك.

ثم نوَّه بشأن هذا الإعطاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ومثوبته، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الفائزون بسعادة الدنيا والأخرى، وبمثوبة الله فيهما.

وبعد أن أمر بالصدقة رغَّب بها، وأدمج في ذلك النهيَ عن الربا المضادّ للصدقة، مقابلاً بينهما، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليزدادَ وينموَ منها، مستغِلِّين بذلك حاجةَ الفقراء بَدَلَ مساعدتهم، ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يزكُو عنده ولا يبارك فيه، ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ﴾ بها ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ وسدَّ حاجة الفقراء ومعاونتهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: الذين يُبارَكُ لهم في أموالهم وتَتضاعَفُ أجورُهم وينالون ثمرةَ أموالهم أضعافاً مضاعفةً في الدنيا والأخرى. فألمعت الآية إلى أنَّ الربا مضادٌّ لمبدأ التسامح والتعاون الذي شُيِّدت عليه الشريعة الإسلامية، فهي تؤنِّب على الربا، وتنوِّه بالصدقات.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ من نعمةٍ وصِحّةٍ وسَعَة ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حالةٌ ﴿سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من رحمته ويُعرِضون عنه.

وفي صورة التعبير إيذانٌ بأن المصائب إنما تكون بفعل الإنسان نفسه، وذلك بمعاكسته لأنظمة هذا الكون وسُنَنِهِ الطبيعية، فما من مصيبة وسيئة إلا وهذا منشؤها، حتى الفقر والمرض، وحتى الضلال عن معرفة الحقِّ والصواب، فإنه يتأتَّى من إفساد الطبيعة.

وهذه الآية إنكارٌ على الإنسان وتوجيهٌ له أن لا يحسب الخير لا شرَّ بعده، وأن لا يحسب الشرَّ ضربةَ لازبٍ، أي: لا خير بعده، كلا، فـ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

ثم استشهد على ذلك بقضية الرزق؛ كيف يتقلَّب، وكيف يكون بَسْطُه وتضييقُه بالنسبة لتعاطي الأسباب وإهمالها، والتمسُّك بالسنن الطبيعة وتَرْك ذلك، استشهد فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يتمسَّك بأسباب البَسْط والسَّعة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق لمن يشاء ممَّن يُعرِضُ عن أسباب البَسْط أو لا يُتقِنُ معاطاتها وعملها[1]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ إذ المؤمن مُسْتَعِدٌّ للنظر والتدقيق في آثار الله، ويعلم بأنَّ سنن الله تعالى لا تتبدَّل، ولا تجري فيها المحاباة، فمن أراد الدنيا وتعاطى الأسباب على وجه الصحة نالها، فكذلك من أراد الآخرة وسعى لها سَعْيَها على الوجه الصحيح نالها، ومَنْ لم يَسْعَ لهما على الوجه الصحيح لم يَنَلْ شيئاً.

---

(١) تقدَّم تعليقاً على الآية ٦٢ من سورة العنكبوت أن التمسُّك بالأسباب عملٌ مطلوبٌ من الإنسان، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى قد يبسط الرزق للعبد مع تمسُّك يسير بالأسباب، ويقدر الرزقَ على عبد مع تمسُّك شديد بها، لحكمةٍ يريدها الله تعالى، فليس الأمر مقروناً بالتمسُّك بالأسباب فقط.

سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم قرن دلائل التوحيد السابقة بدليل الغريزة الدينية والتوحيد الفطري الذي فَطَر الله النفوس عليه، ونبَّه المشركين إلى ظهوره فيهم جلياً عند الشدائد، إذ تَتَجرَّد حينئذ النفوسُ من لوثة الفساد والأهواء الطارئة عليها، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ على اختِلافِ مِلَلِهم ونِحَلِهم ومذاهبهم ومآربهم ﴿ضُرٌّ﴾ وشدّةٌ ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه ومعوِّلين عليه وحده، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ وخلَّصهم من تلك الشدَّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي عافاهم وأنقذهم ﴿يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: فاجأ المشركون من الناس العَوْدةَ إلى شركهم.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النِّعَم التي منها إنجاؤهم. واللام للعاقبة والكلام على التشنيع، أو للأمر والكلام على التهديد، شبيه قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم تندَّر عليهم مُفنِّداً إصرارَهم على شركهم بعد هذا الإلزام الفاضح، فقال: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: كتاباً حُجةً لهم، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ينطبق بشركهم هذا ويؤيِّده. وهذا هزؤٌ وتندُّرٌ بهم، وتهجينٌ لأمرهم.

ثم ألحق البحث في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ...﴾ بالتنبيه إلى هفوة كبيرة من هفوات الناس، تَعْرِضُ لهم عند الشدائد، وهي اليأس والقنوط المثبِّط للعزائم، والبطر والأشر عند السَّعة والرفاه، وسَبَكَ الكلامَ بالوعيد، على نهج القرآن، فقال: ﴿وَإِذَآ

﴿وَلَا تَكُونُوا [١] مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ المُبدِّلين لفطرة الله والمُحرِّفين لها؛ بإفسادهم لطبيعتهم وطَمْسِهم لبصيرتهم.

ثم شنَّع عليهم بقوله: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ تُشايعُ كلُّ فرقة مَنْ أضلها، ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ظناً منهم بأنهم على حقّ وغيرهم على الباطل.

وتحرير البيان: أن الذين كانوا يتَّبعون الأنبياء من الأمم الغابرة لم يمض على أعقابهم مدةٌ من الزمن إلا ويخرجون عن الدين الصحيح إلى التحريف والتبديل، تحت تأثير الرؤساء الذين يريد كلٌّ منهم أن يجعل له كياناً خاصاً يتميَّز به عن الآخر وحزبه، فيتَّخذ صبغةً خاصَّة للدين، ويدَّعي أنها هي الصحيحة التي يجب اتِّباعها، ولا تزال تلك الصبغة تشتد وتتنوَّع وتبتعد عن الأصل حتى يصبح الدينُ غيرَ ذلك الدين، ويفقد روحَه وأصلَه السماوي، ويدخل في حدود الأديان الوثنية والعقائد الشركية بتوالي الأزمان، وتمادي التغيير والحدثان.

وتشمل الآيةُ بعمومها ما دون ذلك من التحريف والتفريق أيضاً، فلينتبه المسلمون لهذا التشنيع، فإنه ينطبق عليهم اليوم، وهم فِرَقٌ وأحزاب، وشِيَعٌ مُتميِّزون متنافرون ومتباغضون، وليس الدين الإسلامي إلا توحيداً واتِّحاداً وقرآناً ولغة عربية.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) في الأصل: «ولا تكونن»، وهو خطأ، فقد انتقل ذهنُ المؤلف من هذه الآية إلى الآية ٨٧ من سورة القصص، ولذا جعل الخطاب هنا إلى الأمة في شخص النبي ﷺ، مع أن الخطاب إلى الأمة صراحة.

شأنه، وكبيرَ فائدته لهم في الدنيا والأخرى. وفي هذا إلماعٌ إلى عَظَمة هذا الدين، وأنه تنظيمٌ لمقتضيات الفطرة وحاجاتها من سائر النواحي.

ولما كان هذا الخطاب الخاصُّ في النبي ﷺ مراداً به العموم، أتى بالحال جمعاً فقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، فأجرى الكلام على المؤمنين بعد أن أجراه على الرسول ﷺ، على نهج القرآن في مثله، فتكون حالاً ثانية بعد قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلين عن غيره مُقبِلين إليه.

وبعد أن غيَّر السياق إلى العموم، عطف على قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ ...﴾ قولَه: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، وخصَّها[1] بالذكر لأنها أهمُّ أركان هذا الدين وأعظم عناصره، إذ هي مناجاةٌ لله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة، فتكون تَغْذيةً للإيمان وإصلاحاً للروح، على أكمل الوجوه، تدفع بها إلى الكمال المنشود لبني الإنسان. والمراد من إقامتها: الإتيان بها بصورة صحيحة، بأن يَعِيَ المُصَلِّي فيها ما يقول في القراءة والتكبير والتسبيح والتشهُّد، وما يفعل من الأعمال والأحوال، خاشعاً لله سبحانه وتعالى، شاعراً بمُناجاته، لا أن تكون حالةً ديناميكيةً وجسداً بلا روح، كما قيل:

تُصَلِّي بلا قلبٍ صلاةً بمِثلِها ... يصيرُ الفتى مُسْتَوجِباً للعقوبةِ
تُخاطبُه: إيَّاك نعبدُ مُقبِلاً ... على غيره فيها لغيرِ ضرورةِ
ولو رَدَّ مَنْ ناجاك للغيرِ طَرْفَهُ ... تميَّزتَ مِن غَيْظٍ عليه وغيرةِ[2]

ثم عاد فأجرى الكلام على الرسول، على نهج القرآن في مثله، وتابع خطاب الأمة في شخصه ﷺ، وأردفَ الأمر بالنَّهي عن ضدِّه لتمكين المعنى وللعودة إلى السياق، فقال:

---

(١) أي خصَّ الصلاة ـ التي هي داخلةٌ في عموم الأمر بالتقوى ـ بالذكر.

(٢) ذكر هذه الأبيات العاملي في «الكشكول» (٢: ٤٠) ونسبها لإسماعيل المقري.

ثم هدَّدهم وصاغ العبارة على التيئيس من الإفلات، فقال: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد أن أبطل الشِّرك وأثبت التوحيد بالبراهين الواضحة، خاطب الأمة في شخص النبيِّ ﷺ، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أقبِلْ عليه مائلاً عما سواه، فإنه يماشي ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] ويُسايرُها إلى آخر الدهر؛ إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، فلا يُبدَّلُ هذا الدين الكامل الذي يماشي سنَّة الله ويلائمها في طبيعة الإنسان الماديَّة والروحيَّة، كما بُدِّلَت سائر الأديان قبله؛ لأنها كانت موقَّتة ومُحدَّدة، لملائمتها لدرجة رُقيِّ النوع الإنساني قبل كماله، فكانت تَتَبدَّل بتبدُّل الأزمان ورُقيِّ الإنسان إلى أن شبَّ وتكامل استعدادُه المكتسبُ من العلم والمعرفة، فأنزل إليه هذا الدين الكامل الذي نوَّه بشأنه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: لا عِوَجَ فيه ولا نقصان، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ قيمةَ هذا الدين الفطريّ المبين، وعظيمَ

---

(١) توضِّحُ هذه الآيةُ أن الإنسان مفطور على الاعتقاد بخالق الكون، وأنه واحدٌ لا شريك له، جامعٌ لصفات الكمال، وأنَّ هذه الفطرة لا تفارقه إلا إذا أفسدها بمفاسد التربية وسوء القدوة، كما قال عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه». ولكون هذا الاعتقاد فطرياً في الإنسان يظهر جلياً عند الشدائد، فلا يتوجَّه الإنسان فيها إلا إلى الله، ولا يلتجئ إلا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]. وجاء في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي كلُّهم حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ...». (المؤلف).

وحديث «كل مولود» سبق تخريجه ص١٤٣.

وحديث «إني خلقت عبادي حنفاء» رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار.

شركاء الله؛ كيف تكون حالهم أعلى شأناً من المماليك الذين ليس بينهم وبين مالكيهم فَرْقٌ إلا بالاعتبارات والمواضعات الاعتبارية؛ إذ إنهم من جنسهم في البشريَّة، فتجوِّزون أن يكون أولئك شركاء لله، ولا تجوِّزون أن يكون هؤلاء شركاء لكم في مراكزكم ومراتبكم؟! أي: إذا كان مِثْلُ هذا لا يجوز فيما بينكم ولا تُسوِّغونه، فكيف تجعلونه لله؟!

ومُلخَّص المثل: إذا لم يَـجُزْ في عُرْفِكم ومجالِ عقولكم أن يكون العبيدُ بمنزلة الأحرار في الهيبة والسلطان، وكلُّكم مخلوقون لله مربوبون له، فكيف يُسوِّغ لكم العقل أن يكون عبيدُ الله ومخلوقوه مِثلَه في الربوبية والألوهية شركاءَ لله وأنداداً، أفلا تعقلون؟!

ثم نبَّه إلى ما في هذا السياق من قوة الإثبات، والحَمْل على الاعتبار والانتباه، ولا سيما ما في هذا المثل من الإلزام، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيعلمون أنه لا يجوز أن يُشرَكَ بالمالك الحقيقيِّ مملوكُه الحقيقي، وأما المشركون فلا عقل لهم ولا تفكير.

ثم بيَّن مصدر ضلال هؤلاء الجهَّال، فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فقالوا ما قالوا جزافاً من دون تفكُّر وتبصُّر وتدقيق، لأن منطق التقليد والعاطفة والهوى يختلف جداً عن منطق العقل والوجدان؛ إذ الثاني يُولِّد النتيجة من المقدِّمات فتكون صحيحة، والأول بالعكس؛ لأن صاحب التقليد والهوى، يلتمس له براهينَ يَدعَمُ بها تقليده وهواه، ولو كانت وهمية، أو واهية سخيفة، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وإنما أسنَدَ الإضلالَ إلى الله سبحانه لأنَّ الضلال ناتج من معاكسة الضالِّ لسُنن الله الدينية أو إهمالها، وهو من أفسد طبيعته بسوء التربية أو التقليد الأعمى حتى فقد الاستعداد للهدى، وذلك لأنَّ الإنسان مِثلُ جام التصوير، ينطبع فيه ما ينعكس عليه مما يصادفه أول الأمر، فإذا صادفه الضلال وتلقَّاه بالتربية والتقليد الأعمى لا يمحى منه أبداً، فكيف ينطبع فيه صورة الإيمان والتفكير السديد بعد ذلك؟

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وبعد إثبات الوحدانيَّة والقدرة على البعث، بالبراهين العديدة في الأنفس والآفاق، وتبصيرهم بها، ضَرَبَ لهم مثلاً لبطلان الشرك وتسخيفه، فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: مُنتَزَعاً من أحوالها ونزعاتها، وهذا على سبيل التنزُّل مع الخصم. بمعنى: ضَرَب لكم مثلاً من أنفسكم، فقاس نفسَه عليها مع عظمته وكمال قدرته وعُلوِّ شأنه؛ ليتبيَّن لكم بطلانُ الشِّرك بطريقة الأَوْلى. وذلك أنه ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من العبيد والإماء ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وما يجري مجراها في المراكز والمراتب، ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ في التصرُّف، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: كما يخاف الأتباع من الرؤساء، أو تلاحظونهم في التصرُّف كما تلاحظون الأحرار المساهمين لكم في ذلك.

وفي قوله: ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنهم لا يملكون ما يملكونه إلا بالاسم، ففيه زيادة تحقيق للردِّ والبطلان، أي: إنكم لا ترضون أن يشارككم ـ بل لا يجوز أن يشارككم ـ فيما هو ليس لكم إلا بالاسم؛ مماليكُكم الذين لا تملكونهم إلا بالاسم أيضاً، إذ ليس لكم شأن في إيجادهم، بل هم أمثالكم في البشريَّة. بمعنى: كيف تكون حالُ المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه، وهم الذين تدعونهم

منها، وعَرَضَها عليها، من دون خلل ولا فساد، إلى انتهاء أجلها، ﴿ثُمَّ إِذَا﴾ قامت قيامتها باضمحلالها وانتهاء أمرها، و﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ لتُحشَروا إليه ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾، وقد جَعلَ هذا نتيجةً لبراهين القدرة التي تضمَّنتها الآيات السابقة من معاني تلك المقدِّمات.

ثم أيَّد إنجاز هذا الإخراج وما تضمَّنه من الجزاء بدليل قدرته وسلطانه فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خاضعون لِتَصَرُّفه، منقادونَ له، والحشر في ضمن ذلك.

وبعد أن أيَّده، ذكر الدليلَ المماثل له، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: إنَّ الإعادةَ متمِّمةٌ للبدء والإيجاد ومماثلةٌ له، فالذي بدأه يقدر على إعادته، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ لأنَّ الإعادةَ أهوَنُ من الإيجاد عُرْفاً، وهو مأخوذ من حالة الـمُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله، أي: في أصول قُدَرِكم وقياساتها.

ثم أزال ما يُوهم التمثيل بالمخلوقين، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: في القدرة وسائر صفات الكمال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجِزُه شيء ولا يستعصي على قدرته شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الذي يُجري الأفعال على سَنَنِ الحكمة والمصلحة في سائر الشؤون والأحوال، وليس الحشر للأجسام بأعجَبَ من النشأة الأولى، إلا أنها ـ لـمّا كانت مألوفة ـ لم تشعر بعجبها، وأيُّ عجب أعجب من تكوُّن الولد من النطفة، وتدرُّجه في بطن أمه حتى يخرج طفلاً، ثم يتدرَّج حتى يكون من الكاملين، وربما كان من أعاظم الرجال وأكابر المفكرين أو المبتكرين، وأولُه ماء دافق! لا شك أنَّ العَجَب من هذا أكثرُ وأوفرُ من العَجَب لحشر الأجسام، لولا أنَّ الأول مألوف، والثاني غير مألوف.

ثم تابع السياق، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وفيه لفٌّ واحتباك، على نهج إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية). وإنما أتى بهذا اللون من النَّظم فجمع بين الليل والنهار وأحاطهما بالمنام والابتغاء، ولم يقرن كلَّ واحد بزمانه الطبيعي، تحرِّياً للصدق في الواقع؛ إذ قد يقع النوم في النهار والابتغاء في الليل. والمعنى: إنَّ في آيات حكمته ودقَّة تدبيره هذا الوضع البديع، تنامون بالليل لتستعيضوا ما فقدته القوى أثناء عمل النهار، ولولا ذلك لَـمَا عاش الإنسان، وتستيقظون في النهار لتبتغوا من فضله، ويتمَّ لكم أمر المعاش، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ سماعَ تعقُّل وتفكير.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً من القصف وطمعاً بالمطر. وقال أبو مسلم: خوفاً من أن يخلف فلا يمطر، وطمعاً في المطر، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يستعملون عقولهم في كيفيَّة تكوُّن الأمطار؛ ليظهر لهم كمالُ قدرة الصانع التي لا تُعجِزُها إعادتكم، والدالة على استحقاقه وحده لأن يُعبد؛ لاختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاته، فما لهؤلاء المشركين يتطلَّبون الآيات:

وفي كلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ تدلُّ على أنه واحدُ[1]

وعلى إعادتهم لقدير.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وقدرته، أي: تَستَمِرّانِ على ما هما عليه من التوازن بالجاذبية، ومن أداء كلِّ واحدة منهما ومن جزئياتها أمانتَها التي طلبها

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وسبق عزوهُ إليه (٢: ٤٣).

﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: ومن آيات قدرتِهِ وحِكمتِه الدالَّة على ألوهيَّته: أنْ خَلَقَ منكم ذكراً وأنثى ليتمَّ التوادّ والتناسل، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ليُدركوا حكمة الحكيم الخبير في أنَّ إبقاء النوع الإنسانيِّ إنما يتمُّ بهذا، ويُدركون أنَّ هذا الحكيم العليم هو الذي يستحق أن يُعبَد، وأنَّ مَنْ قدر على تنويع هذا الجنس الواحد إلى هذين الصنفين الذكر والأنثى من مادة واحدة وماء واحد في رَحِم واحد قادرٌ أن يُعيدَهُ بعد الموت إلى الحياة.

ولا شكَّ أنَّ الزواج من أهم وسائل الحياة التي يتوقّف عليها بقاء النوع الإنساني، وهو المتمِّم للوظائف الحيويَّة، والأساس الذي ترتكز عليه العائلة والهيئة الاجتماعية والرابطة القومية التي تربط القلوب بالمحبة والاحترام، وبواسطته تتكوَّن الأُسَرُ ويحصل التعاون والتآلف والتعاضد والتناصر، إلى غير ذلك من عظائم الفوائد الاجتماعية. فهي آيةٌ كبرى، وحكمة جُلَّى، ودليلٌ واضح على حكمة الحكيم العليم، وقدرة القادر العظيم.

ثم تابع ذِكرَ الآيات الدالة على اختصاصه بأفعال الألوهيَّة واستحقاق الحمْد، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ قال في «مجمع البيان»: اختلاف الألسنة باختلاف أصواتها ونغماتها، حتى إنه لا يشتبه صوتان من شخصين هما أخوان، ولو كانا توأمين.

أقول: وكذلك الألوان، فلا تشتبه ملامحُ وجهين هما أخوان، بل توأمان. وهذا من كمال حكمته تعالى وبديع صُنْعه، ولولا هذا التمايز بالأصوات والملامح؛ لنشأ من الاشتباه فسادٌ كبير في نظام العالم الإنسانيّ وحالاته الاجتماعية. وأقلُّه: أن يشتبه الزوج على زوجه، وصاحب المال على العمال مثلاً، وناهيك في ذلك من اختلال الحالة الاجتماعية وانتشار الفوضى والفساد. والله أعلم. ولهذا ختمها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: المدقِّقين المتبصِّرين.

وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم تابع ذِكرَ الآيات التي تدلُّ على استحقاقه وحده لأن يُعْبَد ويُحْمَد، وعلى أنَّ الإعادة والحشر يسير على تلك القدرة، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ رغماً عن التفاوت العظيم بين حقيقة التراب وحقيقة البشر وطبيعتهما.

ويجوز أن يُراد بالخلق من التراب: خلقة آدَمَ أولِ الجنس البشري وأصلِه، فيكون فيه مجازُ إثباتِ ما للأصل إلى الفرع؛ لأنَّ عناصر الأصل تنتقل إلى الفرع. ويجوز أن يراد الترابُ الذي ينمو به النبات والشجر، فيتغذّى منهما الإنسان، فتتولّد منه النطفة التي يتكوّن منها الولد، فيكون الكلام على هذا شاملاً للأصل والفرع معاً، على نهج القرآن في مثله. ووجه العبرة في كلٍّ منهما: تحويل المادة الترابية إلى جسم مُكوَّن من لحم وعظم ودم، ويكون بشراً سوياً، فليس ببدع أن ينحلَّ هذا الجسم إلى أصله التراب، وليس ببدع أن يتحوَّل مثلُ ذلك التراب مرَّة ثانية إلى هذا الجسم، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. والله أعلم.

ثم تابع البيان عن الآيات، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

﴿تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فاستغرق الكلامُ بقسمَيْهِ أوقاتَ الصلوات الخمس: الأول لأوقات الليل الثلاثة، والثاني لوقتي النهار، لأن العشيَّ آخر النهار.

ثم ذكر دليل قدرته واختصاصه بأفعال الألوهية التي يستحقُّ بها ذلك الحمد، إذ لا شريك له فيها، فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالحيوان من موادِّه، والنباتِ من بذوره، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالموادِّ من الحيوان، والبذور من النبات.

وإطلاق كلمة ﴿ٱلْمَيِّتَ﴾ على الموادِّ والبذور هو من عُرْف التخاطب، فلا يعارضه ما يقوله العلماء من أنَّ فيها حياة أيضاً؛ لأنَّ إطلاقهم الحياة على ما فيها من قوة التوليد والإنبات[1] اصطلاحٌ عِلْميٌّ لا عُرفي.

ثم عطف على الجملة ما يشابهها من دليل القدرة، فقال: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يُنْبتها بعد يبسها وقُحولها، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الإنبات بعد اليبس ﴿تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ من قبوركم بعد الموت. وكثيراً ما يقيس القرآن الإعادةَ بعد الموت على الإنبات بعد اليبس، للمشابهة بين الأمرين في الجنس. وطبيعة زمن القيامة في إحيائه للأموات كطبيعة زمن الربيع في إحيائه للنبات[2].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ

---

(١) ليس في المواد والبذور قوة للتوليد والإنبات، بمعنى: قوة مؤثرة فاعلة لهذا التوليد والإنبات، بل الإنبات والتوليد فِعلُ الله تعالى، واقعٌ بإرادته وقدرته، أما المواد والبذور فأسباب أجرى الله تعالى سُنَّته بأن يخلق التوليد والإنبات عند اجتماعها وتوافقها.

(٢) انظر ما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون ص٢٨٦.

أي: يسكتون متحيِّرين مُنْخَذلين، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا﴾ لهم كما كانوا يزعمون، ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ حين تبيَّن لهم حقيقة أمرهم، وأدركوا جَهْلَهم وغباوتَهم بعبادتهم لهم. وفي طيَّات هذا البيان تسخيفٌ وتنديم.

ثم ذكر أمراً آخر من أمور ذلك اليوم، وهو التباين العظيم بين حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: المؤمنون والكافرون.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ من رياض الجنة ﴿يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: يَنعَمون ويُسَرُّون.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ والإحضار لا يكون إلا فيما يكرهُه الإنسان ويُجْبر عليه، كما يقال: أُحضِرَ فلانٌ مجلِسَ القضاء، أو للجزاء.

وبعد أن بيَّن حال المؤمنين والكافرين، بيَّن ما يُفْضي إلى الأول، ويُنجي من الثاني، وضمَّن ذلك إرشادَ المؤمنين إلى وسائل تثبيتهم في سلوكهم بقوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ وهذا مصدر نائب عن فِعلِه، أي: سبِّحوه ونـزِّهوه بالصلوات المفروضة في الأوقات التي تظهر فيها قدرتُه ظهوراً بارزاً، وتَتَجدَّد فيها نعمتُه، وهي: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ ويتبدَّل النهار بالليل، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: يتبدَّل الليل بالنهار، وتذهبون لطلب الرزق.

ثم قـرَّر ذلك بمـا هو كالتعليل له، أو لإفادة أنَّ ذلك لفائدتكم فهو غنيٌّ عن ذلك، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لِـمَا له فيهما من الآثار العظيمة التي يستحقُّ عليها الحمد فاحمدوه. فذكر السببَ وأراد المسبَّب، وعجَّل به قبل إتمام الأوقات قرناً للطلب بالتعليـل، ثم عطف على قولِه: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ قولَه: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ

عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ بتكذيبهم للرسل ومعارضتهم لهم؛ أن نالتهم الحالة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم قفَّى الإنكارَ على تكذيبِهم ما يتضمَّن الحشر، وكفرِهم بلقاء الله؛ بالإثبات القطعي لـه، على نـهج القـرآن في مثلـه، فقـال: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ فجعل القدرةَ على البَدْءِ دليلَ القدرة على الإعادة، لأنها ليست بأعجبَ من الخلق الأول، ولكنه لما كان مألوفاً لم نشعر بعجبه وعظمة شأنه، وأيُّ عجب أعجب من أن يتطوَّر الجنين في الرحم تطوراتِهِ العجيبةَ من قطرة ماء مهين، ثم يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ولا يزال يتطوَّر بجسمه وعقله حتى يستوي ويتكامل، وربما يكون عظيماً في أعماله سامياً في أفكاره، وقد يكون مكتشفاً باهراً أو ملكاً جباراً أو عالماً نحريراً، وأصله من ذلك الماء المهين! وفي عطف الإعادة على البَدْءِ بـ﴿ثُمَّ﴾ إلماعٌ إلى أنها متمِّمةٌ له ومنتظمٌ في سلكها لا يفترقان.

ثم ذكر بعض أحوال ذلك اليوم الذي يُرجَعُ فيه إلى الله، تلك الأحوال الموجبة للتبصُّر والانتباه والتحذُّر والاجتناب، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾

بقوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أولم يتفكَّروا في أنفسهم بأن الله سبحانه لم يخلق بدائع السماوات والأرض، وما فيها من عَجَائب المخلوقات التي منها هذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، إلا لمقاصدَ نبيلةٍ وغاياتٍ جليلة، تتحقَّق في وقتٍ مقدَّرٍ ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة، يوم لقاء الله العظيم؟ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾ ونَيْل جزائهم ﴿لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ رغماً عن ظهور الأمر ووضوحه؛ لأنَّ مِثلَ هذا العالم العظيم لا يُجَوِّزُ العقلُ أن يكون عبثاً، ولا أن ينتهي إلى فناء لا شيء بعده ولا غاية، ولا أن يكون مصير الإنسان كمصير الحيوان، ينعدم ولا يعود. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وبعد أن بيَّن عَدَمَ اتِّعاظهم بما في هذا الكون من الدلائل على صحَّة ما جاءهم به هذا الرسول، من توحيد الله وأمر الحشر والحساب، توعَّدهم بما جرى على المكذِّبين قبلهم، بطريقة الاستفهام الإنكاري، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعادٍ وثمود؟ ثم ذكر أنهم أدنى للهلاك من أولئك بحسب السنة الطبيعية؛ لأن أولئك ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكثرَ علماً ودراية، ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ بأمْيَز أنواع الحراثة والزراعة والغَرْس، ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا﴾ هؤلاء ﴿عَمَرُوهَا﴾ بإشادةِ القصور الفخمة والأبنية الضخمة والبروج الشاهقة، ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات والآيات الواضحات، فكذَّبوهم وقاوموهم، حتى يئس الرسل منهم، فأهلكهم الله بذنوبهم بعذاب الاستئصال، وقد أقام مقامَ هذه الجملة قولَه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بهذا الإهلاك؛ أي: ليس من شأنه أن يُهلِكَهم ظلماً وعدواناً، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ حيث عملوا ما أدَّى بها إلى شقائها وحرمانها السعادة التي كانت مستعدَّة لها لو لم يُفسِدوا فطرتها.

وقد عطف على هذه الجملة التي أقامها مقامَ تكذيبهم وإساءتهم قولَه: ﴿ثُمَّ كَانَ

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من تأجيل خِذلانِ المشركين وتعذيبهم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾، بمعنى: أنَّ ذلك التأخير لم يكن عن عجز في القدرة، ولكنْ رحمةً بهم لعلهم يثوبون إلى رُشْدهم.

ثم أكَّد هذا الوعد الكريم، وهو نَصْرُ المؤمنين على المشركين، فقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ شؤونَ الله سبحانه وحِكَمَهُ البالغةَ، فينكرون كلَّ ما لا يُرضيهم ظاهرُه، كتأجيل النصر للمؤمنين.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويبنون عليه الآمالَ الكاذبة، ولا يدرون ما وراء ذلك من خفايا وأسرار، وحِكَم وآثار، ولا يعقلون أنَّ كثيراً مما ظاهرُه مُشرِق يكون باطنُه محرقاً، وأن كثيراً مما صورتُه شرٌّ يكون معكسه خيراً.

ثم أردف نقصَ فهمهم هذا وبُعدَهم عن إدراك الحقائق، بما جرَّه عليهم من الغفلة عن أمر الآخرة، وما سبَّب لهم ذلك من شقاء؛ مبالغةً في التأنيب، فقال: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾، وفي ذِكرِ الغفلة إشارةٌ إلى أن الأمر ظاهر لمن وُفِّقَ أن يتفكَّر ويتدبَّر. وكرَّر الضمير لإفادة أنه الغفلة منهم؛ إذ أسباب التذكّر حاصلة لهم، ولكنهم يَغْترُّون بالدنيا ويجعلونها هدفاً، وما هي إلا بلاغ إلى الآخرة التي هي الهدف الصحيح والغرض الأسمى. والآية تنطبق على حال الأجانب اليوم.

ثم أنكر عليهم تلك الغفلة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ وما خلق الله فيها من الإبداع والحكمة في الجهاز الهضمي والقلب والرئة والجملة العصبية وسائر الأعضاء وسائر ما اشتملت عليه، وفي الجهاز العقلي وخوادمه من الحواس وأدواتها، وفي العظام المنوَّعة بمقتضى الحكمة البالغة، أليس الذي خلقكم بهذه الخِلْقة السديدة البديعة بقادرٍ على أن يُحييَ الموتى، وهو المُسْتَحِقُّ وحده للألوهيَّة؟! والأقرب أن يتعلَّق التفكُّر ويرتبط

الميلادي تُحيطان بشبه جزيرة العرب، لذلك شَمِتَ كفار مكة بالروم، وفرحوا لهزيمتهم، لأنهم أهل كتاب كالمسلمين، وحاولوا أن يُلصِقوا بدينهم عارَ اندحارهم.

أما المسلمون فشقَّ عليهم أمر الروم، وهم أهل كتاب مثلهم، وأدى هذا الخلاف بين مُسلمي مكة ومُشركيها إلى تَنَادر الفريقين فيما بينهم، وإلى تهكُّم الكفار بالمسلمين، فنزل قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقرب أرض الروم إلى فارس. وهذا القَيْدُ لدفع النقيصة عنهم.

ثم وعد بعودة الغلبة لهم، فقال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ والمصدر مضاف إلى المفعول، أي: من بعد مغلوبيتهم هذه، ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾[1] والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، أي: لا تمضي هذه المدة القصيرة حتى يعيدوا الكرَّة عليهم ويغلبوهم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: حين غُلبوا وحين يَغلِبون، بمعنى: أنَّ ذلك بأمر الله وقضائه ومُقْتضى حِكمتِه وسُنَنِه الكونية، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم يَغلِبُ الرومُ الفرسَ ويحلُّ ما وعد الله به سبحانه ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾، فقد جعل إعادة الكرَّة للروم على فارس، واسترجاع بيت المقدس منهم، موعداً لغلبةِ المسلمين للمشركين أيضاً، وفَرَحِهم بنصر الله الذي سَيُوافيهم، وقد صادف ذلك يوم بدر. والله سبحانه ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحقُّ النصر ويأخذ له أُهْبَتَه.

---

(١) لما كان الناس يَجْرون في حسابهم السنوي على طرق، منها القمري ومنها الشمسي، ومنهم من يكمل الكسور في الشمسي ومنهم من يلغيها، كان من مقتضى الحكمة في تحرِّي الصدق الذي هو من شأن القرآن في تعابيره: أن يعبِّر بلفظة «البضع» دون التحديد؛ ليكون أقطعَ لكل شبهة، وأبعدَ عن كل جدل ومكابرة. (المؤلف).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى الۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ الۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ الۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ اللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ الۡعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ اللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ اللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ النَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ الۡحَيَوٰةِ الدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ الۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِالۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي الۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ الۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِالۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به، ومنه هنا: قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾﴾، ولهذا الكلام تأريخ نذكره:

كان أهل مكة ـ المسلمون منهم والمشركون ـ يَتَتَبَّعون أخبار الحرب القائمة حينئذ بين الروم والفرس بتَلَهُّف وشَغَف؛ لأنَّ هاتين الدولتين هما أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ، وكانت الدولة الرومانية تمثِّل الدين المسيحي، والدولة الفارسية تمثل الدين المجوسي، ومعهما الدُّوَيْلات المتَّصلة بهما والخاضعة لنفوذهما، وكانتا في أوائل القرن



مكية إلا قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ...﴾ [١٧]،

وهي ستون آية

موضوعها: تسلية المؤمنين عما يصيبهم من أذى المشركين وتثبيتهم، وتأكيد وعده لهم بالنصر عليهم، حيث أوْهى ما تَفَاءل به المشركون، وتوعَّدهم بما سيكون من ردِّ الفعل وعكس النصر الذي تفاءلوا به.

وقد جاء هذا بعد ما جاء فيما قبلها من التلميح إلى وَعْد المسلمين بالنصر على المشركين.

* * *

عند تحريم الله إيَّاه أن يُمسَّ بأذى، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قتلاً وسبياً ونهباً وسلباً؛ إذ كانت العرب حوله في تَغاوُرٍ وتَناهُب، يُذكِّرهم منَّته عليهم بجَعْل بلدهم حَرَماً آمناً تحترمه الناس، وتحترمهم من ورائه، ويُبصِّرهم بموضع نعمة الله فيهم بهذا البيت ليُذْعنوا بالطاعة، ويَنْزجروا عن عبادة غيره.

ثم ينكر عليهم ويُؤنِّبهم بقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أبعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه يؤمنون بالباطل دون الحق، ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ عليهم ﴿يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾ ولا يَرعَوْنها، ويشركون بربِّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟! وتقديم الصلة في الموضِعَيْن لإظهار شدَّة الشناعة فيما فعلوا.

ثم زاد في تقريعهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بزعمه أنَّ له شريكاً، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ وهو الرسول والقرآن المنزَّل عليه بالتوحيد. ثم بالغ في توعُّدهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾، وهذا تقرير لثوائهم فيها بصورة ما هو معروف بداهة، أي: أليس هذا أمراً واقعاً معروفاً؟.

ثم ختم السورة ببيان حال المؤمنين ومصيرهم في مقابلة حال الكافرين ومصيرهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ بصالح أعمالهم ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] أي: المُوصلة إلى نعيمنا العظيم الدائم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾[2] مَعيَّةَ نَصْرٍ ومعونة توفيق. اللهُمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

---

(١) المراد بالهداية إلى السُّبُل: سُبُلُ نجاتهم وسلامتهم من المشركين والمتجبِّرين، وتيسير طرق هجرة آمنة، معها تأمين رزقهم ومعاشهم. أما سبيل الدين فهو واحد، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(٢) الذين أحسنوا التَّصرُّف واتَّخذوا الشروط السببيَّة الملائمة.

وبعد أن زهَّد في الدنيا نوَّه بشأن الآخرة؛ تقريعاً للمشركين وتجهيلاً لهم، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، والحيوان: مصدر حَيَّ، كالدوران والغليان. والمعنى: حياة الدار الآخرة هي الحياة الصحيحة القيِّمة الشريفة الدائمة، لا هذه الحياة الدنيا الخسيسة المنغِّصة الزائلة، التي هي بمثابة لَـهْوِ الصبيان ولعبهم.

ثم ذَكَّرهم بدليلِ التوحيد الفطري المسمَّى بالغريزة الدينية، بعد أن ذكّرهم بالدليل العقلي، والدليلُ الفطري: هو الذي تحسّ به النفوس بطبيعتها عند الشدائد، ذكَّرهم به، فقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ ولَقُوا شدَّة، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لا يتوجَّهون لغيره، ولا يذكرون الأصنام، يندفعون إلى ذلك بدافع الفطرة؛ لأنهم مفطورون على التوحيد، ويخفى الشرك بهذه الشدَّة لأنه عارض، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ ﴾ سبحانه وتعالى من شدّتهم، وأوصَلَهم ﴿ إِلَى ٱلْبَرِّ ﴾، وزالت عنهم تلك الغصَّة؛ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: فاجؤوا العودة إلى الشِّرك الذي ألفوه بتحريف فِطَرِهم بالتربية والتقليد.

أما قوله: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ أي: من النِّعَم ومنها الإنجاء، فيجوز أن يكون اللام للأمر والكلام على التهديد، أو لام «كي» والكلام لزيادة التشنيع والتوبيخ. ويجوز أن تكون الباء للتعدية أو السببية، وكذلك قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قليلاً، فإما أن يكون اللام للأمر أيضاً والكلام على التهديد والتوعُّد، وإما أن يكون لام «كي» والكلام على التجهيل والتسخيف، إذ يستبدلون المتعة القليلة المؤقتة بالنعيم الدائم المقيم.

ثم هدَّدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: عاقبةَ ذلك وغائلتَه وخسرانَهم العظيم، حيث يرون العذاب الأليم.

ثم ذكّرهم بمِنَّة الله عليهم، تبصرةً وإرشاداً لِـمَا آتاهم وتحسيساً به، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ بَلَدَهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ من النَّهب والسَّلب، لا تعبث به يدُ عابث، وقوفاً

وجاعل البسط والقَدْر بنسبة درجةِ التمسُّك بذلك النظام. والله أعلم. ومُحصَّل المعنى: إنَّ الله سبحانه شاء أن يبسطَ الرزق لمن يتمسَّك بالأسباب أينما كان[1].

ثم عاد إلى المشركين المعاندين يُلزِمُهم بالبراهين، على نهج القرآن في مُخاطبة المؤمنين والمشركين بأسلوب مَنْ يخاطب عبدَيْن: أحدهما رشيد، والآخر سفيه عنيد، فيلفت الخطاب إلى هذا تارة وإلى ذاك أخرى، ليكون في الكلام زيادة إرشاد وتشجيع للرشيد، وزيادة تقريع وزَجْر للسفيه العنيد، ذاكراً سبحانه باباً عظيماً من أبواب الرزق والسَّعة فيه، ومذكِّراً بالقدرة على الحشر والإعادة، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترفين بأنه المُوجِدُ للمُمْكنات بأسرها؛ أصولها وفروعها، وأنه مختصٌّ بأفعال الألوهية وصفاتها، ومع ذلك يُشرِكون به بعضَ مخلوقاته؛ ليقرِّبهم إليه زُلفى.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عَصَمَك من مثل هذه الضلالة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أصبحوا ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لِمَا حرَّفوه من مُحكَم طبيعتهم، وطمسوه من نور بصيرتهم، فيأتون بالمتناقضات في عقائدهم، يُقِرُّون باختصاصه تعالى بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، ثم يُشْركون به مَنْ لا يَخْلُق شيئاً وهم يُخْلَقُون.

ثم زهَّد في أمر هذه الدنيا تهويناً على المؤمنين، ولا سيما المهاجرين منهم، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ كاللعب واللهو الذي يجتمع عليه الصبيان، يبتهجون ساعة ثم يتفرَّقون وقد أجهدوا أنفسهم بما لا طائل تحته ولا محصول.

---

(١) التمسُّك بالأسباب عملٌ مطلوبٌ من الإنسان، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى قد يبسط الرزق للعبد مع تمسُّك يسير بالأسباب، ويقدر على عبد مع تمسُّك شديد بها، لحكمةٍ يريدها الله تعالى، فليس الأمر مقروناً بالتمسك بالأسباب فقط.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثم لفت الكلام نَحْوَ المشركين المعاندين، يُلزِمُهم بالبراهين التي لا يُمكِنُهم أن يُنكِروها، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ كلٌّ يجري لأجل مُسمّى؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولا ينكرون ذلك، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: فكيف يُصرَفون عن عبادة الله وحده، مع علمهم وتصديقهم باختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاتها.

وبعد التنبيه لقدرة الله العظيمة الشأن ضِمْنَ هذا البيان، عادَ إلى المؤمنين المستضعَفِين يُشجِّعهم على الهجرة في أرض الله الواسعة، ويُرشِدُهم إلى أنَّ سَعَة الرزق وضيقَه بيد القادر، فلا يَخشَوا ضَنْك العيش إذا هاجروا، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ حيناً، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ حيناً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ ويجوز أن تكون نسبة البسط والإقدار إليه تعالى؛ لأنه واضعُ نظام كَسْب الرزق بين أيدي العباد،

والإخلاص في عبادتي، إلى أرض تَتَمكَّنون فيها من إجراء ذلك. وقد أقام مقام هذا الكلام المقدَّر قوله: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾.

ثم شجَّعهم على ذلك بقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ فلا تُرهِبْكم الهجرةُ في سبيل الله، ولا يُرهِبكم تهديدُ المانعين لكم من عبادة الله، ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ فتنالون الجزاءَ الأوفى.

ثم فصَّل بعض ذلك الجزاء بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾ أي: لَنُنزِلَنَّهم ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ثم بالغ في الإغراء بقوله: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨﴾ هذا الجزاء.

ثم بيَّن بعضَ صفات أولئك المؤمنين الذين استحقُّوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذيَّة المشركين وشدائد المُهاجَرة وغير ذلك من المِحَن، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ أي: ولم يتوكَّلوا فيما يأتون ويَذَرُونَ إلا على الله.

ثم لما ألمع إلى الأمر بالهجرة وذكر صبرهم هذا وتوكّلهم، مرغِّباً به في سبيل تحمُّل الهجرة وتَرْك ممتلكاتهم وأسباب معاشهم، أيَّده وهوَّنه بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ كنَّى بهذا عن عدم الادِّخار والنقل، أي: كم من الدواب في هذه الأرض لا تَدَّخِرُ رزقَها ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾، وهذا نوع من أنواع قياس النظير، والمعنى: أنه لا شكَّ في أنَّ رزقها ليس إلا بأسباب الله وتفتيشها عنه، بتشبُّثها بها، فكذلك يرزقكم إن هاجرتُم واتَّبعتُمُ الأسباب الطبيعية في تحصيل المعاش، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ لا تخفى عليه أحوالُكم، فيُسوِّيها لكم ويُصْلحها، فلا ترغبوا عن الهجرة وتخلدوا إلى الضَّيْم، مَخافةَ الفقر وسوء الحال. وقد كان المهاجرون يتشبَّثون بأسباب الرزق في المدينة فأغْـدَقَه الله عليهم، حتى إنَّ بعضهم أثرى ثراء عظيماً في التجارة، كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

ثم تابع الكلامَ عن عنادهم، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: استبعاداً واستهزاءً، ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لكلِّ عذاب، أو المعنى: لولا أجلٌ مُسمّىً قد ضَرَبَه الله تعالى لعذابهم؛ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ حين استعجالهم له، ولكنْ لا يأتيهم إلا بأجله المضروب، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم توعَّدهم فوق ذلك بعذاب الآخرة، وأورد الكلام بصورة التعجيب من شأنهم، والتشنيع بجهلهم ورَكَاكة رأيهم في استعجال عذاب الدنيا استهزاءً، وشدَّة غفلتهم عمَّا سيؤول إليه حالُهم في الآخرة، وقد سبك ذلك على تحسيسهم بمصيرهم، فقال: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يستعجلونك بعذاب الدنيا استهزاء، ولم يعلموا أنَّ وراءهم في الآخرة عذاباً أليماً فوق عذاب الدنيا، فلينتظروا ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وهذا تفصيلٌ للإحاطة، ﴿وَ﴾لزيادة الإيلام والتنديم ﴿يَقُولُ﴾ الله لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: جزاءَ عملِكم القبيح في الدنيا. ويجوز أن يكون هذا القول بواسطة الملائكة الموكَّلين بهم، والله أعلم، أو هو عبارة عما يقوله الناس في مثل هذا ويؤنِّبون، مستعارٌ من حال المُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم التفت إلى المؤمنين المستضعفين الذين قد قهرهم أولئك المعاندون محاولين فتنتَهم عن دينهم، فقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ولم يقدروا أن يقيموا أمور الدِّين كما ينبغي في بلدهم ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجِرُوا من أرض يمنعكم أهلُها من الإيمان

سبحانه هو الذي يُنزِلُ الآيات كما يشاء، وليس النبي إلا نذيراً لهم لا يملك أن يقترح على الله شيئاً، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم تمَّم الردَّ بأنَّ هذا القرآن أعظمُ الآيات والمعجزات لو كانوا يفقهون، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: لقوم همُّهم الإيمانُ لا العِناد.

فبيَّن تعالى أنَّ في إنزال هذا القرآن عليه دلالةً واضحة، ومعجزةً باهرة، وحُجَّةً بالغة، تنزاح معها العلل، فلا يُحتاجُ للوصول إلى العلم في صحَّة نبوته ﷺ إلى غير هذا القرآن من المعجزات، إذ مَنْ أمْعَنَ النظر فيه رآه دعوى حقٍّ برهانُها فيها، ومقالةَ صدقٍ شاهدُها منها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ويُفهَمُ من فحوى هذا الجواب: أنَّ تنشئة الرسل تختلف باختلاف الأزمان والعصور، وتتناسب معها، وكذلك المعجزات التي تُؤيِّدهم، تختلف بهذا الاختلاف. وفي عصر النبيِّ ﷺ انقضى زمن المعجزات الحسيَّة، وأصبح العقل البشري يريد أن يدرك هذا الأمر بطريقة علمية، وبراهين قطعية، ليعلمه علم اليقين وحق اليقين، فأنزل الله هذا القرآن المبين بالحُجَج والبيِّنات، والبراهين الدامغات.

ثم أردف الردَّ بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾، وشهادتُه تعالى: إنزالُه عليه هذا الكتابَ المعجِزَ، وهو كما قلنا: دعوى حُجَّتُها فيها، وبرهانُها منها، فطابعه الخاصُّ يوضِّح أنه من عند الله، وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويعلم ما يُصلح شأنكم، وما تحتاجون إليه من التعاليم، فأرسلها إليكم، فالذين آمنوا بها هم الفائزون، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ وهو ما يُعْبَدُ من دون الله ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

الكتاب في عصرك ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أيضاً، كعبد الله بن سَلَام وأضرابه الذين لم يُعْمِ العِنادُ بصائرَهم، فعلموا أنه مُنزَّل من ربِّك بالحق، حسبما وَعَدتْ به كُتُبُهم.

ويجوز أن يراد بهؤلاء: مشركو قريش، وبالإيمان به: إدراك أنه من عند الله، فبعضهم يعلم ذلك، ولكنه يجحد استكباراً وعِناداً، وخوفاً على مركزه الموهوم من الضياع إذا صار من الأتباع، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ مع ظهورها وقيام الحجَّة عليها ﴿إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم قرَّر المعنى بنفي احتمال أن يكون القرآن من كلام محمد ﷺ، وسَبَك النفي على دليله القطعي، إيذاناً بأنه لا مجَال للجحود، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، فظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم النبيلة، والتعاليم الجليلة، والإرشادات العالية، والتوجيهات السامية، على لسان أُمِّيٍّ لم يُعرف بالقراءة والكتابة، لا يحتمل الريبةَ في أنه من عند الله.

وقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ تتميمٌ وإيغالٌ أفاد نفيَ التجوُّز بالإسناد، والمبالغةَ في تقرير المنفي، أي: إنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة أبداً، فكيف تُخرِجُ هذا الكتاب؟ ولو كنتَ تقرأ وتكتب ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: لكان لريبةِ المبطلين وَجْهٌ، ولو على بُعْد، أما وأنتَ لا تقرأ ولا تكتب، فلا وَجْهَ للريبة أبداً، ولو مع العناد والشُّبَه البعاد.

ثم أردف ذلك ببيان الحقيقة فيه، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: الذين يكابرون ويعاندون مع وضوح الحُجَج والبراهين، ظلماً وعدواناً.

ثم حكى لهم معانَدةً أخرى من تَعَنُّتهم وفتونهم، وردَّها عليهم، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: معجزاتٌ كاليد والعصا. فردَّ الله عليهم بأنَّ الله

وبعد أن أمره بالإرشاد والدعوة إلى الرَّشاد بالكتاب المبين، بيَّن له ما يجب أن يتَّبعه من الخطط في ذلك مع أهل الكتب السماوية، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ لأنَّ منهم مَنْ يقرُّ بالتوحيد في الجملة، ولا سيما في عصر التنزيل، أو لأنَّ مداركهم فيه وفي متعلِّقاته ليست كمدارك المشركين من قريش.

ثم استثنى من عموم أهل الكتاب الذين يُضَاهون المشركين منهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة، فإنهم قد ضاهَوُا المشركين في الشرك، فهم مِثلُهم في البلادة والعِناد؛ لإفسادهم لِفِطَرِهم، ومَحْقِهم لبصائرهم.

وعن أبي مسلم: إنَّ المراد: إلا الذين ظلموا بالعناد وكتمان صفة نبينا ﷺ. وقيل: إلا الذين عاملوكم بالقوَّة والقَهْر من أهل الكتاب، فقابلوهم بمثله.

ثم إنه تعالى بيَّن شيئاً من موضوع المجادلة ومدارها في تلك الطريقة الحُسْنى التي يجب أن يُتَّبع معهم، فقال: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾، ولا يخفى أن ما في أيديهم الآن من الكتب ليس هو المنزَّل من عند الله، وهم يقرُّون بأنها تأريخ لحياة عيسى عليه السلام، وحياة بعض الأنبياء لا غير، وأنها من مؤلَّفات البشر في ذلك الموضوع، والتوراة التي بأيدي اليهود الآن كُتِبَ بعد فَقْدِ التوراة المنزَّلة بعدَّة قرون، كَتَبَه عزرةُ الكاهن.

ثم بيَّن وَجْهَ هذا القول وأيَّده بأنه معروف في كتبهم؛ لأنهم وُعِدُوا فيها بهذا القرآن، وأنكر على مَنْ ينكر ذلك منهم ونَدَّد به، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: كما أنزلنا كتباً على مَنْ تَقَدَّمك أنزلنا عليك هذا القرآن، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من أهل العصور القديمة، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن غيباً؛ لأنه منوَّه بشأنه في كتبهم، ومأمورون أن يؤمنوا به إذا نزل، ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أهل

بآي القرآن والذِّكر الحكيم تُغـذِّي روحَه غذاءً صالحاً يحفظها من شوائب الأدران والأمراض النفسيَّـة، حيث إنَّ صِدقَ التـوجُّه إلى الله في الصَّلاة والخشوعَ لِعَـظَمته وإشعارَ القلب بمناجاته بما فيها من ذِكرٍ ودعاء وقرآن فيه كلُّ أنواع الثقافة للإنسان؛ إنَّ ذلك يُنمِّي الإيمان ويُنير البصيرة، فتكون أقوى نَـفَاذاً في الحق، وأشدَّ بُعداً عن الأهواء، فتنزِّه النفس عن أن تأتي بالفواحش والمنكرات، وذلك هو الإنسانية الكاملة، وغاية الآداب، ونهاية مكارم الأخلاق. وقد جاء في الحديث: «ليس للرجل من صلاته إلا ما عقل منها»[1]، وجاء أيضاً: «مَنْ لم تَنهَه صلاتُه عن الفحشاء، لم يَزْدَد من الله إلا بُعْداً»[2].

فهذه الصلاة المقامة هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: وذِكرُه سبحانه وتعالى ـ على مثل هذه الصُّورة من إمعان النظر وحضور القلب ـ أكبرُ شيء تأثيراً وإصلاحاً في الأرواح. وقيل: بل المعنى: ولَذِكْرُ الله تعالى عند الفحشاء والمنكر أكبرُ في الزجر عنهما. وقيل: بل المعنى: ولَذِكْرُ الله إيَّاكم برحمته أكبرُ من ذِكرِكم إيَّاه بطاعته.

ثم بالغ في الحثِّ على الإحسان في العمل، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: هو مُطَّلع على الأعمال، ولا يرضيه منها إلا ما كان متقناً سديداً. وفي صورة التركيب ترغيبٌ وترهيب.

---

(١) سلف تخريجه (٤: ٤٠٣، ٥٦٥).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٩: ١٠٣) عن ابن مسعود موقوفاً بلفظ: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢: ٥٣١): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١١: ٥٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (١: ٣٩٨): إسناده لين.

يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم التفت إلى النبي ﷺ، وأمره بالاستمرار في مهمته قولاً وفعلاً، فقال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إرشاداً للناس ودعوةً إلى الحق، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتِ بها مقامةً كاملةً؛ تعي فيها ما تقول وتناجي به ربك، ويتَّبعك فيها أصحابُك؛ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ إذا كانت بهذه المَثابة وعلى هذه الصورة؛ لأنَّ الصلاة المقامة تكون وسيلةً قويةً لاتِّصال النفس بخالقها، وخضوعها له، وكفِّها عن الذنوب والآثام، خشيةً منه ورغبةً في رضاه، فضلاً عما تُؤثِّره في النفس من الصلاح والكمال وعُلوِّ الأخلاق، فهي عنصر عظيم من عناصر التثقيف والتهذيب، ولذلك ليس لتركها عُذرٌ حتى الموت.

وهذا الخطاب يُراد به العموم، ومفاده: أنَّ التالي إذا تلا هذا القرآن ووعاه، وتشرَّب به قلبُه، وتعوَّد على ذلك، فممَّا لا شك فيه أنه بتَعوُّده يُقيمُ الصلاة كاملةً مُؤدَّاةً بروحها ومعناها، لا صورةً مجرَّدة عن الروح، وبحالة ميكانيكية ربما يذهل فيها عن نفسه، فضلاً عن صلاته وعن الله سبحانه، كما هو شأن أكثر الـمُصلِّين.

والصلاة إذا أُقيمت بحضور قلب وعلى صورة صحيحة، فلا شكَّ أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها تجعل ذلك المصلِّي رجلاً ربَّانياً تقياً إنسانياً؛ لأن مناجاة الله تعالى

ثم بالغ في التحسيس إلى موضع العبرة والإرشاد فيما تقدَّم، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ﴾ ـ يعني: هذا المَثَل ونظائره التي تُذكَر في القرآن ـ إنما ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لِمَا بَعُدَ عن أفهامهم، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الذين يتدبَّرون الأشياء على ما ينبغي، وأما الجاهلون فيقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]. وفي هذا التذييل حثٌّ على تعقُّلها وفهمها.

ثم عقَّب هذا التنديد والتأنيب بالدعوة إلى الرشاد، على نهج القرآن، ولفت نظرهم إلى خَلْق السماوات والأرض الدالِّ على اختصاص الخالق بالألوهيَّة، وأنه أمر لا يُسَلِّمُ العقلُ السليمُ بانتهائه إلى خرابٍ ليس بعده عَمَارٌ، أو ليس بعده غايةٌ وثمار، فقال: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لمقاصدَ نبيلةٍ وغاياتٍ جليلة، وعلى وجه الحكمة والضبط الدقيق في التنظيم والإتقان، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ واضحةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الذين يعلمون أنَّ خَلْقَ السماوات والأرض لم يكن عَبَثاً، ولا شيئاً سُدىً، ولكن لأمرٍ له ما بعده من الحشر والحساب.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ

يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم ضرب مثلاً لهؤلاء المشركين وشركائهم في وهن أمرهم ووهيه، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعتقدون فيهم النفعَ والضُّرَّ والوساطة، وأنهم في أَسْرِهم وتحت قَهْرِهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فسدَّت عليها المنافذ من كل جانب، وحبست نفسها فيه؛ لأنَّ نَزْعة الشِّرك تأسر العقول بالخرافات، وتحبس النفوس بالأوهام، فتتحطَّم وتخور.

ثم ذيَّل المعنى من ناحية الوهي والوهن؛ لأنه أوضح وأجلى، فقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: لو كانوا من أهل المعرفة والعلم السديد. وفي هذا التذييل مبالغةٌ في وهن أمرهم الشبيه ببيت العنكبوت ووَهْيه وانحطاطه.

ويجوز أن يكون المعنى: إن مثلهم بالإضافة إلى الـمُوحِّد؛ كمَثَل العنكبوت وبيتها بالإضافة إلى رجل بنى له أفخَمَ قصر من أقوى المواد البنائية، وهو المؤمن الصادق الإيمان. وقد مثَّلهم الله سبحانه بقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وبقوله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩] الآيات.

ثم توعَّدهم سبحانه وتعالى ضمن ما هو كالجواب لِـمَا عساهم أن يقولوه، من أننا لا نعبد شيئاً على هذه الشاكلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ فيؤخِّر عقوبتَهم مع أمرهم هذا، لا عن عجز في القدرة، ولكن رجاءَ أن يثوبوا إلى رُشْدهم.

﴿مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ عندما تجتازونها ذهاباً إلى الشام وإياباً منها؛ تبيَّن لكم من تلك الآثار والأبنية الخاوية في الحِجْر كيف فعلنا بهم، ﴿وَ﴾ كان قد ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مُتمكِّنين من النظر والاستبصار لو بقوا على سَلامة فِطَرِهم، أو مُتبيِّنين أنَّ العذابَ لاحقٌ بهم، بإخبار الرسل لهم.

ثم ذكر الأفراد الذين كان هذا دأبهم أيضاً، فقال: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من الآيات والمعجزات، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُعْرِضينَ عن الحق، فأخذهم العذاب ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ لنا ﴿سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، وهذا مستعارٌ من حال الـمُخاطَبين، من قولهم: سبق طالِبَه؛ إذا فاته ولم يدركه. والاستعارةُ لأفعال الله سبحانه من حالة الـمُخاطَبين، هي من مناهج القرآن لتقريب المعنى من الأذهان، (كما جاء ذلك في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

ثم فصَّل ذلك العذاب بعض التفصيل، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقوم لوط حيث أُمطِرَتْ عليهم حجارةٌ من سِجِّيل تحصبُهم حَصْباً، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كمَدْيَن وثمود نزلت بهم صاعقةُ العذاب، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بإصرارهم على الشِّرك والبغي والعدوان، نتيجةً لإفساد غريزتهم وتدسيتهم لها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة شعيب مع قومه، فقال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ومَدْيَن: أبو قبيلة سُمِّيت به، وقد أرسل الله إليها شعيباً، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ أي: توقَّعوا ما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون بها غائلته، وترجون ثوابه، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وهذه حالٌ مؤكّدة؛ لأنَّ العثوَّ هو الفساد.

ثم ذكر ما كان من تكذيبهم له ونزول العذاب بهم، وقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أي: الزلزلة الشديدة، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: ميِّتين خامدين.

ثم ذكر قصَّة بقية الأمم والأفراد الذين أصابهم ما أصابهم بمعاندتهم لرسلهم ومعارضتهم لهم، فقال: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ [1] وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ أمرُهم ﴿مِّن

(١) نُصِبَ الاسمانِ بإضمار: اذكُرْ، أو بفعلٍ دلَّ عليه السياق، مثل: أهلكنا. (المؤلف).

إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فكيف تهلكونها وهو فيها؟! ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: الماضين الباقين في العذاب، أو في القرية مع الهالكين.

ثم حكى ما كان من أمر الرسل مع لوط، وخَوْفَه عليهم من قومه، قبل أن يعرفهم رسلاً من الملائكة، فقال: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، وكلمة ﴿أَن﴾ صلةٌ لتأكيد ما بين فعل الشرط وجوابه من الاتِّصال، وهو قوله: ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾، وإنما سيء بهم مَخافةَ أن يتعرَّض له قومه بسوء، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذَرْعُه، أي: طاقتُه. فلما رأوا منه ذلك هوَّنوا عليه ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، وقد بيَّنوا له ما يُوجب زوال خوفه، وهو أنهم ليسوا من البشر، وإنما هم ملائكة، مُنْزِلون بقومه العذاب، ومُنَجُّوه وأهله. فحكى ذلك سبحانه عنهم موجزاً، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: من الهالكين، ممن يصيبهم العذاب.

وفي هذا البيان إيماءٌ إلى أنهم ملائكة لا يقدر قومه عليهم، واكتفوا به عن التصريح، على نهج القرآن في مثله، بمقتضى البلاغة العالية. وقد جاء فِعلُ التنجية مُعَجَّلاً للاحتراس عن تسرُّب الخوف إلى قلبه من نزول العذاب بقريته، على نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم ذكر هذا العذاب النازل، فقال: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذاباً شديداً من السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ختم القصَّة بما فيه تحسيس بالعبرة، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ أي: من القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ وهي حكايتها الشائعة بعد أن ابتلعها البحر، تركناها عِبرةً ظاهرةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لمن هم من أهل العقل والدراية. وفي هذا الوصف تعريضٌ بكفار قريش، وتحريضٌ للنفوس.

فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر قصة لوط مع قومه تتمَّةً لقصة إبراهيم، لأنها منها، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي: الفعلة المتناهية في القُبْح، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وهذا يدلُّ على أنهم أولُ مَنْ أحدث هذه الفعلة الشنيعة، ولذلك سُمِّيت بهم.

ثم فسَّر تلك الفاحشة بأسلوب الاستفهام التوبيخي، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ شهوةً من دون النساء، يبيِّن سفالتَهم في ذلك، وخروجَهم عن مُقْتضى الفطرة والطبيعة، وعمَّا اشتملت عليه الغريزة من الحكمة، وهي بقاء النوع بدوام النسل، ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ أي: بالنهب والقتل، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ أي: المُستقبَح من الأفعال والأقوال، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ له ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ متعنِّتين متجبِّرين: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، يستخفُّون بوعيده لهم، ويهزؤون به.

فلما يئس منهم واشتدَّ أذاهم ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فأنجز الله وَعْدَه فيهم، كما حكى ذلك بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ أي: يبشِّرونه بالولد ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: قرية لوط، وهي سدوم، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، فجادلهم في شأن لوط و﴿قَالَ

ثم تابع سبحانه حكاية ما قاله إبراهيم، وعطف على قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ قولَه: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إني مهاجرٌ إلى حيثُ أمرني ربي، إنه هو الغالب على أمرنا، فيمنعني من أعدائي، ولا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمةٌ ومصلحة وسَدَاد، فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. وذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام لـمّا يئس من إيمان قومه واشتدَّ أذاهم له أُمِرَ بالهجرة، فهاجر هو وامرأته سارة، وكانت ابنةَ عمِّه، ومعهما لوطٌ ابنُ أخيه من سواد الكوفة إلى أرض الشام، ثم إلى فلسطين، فنزل بها، ونزل لوط سدوم.

ثم ذكر سبحانه ما أكرمه بها من الكرامة، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي: لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بنَ إسحاق من عجوز عاقر، وهي سارة، فكان ولادتُها لإسحاق من أعجب الكرامة وأعزِّها، ولذلك لم يذكر إسماعيلَ وَلَدَ هاجَرَ إلا في عموم قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾، لأن هاجَرَ جارية شابة لا عجب فيها، ولكن العجب في سارة العجوز، وكان ذلك إجابة لدعائه، فأكثر منهم الأنبياء، ولم يكن منذ ذلك التاريخ نبيٌّ إلا من ذُرِّيته، ﴿وَ﴾ أنزل عليهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: جنسَ الكتاب المتناول للكتب المنزلة، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ بذلك ﴿أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ الفائزين فيها بما لا عَيْنٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاءِ ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مستعدون للإيمان، بمحافظتهم على سلامة فطرتهم؛ إذ هم الذين يدركون أنَّ ذلك من قدرة الله القادر.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ...﴾ مربوطٌ بقول إبراهيم لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، وما بينهما استئنافٌ من كلام الله تعالى، جاء بصورة تعليق على ما قبله، على نهج القرآن في مثل ذلك، أو بصورة عَوْدٍ إلى المشركين كذلك عند مَنْ لا يراه من القصة.

ثم إن إبراهيم عليه السلام لم يمنعه ما فعلوا معه أو قصدوا أن يفعلوه، من أن يعود إلى الإنكار على عبادتهم وتكرير الدعوة لهم، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنَّما عَبَدتم هذه الأوثان لا لدليل مُقْنع، ولكن لِتَتواصَلوا وتَتَوادُّوا فيما بينكم، وتكونوا حزباً واحداً؛ يريد: ليكون ذلك وسيلةً للترابط فيما بينكم والاتحاد، والقيام بقواعد التقاليد الاجتماعية الشعبية والتعصُّب لها. أي: أطاع المرؤوسُ الرئيسَ في ذلك، لا لأنه قانعٌ بصحَّة هذه العبادة، بل للمحافظة على التَّوادِّ والتكاتف، بدافع التَّحزُّب والعصبيَّة في الحياة الدنيا، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينقلب بكم الحال، ويتبدَّل التوادُّ تباغضاً؛ حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع القادة، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أن الإيمان بهذه الدعوة كان مقتصراً على لوط عليه السلام، رغماً عن تتابعها وقوة حججها، فقال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: فأذعن له لوط بنتيجة هذا الإرشاد المديد، وبما رآه من معجزة إبراهيم، وما هو عليه من السَّداد، وهو ابن أخيه، وذلك قبل أن أتته الرسالة.

ثم أيأسهم من الإفلات والنجاة منه تعالى، فقال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ينجيكم من عذاب الله ولهيب السعير.

وبعد أن قرَّر التوحيد والإعادة وأثبتهما بالدليل القاطع، توعَّد من كَفَر بهما بهذا الوعيد ـ الشامل بعمومه لقوم إبراهيم وكفار قريش معاً ـ وجَعَل الكلام حَلْقةَ عَوْدٍ إلى أصل السياق، وهو قصَّة إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ يوم القيامة، وقد استعار اليأس للحرمان تصويراً لتأبيده، أو هو مَجَازٌ مُرسَلٌ بما سيؤول إليه أمرُهم.

ثم أشفعه بقوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، وتكريرُ اسم الإشارة لتقرير التسجيل عليهم بذلك.

وإلى هنا ينتهي الاستطراد عند مَنْ يرى أنه جاء معترضاً في القصة بذِكرِ شأنه ﷺ وقريش، وهَدْم مذهبهم، والوعيد على سوء صنيعهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم عاد ـ على نهج القرآن في نقل أجزاء الكلام ـ وذكر سبحانه ما كان من أمر قوم إبراهيم لـمّا أفحمهم بالبرهان السابق، إذ عمدوا إلى السفاهة والإيقاع به، دأب أمثالهم في ذلك، وقد أنجاه الله منهم، فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ

ثم حقَّق ذلك بهذا التعليل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكر المصير بعد النشأة الآخرة من نعيم أو شقاء، وأنه يجري بسلطان الله، لا يعارضه سبحانه في إنجازه مُعارِض، ولا يمانع فيه ممانع، وجعل ذلك تأييداً للقدرة، ومثالاً منها، وبياناً لمصير المؤمنين والكافرين، فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: بيده تعالى التعذيبُ والشقاءُ، والرحمةُ والهناءُ. وليس المعنى: أنه سبحانه يُجري ذلك اعتباطاً وجزافاً، كَلَّا، فإنَّ مشيئته تعالى لا تجري إلا بالحق والعدالة، وفي سنن مطَّردة، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ مَنْ يستحقُّ التعذيب والشقاء، ورحمةَ مَنْ يستحقُّ الرحمة والهناء، إذ سبقت مشيئتُه الأزلية أن يعذِّب مَنْ أفسد فطرتَه ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يرحمَ من حافظ على سلامتها وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كَسَبت وعليها ما اكتَسَبت، ولا يُجْزَون إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

فلم يكن مدلولُ هذه الآية ومفادُها إلا تأييدَ قدرته القاهرة، وسلطانه العظيم، في مقدرات يوم الدين. والله أعلم.

ثم وصل البيان بما يشفعه، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: تُرجَعون وتُردُّون بعد النشأة الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون.

ثم مكَّن المعنى بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: وما أنتم بمعجزين لله أو منفلتين منه وفائتين، ولو تواريتم في مهاوي الأرض ومخافيها، أو تحصَّنتم في مَنَاعة السماء وعواليها. فيكون الكلام تمثيلاً لبيان سلطان الله القاهر الغالب. ويجوز أن يُراد بالأرض: الدنيا، وبالسماء: الآخرة، أي: وما أنتم بمعجزين لله في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم أشفع الإثبات بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من الإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾، ولا شيء يَعْسُر عليه سبحانه وتعالى.

وبعد أن بنى الإرشادَ إلى معرفة الإعادة والتصديق بها على رؤية بَدْء الخلق، أمَرَهم أن يسيروا في الأرض ليستكملوا هذه الرؤية، ويَرَوْا ما لم يَرَوْه من عجائب المخلوقات، وأنواع المُبْدَعات، وعظائم الكون، وغرائب الآثار؛ لينتبهوا إلى عظيم قدرته، فيعلموا أنَّ الإعادةَ أهوَنُ من إيجاد عظائم تلك المخلوقات، وله المَثَلُ الأعلى، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ﴾ هذا ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ في أنواع المخلوقات في البر والبحر، وأنواع لا تُحصى، وصُوَرٍ لا تُستقصى، خَلَقَ الجميعَ وأوجَدَه من العدم، على هذه الصورة البديعة، والأوضاع الرفيعة.

فالمراد من هذا السَّيْر في الأرض: رؤيةُ ما فيها من عَجَائب المخلوقات، وكيف بدأها سبحانه، أي: أخرَجَها من العدم إلى الوجود، بإتقانٍ وسَداد.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ معطوفٌ على جملة ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، داخلٌ معها في القول. والمعنى: ينشئ الله النشأة الآخرة للإنسان وحده بعد النشأة الأولى. وإنما عبَّر عن الإعادة ـ التي هي محلُّ النزاع ـ بالنشأة الآخرة، المُشْعِرة بكون البَدْءِ نشأةً أولى؛ للتنبيه على أنهما شأنٌ واحد من شؤون الله تعالى في الإيجاد حقيقةً ووصفاً، من حيث إن كلاً منهما إخراجٌ من العدم إلى الوجود، ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية.

ويجوز أن يكون المرادُ ببدء الخلق التنبيهَ إلى الزوجين الأوَّلين من كلِّ نوع، فإنهما مخلوقانِ من تراب، وعلى هذه الطريقة يعاد الإنسان كلُّه يوم القيامة دفعة واحدة من التراب، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، ولذلك يكونون أتراباً ليس فيهم صغير ولا كبير.

ثم عاد بالكلام إلى المشركين من قريش، على نهج القرآن في العودة، وتوعَّدهم بما نال المكذِّبين قبلهم من الأمم، فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فنالوا جزاءهم، وإنَّ مصيركم كمصيرهم، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ وقد أَعْذَرَ مَنْ أَنذر.

وفي المُخاطَبِ بهذا الوعيد عند المفسِّرين قولان: أنهم قوم إبراهيم، والكلام متسلسل. والثاني: أنهم قوم محمد ﷺ، والكلام استطراد في ثنايا قصَّة إبراهيم عليه السلام، على نهج القرآن في مثل ذلك، لأنَّ الغَرَضَ منها تذكيرُ مُشركي قريش ووعيدُهم بما جَرَى على المكذِّبين قبلهم.

ثم تابع الاستطراد بمتابعة أصول الدعوة، فبعد أن ذكر التوحيد وبَرْهَنَ عليه، ذكر الأصل الثاني ـ وهو الحشر ـ وبرهن عليه، كما هي سُنَّة القرآن في تَرادُفِ هذه الأصول أحياناً، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، وجَعَلَ هذا كالدليل لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وهو إخبار بالإعادة بعد الموت، معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ عطفَ النظير على النظير. ويجوز أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ ليست للعطف، وإنما هي لتجديد خبر واستئنافه. وعلى كلٍّ؛ فهو إثباتٌ للإعادة بالقياس على البَدْء؛ لأنها ليست بأعظَمَ منه.

والكلام إنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله، وسُنوح سبيله؛ إذ ليست الإعادةُ بأعجَبَ من البَدْء، ولكنَّه لما كان مألوفاً لم نشعر بعجبه وعظمة شأنه، وأيُّ عجب أعجب من أن يتطوَّر الجنين في الرَّحِم تطوُّراته العجيبة من قطرة ماء مهين، ثم يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ولا يزال يتطوَّر وينمو جسمه وعقله حتى يكون إنساناً كاملاً، وقد يكون عظيماً في أعماله، جليلاً في أفكاره، وربما يكون مكتشفاً باهراً، أو ملكاً جباراً، أو مسيطراً قهَّاراً، وأصله من ذلك الماء المهين.

ثم ذكر قصة إبراهيم مع قومه، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة. وهذا الشرط يُراد به الإلزامُ والتبكيت، والحَمْلُ على التمسُّك بما قبله.

وبعد أن دَعَاهم إلى الدِّين الصحيح، بيَّن بطلان دينهم الذي هم عليه، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي: تماثيلَ مصنوعة، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي: تصنعونها بأيديكم وتَدْعونها آلهة. فأوجز المعنى بهذه العبارة التي قدَّم فيها العبادة على الخلق تقديماً للمهمِّ، على نهج القرآن.

ثم سَفَّه أمرَهم بأبلغ الوجوه وأقربِها إلى العقول، وانتخب مادة البحث والتنبيه من أهم الأشياء عندهم، وأحوجهم إليه، وأخوفهم عليه، وهو الرزق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي: لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ فإنه هو الرزَّاق ذو القوة المتين، والذي يُبْتغى عنده الرزق هو الذي يستحقُّ أن يُقْصَد ويُعْبَد، فاتَّقوه ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ وحدَه، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ نعماءَهُ؛ إذ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، فيُحاسبكم على أعمالكم، ويُجازيكم عليها بالإحسان حُسناً وبالسوء سوءاً.

وفي هذه الآية تذكيرٌ بالنِّعَم، وتأنيبٌ على كفرانها.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

فنصرهم الله على من فتنهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى الله، ولم يؤمن منهم إلا قليل.

وفي الآية إرشادٌ له ﷺ أن لا يضيق صدرُه من قومه في مدَّته القليلة، وتنبيهٌ للكفار الذي يستبطئون ما يتوعَّدهم به من العذاب، مُبَيِّناً أنَّ العذاب قد تأخَّر زمنَ نوح ألف سنة تقريباً، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، و«إنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِته»(١).

ولعل اختيار هذه العبارة ـ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ـ دفعاً لاحتمال أن يكون معنى هذا العدد التكثير لا التحديد، ولما في ذِكرِ «الألف» من التخييل لطول المدة، لأن ذلك أبلغ في الغرض المتقدِّم.

وهذا العمر الطويل من معجزات نبوَّته، خصَّه الله به لحكمة رآها الحكيم الخبير، ولعلَّ منها: أن لا يبقى حُجَّة على الله سبحانه وتعالى إن استأصلهم بالغرق بعد أن دعاهم إلى الحق طول هذه المدة، فأعرضوا ولم يجيبوا، ولم يحمل في السفينة إلا عدداً أقلَّ من المئة، ولكن البشر لم يكن إلا في هذه البقعة القريبة من جبل الجوديّ، ففَنِيَ البشرُ كلُّه، ولهذا يقال لنوح: آدم الثاني، وقد خاطب البشر بعد قوم نوح بقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]. والله أعلم.

ثم ذكر ما نال قومَ نوح من العذاب والغرق بإصرارهم على الكفر والمعارضة، وما أصاب نوحاً عليه السلام والمؤمنين من الغلبة والنصر بالتنجية لما صبروا، وقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: عِبرةً يجب أن يتَّعظوا بها، وأن يخافَ المعارضون من مثلها.

---

(١) سلف تخريجه ص٥١١.

خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: لا يحملون عنهم خطيئتهم، ولا يُخفِّفون عنهم عذابَهم، بل ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وهل يشبع الجائع إذا أكل عنه غيره.

﴿وَ﴾ إنّ هؤلاء القائلين المُضلِّلين ﴿لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ وهي أوزار ضلالهم، ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي أوزار إضلالهم للناس، أي: إنهم ليحملون يوم القيامة أوزاراً مضاعفةً لضلالهم وإضلالهم، ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ من هذه الأكاذيب والأباطيل، والتمويه والإضلال.

وبالجملة؛ إن الآية تُلهِمُ أنَّ هؤلاء الضعفاءَ قد تَضَعْضَعوا أمام الأذى والاضطهاد، وعَمَدوا إلى مُسايرة الكفار. وإنَّ ضعفاء العقول منهم كان يستهويهم الكفارُ بمثل هذه الخديعة الهازلة الشنعاء. والظاهر أنَّ الكفار كانوا يقولون لهم ذلك حينما كان هؤلاء يذكرون لهم هَوْلَ يوم القيامة أثناء المُحاجَجات معهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء وما جَرَى لهم من المعارَضة، وما أصاب المعارضين الفاتنين من العذاب، بياناً وتمثيلاً لِمَا أفاده في مفتتح السورة من أنَّ معارضة المُصلِحين سُنَّةٌ من سُنَن الاجتماع وطبيعة البشر، وتفصيلاً لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣]، فذكر كيف فُتِنَ مؤمنو الأمم السابقة، فصبروا على الأذى،

ثم أجرى الكلام بما يخصُّ المنافقين؛ لأنَّ منهم مَنْ هو على هذه الشاكلة، فيشملهم ويشمل مَنْ قبله، على نهج القرآن، فقال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فَتْحٌ وغنيمةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ للمؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: مُشايعين لكم في الدين، فأشركونا في المَغْنَم. فردَّ الله وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: بأعلَمَ منهم بما في صدورهم من الإخلاص والنفاق.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماناً صحيحاً، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ فيُجازي كلاً بحسبه. وللمبالغة في الوعيد أكَّد الفعل بمُؤكِّدَيْن: لام القَسَم، ونون التوكيد.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالى فتنةَ الكفار لضعفاء الإيمان، وحَمْلَهم لبعضهم على الرِّدّة والكفر، بالأذية والوعيد، وبكَّت أولئك الضعفاء وأنَّبهم على عَدَم صبرهم وثباتهم؛ بيَّن محاولتهم لفتنة صنف آخر بالتضليل والاستمالة، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وعَنْوَنَهم بالكفر هنا، وبالناس فيما سبق مِن قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن مَسَاقَ الكلام فيما سبق لبيان افتتان ضعفاء المؤمنين بغيرهم، وهذا لبيان فتنة الكافرين لغيرهم، فهم يقولون ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وصيغتا الأمر هنا بمعنى الشرط والجزاء، أي: إنِ اتبعتمونا حَمَلْنا خطاياكم التي يتوعَّدكم بها محمد.

وقيل: إنهم يقولون ذلك استهزاءً بمن يعتقد بالخطيئة والحشر والحساب، وإنما جاءت بهذه الصيغة للمبالغة في نفي وجود ذلك، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم، مُبيِّناً للحقيقة، وهي: أنَّ هناك مَعَاداً يحمل فيه كلُّ ضالٍّ تَبِعةَ ضلاله. وهؤلاء المُضلِّلُون سيحملون خطايا ضلالهم وخطايا إضلالهم لغيره، دون أن يُخفِّفوا عنهم شيئاً، وسَيُسألون عمَّا يقولون من إنكار الحشر والحساب، فقال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

ولما بيَّن سبحانه وتعالى في مفتتح السورة أنَّ من سُنَّة الله في خَلْقِهِ أن يقاوم ويُعارِضَ كلَّ مَن يَتصدَّى لنشر الإيمان ويباشر الإصلاح والدعوة لهما؛ أنكر على مَن لم يتحمَّل تلك المقاومة من ضعفاء الإيمان، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ فلم يصبر على ما يصيبه في دينه، ويختار الاحتراز عمَّا يوقعُه في الأذى.

قال في «مجمع البيان»: أي: فإذا أُوذِيَ بسبب دين الله رَجَع عن الدين مخافةَ عذاب الناس.

أقول: ومثلُه مَنْ يتقاعد عن نشر الإصلاح أو معاضدته، مَخافةَ أقوال الناس أو أذيتهم.

وقال الزمخشري: جَعَل فتنةَ الناس صارفةً عن الإيمان، كما أنَّ عذاب الله صارفٌ عن الكفر[1]. وقيل: جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله. وبالجملة؛ يكون المفهوم: أنهم ضَعُفوا تجاه أذى الناس لهم على إيمانهم، وفتنتهم لهم في ذلك، وتردَّدوا في الأمر، وقالوا: إنْ آمنّا نتعرَّض للتأذي من جانب الناس، وإن تركنا الإيمان نتعرَّض لِـمَا توعَّدنا به محمد ﷺ، فاختاروا الاحتراز عن التأذِّي العاجل.

وقيل: بل كانوا إذا مسَّهم أذى من الكفار وافقوهم على الكفر.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٣: ٤٤٣).

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في سبيل الله لتكون كلمةُ الله هي العليا، وجاهد ما يلقاه في دينه بالصبر، وجاهد في طاعة الله سبحانه بالتَّحمُّل ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، لأنَّ منفعته له، ولا منفعةَ لله سبحانه من وراء ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾، وإنَّما كلَّف عباده رحمةً بهم، ومراعاةً لصالحهم في الدارَيْن، وتكميلاً لِفطَرِهم، وتوجيهاً لإنسانيتهم نحو الكمال، حتى تصلح في عالم الآخرة وتسعد في نعيمها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ أي: بأحسنِ جزاءِ أعمالهم.

ثم بالغ في المجاهدة عن الدين والإيمان، ولو كان الـمُجاهَدُ الوالدَيْن اللذَيْن أوصى الله لهما بالطاعة والإحسان، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ مع ذلك أوصيناه ﴿إِن جَٰهَدَاكَ﴾ فضلاً عن أن يأمراك مجرَّدَ أمْرٍ ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾، وفي هذا القيد مجرَّد زيادة في التفظيع والإنكار.

ومُلَخَّص الكلام: عليك بالإحسان إليهما والتزام طاعتهما في كلِّ شيء، إلا إذا طَلَبا منك الشِّرك بالله، وإنْ جاهداك عليه فلا تطعهما، واثبت تجاه هذا الجهاد.

وإيراد العبارة على هذه الصورة إنما هو للمبالغة في تصوير فظاعة الشرك، والترهيب منه. وقد أردفه بالتهديد فقال: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ فذكر التَّنْبِيءَ وأراد الجزاء، مِن ذِكرِ الشيءِ وإرادةِ نتيجتِه، أي: فأجازيكم على أعمالكم.

ثم بيَّن جزاء المؤمنين؛ مكتفياً به عن جزاء الكافرين المعلوم من المقابلة بدلالة مفهوم المخالفة، على نهج القرآن، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾ أي: في زُمْرة الراسخين في الصلاح، المعروف جزاؤهم.

أي: كيف تكون على خلاف سُنَّة البشر وطبيعة الاجتماع، تلك السنة المبيَّنة بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم لـمّا جاءتهم دعواهم، وذلك لأن الإنسان مخلوق يتصرَّف في نفسه حسبما يوحيه إليه عقله المحافظ على سلامته أو غير المحافظ عليها، ولا بدَّ لفاسدي العقول المنطبعين على شيء من العقائد الزائفة أن يجمدوا عليها، ولا يسمعوا ما يخالفها، بل يقاوموه بقوة وجنون، وهناك يَتبيَّن المُفسِدُ من المُصلح، والمؤمن من الكافر، والصادق من المنافق؛ لأنَّ المؤمن الصادق يتحمَّل كلَّ شدة في سبيل مَبدَئِهِ ودينه، وذلك التَّحمُّل هو الدليل القاطع على صدق إيمانه، والطريق الذي يوصله إلى الكمال الروحي والهدف الأسمى، كما قال تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في قولهم: آمنّا، فتحمَّلوا المشاقَّ في سبيله، ولم ترجعهم عنه الشدائد، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ وقد مرَّ الكلام عن هذا العِلم في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] فارجع إليه. ولتقرير هذا العلم أكَّده بمُؤكِّدَين: لام القَسَم، ونون التوكيد.

ثم التفت إلى المعارضين الفاتنين مُهدِّداً لهم ومتوعِّداً إياهم، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا، فلا نقدِرُ على مُجازاتهم ومعاقبتهم بمساوئ أعمالهم، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ أي: قَبُحَ حكمُهم وحُسْبانُهم هذا. وهذا المعنى مأخوذ من حال الـمُخاطَبين، حيث إنَّ المطلوب يشتدُّ في الهرب من الطالب فيسبقه.

ثم عاد إلى المؤمنين يُرغِّبهم في الثبات، فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتوقع ملاقاة جزائه يوم القيامة، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ وهو يوم الحشر والجزاء، ﴿لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ لا تخفى عليه خافية، فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه، والمسيء بسيِّئاته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السُّور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور للاهتمام بما يأتي بعدها، ومنه هنا: قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾، إذن فلا عِرفانَ لهم بطبائع الأمم وسنن الاجتماع.

وهذه الآية تتضمَّن عتاباً ممتزجاً بالتَّشجيع وحُسْن الوعد لضعفاء المسلمين الذين نَفَد صبرُهم من التضييق الذي يقع عليهم من متنفّذي قريش وجبابرتهم، كما تتضمَّن التلميح إلى السنة الطبيعية الاجتماعية، وهي معارضة الجبَّارين لكلِّ دعوة جديدة يفقدون بها مراكزهم؛ إذ كيف يمكن أن تقوم في الناس دعوة جديدة تُفْضي إلى تغيير وتطوير عظيمَيْن في الأحوال الاجتماعية، ولا يكون لها معارضون؟



مختلف في كونها مكيَّة أو مدنيَّة، كلِّها أو بعضِها.

وهي سبعون آية.

وموضوعها: فُتُون المُصلِحين بالأشرار المعارضين، وأنها سنة طبيعية اجتماعية في البشر.

وقد جاء في السورة السابقة أنهم يخافون إذا آمنوا أن يتخطَّفهم الناس من حولهم، فلذلك وأمثالِهِ يعارضون المؤمنين، فجاءت هذه السورة وفي أولها تهوينُ ما يلقاه المؤمنون من الشدائد في سبيل دينهم. وانقسمت في ذلك إلى قسمين:

أولهما: في بيان الحكمة في فتنة المؤمنين في دينهم.

وثانيهما: في بيان ما يسلكونه مع مَنْ يَفتِنُهم في دينهم من المضيِّ في دعوتهم وردِّ شُبَهِهم، ومن الهجرة عنهم إلى مَنْ لا يفتنُهم.

* * *

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾، وهذا أيضاً ليس على حقيقته، ولكن للمبالغة والتهييج. ثم قرَّر وقطع أطماع المشركين منه بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

ويجوز أن تكون الآيات الثلاث من خطاب الأمة بخطاب رئيسها، أو من خطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة في أنواع الخطاب في القرآن). ويجوز أن يكونَ مِثلُ هذه الأسلوب من القرآن لمجرَّد بيان شدَّة هذا الكفر.

ثم علَّل النهيَ وقرَّره بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فلا نافعَ ولا ضارَّ، ولا معطيَ ولا مانعَ إلا هو، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] أي: إلا ذاتَه، فهو الباقي بلا زوال، وهذه هي صفةُ الإلهِ الحقِّ القادر على كلِّ شيء.

ثم رهَّب منه ورغَّب، فقال: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاءُ النافذ، والسلطانُ القاهر، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ للحساب والجزاء.

---

(١) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسَه، وسمَّى بها ذاتَه في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله، من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سمات المُحدَثين، ولا تفسير لها و تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء والنزول والضحك والقدم واليد والوجه والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فَرْعٌ عن الكلام في الذات، وإثباتُ الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أما مذهب الخلف فالحَمْل على المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية. (المؤلف).

قلت: وهذا تصريح من المؤلف رحمه الله بأن مذهب السلف إمرارُ اللفظ على ظاهره مع تفويض معناه إلى الله تعالى، أما القول بإثبات المعنى على ظاهر اللفظ وحقيقته فليس هو مذهب السلف.

الجزاء، وفيه لغيرك سعادةٌ وشقاءٌ يبيِّن أسبابهما هذا القرآن، ولولا ذلك ما نزل عليك. وقيل: المعنى: لناصِرُك عليهم ومُعيدُك إلى مكة التي أخرجوك منها. وإذا كانت هذه الآية مكيَّة فيكون هذا سابق وَعْد منه تعالى وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها، يُلمِّح له ويَعِدُه أنه سيُهاجر منها، ثم يُعيدُه تعالى إليها ظاهراً على مَنْ ناوأه وعاداه. ويجوز إرادةُ المعنيين معاً، ومُجمَلُه: لولا هذا المعاد لَـمَا نزل ولا فُرِضَ القرآن.

ثم أمره أن يردَّ على معارضتهم بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾ وما يستحقُّه الأول من النصر، والثاني من الإذلال. فهذا تقريرٌ للوعد السابق وتعليلٌ له، وقد ضمَّنه مُجمَلَ أسباب السعادة والشقاء، وعِلمَه بمن يفعلها.

ثم أدعَمَ ذلك الوعد بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: سيردُّك إلى معادك، كما أُلقي إليك الكتاب، وما كنت ترجوه ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن إلقاءه إنما كان رحمةً من ربك للبشر أجمعين، فهو لا يُهمل شأنك، ويُعطيك ما لم تكن ترجوه، أو فوق ما كنت ترجوه. ويجوز أن يكون مستأنفاً لبيان عِظَم هذه النعمة ووجوب الشكر، بتحمُّل الشدَّة في سبيلها، لذلك قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ يُهيِّجه بشدَّة المقاومة في سبيل نشر الدعوة.

ثم أردف هذا بالتشديد عليه في أمر الدعوة إلى التوحيد، والثبات فيها، مهما جابَهَ من الشدائد والعقبات، فقال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن تبليغها والعمل بها ﴿بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بكلِّ عَزْم وقوة.

ثم بالغ في ذلك وقرَّره بأسلوب سلبيّ، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا

= ويجوز أن يكون الكلام خطاباً للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، على نهج القرآن في مثله، والله أعلم. (المؤلف).

وذلك بفضل الله الواسع العميم، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ جزاءً وفاقاً، ولا يظلمون فتيلاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم ختم السورة بما فيه تسليتُه ﷺ وتثبيتُه تجاه معارضة هؤلاء المشركين وثقل أذيَّتهم، ووَعدٌ له بالنصر والغَلَبة في الدنيا، وبالمكافأة العظمى في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: تبليغَه والعملَ به، فنالك من جرّاء ذلك ما نالك من هؤلاء المشركين، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1] عظيم بعد الموت، تنالُ فيه مكافأةً عُظمى في دار

---

(١) بَيَّن الله سبحانه سبب إنزال هذا القرآن، وهو وجود الحياة الثانية، وفيها سعادةٌ وشقاءٌ مبنيان على الهدى والضلال، فجاء هذا القرآن مبيناً لهما، وأشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فيُدخِلُ الأولَ الجنة، والثاني النار، ولذلك بيَّن سبحانه منَّته العظيمة في إنزال هذا القرآن، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، وفي هذا التعبير تهييجٌ له على ما في نفسه من مقاومة المشركين ونشْر الدعوة فيهم، ثم قال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وفي هذا زيادةُ تهييج له على القيام بواجبه نحو المشركين ونشر الدعوة وتحمُّل الأذى منهم والثبات إلى أقصى حدّ، ثم أردفه بدعامة أخرى، فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى آخر الآيات. فليس المرادُ بهذه التعابير ظاهرَها ومعناها اللفظي، وإنما المراد الحَمْل له على قيامه ﷺ بالدعوة في أقصى درجة الإمكان، بعبارات شديدة البيان. =

وقد بيَّنت الآية أنَّ ما عليه قارون من الثراء والجاه والسلطان ما أغنى عنه من بأس الله شيئاً إذ جاءه، فخَسَفَ الله به وبداره الأرض، وأصبح الذين تمنَّوا مكانه يقولون: لولا أنْ منَّ الله علينا لَخسفَ بنا كما خَسَف بقارون، إنه لا يُفلحُ الكافرون.

وقد قصَّ الله تعالى علينا هذه القصة لنعلمَ أنَّ البغيَ مَرتَعُه وخيم، وأن للطغيان عاقبةَ الخسران، وزوالَ النعمة، وحلولَ النقمة، وغضبَ الرحمن، وزوالَ السلطان، وأنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته[1]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، أعاذنا الله.

ثم علَّق على ما مرَّ من الترغيب لثواب الآخرة بوجهٍ آخر من وجوه أسبابها وطرقها المفضية إليها، ساوقَ به قصة قارون، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ بخلاف الدار الدنيا، إنما ﴿نَجْعَلُهَا﴾ ونُعطيها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ كما أراد فرعون وقارون، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الذين يتَّقون عذابَ الله وسَخطَه بتَجَنُّب ما لا يرضاه تعالى من الأفعال والأقوال.

ثم بيَّن تعالى نظام الجزاء في تلك الدار، وهو أن شرَّها مُرتَّبٌ ترتيباً طبيعياً[2] على شرور الأعمال في هذه الدار جزاءً وفاقاً، وخيرها كذلك، إلا أنه يُضاعَفُ ويُضافُ إليه فَضْلُ الله الواسع العميم؛ بياناً للجزاء بعد النقاش، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ لا يقدَّر بعمله، بل يُضاعَفُ له أضعافاً مضاعفة،

---

(١) يشير إلى الحديث الشريف الوارد في هذا المعنى، وقد تقدم تخريجه ص٥١١.

(٢) بل ترتُّب ثواب الآخرة وعذابها على أعمال العباد في الدنيا ترتُّبٌ شرعي، يعني: أن مردَّه إلى ما قرَّره الله عز وجل في شريعته التي أنزلها على عباده، وليس له مردٌّ آخر من سنة كونية أو قانون طبيعي. وقد تقدم التعليق على مثله في غير موضع سابق ينظر على سبيل المثال ص٤٧٣.

ثم بيَّن الأداةَ والطريقةَ المُوصِلةَ إلى ذلك، فقال: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه المثوبةُ ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ على مَشاقِّ الطاعات ومدافعة الشهوات وعوز الحياة.

ثم ذكر نزولَ العذاب بقارون، وما كان من انقلاب الأفكار والآراء في حَظِّه، فقال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فذهب هو وخزائنه في طرفة عين، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: من الممتنعين منه تعالى بوَجْهٍ من الوجوه.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ زاهدين في ذلك، راجعين عن رأيهم، مُتبصِّرين بحقيقة الأمر، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ[1] ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء، لا لكرامةٍ تقتضي البَسْط، ولا لهوانٍ يوجب القَبْض، ولكن بسُنن كونيَّة، ولحكم عليَّة، وأسرار خفيَّة، ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم نكن مِثلَ قارون ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسف به، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لِنِعَمِ الله، والمكذِّبون لرسل الله[2].

وهذه الكلمة[3] تستعمل عند التنبيه على الخطأ والندم عليه. والمعنى: أنهم قد تنبَّهوا إلى خطئهم في تمنِّيهم ذلك، ونَدِموا عليه.

---

(١) يقولون متوجِّعين متحسِّرين: اسمع ـ أيها المخاطب ـ تعجُّبي من نفسي، كيف كنت جاهلاً عن حقيقة أن الله يُوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويُضيِّق الرزق على من يشاء من عباده لحِكَم يعلمها، وليس بَسْطُ الرزق تكريماً، ولا تضييقُه إهانة.

(٢) أي: اسمع ـ أيها المخاطب ـ تعجُّبي من نفسي، كيف كنت جاهلاً عن حقيقة أنَّ الشأن العظيم من مقادير الله في كونه، وسننه في عباده: عدم ظفر الكافرين الذين يجحدون نعمة الله ولا يقومون بواجبها من الإيمان والشكر والطاعة، مع عناهم وجبروتهم.

(٣) يعني: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾، و(وَيْ): اسم فعل بمعنى: نعجب، أي: نحن. والكاف بمعنى اللام، أي: حرف جر معناه السببيَّة. والعرب تستعمل (وَيْ) للدلالة على التَّعجُّب أو الندم. وإذا حُمِلت على الندم يكون المعنى: يا أسفى ألم تعلم أن الله يبسط...، والأَوْلى حَملُها على المعنيين: التَّعجُّب والندم، كما تقدَّم تفسيرها.

ويجوز أن يُفهَمَ من نَظْم هذا الرد: أنَّ قارون تعلَّل بالقوة أيضاً كما تعلَّل بالعلم، على نهج القرآن في إيجاز الاحتباك والاكتفاء، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، فقد تبجَّح ولم ينتبه إلى أنَّ هذا العلم الذي أُوتيه هو من مواهب الله السنيَّة، وإذا أراد الله شيئاً هيّأ أسبابه سلباً أو إيجاباً، بمقتضى حكمته العلية.

ثم ذيَّل التهديدَ بمبالغة الوعيد، فقال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ بل يُصرَفون إلى العذاب، أو يَنزِلُ بهم من دون محاكمة وسؤال؛ لظهور حالهم عليهم. وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩-٤١].

وقال أبو مسلم: إنَّ السؤال قد يكون للمحاسبة، وقد يكون للتبكيت والاستعتاب، وأليق الوجوه بهذه الآية وشبهها: الاستعتاب.

أقول: ومن النوع الأول قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. والظاهر من السياق: أنَّ المراد من هذا الوعيد عذابُ الاستئصال في الدنيا، لا عذاب الآخرة.

ثم تابع الكلام عن قارون ومصيره وانقسام قومه في أمره، وضمَّنه التزهيدَ في حطام هذه الدنيا بأسلوب بديع، فقال: ﴿فَخَرَجَ﴾ قارونُ يوماً ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ وموكِبِهِ زاهياً مباهياً، فلما رأوه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ من المؤمنين، جَرْياً على سَنَن الجِبلَّة والخِلْقة البشريَّة، من الرغبة في السَّعَةِ واليَسار: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوال الدنيا والآخرة على الوجه الصحيح: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما تتمنَّونه في الدنيا، وهو ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

ثم ذكر ما كان من نصيحة قومه له بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ فَرَحَ أشَرٍ وبَطَرٍ وكبرياء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ بهذا النوع من الفرح، والويلُ لمن لا يحبُّه الله، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بصَرْفِهِ على ما سيكونُ وسيلةً إليها من وجوه البر، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[1] والتمتُّع فيها بالوجوه المباحة، أو طلب الكسب والتوفير، إذ بنعمته تعالى تتمُّ الصالحات، ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله تعالى، وساهِمْ في وجوه البرِّ والإحسان ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعَمَ به عليك، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والبغي والطغيان؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ والوَيْلُ لمن لا يحبُّه الله.

وقد تضمَّنت النصيحة ما يُؤذَنُ بتخويفه من سَلْب ثروته إن لم يخشَ الله فيها، فأجاب قومَه بما يدل على تجبُّره وإعراضِهِ عن الله، حيث ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: هذا المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ بوجوهِ المكاسِب، فلا أخشى ضياعه، وأعلم كيف أستفيد.

وهذا الكلام ينطوي على الإلحاد وإنكار وجود الله، ولا يرى لوجود هذه النعمة سبباً سوى علمه وكفاءته. فردَّ عليه سبحانه وتعالى متوعِّداً له بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ويجوز أن يكون ذِكرُ القوة لاستكمال البيان، على نهج القرآن في مثله، أي: ألم يعلم أنَّ الله سبحانه قد أهلك مَنْ هو أوفرُ منه حظاً بأسباب المناعة التي يزعمها. ويجوز أن يُرادَ قوةُ العلم.

= ثم إن القول بأن المراد بالمفاتح: الخزائنُ نفسُها، فيه إضعاف لمدلول الآية في سياقها، فكثير من الأغنياء من يثقل حمل خزائن أموالهم وصناديق كنوزهم على العصبة أولي القوة من الرجال.

(١) الدنيا والآخرة كلٌّ منهما متمِّم للآخر، وصلاحُهما بالدين وتوجيهاته، والدين والدنيا في نظر القرآن مترابطان ترابط الروح بالجسد، فإذا كان الدين يمدُّ الروح بالإيمان الصحيح والآداب الحسنة والسلوك المستقيم، فإن أمور الدنيا إن كانت على وجهها الصحيح تكون بلاغاً إلى الآخرة.

عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾.

ثم دفع سبحانه ما من شأنه أن يَرِدَ على الخاطر من أمر إحسانه وإنعامه سبحانه إلى هؤلاء الكافرين على كفرهم، دفعه بذكر قصة قارون وما أعطاه الله من الكنوز على بغيه، إيذاناً بأنَّ الله سبحانه يُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِتْه[1]، وبأن إنكار نِعَم الله يُوجِبُ سَخَط الله، على نهج القرآن في تعقيب الجدل والمناقشة بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالكفر والتجبُّر والطغيان، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ[2] مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ[3] لَتَنُوٓأُ﴾ أي: لتَثقُلُ وتميلُ[4] ﴿بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ والعُصْبة: ما فوق العشرة. وهذا تصويرٌ لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكنايةٌ عن ذلك، والكناية يراد بها لازمُ معناها، وهو هنا كثرة الخزائن، ولا يجب فيها تحقُّق المعنى الأصلي، بل لا يتحقَّق إلا في قليل من الكنايات. ويجوز أن يُراد بالمفاتيح: الصناديق، بطريقة المجاز المرسل، وهو الأقرب[5]. والله أعلم.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) الكنوز: جمع كنز، وهو ما يُجمَع من المال ويُخزَّن فلا يؤدَّى حقُّه.

(٣) المفاتيح: جمع مَفْتَح ـ بفتح الميم وسكون الفاء، بوزن: مَرْصَد ـ وهو ما يُفتح به القفل ويُغلق.

(٤) أي: لا يستطيعون حَمْلَ المفاتيح ولا ضَبْطَ ما تحفظه، فإذا حملوها مالت ظهورهم من ثِقَلِها عجزاً عن النهوض بها قائمين.

(٥) بل الأقرب هو ما دلَّ عليه ظاهر اللفظ من أن المراد بالمفاتح: مفايتح الخزائن التي تُحفَظُ فيها الكنوز كان يثقل حملُها على العصبة من الرجال، وهذا هو المعنى الحقيقي لألفاظ الآية، وهو غير ممتنع عقلاً ولا عادة، لا سيما أن المفاتيح في الأعصار الماضية كانت أكبر حجماً من مفاتيح هذا العصر، وما دامت الحقيقة غير ممتنعة فلا ينبغي العدول إلى المجاز. =

أُخذ وظهر افتَضَحَ أمره وانكشف على رؤوس الأشهاد ما يحاول إخفاءه، ويحرص على كتمانه.

وتحرير هذه الـمُجادلة والمحاجَّة: أنه إذا كان يوم القيامة قلنا لهم: أين الذين زعمتُم أنهم شركاؤنا؟! وجئنا بشهدائنا الأنبياء الذين بلَّغوهم توحيدنا، ثم طلبنا منهم برهانهم على الشرك؛ مبالغةً في إلزامهم، وإيغالاً في تأنيبهم وإفحامهم، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على صحَّة ما كنتم تدينون به.

وقد أقام مقام قوله: (فانخذلوا)، قولَه: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهية لا يشاركه فيها أحد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: غابَ عنهم غيبةَ الضالِّ الهارب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ من أمر الشركاء، لأنه افتراءٌ يذوب أمام الحق ويغيب، ويخجل صاحبُه أن يُظهِرَه.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ

هو عليه لتتمَّ لكم الحياة، ولتكمل لكم المنافع، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: وليُعِدَّكم لشكره تعالى واستبصاركم لعظيم أمره، ولكنكم أشركتُم وكفرتُم نعمة الله. والشكر: الثناءُ على الله والطاعةُ له والانقياد[1].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق المتضمِّن للإنكار على شركهم، ولإفحامهم بما لله سبحانه من عظيم الأعمال وكبير النِّعم التي تستلزم اختصاصه بالألوهية، أردَفَه بما يزيدهم تبصرةً وإرشاداً، وذلك بتوقيفهم على ما سيكون من شأنهم في أمر شركائهم يوم القيامة، فأعاد عليهم المجادلة السابقة بوجهٍ آخر فيه إلزامٌ وإفحامٌ ملموس، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؟! وهذا القول لتبكيتهم وتأنيبهم بما اتَّضَحَ لهم من تورُّطهم في الشرك، وسوء مغبَّته، وفداحة عاقبته، وللمبالغة في إقامة الحُجَّة عليهم، كي لا يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أو يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، يستشهد عليهم أنبياءهم كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بالتبليغ، وبما كان منهم من المقاومة والإعراض.

وكلمة: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ تُؤْذِنُ بأن حالتهم إذ ذاك حالةُ مَنْ يمانع أن يُؤْخَذ منه شيء إذا

---

(١) إنما تمَّ تتابع الليل والنهار بحركة الأرض اليومية على نفسها، ولو كانت واقفةً لكان الوجه المقابل للشمس نهاراً دائماً، والآخر ليلاً دائماً، ولا تتم حياة الحيوان والنبات في كلٍّ منهما، ففي حركة الأرض هذه نعمة وحكمة عظيمتان على الإنسان، فجلَّت حكمة الله العليم الخبير. (المؤلف).

وبعد أن ردَّ شُبَهَهم، وأفحَمَهم وأوقَفَهم على ما سيكون من أمرهم من العذاب المهين، نتيجة شركهم وكفرهم بآيات الله، قرَّر حقيقةَ التوحيد بعبارة مسبوكة على الوعد والوعيد، على نهج القرآن في التعقيب بالإرشاد والبيان، فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بمعنى: أنه مُفيضُ النِّعَم في الدنيا والأُخرى، تلك النِّعَم التي يستحقُّ عليها الحمدَ الجزيل والثناءَ الجليل، ومنها: أنه جَعَل الإنسان مختاراً. وجَعَل هذا كالدليل على اختصاصه بالألوهيَّة فوق ما فيه من الوعد والترغيب، ثم قَرَن ذلك بما يتضمَّن الوعد والترهيب، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من أعماله ونِعَمِهِ الدنيوية الظاهرة التي يستحقُّ عليها الحَمْدَ واختصاصَ الألوهية وانفرادَه بها؛ ذكره أولاً بأسلوب سلبي تهديدي تحسيسي بليغ، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأنْ خلق الكون على نظام يستلزم ذلك، فلا تتمُّ لكم هذه الحياة ولا هذه المنافع، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ تتمُّ لكم به الحياة والمنافع، أشركاؤكم تفعل ذلك؟ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ هذا البرهانَ سماعَ تدبُّرٍ واستبصار ؟!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأنْ يجعل نظام الكون كذلك، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ وتسترجعون ما فقدتموه من القوى بنتيجة متاعب الأشغال والأعمال أثناء النهار لتبقى لكم الحياة؟ أشركاؤكم تفعل ذلك؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ هذه النِّعَمَ والحِكَمَ الدالَّةَ على اختصاصه بالألوهية وتتفكّرون بها.

ثم قرَّر الموضوع نفسه بطريقة إيجابية، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فخلق نظام الكون على ما

على أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، أما إذا كانت موصولة فيكون المعنى: ويختار ما كان لهم الخير فيه.

ثم نزَّه سبحانه نفسَه عن التدخُّل في شؤونه، ضِمْنَ التنزيه عن الإشراك به، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ويجوز أن يكون الكلام خطاباً عما تكنُّه صدورُهم: لو خَلَقَنا الله غيرَ مختارين كالملائكة لَمَا نالنا هذا البلاء. والجواب: أنَّ الله أرادكم خلفاء الأرض تكونون ذا علم واسع وعمل عظيم، وذلك لا يكون إلا بالاختيار، ولكن جهَّزكم بهدايتين: هداية الطبيعة، وهداية الشريعة، فلم ينتفعوا بهما.

ثم أشفع هذا الردَّ ببيان أنَّ ما يقولونه ناشئٌ عن حَنَق[1] صدورهم، فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

هذا ما يقوله المفسِّرون في معنى الآية. والذي أراه ما جاء في التعليق. والله أعلم بمراده.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

= موصولاً، والمعنى: أنه سبحانه اختار لهم ما فيه خير وصلاح، وهو أن يكونوا مختارين في تصرُّفاتهم وأعمالهم، ولكنهم أساؤوا التصرُّف فيما اختير لهم. وهذا ما أراه. والله أعلم. (المؤلف).

(١) الحَنَقُ: الغيظ «لسان العرب» (حنق).

من الخذلان والندم، وتهيَّأت النفوس للاتِّعاظ، أتبَعَه بذكر مَنْ يتوب منهم في الدنيا، ترغيباً في التوبة، وزَجْراً عن الثبات على الكفر، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾، والترجِّي من الكريم تحقيقٌ ووعدٌ كريم.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثم عاد إلى السياق السابق؛ سياقِ إيراد شُبَهِهم وردِّها عليهم، وكان من شُبَهِهم أنهم يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة وأبا مسعود الثقفي من الطائف. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه، ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء أن يختارَه، بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[1] بمعنى: لا يبعث الله الرسلَ باختيارهم. وهذا

---

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ...﴾ تعقيباً ـ على نهج القرآن بمثله ـ يؤذن بأن معارضة هؤلاء المشركين لمحمد ﷺ ودعوتِه وكفرَهم به لم تكن عن عجز في قدرة الله في نوع خلقتهم ولا تقصير في ذلك، فهي على حدِّ قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، بأن يخلقهم كالملائكة، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولكن مشيئته تعالى اقتضت بموجب الحكمة البالغة أن يكون الإنسان مُطْلَق التصرُّف في أعماله، فإما أن يسيء وإما أن يحسن، وإما أن يكفر وإما أن يؤمن، ولا يخفى على الله سبحانه من أمرهم خافية، ويُجازيهم على ذلك جزاءً وفاقاً. ومثل هذا التعقيب هو من نهج القرآن في مثل هذا السياق، والقرآن يلوِّن البيان عن الغرض الواحد بعبارات مختلفة.

ثم بيَّن سبحانه أن أعماله هذه في الدنيا والأخرى للمحسنين والمسيئين، والكافرين والمؤمنين، جارية على ما يوجب له الحمد والثناء؛ لأنها جارية بالعدل والسداد والإتقان، ليس فيها حَيْف ولا تقصير ولا عدوان.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مفعولاً لـ«يختار» على أن تكون =

قال أبو السعود ما مُلخَّصه: ومسارعة هؤلاء الرؤساء إلى الجواب مع كون السؤال للعَبَدة مُطْلقاً: إما لتفطُّنهم أنَّ السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم، وأنَّ الأتباع سيقولون: هؤلاء أضلُّونا. وإما لأن الأتباع قد اعتذروا، فردَّ هؤلاء عليهم، إلا أنَّ القرآن اكتفى بقول هؤلاء لدلالته على قول أولئك، إيجازاً من إيجازاته[1].

أقول: وذلك على نهج القرآن في الاكتفاء بما في الأول عما في الثاني، والعكس، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

﴿وَ﴾ بعد أن قال الرؤساء هذا القول ﴿قِيلَ﴾ للأتباع: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، يُقالُ ذلك لهم إما تُهكُّماً بهم أو تَبْكيتاً لهم، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفَرْط الحيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لعدم قدرتهم على شيء، ولأنهم مُتورِّطون مثلهم، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ قد غَشِيَهم، وتمنَّوا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: ليتَهم كانوا مهتدين بهدى الله. أو المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون ويعقلون، لفقهوا ما ذكَّرناهم به في الدنيا، وما أوقفناهم عليه من مصيرهم، ولَـمَا وقعوا فيما وقعوا فيه.

ثم ذكر لهم أمراً آخر مما سيجري لهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: خفيَ عليهم الجواب، أو: لم يجيبوا. وهذا تصويرٌ لشعورهم بالخذلان، وبأن القول قد حقَّ عليهم. وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إيغالٌ في هذا المعنى[2]، أي: يلتزمون الصَّمت والبَكَم؛ لركوب الحق لهم. فالكلام تصويرٌ لارتباكهم ولشعورهم بما كانوا عليه من الضلال المبين.

وبعد أن ذكر حالَ المعذَّبين من الكفار، وما يجري عليهم من التوبيخ، وما يلحقهم

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢١).

(٢) الإيغال: أحد أقسام الإطناب، وهو خَتْمُ الكلام بما يفيد نكتةً يتمُّ المعنى بدونها.

ولما كان مفاد قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾: أننا تركنا الدين كي لا تفوتنا الدنيا، ردَّ عليهم من هذا الوجه أيضاً، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

ثم نوَّر القضية وقرَّر المعنى بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ وهو نعيم الجنة العظيم الدائم، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والمتاع: الشيء المؤقت، أي: فيزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾، والإحضار: إنما يكون للمجرمين لحسابهم وعقابهم.

ثم تمَّم البيان عما سيجري لهم يوم القيامة من التبكيت المُخزي، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ في آيات الوعيد، وعنى بهم: الرؤساء أو الشياطين الأفَّاكين. وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع؛ لأصالتهم في الكفر وفي استحقاق العذاب، فهم يقولون عن أتباعهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ يعنُون أتباعهم الذين أضلُّوهم بدعائهم إلى الضلال ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

وخلاصة العذر: أنَّ غَوايةَ هؤلاء الأتباع إنما كانت بسبب أنهم لم يستعملوا مواهبهم في التمييز بين الحقِّ والباطل؛ لأنهم أفسدوها بالتربية السيِّئة والتقليد الأعمى، كما فعلنا نحن مثلهم، فذنبُهم على أنفسهم في غَوايتهم، كما أنَّ ذنبَنا على أنفسِنا في غَوايتنا، ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم وممَّا اختاروه لأنفسهم من الكفر.

ثم قرَّروا المعنى بقولهم: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وإنَّما كانوا يعبدون أهواءهم. وتطلق العبادة على اتِّباع الآمر بالشيء والمزيِّن له.

بعض يوم[1]. أو: لم يبقَ فيها من يسكنها إلا قليلاً، وذلك من شؤم معاصيهم، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ إذ لم يخلفهم أحد يتصرَّف في ديارهم. وإذا لم يَبْقَ للشيء مالك معيَّن، قيل: إنه ميراث لله؛ لأنه الباقي بعد فناء خلقه.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى ـ بعد تأنيب المعارضين ـ حِكْمةَ إرسالِ الرسل، وضمَّنه الردَّ على ما من شأنه أن يَرِدَ على الخاطر، وهو: لِـمَ لـمْ يُهلِكِ الله الكفار قبل مبعث النبي إليهم مع أنهم مستغرقون في الكفر من قبل؟ فبيَّن تعالى أنَّ عذاب الأمم في الدنيا لا يكون إلا بعد حصول أمرين: الأول: إرسال الرسل إليهم، كي لا يكون لهم على الله حُجَّة بعد ذلك التبصير والإنذار. والثاني: أن يعارضوا أولئك الرسل ويكذِّبوهم ويصرُّوا على العِناد، فإذا فعلوا هذا بعد الإرسال استأصلهم الله بالعذاب. وقد أفصح سبحانه وتعالى عن ذلك، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: في عاصمتها ومقرِّ رياستها ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بتكذيب الرسل والعُتُوِّ في الكفر، فحينئذ يُعذَّبون بعذاب الاستئصال، فتبيَّن أنَّ عذاب الاستئصال للأمم لا يكون إلا بعد أمرين: إرسال الرسل، وتكذيب قومهم لهم.

وإنَّما التفت من الغيبة إلى نون العظمة في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ و﴿وَمَا كُنَّا﴾؛ لتربية المهابة وإدخال الرَّوْعة في الكلام.

= وجوانبها الصارمة؛ لأن نشاط الأمة يَتَجدَّد ويستديم ما دامت تحترم العمل، وتتحمَّل التعب، وتصدف عن المعاصي، وتعاف اللهو، ولو كان من طريق حلال، فالنعومة في العيش والميوعة في الأخلاق مفسدة للأفراد، ومقراض للأمم. فلذلك ابتعدت عنها الشريعة، وحذَّر منها القرآن. (المؤلف).

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٥: ٨).

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ أي: إن اتَّبعناك وخالفنا الناسَ عادَوْنا ولا طاقة لنا بهم، فردَّ عليهم بما هم فيه من الحرمة والمركز العظيم بين الناس على كفرهم، وذلك بسُكْناهم لهذا البلد الحرام، فكيف لا يحفظهم إذا آمنوا؟! فقال: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وهي: مكة التي تحترمُها العربُ على اختلاف مآربها ومسالكها في نظم حياتها. وللمبالغة في زيادة طبع النفوس على احترامها حرَّم حتى صيدها، فهم في هذا الحرم الآمن في أمن دائم لا يمسُّهم أحد بسوء، ومن جرَّاء ذلك الأمن فيه وحَجِّ الناس له ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من المأكولات وأنواع المنتوجات، من كلِّ حَدَب وصَوْب ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾، فهذه الجبايةُ إليه صفةٌ أخرى دافعةٌ لما عسى أن يُتَوهَّمَ من تضرُّرهم بانقطاع الميرة عنهم إن اتَّبعوه وخالفوا الناس وعادَوْهُم.

والمعنى: إذا كان هذا حالهم وهُم عَبَدة أصنام، فكيف يخافون التَّخطُّف إذا ضمُّوا إلى حُرْمة البيت حُرْمةَ التوحيد والصَّلاح والدين الصحيح؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ أي: جَهَلةٌ لا يفطنون لمثل ذلك.

وبعد أن بيَّن تعلُّلاتهم الباطلة، وردَّها عليهم بما يتضمَّن ما خصَّهم به من النِّعَم، هدَّدهم بما أنزله بالأمم الماضية الذين كانوا في نِعَم الدنيا، فلما كذَّبوا الرسل أزال عنهم تلك النِّعَم، فقال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةم بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1] قال ابنُ عباس: لم يسكنها إلا المسافر ومارُّ الطريق، يوماً أو

---

(١) البطر والترف والعكوف على الملذَّات ومطاوعة الأهواء: أمراضٌ تصيب الأمم في عصور الانحلال، وتُعرِّضُها للهَلَكة، فهي نُذر الفناء. وقد لوحظ من استقراء التاريخ: أنَّ الحضارات الكبرى لم يمحقها إلا الترف، وأنَّ الأمم العظيمة لم يُهلكها إلا البطر، وأنّ ترك الأمة ترتع في الشهوات رتوع السوائم لن يجرَّ في أعقابه إلا البوار والدمار. لذلك حرص أولو النُّهى أن يشيع في أممهم الأخلاق المتينة وعيش الخشونة، وأن يتعلّموا أخذ الحياة من نواحيها الجادة =

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

ثم عاد بالبحث إلى المشركين، وصدَّر الكلام بما فيه تسليةٌ له ﷺ عن أعمالهم وعدم إيمانهم، وتهوينٌ لحرصه على هدايتهم، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ممَّن عبثوا بسلامة فِطَرِهم وأفسدوا استعدادَهم للنظر الصحيح، وإن بَذَلْتَ غايةَ المجهود، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم ونور بصيرتهم واستعدادهم الطبيعي للهداية، فأجابوا الحقَّ حين دعاهم، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: بمن بقيَ فيهم بقيةٌ من الاستعداد للهُدى والرشاد، أو بالمهتدين حقيقة ومَنْ يدَّعون الهداية والصلاح. يشير إلى أنَّ الذين لا يتمسَّكون بهذا الدين ويزعمون أنهم مهتدون؛ ليسوا بمهتدين.

ثم ذكر ما اعتذروا به عن عدم إيمانهم بعد إلزامهم وانقطاع حُجَّتهم، فقال:

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن، أو من قبل محمد، ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لأنهم يجدون نعتَه والبشارةَ به في التوراة والإنجيل.

قيل: إنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقَّة يتمسَّكون بها، فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ آمنوا به، ومنهم سلمان الفارسي، وعبد الله بن سَلَام، والنجاشي، وأمثالهم. وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل، وهم أصحاب السفينة، جاؤوا من الحبشة مع جعفر.

وعلى كلٍّ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكلُّ مَنْ كان بهذه المَثابة كان داخلاً في حكم الآية.

ثم حكى عنهم ما يدلُّ على تأكُّد إيمانهم وتحقُّقه، فقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لأنهم كانوا قد شاهدوا ذِكرَه والتنويهَ بشأنه في الكتب المتقدِّمة، وتحقَّقوا أنه سيأتي بالدين الصحيح، الذي تُختَمُ وتُنسَخُ به الأديان، ويكون عالمياً مع لغته العربية للناس أجمعين.

فسجَّل لهم سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ على أذى قومهم، ﴿وَ﴾ كانوا ﴿يَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾، فمدحهم بالإيمان والصبر على الأذى في سبيل الله، وبالطاعة البدنية والمالية.

ثم بيَّن من صفاتهم الحسنة شيئاً من صبرهم على الأذى في سبيل الله، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ أي: السَّفَهَ من الناس، والقبيحَ من القول والهزء. والمراد به: انتقاد قومهم لهم على إسلامهم، وشتمهم، والإيقاع بهم. فإذا سمعوا ذلك منهم ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي: عن القائلين له، ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سَلامَ مُتاركةٍ وتوديع، فإنا ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لا نريدُ مجالسَتهم، ولا نرغبُ بشأنهم، ولا نقابلهم في المشاتَمة.

لأنفسهم بإطفاء نور العقل، ومَحْق الاستعداد لمعرفة الحق، الذي أودَعَه الله في الطبيعة البشرية، فهم بذلك لا يهتدون إلى الطريق السويِّ المُوصِل لسعادة الدارَيْن.

ثم ختم السياق المُلزم لهم وقرَّره بما فيه تأنيبٌ وكفٌّ عن المعاذير وقَطْعٌ لها، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: أتيناهم في القرآن ببيان بعد بيان ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾، ولكنهم لم يتذكَّروا ولم يتَّعظوا، فلم يَبْقَ لهم معذرة ولا حُجَّة ولا تعلُّل ولا استِعتاب.

ويحتمل أن يكون المراد: إنا أنزلنا القرآن مُنجَّماً مُفرَّقاً يتَّصل بعضُه ببعض؛ ليكونَ ذلك أقرَبَ إلى التذكير والتنبيه وأقوى، ويكونَ فيه جوابٌ عن قولهم: هلّا أُوتي محمدٌ كتابَه دفعة واحدة، كما أُوتي موسى كتابَه كذلك؟

كما يحتمل أن يكون المراد: وصَّلنا أخبارَ الأنبياء بعضَها ببعض، وأخبارَ الكفار في كيفية إهلاكهم، تكثيراً لمواضع الاتِّعاظ والانزجار.

أو المعنى: تكرار تلك القصص القرآنية بوجوهٍ مختلفة، وكلُّ وجه يتضمَّن دقائقَ تَجْلو عبرةً من العبر. أو معناه: وصَّلنا الدعاوي بالحُجَج، والنصائح بالعِبَر، لأنَّ ذلك أكثرُ تأثيراً على النفوس وتذكيراً بها. وعلى كلٍّ، فالجملة لقطع معاذيرهم وإقامة الحجَّة عليهم.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم قابل حالَ المعارضين بحال مُؤْمني أهل الكتاب في عهد الرسول، ليكون ذلك كالاستثناء لهم من الحملة التي حَمَل بها على أهل الكتاب، على نهج القرآن في مثل ذلك،

فقالوا: إنا نجدُه في التوراة بنعته وصفته. فلما رجع الرَّهْط إليهم، وأخبرهم بقول اليهود، قالوا: إنَّ موسى كان ساحراً كما أن محمداً ساحر، وقد تظاهرا. فقال تعالى في حقِّهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾؟ وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ﴿أُوتِىَ﴾.

ومنها: أن كفار قريش كانوا منكرين لجميع النبوَّات عدا إبراهيم، ثم إنَّهم لما طلبوا من الرسول ﷺ معجزاتِ موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ بل بما أُوتي جميعُ الأنبياء من قبل. أي: فعَلِمْنا أنه لا غَرَضَ من هذه الاقتراح إلا التعنُّت.

أقول: وعلى الوجه الأول يكون المراد بقوله: ﴿سِحْرَانِ﴾ أو (ساحران): موسى وهرون، أو ما جاءا به. وعلى الوجه الثاني والثالث: يكون المرادُ موسى ومحمداً، أو ما جاءا به، صلوات الله عليهم أجمعين.

ولما بيَّن سبحانه وتعالى عِنادَهم، أمَرَه أن يتحدَّاهم بما يأتي، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ في أنَّ التوراة والقرآن من صُنع موسى ومحمد صلوات الله عليهم، مشيراً إلى أنَّ ما فيهما من التعاليم العالية ينادي بأنهما ليسا من صنع البشر. ومِثلُ هذا الكلام يأتي به مَنْ يُدْلِ بوضوح على حجَّته واستقامة محجَّته.

ثم مخض النتيجة من هذه المجادلة، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ قال ابنُ عباس: يريد: فإن لم يؤمنوا بما جئتَ به من الحجج. وقال مقاتل: فإن لم يمكنهم أن يأتوا بكتابٍ أفضَلَ منهما ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ يعني: أنهم أُفحِموا ولم يبقَ إلا اتِّباع الهوى.

ثم زيَّف طريقتَهم وأنَّبهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ثم ذيَّل ذلك بما هو كالتعليل له، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قال صاحب «الكشاف»: ﴿لَوْلَآ﴾ الأُولى امتناعية، وجوابها محذوف، على نهج القرآن في مثله، والفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُواْ﴾ للعطف. و﴿لَوْلَآ﴾ الثانية تحضيضية، والفاءُ في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ فاءُ السببية[1]. والمعنى: هلّا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتبعَ آياتك، ونكونَ من المؤمنين.

ثم بيَّن تعالى أن ذلك الإرسال لم يُجْدِهم نفعاً، وأخذوا يتعلَّلون بشبهةٍ أخرى زَيْغاً وعناداً، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني: لـمّا جاءَ أهلَ مكةَ هذا الرسولُ بهذا القرآن المنزَّل عليه ﴿قَالُواْ﴾ تعنُّتاً واقتراحاً: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ من الكتاب المنزَّل جملةً واحدة، ومن المعجزات كقَلْبِ العصا حيَّةً، واليدِ البيضاء، وغيرِها من الآيات.

فردَّ الله تعالى عليهم وعلى مَنْ يُلقِّنهم ذلك من اليهود بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ وقرئ: (ساحِران تَظاهَرا)[2]، أي: تَعاوَنا بتصديق كلِّ واحد منهما الآخر، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقد اختلفوا في ضمير: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ﴾ إلى مَنْ يعود؟ وذكروا وجوهاً:

منها: أن اليهود أمروا قريشاً أن يسألوا محمداً ﷺ أن يُؤْتى مثل ما أُوتي موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ يعني: اليهود المقترحين، فقد قال بعضُهم في عهد موسى: إنه وأخاه ساحران. ففيه إسنادُ ما للبعض إلى الكل. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقٌ بـ﴿يَكْفُرُواْ﴾.

ومنها: أن مُشركي مكةَ بعثوا رهطاً إلى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشأنه؟

---

(١) «الكشاف» (٣: ٤١٨) وفيه: وإحدى الفاءين للعطف، والأخرى جواب لولا.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. «السبعة في القراءات» ص٤٩٥.

صُنْعِك؟! وقد جعل الكلام على التهكُّم بالمعارضين لنبوَّته والمنكرين لها، وقرَّر النفي بهذا الاستدراك، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ إليك بأخبار المتقدِّمين، في هذا القرآن المُبين، المُنزَّل من ربِّ العالمين.

ثم تابع المعنى بالتقرير لِمَا سبق والزيادة عليه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ أنْ نادينا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿وَلَٰكِن﴾ أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره من البيانات الجليلة ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾، فقد ذكر علَّة الإرسال، وهي شدَّة احتياجهم للإنذار، وعبَّر بنفي مجيء النذير إليهم، مريداً به المبالغة في تقادم العهد؛ إذ قد كانوا في آخر عهد مَنْ سبقه من الأنبياء، حيث يَضمَحِلُّ الأمر ولم يبق له تأثير.

فأفاد بهذا التعبير شدَّة الحاجة إلى تجديد العهد لهم، وهذا ما أشرنا إليه في مُفتَتَح السورة من أنه ابتدأها ممهِّداً بقصة موسى وفرعون المتضمِّنة لإنزال التوراة هُدًى وبصائر، وتقادُم العهد عليها، ليُفرِّعَ عليها الحاجةَ إلى هذا القرآن، وما احتوى عليه من البيان، وامتنانَه بإنزاله عالمياً على بني الإنسان.

وقد تابع الكلام في أسباب الإنزال، مُؤنِّباً هؤلاء المُعْرِضينَ عنه والمعارضين له، وضمَّنه وعيداً لهم، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بانحرافهم عن الطريق السويّ؛ لإخلالهم بطبائعهم وتدسيتهم لنفوسهم، فيصيبهم بهذا الانحراف جزاءُ الدنيا وجزاءُ الآخرة، ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا﴾ ما كنا نعلم الطريق السويَّ من الطريقَ المُعوَجّ، ولم نعلم الهدى من الضلال، ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني: إنما أرسلنا الرسولَ إزالةً لهذا العذر منهم، أي: لئلّا يكونَ للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل.

الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها، المؤدِّي إلى اختلال نظام العالم، وفساد أحوال الأمم، والـمُسْتَدعي للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على مرِّ الدهور، وإصلاح الفروع المتبدِّلة بتبدُّل العصور، كأنه قال: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجةٍ إلى إيتائها ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ يتبصَّرون بها الحقائق، ويُميِّزون بين الحق والباطل، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ويتَّعظون.

ثم أردف القصة بما يُرِدِفُ به أمثالَها أحياناً، من الاستدلال بها على أنَّ هذا القرآن هو من عند الله تعالى؛ لأنه يتكلَّم على أمور بعيدة عن النظر، خفيَّة على البشر، ويُفصِحُ عن التاريخ الصحيح المجهول لأرباب الخبر، مخاطباً بذلك النبيَّ ﷺ، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: جانب المكان الغربي من جبل المناجاة، ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، وهو الإيحاءُ إليه وإرسالُه إلى فرعونَ ومَلَئِه، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لهذا الأمر. يريد: أنَّ إخباره عن ذلك هو من الإخبار عن المغيَّبات التي لا تُعرَفُ على الوجه الصحيح إلا بالوحي.

وقد استدرك على هذا النفي ببيان الحق الواقع، وهو إنزالُ هذا القرآن عليه عندما اشتدَّت الحاجة إليه، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، فأومأ إلى أنَّ هذه الأجيال قد تَقادَمَ عليها العهدُ بالشريعة السابقة، فعبثت بها، وأصبحت في أشدِّ الحاجة إلى إنزال القرآن بالهداية والبيان.

ثم أكَّد المعنى وأكمَلَ الإيماءَ السابق بما يماثلُه ويرادفه، فكانت الجملة التي بينهما معترضة، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: تقرؤها عليهم.

وفي قوله: ﴿ثَاوِيًا﴾ تندُّر عليهم في امتناع ذلك، فكيف يقولون: القرآن من

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم أردف هذا السياقَ ببيان ما كان عليهم من التبصُّر بما جاء به موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

والتعرُّض لبيان أن إيتاء التوراة بعد إهلاك هؤلاء الأقوام، إنما هو لإفادة أمرين:

الأول: التعريض بأنه كان عليهم أن يعتبروا بما أصاب تلك الأمم من جَرَّاء الإعراض عن وحيِ الله ومعارضة أنبيائه.

والثاني: الإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، تمهيداً لِمَا يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم، فإنَّ إهلاك القرون الأولى من مُوجبات اندراس معالم

إذ حقُّ الكبرياء لله وحده، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ لذلك تمرَّدوا وطَغَوْا، ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ قال الرازي: وهذا من الكلام الفخيم الذي نصَّ بـه على عِظَمِ شأنـه وكبرياءِ سلطانـه تعالى، فشبَّههم ـ احتقـاراً لهم ـ بحصيات أخذهنَّ آخِذٌ في كفِّه فطَرَحَهُنَّ في البحر[1]. على كثرتهم العظيمة وقوتهم البالغة ثم نعى عليه بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾.

ثم ذكر مـا يدلُّ على مبالغتهم في الكفـر والعِنـاد، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بفسادهم لطبيعتهم وتَدْسِيَتهم لنفوسهم إلى حدّ بعيد ﴿أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: يدعون الناسَ إلى ما يؤدي إليها من الكفر والمعاصي، وذلك بمـا لهم من المركز الرئيسي. أو المعنى: جعلناهم في الآخرة أئمةً لقومهم يدعونهم ويَؤُمُّونهم إلى النار، لأنهم كانوا لهم أئمةً في الدنيا يدعونهم إلى الضلالة.

وقال أبو مُسلِم: معنى الإمامة: التقدُّم، فلما عجَّل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدِّمين لمن وراءهم من الكافرين.

ثم بيَّن تعالى أنهم ـ جزاءً لتعاليهم في القوة والإضلال ـ سينزل بهم يومَ القيامة عذابٌ لا مَخْلَصَ منه ولا نجاة، فقال: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾ أي: كما كانوا يُنصَرون في الدنيا.

ثم أجمَلَ لهم العذابَيْن في المصيرَيْن، فقال: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ أي: ممَّن قَبُحت وجوهُهم، وهي خاصَّةُ بعضِ أهلِ النار. وأما لعنة الدنيا فيجوز أن تكونَ الغَرَقَ وسوءَ الذاكرة. والله أعلم.

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٦٠٠-٦٠١).

والعَظَمة قوة غيبيَّـة سماويَّة، أُفيضت على العظماء من الملأ الأعلى؛ لأنهم أكرمُ الناس عنصراً، وأشرفهم جوهراً.

ولا يبعد أن يكون هذا الكلام يشتمل على أمرين: الأول: نفي علمه بإلهٍ غيره دون نفي وجوده، إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه. والثاني: إثبات الألوهية لنفسه.

وليس المراد أنه كان يدَّعي كونه خالقاً للسماوات والأرض والبحار والجبال، ولذوات الناس وصفاتهم، فإنَّ العلم بامتناع ذلك من البديهيات. وإنما المراد أنْ لا تكليفَ على الناس بشيء إلا أن يُطيعوا مَلِكَهم، وينقادوا لأمره. هذا هو المتبادر، ما لم يكونوا من القائلين بالحلول.

ولما كان كلامه نفياً لعلمه بإلهٍ غيره دون وجوده؛ إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزمَ بعدمه، ولذلك قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾، فطلب منه أن يبنيَ له مَرْصَداً عالياً؛ ليطَّلع ـ بزعمه ـ من أوضاع الكواكب وشؤونها وصور نظامها على صحَّة ذلك أو كذبه، فربما ظنَّ أنه إن كان صحيحاً ما يقوله موسى، فلا بد أن يشاهد في السماء ما يُشبِهُ قَصْرَ الملوك وحرّاسَه وآثارَه.

والقرآن أورد صورةَ هذا الطلب بما زاده سَخافةً وشناعةً واستخفافاً. وهذا المعنى مبنيٌّ على أنَّ فرعون قاله مُجِدّاً به، ويجوز أن يكونَ كلامُ فرعون هذا من باب التَّمويه على قومه، أو من باب التهكُّم والتنذُّر على موسى.

ثم ذكر ما ناله من الجزاء في الدنيا، مقدِّماً مُجمَلَ ما بيَّنه من سيرته التي أفضَتْ به لذلك، فقال: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مِصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

ثم ذكر ما كان من أمر فرعون وقومه بعد إذ دعاهم موسى إلى الإيمان، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالةِ على صحَّة الرسالة، والمراد بها: العصا واليد، وهما ـ وإن كانتا اثنتَين ـ فإن في كلٍّ منهما آياتٌ شتّى، أو من إطلاق الجمع على الاثنين، وهذا من خصائص اللغة. فلما جاء موسى بذلك ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ على الله.

ثم أنكروا عليه ما جاءهم به من الدعوة إلى الإيمان بالله وحده دون وُسَطاءَ ﴿وَ﴾ قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وذلك لأنَّ المصريين ـ كغيرهم من مُشركي الأمم الغابرة ـ يتَّخذون لهم أرباباً متفرِّقة، يتَّخذون لكلِّ حال من أحوال الطبيعة إلهاً، كإله الخِصْب وإله الجَدْب، ولكلِّ شأن من شؤون البشر إلهاً، كإله السِّلم وإله الحرب.

ولما كان كلامُهم هذا يتضمَّن أنّ ما كان عليه آباؤهم هو الدينُ الحق، ردَّ عليهم موسى بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ في جنَّات النعيم. وفي هذا الردِّ تعريضٌ بضلالهم وعاقبتهم السيئة.

ثم توعَّدهم وبَصَّرهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لأنفسهم، بإخراجها عن طريق الهدى إلى طريق الضلال.

ولما كان فرعون كلَّما ظهرت حُجَّة لموسى يَتعلَّق في دفعها بشُبهة يُروِّجها على بعض قومه، ذكر هنا ما يَنْطلي عليهم، وقد حكاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ وكان قدماءُ المصريين ـ كغيرهم من مُشْركي الأمم الغابرة ـ يُؤلِّهون الملوكَ وكلَّ عظيم منهم؛ لأنهم يعتقدون أنَّ المُلكَ

أي: خارجين عن سلامة الفطرة وحظيرة الدين. فهذا ما يدعو إلى الإرسال إليهم بالهدى والرَّشاد؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] إذا استأصلهم بالعذاب؛ لإصرارهم على البغي والفساد، والكفر والعناد.

أما موسى عليه السلام فقد طلب من الله سبحانه أن يَعضُدَه بأخيه؛ لأسباب حكاها سبحانه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: ظهيراً ومعيناً، ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بتلخيص الحق، وتقرير الحجَّة، وتزييف الشبهة، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

فقَرَنَ سبحانه وتعالى الإجابةَ بهذا الطلب، و﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنُقوِّيك به، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: تَسَلُّطاً وغَلَبةً عليهم، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بمعونة آياتنا، أي: تمتنعان منهم بها. فأمَّنه سبحانه وتعالى مما كان يحذر ويخاف، ثم قرَّر مضمون ما سبق بقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾، فوَعَدَهم بهذا الوعد الكريم، والنصر المبين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

السُّرعة والاضطراب ـ والجانُّ: نوعٌ من الحيَّات سريعُ الاهتزاز مريع ـ فارتاع منها و﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أي: أدبر منهزماً ولم يرجع. ويُشبِهُ هذا ما جرى لنبيِّنا ﷺ في مبدأ عهده بالنبوَّة عند أول مرَّة رأى الوحي، حيث رجع يَرجُفُ فؤادُه، وقد أخذته الرعدة، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»[1].

وهكذا أدرك الخوفُ موسى عليه السلام عند أول عهده بهذه المعجزة، فنُودي نداءَ تثبيت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١﴾ أي: من المخاوف، وفي سورة النمل: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

ثم ثنّى المعجزة بأخرى، فقال: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ وهو فتحة القميص تحت الطوق، أي: أدخِلْها فيه ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي: من غير عَيْب كالبرص. وهذا القيد للاحتراس.

ثم أمره سبحانه وتعالى بالعَزْم على ما أراده منه، وحَثَّه على الجدِّ والثبات؛ بأن لا يَرهَبَ من تبليغ الرسالة، فقال: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾، وقد استُعير معنى الجملة من وضعية الطائر المستوفز من الخوف، فإذا أمن استقرَّت جناحاه، وضمَّهما إليه. والمعنى: ائمَنْ ولا تَخَفْ ولا تَـرْهَب مما كُلِّفت به من دعوى النبوة وما يتبعها، كمجابهة فرعون ودعوته إلى الدين، على صَلَفه وتجبُّره، فإنك بحفظ الله ورعايته العليَّة.

ثم قرن الأمر بالثبات بما يقرِّره في نفسه، وقال: ﴿فَذَٰنِكَ﴾ أي: العصا واليد ﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ يُؤْذِنانِهم بنُبوَّتك، ويَـرْدَعانهم عن التأثير بك.

ثم علَّل ما أفاده الكلامُ من إرساله إليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الوحي، وقد تيقَّنه موسى عليه السلام وإن لم يَعلَم كُنهَه، لأنَّ التصديق بالشيء لا يتوقَّف على معرفة كيفيته، فإنَّ أكثر ما نُصدِّق به تصديقَ يقين لا نعرفُ كُنْهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده. فهذه عملية النوم والتيقُّظ، وهذه عمليَّة التذكُّر، لا يُعْلَم كيف تتم، وهذه حبَّة البُرِّ مثلاً ونَبتُها واستواؤها على سوقها، وبذرة التين وتشجُّرها وإثمارها، فكلُّ ذلك نُصدِّق به تصديقَ يقين، أو نشاهده مشاهدةَ عيان، دون أن يتوقَّف ذلك على معرفة كيفيَّة وكُنهِ حقيقته. وهذا المذياع نتيقَّن نَقْلَه للأخبار دون أن يتوقَّف عِلمُنا على كيفيَّة ذلك منه، فأكثر السامعين لا يعلمون الكيفيَّة.

فهذا النداء لا يزيد عن كونه عرفاناً من موسى مع إيقان، دون إدراك لحقيقة الشأن، وإن كان من ناحية الشجرة، ومن المعلوم أنَّ الأنبياء عليهم السلام مُزوَّدون بالقدرة على استلهام المعلومات بطريقةٍ فوق نطاق الحواسِّ المعتاد، يجري فيهم ذلك دون أن يعرفوا كيفيته، كما لا يعرف أحدٌ كيف تتمُّ له عملية التذكُّر والإدراك. وقد عدَّ سبحانه في آية طرق الإيحاء بقوله: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ويجوز أن يكون بطريقة التجلِّي. والله أعلم.

وإنما وصف البقعة بكونها «مباركة»؛ لأنه حَصَلَ فيها ابتداءُ الرسالة، وتكليمُ الله تعالى إياه. وجاء في سورة النمل: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وفي سورة طه: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١١-١٢]، ولا منافاة بينها، فهو تعالى ذكرَ الكلَّ، إلا أنه حكى في كلِّ سورة بعضَ ما اشتمل عليه ذلك النداء، على نهج القرآن في القصص.

ثم أعطاه دليلاً على نبوته؛ هذه المعجزة، فقال: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ تنقلب ثعباناً، ثم ذكر ما كان من خوف موسى منها أول الأمر، فقال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ في

يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان من أمر موسى بعد انقضاء الأجل، وسَيْره نَحْوَ مِصرَ بإذنٍ من شُعَيب، وقال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ نَحْوَ مِصرَ، وأظلم عليهم الليلُ ذات ليلة في الصحراء، هبَّت ريح شديدة فرَّقت ماشيتهم، وضلُّوا الطريق، وأصابهم مطر وبرد شديد، وبينما هو كذلك إذ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ﴾ جَبَلِ ﴿ٱلطُّورِ نَارٗا﴾، فلما رآها استأنس وانسرَّ و﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ مكانكم، ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، أي: أستخبر وأستعلم عن الطريق الذي ضَلَلْناه إن وجدتُ على هذه النار أحداً من الناس يعرفه، ﴿أَوۡ﴾ آتيكم بقَبَسٍ، و﴿جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: تُوقِدُون لكم بها ناراً وتستدفئون.

والجذوة: القطعة الغليظة من الخشب المشتعل، ليس فيها لهيب، وتُسمَّى الجمرة أيضاً. و﴿أَوۡ﴾ هذه لمنع الخُلُوّ، لا لمنع الجَمْع، أي: لا يخلو الأمرُ من أحد هذَيْن، أو منهما جميعاً.

هذا ما قَصَده من هذه النار، ولم يعلم أنَّ السعادةَ تنتظره هناك، وذلك ما حكاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ والمراد بهذا النداء: نداء

رأتـه فيه من القوة والأمانـة. وقد حكى ذلك سبحانه بقولـه: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾، ثم ذَكَرَتْ ما هو كالدليل على أنه حَرِيٌّ بالاستئجار، فقالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾، وذكرت ما شاهدَتْهُ منه من إقلال الحجر على البئر المتروك مع ضخامتها، وأنه صوَّب رأسه حين بلَّغته رسالتَه، وأمَرَها بالمشي خلفَه، وغير ذلك.

فرغب شعيبٌ[1] بمصاهرته، لِـمَا رأى فيه من النُّبل وكمال الخلق وعُلوِّ النفس وتقوى الله حقَّ تقاته، و﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي: تكونَ أجيراً لي في رَعْي غنمي ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أي: ثمانية أعوام، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: فإن جَعَلتَها عشراً فهو فَضْلٌ منك، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ باشتراط العَشْر، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ في حُسْنِ المعاملة والصُّحبة والوفاء بالعهد.

﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي عاهَدْتَني فيه هو ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ لا نَخرُجُ عنه، ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: إنَّ الخيارَ بيدي في قَضاء أيِّ الأجلَيْن أردتُ، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: شاهدٌ وحفيظ.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

---

(١) لو قال: الرجل الصالح، لكان أَوْلى، فقد رجَّح المؤلف رحمه الله سابقاً أنه ليس بشعيب عليه السلام.

السَّقْـيَ بنفسـه. ويُـؤْذِن هـذا بـأنْ ليـس لـه وَلَـدٌ ذكـر.

﴿فَسَقَىٰ﴾ موسى ﴿لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ يستريح فيه، ﴿فَقَالَ﴾ مناجياً ربه: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ يطلب الخير من الله تعالى، قلَّ أو كثر؛ لأنه طريدٌ معدم. وقيل: بل المعنى: إن هذا الخير الذي أنزلته إليَّ ـ وهو الدين والنبوة ـ أخرَجَني من بُحبوحة نعيم فرعون.

وعلى كلٍّ، فالكلامُ دعاءٌ يستعطف به اللهَ سبحانه وتعالى أن يُعينَه ويرزقَه من فضله، بعد أن نزع يدَه من نعيم آل فرعون الذي كان فيه عندما كان بينهم، وأصبح وحيداً شريداً.

وقد أجاب الله دعاءه، إذ هيَّأ له هذه المصاهرة التي حكاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: مُتحفِّزةً شديدةَ الحياء، و﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فكانت هذه الدعوةُ لإعطائه أجْرَ السَّقي فاتحةَ كلام وقَصَصٍ وتعارُف أدَّى إلى طلب الـمُصاهرة، وكان ما أراده الله من إجابة دعائه، فأغناه من فقره، وآمنه من خوفه، وشَمِلَه بلطفه، فما أجمل عناية الله وأحلى!

والذي يظهر من السياق: أنه عليه السلام إنما أجاب المستدعيةَ لا ليأخذ الأجر، ولكن ليتعارَفَ بأبيها، ويستظهرَ برأيه في أمره، ويَسْتَنْجد به. وقد حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم عَرَضَت إحدى البنتَيْن على أبيها أن يستأجرَه لرعي الغنم والقيام بأمرها؛ لِـمَا

= موسى مع فرعون؛ لأنَّ ذكر ما جرى لقوم شعيب حينئذ أشد تهديداً لفرعون وقومه؛ لقرب العهد. فيكون أشد في إثارة الرعب وأبلغ في التهديد.
هذا ما أراه، والله أعلم بحقيقة الحال. (المؤلف).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لُحوقَ الطلبِ به، واستعان بالله و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهي قريةُ شعيب عليه السلام، وبينها وبين مصر مسيرةُ ثمانية أيام، وفي الظاهر أنها لم تكن تحت سلطان فرعون، فقصدها و﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيَهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما، أي: تمنعانها من الماء.

﴿قَالَ﴾ موسى لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ عند المزاحمة ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مواشِيَهم. ثم بيَّنتا سَبَبَ توليتهما الماشية مع أنها من وظائف الرجال، فقالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[1] لا يقدر أن يتولَّى

---

(١) أكثر المفسرين على أن هذا الشيخ هو نبيُّ الله شعيب عليه السلام. ولكني أميل إلى رأي مَنْ يقول: إنه غيره. ويجوز أن يكون اسمه شعيباً، وذلك لأمور:

١ـ أن بين شعيب وموسى عليهما السلام حسبما يظهر من التاريخ: حقبة من الزمن، ويلمح لمثل ذلك قوله تعالى لقوم شعيب: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وبين لوط وموسى عليهما السلام زمن طويل.

٢ـ أن قوم شعيب أُخِذُوا بعذاب الاستئصال، وبقي منهم بقية من المؤمنين، وليس من المعتاد أن تتكاثر هذه البقية بمدة يستوعبها عُمُرُ شعيب.

٣ـ الظاهر أن موسى عليه السلام، لو لم يكن أهل مدين حين هاجر إليهم أكثرهم مؤمنين لم يقصدها بالهجرة ويعتمد عليها في الأمان. وهذا كذلك يستلزم أن يمرَّ على استئصال قوم شعيب في مَدينَ حقبةٌ من الزمن بعد شعيب.

٤ـ لو كان شعيب وما جرى على قومه في زمن موسى عليهما السلام؛ لجاء ذِكرُه في قصة=

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله، ولم يكن قَصْدُه ذلك. فلما رأى الأمر قد فَرَط ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، فندم واستغفر و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ لزلّات المؤمنين وهفواتهم، إذا تابوا وأنابوا.

ولما حَظِيَ بالعفو من الله ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: لمن تُفضي مظاهرتُه إلى الإجرام. وبهذا يؤكِّد التوبة ويقرِّرها.

ولكنه لم يأمن بطش فرعون، ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ من فرعون ومَلَئِه، وقد حَدَث له أمر آخر ذكره سبحانه بقوله: ﴿فَإِذَا﴾ الإسرائيليُّ ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أيضاً، أي: يطلب نُصْرَته مرةً ثانية على رجل آخر من القبط، بصياح وصراخ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: إنك ـ أيها الإسرائيلي ـ بيِّنُ الغَواية ضالٌّ، ولكنه همَّ بنجدته أيضاً، ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وهو القبطي، ظنَّ الإسرائيليُّ من غضب موسى عليه وقوله له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ ظنَّ أنه قَصَدَه بالبطش، و﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾، فبعد أن كان قاتِلُ القبْطيِّ مجهولاً، تبيَّن أنَّ قاتِلَهُ موسى. وقال بعض المفسِّرين: إنَّ قائل هذا القول هو القبطيُّ نفسُه؛ لأن الأمر قد ظهر.

ثم ذكر ما كان من ائتمار آل فرعون بقَتْله، وحَذَرِه منهم، وهِجرته وابتعادِه عنهم، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ وهو مؤمنُ آل فرعون[1] ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي: يُسرعُ إلى موسى، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ من آل فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) هكذا يُلقَّبُ هذا الرجل، وهذا يُؤذِنُ ظاهرُه بأنه من القبط ممن كان قد اعتنق دين موسى الذي يدين به، ولا يبعد ذلك، وقد ذكر القرآن أن امرأة فرعون كانت تدين بهذا الدين، ولا يبعد ذلك، وقد عاداه فرعونُ ومَلَؤُه حين بلغ أشدَّه. (المؤلف).

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي
ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ
إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ
يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ
مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن
يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾
فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا
جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى
ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ
عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم تابع الكلام في تكميل القصة، فقال: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: صادَفَ أنْ كان الوقتُ قيلولةً، أو وقتَ تجمُّع في محلٍّ خاص لعيد لهم أو ما شابه ذلك، مما أفضى إلى خُلوِّ الطريق. وقيل: لسّما شبَّ موسى مخالفاً لمبادئ آل فرعون أمر بإبعاده عن البلد، فلم يدخل إلا خلسةً وقتَ الخلوات، ودخل ذات مرة، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ الأقباط، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضربه بجَمْعه، وكان شديدَ القوة،

خَبَرَه، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: أخذت تتعرَّف أمْرَه اخْتلاساً عن بُعْد، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ أنها تقصُّه وتتعرَّف حالَه، أو أنها أختُه.

ثم ذكر سبحانه ما كان من تدبيره الخفيِّ في ذلك، فقال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: مَنَعْناه عن أن يرتضعَ من المرضعات، وكان ذلك ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ قصِّها أثرَه، واطِّلاعِها على أمره، ﴿فَقَالَتْ﴾ لـمَّا علمت ذلك: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ بالرضاعة والتربية، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ ففعلوا، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بسائر أنواعه، ومنه ردّه إليها، ومنه الحشر والحساب، وجزاء الـمُحسِن والـمُسيء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ حقيقةَ وعدِ الله عزَّ وجل.

ثم تابع القصة، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: تكامَلَ خَلْقُه وخُلُقُه، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: حكماً صحيحاً على الأشياء، وعلماً بها على الوجه الصحيح. وهذه هي الحكمة التي مَنْ أُوتِيَها فقد أُوتي خيراً كثيراً، وهي من المؤهِّلات للنبوَّة. أو المراد: النبوَّة نفسها، على أن تكونَ غيرَ الرسالة التي جاءته بالوادي المقدَّس.

ثم علَّق على ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: الذين يحافظون على سلامة فِطَرِهم؛ لأنها مصدر الإحسان. قال الزجَّاج: جعل الله تعالى إيتاءَ العلم والحكمة مجازاةً على الإحسان؛ لأنهما يؤدِّيان إلى الجنة[1].

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٣٦).

عاقبة أمْرِهِ ﴿لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وفي الكلام تهكُّم عليهم وتندُّر بأعلى صور البلاغة، حيث علَّل الالتقاط بالعاقبة المُحْزنة لهم، تنزيلاً لها منزلةَ الغرض الحامل عليه، وبياناً للعبرة.

ثم بالغ في التندُّر عليهم بصورة تأنيب لهم، فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾، وعلى أمرهم مغلوبين، يقتلون من الحذر الألوفَ من الأطفال، ثم يُربُّون الطفلَ المَخْشيَّ منه في حُجورهم، ويُعلِّقون عليه الآمال. حتى إذا بلغ أشدَّه أنزل بهم ما كانوا يحذرون، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وهذا مظهرٌ عظيم من مظاهر قدرة الله العليَّة وتدبيره الخفيّ في المقادير.

ثم عاد وفصَّل ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ لِـمَا رأت فيه من عِظَم الملامح: هذا ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فإنَّ فيه مخايلَ اليُمْن، ودلائل النَّجابة. يقولون ذلك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ ما هو مُدبَّر لهم من وراء ذلك في طيَّات الغيب وخفايا التقدير.

أما ما كان من أمر أمِّه بعد أن ألقَتْهُ في اليمّ، فقد حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي: خالياً من كلِّ شيء إلا من ذِكرِ موسى، بمعنى: صار فارغاً له وحده. وقيل: فارغاً من العقل لِـمَا دَهَمها من الخوف عليه والحيْرة في الأمر، حتى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ بالانفعالات النفسيَّة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: المصدِّقين بوعد الله لها أنه رادُّه إليها. وأقام الإيمانَ بذلك مقامَ الوقوع والتحقُّق. أي: ربطنا على قلبها ليتحقَّق لديها ما وَعَدْناها به.

ثم تابع الحكاية بقوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبعي أثرَه حتى تعلمي

ثم ذكر سبحانه انتصارَه لهؤلاء المستضعفين، فقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر بإنْجائهم من بأس فرعون وقومه، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادةً ورؤساءَ ودعاةً إلى الخير، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ للذين استضعفوهم؛ بأن نُهلِكَهم ونقيمَهم مقامهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نجعلَ لهم السلطان والرياسة في أرض مصر، ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ أي: نُري فرعونَ وملأه ما كانوا يحذرونه من بني إسرائيل ويقتلون أبناءهم من أجله، وهو ذهابُ ملكهم وانتقالُه إليهم؛ ليعلموا أنَّ كلَّ ما فعلوه من الحذر لم يُجْدِهم نفعاً، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وبعد أن قدَّم هذه المقدمة الإجماليَّة شَرَعَ في تفصيل القصة، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بالإلهام[1] ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم تخافي عليه الطَّلَبَ، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ القتلَ الذي أَمَرَ به فرعونُ في أبناء بني إسرائيل، ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر، وهو النيل، بعد أن تضعيه في التابوت ـ وهو الصندوق ـ كما جاء هذا البيان في غير هذه السورة[2]. والقرآن يكتفي عن تفاصيل القصَّة في سورة بما جاء عنها في سورة أخرى.

ثم طمأنها عن هذا الإلقاء، فقال: ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه الغَرَقَ ولا الضيعة، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ من فراقه، ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ سالماً عن قريب، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ بعد حين. فأرضعته مدة، ولما خافت عليه الطلبَ وضعته في التابوت، وألقَتْهُ في اليمّ.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أخذوه أخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له، ﴿لِيَكُونَ﴾ في

---

(١) الإلهام: عرفان مع إيقان دون إدراك لكيفيته. (المؤلف).

(٢) ينظر: الآيات (٣٨-٤٠) من سورة طه.

هنا: قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: الآيات التي ستُتْلى عليك في هذه السورة: هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ أي: الذي يُبيِّن كلَّ ما يحتاجه البشر لنَيْل سعادة الدارَيْن، وأنهم في أمسِّ الحاجة إليه، بعد أن تَقَادَم العهد على التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام، وعَبَثَ بها العابثون، كما سيأتي بيانه.

ثم ذكر قصة موسى وفرعون؛ ليجعلها تمهيداً لهذا البيان، فقال: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ لا كما يذكره أهل الكتاب ويقصُّونه، وإنما نتلو ذلك ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ فإنهم هم الذين ينظرون نظراً صحيحاً في آيات الله، لأنهم حافظوا على سَلامة فِطَرِهم، واستعدادِهم للنظر الحق.

وبعد هذا المدخل، ذكر القصة بصورة إجمالية؛ لتكون كالمقدِّمة للصورة التفصيلية الآتية، زيادةً في البيان، فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تَجبَّر وطغى في أرض مصر، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً متمايزةً، فكان ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: يُقَتِّل الأبناء ويَسْتَبْقي البنات؛ تضعيفاً لهم. ثم علَّل صدورَ هذا الفعل منه وارتكابَه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾[1].

---

(١) تأزَّمت العلاقة بين المصريين وبني إسرائيل، فلم يأمنوهم، واستشار فرعونُ ملأه، فأجمعوا على أن عزلة بني إسرائيل هي مصدر الخطر، وتكاثر رجالهم يهدِّد الدولة، فاستقرَّ رأيُهم أن يقتلوا ذكور مواليدهم، ويتزوَّجوا بإناثهم مدة، وبذلك يتمّ الاندماج ويزول الخطر. وكان موسى من مواليد هذه الفترة، فألهم الله سبحانه أمَّه أن تضعه في صندوق وتلقيه في البحر، لعل أحداً يلتقطه، فوصل الصندوق إلى قصر فرعون، فرأت امرأته ما في المولود من ملامح النجابة، وقالت لفرعون: ألا يحتمل أن يكون من غير الإسرائيليين؟ فاستجاب لها فرعون، وتربى المولود في رعاية القصر. ولما شبّ موسى أدرك أنه من بني إسرائيل، وعادى القصر، ولما اشتد القصر بالمعاداة له، فرَّ إلى مدين، وبعد عشر سنوات عاد وأدركته الرسالة في الطريق عند طور سيناء. (المؤلف).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى
وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ
ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ۞.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ قد مرَّ الكلام على هذه الأحرف التي تبتدئ بها بعض السور في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به، ومنه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على محمد وآله أجمعين، وبعد،

فهذا هو الجزء السابع[١] من تفسير القرآن المسمَّى: «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل»، ويبتدئ بسورة القصص، المكيَّة إلا قليلاً منها[٢].

وهي ثمان وثمانون آية

وقد جاء فيها ـ كسابقتها ـ التنويه بشأن القرآن.

وقد فصَّل في أوَّلها ما أُجمل في السورة السابقة من قصة موسى.

وجاء آخرها في الاحتجاج بها على أنَّ القرآن من عند الله، وفي دفع ما عندهم من شُبَهٍ عليه.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله في الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

(٢) الآيات (٥١-٥٥) مدنية. وينظر: «تفسير الخازن» (٣: ٣٥٦).

﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها مُحترمة، ونهىٰ أن تُنتهَكَ حُرمتُها، حتىٰ باختلاء خَلاها[1]، وعَضْدِ شجرها، وتَنْفير صَيْدِها، وإرادةِ الإلحاد فيها بوجهٍ من الوجوه، وهي مكة المكرمة.

ثم جاء بما هو كالتَّعليل لذلك الأمر، فقال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خلقاً وتصرُّفاً وملكاً، فهو يتصرَّف فيه بما يشاء، ولكن مشيئته تعالىٰ لا تَجْري إلا بحَسَب الحكمة البالغة والمصلحة العامة والرأفة والرحمة.

ثم عطف علىٰ الأمر بالعبادة قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لِتَتَكشَّفَ لي حقائقُه الرائعةُ المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً. أو المعنىٰ: أتلوَه علىٰ الناس بطريقة تكرار الدعوة وتكرار الإرشاد، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وقد حرصتُ علىٰ عُهدة الإنذار، وقمتُ بالواجب.

ثم هَدَّدهم وتَوَعَّدهم بما سينالهم من أنواع عذاب الدنيا والآخرة التي ذُكرت لهم في تضاعيف هذه السورة، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[2] ﴿٩٣﴾﴾ فيُجازي كلاً بعمله: الخير بالخير جزاءً أوفىٰ، والشر بالشر جزاءً وفاقاً.

انتهىٰ الجزء السادس[3] من تفسير القرآن المسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي، بانتهاء سورة النمل، ويبتدأ الجزء السابع بابتداء سورة القصص.

---

(١) لا يُختلىٰ خلاها، أي: لا يُقطَعُ حشيشُها قبل يبسه.

(٢) وقُرِئَت بالياء: (يعملون)، وفيها بشارة للمؤمنين وتهديد للكافرين، لأنه سيُجازىٰ كلٌّ بعمله.

(٣) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالى في الطبعة الأولى.

وقد جعل سبحانه البيان عن تلك القدرة، دليلاً علىٰ قدرته علىٰ الحشر، ومناراً لشدَّة الحذر منه تعالىٰ، وأردفه بالتَّصريح بذلك، فقال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾، فجاءت هذه الجملة علىٰ نهج القرآن، تكميلاً لِـمَا قبلها وتمهيداً لِـمَا بعدها من الوعد والوعيد، وهو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ[1] وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾، ثم بيَّن تعالى أنّ ذلك إنما كان بسُنّةٍ كونية، ونتيجةً طبيعيةً للأعمال[2]، ليس فيها تحكُّمٌ ولا ظلم ولا استبداد، فقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾؟! وهذه الجملة علىٰ الالتفات للتحسيس[3]، أو هي علىٰ إضمار القول.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم أردف ما تَضَمَّنه السياق من الدعوة بالقول، أردفه بالدعوة بالفعل، مُنوِّهاً بشأن البلدة التي هي منشأ هذه الدعوة، وعلىٰ نهج القرآن في تعقيب التَّنديد والوعيد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرَّشاد، وعلىٰ نهجه في خَتْم السور بما يبدؤها به، فقال: ﴿إِنَّمَآ

---

(١) أي: أُلقِيَت وطُرِحَت. والفعل وزنه: فُعِلَ، وأصله: «كُبِبَ»، سُكِّنت الباءُ الأولىٰ وأُدغِمَت في الثانية.

(٢) ترتيبُ الثواب والعقاب على الأعمال إنما هو ترتّبٌ شرعي، لا طبيعي، كما سلف التنبيه إليه مراراً، وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتَّان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣١).

(٣) هذه الجملة للتبكيت والتوبيخ والتعنيف.

وقد بيَّن شدَّة انقيادهم له، فقال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: منقادين صاغرين.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ دلائل القدرة والمنَّة والتَّصرُّف في مَلكوت الأرض والسماوات، وذكر منشأ الليل والنهار علىٰ الأرض، وهو دورانها اليومي علىٰ نفسها، وجعله دليلاً آخر من دلائل قدرته التي لا يُعجزها ما ذكر من البعث والنشور، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ساكنةً غير متحرّكة في رأي العين، ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في سرعة الحركة اليوميَّة للأرض علىٰ نفسها والسنوية في فلكها، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ومن ذلك: إتقانُ النظام الشمسي الذي منه سَيْرُ حركة الأرض.

ولم يكن المرادُ بهذه الآية ما هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ...﴾ [الكهف: ٤٧]، أي: يوم القيامة، إذ قد تمجَّد سبحانه فيها بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، والتَّمجُّد لا يتناسب مع الخراب. فالجملة مستأنفة منفصلة عن بيان أوضاع القيامة الذي جاء في السياق معترضاً بين دليلي القدرة والإبداع، فهي سَرْدٌ وتَتْميم لِـما جاء في السياق من دليل القدرة والإبداع، وهو قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ويؤيِّد هذا الرأي: ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ واقفةً مكانه[1]، لا تسير ولا تتحرك في مرأىٰ العين، وهي تمرُّ مرَّ السحاب، أي: تسير سَيْراً حثيثاً مِثلَ سَيْر السَّحاب.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٥٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩: ٢٩٣٣).

المستقيم، فهم الذين يفكِّرون في نظام هذا الكون، ويُدركون أنَّ مَنْ فَعَل هذا لا يعجز عن إعادة البشر بعد الموت، لا سيما وأنَّ النوم في الليل يُضَاهي الموت، والانتباه في النهار يضاهي الحياة الثانية بعد الموت، فقد جاء عنه ﷺ: «والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعَثُنّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً»[1]. وفي البيان إشارة إلىٰ أنَّ اليوم الآخر يعقب الدنيا كما يعقب الليلُ النهارَ، ولكلٍّ خصائصه.

ومن مباحث اللفظ: أن في الآية صَنْعةَ الاحتباك، فقد حُذِفَ من صدر الجملة كلمةُ ﴿مُظْلِمًا﴾، اعتماداً علىٰ ما يقابلها في عجزها، وحُذِفَت كلمةُ ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٦٦] من عجز الجملة اعتماداً علىٰ مقابلها في صدرها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم تابع السياق في البيان عن القدرة البالغة، مسبوكةً علىٰ بعض أوضاع القيامة وأحوال البعث، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والآية يجوز أن تكون تمثيلاً منتزعاً من صوت البوق الذي يُفْزع أفراد الجيش للتَّجمُّع عند سماعه[2]، ويجوز أن يكون النفخ حقيقة[3]، ويكون معنىٰ الفَزَع: شدَّة الخوف والدهشة من الحساب.

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).

(٢) من المُقرَّر عند أهل العلم: أن الكلام يُحمَلُ على الحقيقة ما دامت ممكنةً، ولا يُصار إلى المجاز دون قرينة تدلُّ عليه، وهذه القرينة ينبغي أن تكون ناشئة من السياق لا أجنبية عنه، وإلا اختلَّ كلامُ الناس، ولم يفهم أحد عن أحد؛ إذ وجوه المجاز كثيرة، والحملُ عليها دون قرينة على الوجه المذكور مُفسِدٌ لمراد المتكلم.

وعليه، فالقول بالتمثيل هنا غير سائغ ولا مقبول.

(٣) وهو الحق الذي لا محيد عنه. والمراد: النفخة الأولىٰ من إسرافيل عليه السلام.

المنطوية علىٰ دلائل الصحَّة وشواهد الصِّدق التي لم يُحيطوا بها علماً، مع وجوب ما كان عليهم من أن يتأمَّلوا ويَتدبَّروا فيها. وقيل: إنَّ جملة: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ﴾ ليست حالية، وإنما هي معطوفة علىٰ ﴿أَكَذَّبْتُم﴾، أي: أجَمَعْتُم بين التكذيب وعدم التدبُّر[1].

ثم قابل ذلك بما يزيد في التوبيخ والتقريع، فقال: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ حين تركتموها ولم تتفكَّروا بها؟

ويجوز أن يكون هذا الشقّ مصروفاً إلىٰ مَنْ لا يعلم عنها شيئاً، أو إلىٰ العمل، والأول إلىٰ العقيدة.

ثم ذكر سبحانه ما كان من حُكمه فيهم، فقال: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: حَلَّ بهم العذابُ الذي هو مدلولُ القول الناطق بحُلوله ونزوله، أو وقَعَ الحقُّ عليهم، وكان ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ وكذَّبوا، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بمعذرةٍ ولا استِعتاب، إذ ليس لهم عُذرٌ يعتذرون به، أو شبهةٌ يتمسَّكون بها. وقد تكرَّرت جملة: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾، والأولىٰ علّة لعذاب الدنيا، والثانية لعذاب الآخرة.

ثم إنه سبحانه بعد أن خوَّفهم بأحوال القيامة، ذكر مِن دلائل قدرته ما يصلح أن يكون دليلاً علىٰ التوحيد وعلىٰ الحشر، مبالغةً في الإرشاد إلىٰ الإيمان بهما، والاعتقاد بقُدرة الله علىٰ البعث وعلىٰ إنجاز وعيده، وخصَّ بالذِّكر ما فيه لُطفُ دلالةٍ علىٰ الحشر لما بينهما من شَبَهٍ في الجملة، وهو السكون في الليل والبعث في النهار، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ مظلماً؛ ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ ويستعيدوا ما فَقَدوه من القوىٰ بالسَّعي أثناء النهار، ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ليَبتَغُوا فيه من فَضْل الله، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فإنهم هم الذين لم يفقدوا استعدادهم الطبيعيّ للنظر الصحيح والفكر

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٦: ٣٠٢).

ثم أردف عذابَ الدنيا بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ[1] يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ كما تُوزَّع الجيوش أو تُساق المواشي، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلىٰ موقف الحساب ﴿قَالَ﴾ الله عزَّ وجل: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ الناطقةِ بلقاء يومكم هذا ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾؟ قال أبو السعود: وهذه الجملة الحالية مفيدةٌ لزيادة شناعة هذا التكذيب، وغاية قُبْحه، ومُؤكِّدةٌ للإنكار والتوبيخ. أي: أكَذَّبتُم بها بادئَ الرأي، غيرَ ناظرين فيها نَظَراً يؤدِّي إلىٰ العلم بكُنهها، وأنها حقيقةٌ وحَريَّة بالتَّصديق حَتْماً.

وهذا نصٌّ في أنَّ المراد بالآيات في الموضعَيْن: هي الآيات القرآنيَّة، لأنها هي

= عشرَ آيات ...»، وذكر منها الدابة، وروى أيضاً (١٥٨) من حديث أبي هريرة: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ...» وذكر الدابة، وروى أيضاً (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى. وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها».

فهذه الأحاديثُ تُعيِّنُ حملَ الدابة على معناها الظاهر ـ وهو القول بأنها دابة حقيقيةً ـ ولا إشكال فيه، إذ ناقة صالح أعجب منها، وقد جاء النص الصريح بإثباتها، فلِمَ يُطلَبُ لهذه الناقة معنى غير الظاهر، ويُتكلَّفُ تأويلها بتعسُّف؟!

وقد أبعد المؤلفُ في تأويل المراد بالدابة بأنها أمم كثيرة من الأتباع تدبُّ في الأرض فساداً، كالتتر والمغول وأشباههم، أو ما سيقع بالقنابل الذريَّة وشبهها من الأسلحة الفتّاكة.

وليسَ في وَصْفِ الدابة حديث مرفوع نعلمُه؛ وإن وردت في ذلك آثار عن السلف، وكلُّها تخالف ما ذهبَ إليه المؤلف؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنّ الدابة فيها من كل لون، ما بين قرنيها فرسخ للراكب». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي مثل الحربة الضخمة، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إنها دابة لها ريش وزَغَب وحافر، وما لها ذَنَب، ولها لحية». كما في «تفسير ابن كثير» (٦: ٢١٤).

(١) أي: الفوج المحشور.

ثم توعَّد الـمُعرضين وأنذرهم، فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ ببلوغ الفساد أقصاه، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وقد جاء فيما يرويه أبو هريرة ما ملخَّصه: أنها دابةٌ عجيبةٌ رهيبةٌ تضع علامةً علىٰ المؤمن والكافر[1].

وجاء عن بعض الـمُغالين في عليٍّ رضي الله عنه ما يُلمِعُ إلىٰ أنها رجلٌ جبَّار أو قهّار. والله أعلم.

وعلىٰ كُلٍّ، فقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ هو في موضع التعليل، بمعنىٰ: أنها تُؤْذِنُ ببلوغ الفساد أقصاه، ولذلك سلَّطها الله، فهو علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤ – ٥]. والله أعلم.

وعليه، أما يجوز أن تكون مُسلَّطاً دجَّالاً من أهل الأرض مع أمم كثيرة من الأتباع تَدُبُّ في الأرض إفساداً، كالتتر والمغول وأشباههم، أو ما سيقع بالقنابل الذريَّة وشبهها من الأسلحة الفتَّاكة، إذ يجوز أن تشتبك بعض الدول بحرب ذريَّة أياماً، ثم تحتجز، وقد فني من البشر شيء كثير غضباً من الله، والله علىٰ كل شيء قدير. هذا رأيي بمقتضىٰ احتمال اللفظ بحسب اللغة[2]، وإن أخطأتُ فأستغفر الله.

---

(١) رواه أحمد (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٠٦٦) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تخرج الدابة ومعها عصا موسى عليه السلام، وخاتم سليمان عليه السلام، فتخطم الكافر ـ قال عفّان (أحد رواة هذا الحديث): أنف الكافر ـ بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون على خوانهم، فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر».

(٢) هذا الرأي من البُعدِ بمكان، واحتمال اللفظ لهذا المعنى لغةً غيرُ مُسلَّم، ولو سُلِّمَ فهو احتمال بعيد مرجوح، لا سيّما أن الآية الكريمة قد لحقها البيانُ من السنة النبوية، كما في حديث أبي هريرة المذكور، وروى مسلم (٢٩٠١) من حديث حذيفة: «لا تقومُ الساعةُ حتى تروا =

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ العادل، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ فإمهالُهم عن علم وعزَّة، لا عن قَسْر للإرادة، وعَجْز في القدرة، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم بيَّن سَبَبَ إعراض الـمُعرضين، وهوَّن عليه أمْرَهم، وقَطَعَ طَمَعَه فيهم وفي أمثالهم، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾، وهذا القَيْدُ للمبالغة في الابتعاد؛ لأنَّ الإسماع في هذه الحالة أبعَدُ عن الإدراك.

ثم تابع المعنىٰ وأوغَلَ فيه، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، فشَبَّههم بالموتىٰ والصُّمِّ والعُمْي؛ لأنهم لا ينتفعون بمواهبهم هذه، فكأنهم فاقِدُوها.

ثم بيَّـن مَنْ يسمع منه الـهدىٰ، فقال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، لأن الإيمان يُنوِّر القلب، فهم الـمُسْتعدُّون لكلِّ ما يُلقىٰ إليهم من الهدىٰ والرشاد، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ مطيعون لله منقادون.

تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، فيكون المعنىٰ: عسىٰ أن يكون قد قَرُبَ أن يظهر لكم بعض الذي تستعجلون به ويتتابع، ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

ثم ختم الكلام ببيان السبب لتأخير العذاب الأدنىٰ عنهم، رغماً عن عنادهم وكفرهم هذا، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ومن فضله: تأخير العذاب في الدنيا وتأجيله عن الـمُسْتَحقِّين؛ لعلَّهم يرجعون، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ فَضْلَ الله عليهم ونِعَمَه، ولا يقدرون له ذلك.

ثم تابع التعليق علىٰ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾؟ بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾ من معارضةِ الرسول والتَّعريض بالشريعة والاستهزاء بالوعد، سراً أو جهراً.

ثم بيَّن أنَّ ما تَـوَعَّدهم به الرسول واقعٌ لا مَحالة، ولكن ما في عِلم الله من الـمُقدَّرات لا تظهر إلا في وقتها الـمُقدَّر لها، فقال: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾ واضح، فلا تتخلَّف أبداً، ولكنها تتأخَّر إلىٰ حينها.

وبعد أن أكمل تلك القصص عن مُعارضي الأنبياء، خصَّ بالذِّكر بني إسرائيل، وأجرىٰ الكلام عنهم بصورة تعليق خاص مُجمَل، للاهتمام بذلك، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾ مما حرَّفوه وبدَّلوه أو حذفوه من كتابهم، فلا يُصلِحُ شأنَهم إلا هذا القرآن الذي يردُّهم إلىٰ الحقِّ والصواب، فكيف يُعرِضون عنه ويُعارِضونه لو كانوا يعقلون؟

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ به ورشادٌ، يهديهم إلىٰ سواءِ السبيل وساحةِ النجاة.

ولما كان هذا الكلام ناشئاً عن عِنادٍ ومشاغبة؛ إذ لم يُقَلْ لهم: إنَّ البعث يكون في الدنيا حتىٰ يستندوا إلىٰ رَدِّه بأنهم لم يجدوا أحداً من آبائهم بُعِثَ وعاد، ولما كان كلامهم هذا ظاهرَ البطلان، ومجرَّدَ مشاغبة وعناد، لم يُجب عنه، بل أردفه بالتهديد، وتوعَّدهم بما جَرىٰ علىٰ المكذِّبين مثلهم من الأمم الماضية، مُلمعاً إلىٰ الجواب، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، فلو لم يكن حَشْرٌ وحساب لَـمَا عذَّبناهم عذابَ استئصال في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

ثم هوَّن أمْـرَهم له ﷺ، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لإصـرارهم علىٰ الكفر والتكذيب، ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فإنَّ الله تعالىٰ عاصِمُك من الناس.

وتتميماً للبحث عن البعث أقول: إنما يكون البعث لكافَّة الناس في وقتٍ واحد، تتهيَّأ فيه أسبابه الطبيعية[1] بعد انقضاء عالم الدنيا وفناء الإنسان من الوجود الدنيوي، فيبعث الله الأرواح بأجسام صالحة للبقاء. والله أعلم.

وبعد أن توعَّدهم بما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من المكذِّبين، حكىٰ إنكارَهم لذلك واستهزاءَهم به، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾؟! يستبعدون ما توعَّدهم به من عذاب الدنيا، مستهزئين به.

فأمـره تعالىٰ أن يـجيبَهم بهذا الجواب: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ به، فضمَّن ﴿رَدِفَ﴾: معنىٰ: ظهر؛ لتدل علىٰ المعنيين معاً: الظهور والمرادفة، أي: التتابع، ولذلك عدَّاها باللام، وعبَّر بالفعل عن مقاربته، علىٰ حد قوله

---

(١) البعث حَدَثٌ غير عادي، وليس له أسباب طبيعية، بل هو إنهاءٌ لهذا العالم وأسبابِهِ الطبيعية وسُنَنِهِ الكونية. وقد تقدَّم الكلامُ عليه سابقاً.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ثم حكىٰ صورةَ قولهم في إنكار الحشر، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، وقد أضافوا إلىٰ مُسْتند الإنكار ما يؤيِّده بزعمهم فقالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا ﴾ الوَعْدَ ﴿ نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: قد امتلأت أسماعُنا من قضيَّة البعث نحن وآباؤنا، ولم نَرَ أثراً من ذلك، ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ وأكاذيبهم.

وإنما يقولون ذلك لجهلهم أنَّ الحشر لا يكون إلا في زمنه الـمُعَدِّ له، كما أنَّ حياة الأرض بالنبات لا تكون إلا في زمنها الـمُعَدِّ لها، إذ كما أنَّ فصل الربيع مُخْتَصٌّ بالاستعداد لإنعاش الأرض حتىٰ تُخْرِجَ ما فيها من البذر حياً نامياً، كذلك زمن الحشر مُسْتَعِدّ لإنعاش عَجْب الذنب ونواة الحياة، وهو بذرة خالدة في الأرض من جسم الميت من الإنسان، لا تفنىٰ أينما كانت في بر أو بحر، وإن افترَسَتْهُ السباع أو أُحرِقَ الجسم بالنار أو غرق في البحار، لا تتأثَّر بشيء، حتىٰ إذا كان يوم القيامة وتبخَّرت البحار، وكانت الأرض كالعهن المنفوش، أُمطِرَت بنوع من الماء، فاهتزَّ عَجْب الذنب فيها كما تربو الكمأة، وتنبت البذرة أيام الربيع، وتخرج خُضْرَتُها بعد اليبس، لاشتراك الزمنين في استعداد كلٍّ منهما لأحد هذين الإنباتين والإيجادين والصنيعين. والله أعلم.

المشركين له، فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾. وعبَّر بالشعور دون العلم؛ لإفادة أنَّ ذلك الإنكار من المشركين، لم يكن ناشئاً عن فقدان أسباب العلم، ولكن عن إفسادهم لفِطَرِهم.

لذلك أضرب عنه إلىٰ قوله: ﴿بَلِ ادَّارَكَ[1] عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا يشعرون بالآخرة، وقد طُبعوا علىٰ العلم بها، وتتابع عليهم إثباتُ اليوم الآخر بالحُجَج البالغة والبراهين الدامغة في الكتب السماويَّة المُرسَلة إلىٰ البشر، ولقَدْ استعدادهم لم يتأثَّروا بذلك. وقد أجرىٰ الكلام علىٰ المشركين بعد أن كان عاماً، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم أضرب عن نفي شعورهم بها إلىٰ بيان شكِّهم فيها، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ[2] مِّنْهَا﴾ أي: رغماً من توفُّر تلك الوسائل والبراهين.

ثم أضرب إلىٰ ما فوق ذلك، فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ[3] ﴿٦٦﴾﴾ بحيث لا يكادون يفقهون دلائلها ومُثْبتاتها؛ لإخلالهم بطبائعهم وإفسادهم لبصائرهم. فقد بكَّتهم في الآية تبكيتاتٍ ينتقل فيها من واحد إلىٰ آخَرَ أشدَّ تفضيحاً وتشنيعاً وإنكاراً[4].

---

(١) أي: تتابع وتلاحق، وأصله: «تدارك»؛ أبدلت التاء دالاً، وأُدغمت في الدال، واجتُلبت همزة الوصل.

(٢) أي: تردُّد وتحيُّر.

(٣) والأصل: «عَمِيُون»، حذفت الضمة للتخفيف، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وقُلبت الكسرة ضمة لتجانس الواو. و«عميون» جمع: عَمِي، وهو الذي اختلت بصيرته، فلا يتدبر الدلائل، ولا يعتبر بما حوله من الحقائق، كالبهائم التي لا تعقل.

(٤) حيث وُصِفوا أولاً بفَقْد الشعور حين البعث، ثم بعدم الإيمان بيوم القيامة، ثم بالتخبُّط في الشك والمِراء، ثم بتعطيل البصائر والعقول.

كافَّة الأنام مِثلَ هذه النِّعَم الجِسام؟! ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أيشركون به مَنْ لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقون؟!

وبعد أن سَرَدَ هذه المظاهر الجليَّة لقُدرة الله العليَّة، ذَكَرَ الإعادة بصورة تذكير بشيءٍ معلوم، كأنما أصبح العلم بها بديهياً بعد ذِكرِ تلك القدرة العظيمة لله تعالىٰ في التكوين والإيجاد، إذ تبيَّن أنها سهلة في جانبها، وعَطَفها علىٰ البدء عطفَ النظير علىٰ النظير؛ زيادةً في التَّقرير، ونَظَمَها نَظْمَ السياق في سَرْد الأدلة علىٰ اختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: أنَّ الإعادة مُتمِّمةٌ للبَدْء والإيجاد، منسجمةٌ معها. ويجوز أن يُراد ببَدْءِ الخلق: أصلُ التكوين للكائنات، بما فيها النبات، وبالإعادة: ما يُعيدُه سبحانه كلَّ سنة من النبات من كلِّ زوج بهيج، بعد اليبس والقحول.

وتـتميماً للمعنىٰ أردَفَه بقوله: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأسباب سماويَّـة أو أرضيّـة؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يُشاركه في ذلك؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ في دعوىٰ المشاركة. وهذا إفحامٌ سديد، ليس فوقه مزيد.

وبعد أن حَقَّـق تـفرُّده تعالىٰ بالألوهيّـة، ببـيان اختصاصِه بالقدرة العظيمة والإنعامات الجليلة، عقّب بذكر ما هو من مُتمِّماته، وهو اختصاصه تعالىٰ بعلم الغيب الذي هو من خصائص الألوهيَّـة أيضاً، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث، فقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي صورة الكلام تعريضٌ بسَلْب علم الغيب الذي هو من صفات الألوهيَّـة عن شركائـهم الذين يرمزون لهم بالأصنام.

ثم أردف بسَلْبِ عِلم مَنْ في السمـاوات والأرض عن ألصَقِ شيءٍ بهم، وأهمِّه لنفوسهم، وأعلقِهِ بالبحث، وهو وقت البعث، أردف به تحسيساً به ورَدّاً علىٰ إنكار

الدنيا قد ذهب، وما لم يُجَبْ فيه قد بقي ثوابه، قال: يا ربِّ، ليتك لم تُجِبْ لي دعوةً قط في الدنيا.

وأما قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ فالمراد: توارثُهم سُكْناها، والتَّصرُّف بها جيلاً بعد جيل. ويجوز أن يُراد بالخلافة: المُلكُ والتَّسلُّط، علىٰ أنْ يكون الكلام من ذِكرِ العام وإرادة الخاص.

ثم أردف ذلك بالإنكار علىٰ المشركين والتعنيف لهم، فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يشاركه في هذه الأفعال فيستحق أن يُعبَد؟!

ثم أضرب عن هذا التقريع إلىٰ تقريع آخر، فيه بيانُ حقيقة أمرهم وتأنيبهم عليه، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾، والقلَّة لا تأثيرَ لها علىٰ النفوس. قال الرازي: المراد: نفيُ التَّذكُّر؛ لأنَّ القلَّة تستعمل للنفي، ولا سيما هذا التركيب[1].

ثم تابع السياق ببيان قدرته ومنَّته في فطرته للإنسان علىٰ العلم والهداية، وللكشف عن مجاهيل الأمور، فقال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليالي فيها؛ فتكون الإضافة للمُلابَسة، أو في مُشْتبهات الطرق. يشير سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما أودَعَ في الإنسان من الاستعداد لاستنباط الحقائق ومعرفة ما غاب عنه وما خفي. ومن ذلك: معرفتُه لمجاهيل الطرق في البر والبحر.

ثم ذكر نِعمَتَه تعالىٰ وقدرتَه في تكوين نظام السحاب ونشأته من البحر بواسطة الرياح، فقال: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

ثم أردف ذلك بتقريع المشركين علىٰ شركهم، فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يُفيضُ علىٰ

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٥٦٥).

ثم تابع المعنىٰ في عظائم أعماله سبحانه وتعالىٰ وجلائل نِعَمِه، فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ قال الرازي: فإن قيل: كم من مُضْطر يدعو فلا يُجاب؟ قلت: جاء في الأصول: أنَّ المفرد المعرَّف لا يفيد العمومَ، وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المُثبتُ للماهيَّة يكفي في صدقِهِ ثُبوتُه في بعض أفراد الماهية، وأيضاً فإن الله تعالىٰ وَعَدَ بالاستجابة، ولم يذكر أنه يستجيب في الحال، علىٰ أنَّ للاستجابة شروطاً[1].

أقول: ومن شروط الدعاء: أن يكون المطلوب جارياً علىٰ السنن الكونية؛ إذ لن تجد لسنة الله تبديلاً، فلا يُقبَلُ دعاءُ مَنْ يطلب الرزق وهو قاعد لم يتشبَّث في طلبه بمقتضىٰ السنن الإلهيَّة، أو يطلب الشفاء بدون أن يتمسَّك بقوانين الصحَّة الطبيعية ومراعاة السنن الكونيَّة، أو يريد التغلُّب والتفوُّق في الحروب، دون أن يَمهَرَ بالفنون الحربيَّة وصناعة عُدَدِها. علىٰ أنه إذا تمسَّك بتلك السنن، فقد يكون من الحِكَم الإلهية والمصالح العامة الخفية: أن لا يجري ذلك المطلوب، وحينئذ يكون من لطف الله سبحانه أن يعوِّض لهذا الداعي ما هو أصلَحُ له في الدنيا أو في الأخرىٰ، والله أعلم. وقد جاء البحث عن الدعاء في آخر سورة البقرة، فارجع إليه.

وجاء في الحديث: «ما من مسلم دعا الله تعالىٰ إلا وأجابه، فإما أن يُعجِّلها، وإما أن يُؤَخِّرها، وإما أن يَدَّخِرَها له في الآخرة»[2]، فإذا رأىٰ يوم القيامة أنَّ ما أُجيب فيه في

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٥٦٥).

(٢) رواه أحمد (١١١٣٣)، وأبو يعلى الموصلي (١٠١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٦٨)، عن أبي سعيد الخدري. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ٢٢٤): رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في «الأوسط»، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي، وهو ثقة.

﴿يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: عن الحقِّ إلىٰ الباطل، وعن الـجَلَاء إلىٰ العَمَاء، أو: يَعْدِلون بالله شُركاء.

ثم تابع المعنىٰ في التنبيه إلىٰ عظائم مخلوقاته وجلائل نِعَمِـهِ، فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قابلةً للاستقرار عليها، صالحةً للعيش فيها، ولم يجعلها كلّها بحاراً أو جبالاً صعبةَ المنال، وصخوراً غير قابلة للانتفاع والانتقال، ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ تتفجَّر منها لتـتميم مُقْتضيات العيش الرغيد، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً راسيةً تمنعها من أن تَـميدَ بكم، وتتكوَّن فيها المعادن، وتكون مصدراً للينابيع، وفيها من المصالح والفوائد لبني الإنسان ما لا يُحصىٰ.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ما اختصَّت به تلك المياه من الخصائص الدالة علىٰ كمال الحكمة، فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾؛ يريد ـ والله أعلم ـ عَدَمَ امتزاج المياه العذبة بالمياه المالحة إذا اجتمعتا واختلطتا، لِـمَا عليه كلٌّ منهمـا من الخواص والمواد المختلطة به، كما ذكرنا ذلك في سورة الفرقان عند قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣].

ثم ختم هذه الآية بما استلزمته من اختصاص الله سبحانه بالألوهيَّـة، معبِّراً بعبارة الإنكار عليهم في شركهم، والتبكيت لهم عليه، فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي هذه أفعالُه وهذه صفاتُه؟! وللمبالغة في التقريع يكرِّر هذا الإنكار والتعنيف، كلما عدَّد من دلائل قدرته ومنَّته التي يستحق بها الألوهية وحده.

ثم أضرب عن التقريع إلىٰ تقرير جهلهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: ليسوا من أهل العلم والدراية، لذلك تَخْفىٰ عليهم هذه البديهيات، ويَعْمَون عن هذه الملاحظات.

علىٰ طريقة نهج القرآن في تعقيب النقد والتأنيب بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرَّشاد، وبيان اختصاص الله سبحانه بالألوهية؛ لاختصاصه بالمنَّة والقدرة وأفعال الربوبيَّة، فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

ثم أردف السياق ـ الذي ذكر فيه عِنادَ هؤلاء الجَهَلة وتصلُّبَهم في شركهم ـ بما يُبيِّن فضيحةَ أمرهم وشدَّة جهلهم في الألوهية واختصاص الله بها، لاختصاصه بصفاتها، فقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟ أي: الله الذي ذُكرت شؤونُه العظيمة وأعمالُه الحكيمة خيرٌ أم ما يُشرِكونه به من الأصنام أو مَنْ يَتمثَّلونهم بها ممَّن لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون؟

ثم عطف عليه عظائمَ مخلوقاته وجلائلَ نِعَمِهِ؛ ممَّا يستدعي انفرادَه بالألوهيَّة واستحقاقَه وحده لأن يُعْبد، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذاتَ حُسْن ورَوْنق. وعَدَل عن الغَيْبة إلىٰ التكلُّم في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ زيادةً في التحسيس بالمنَّة.

ثم زاد في التحسيس والتَّمنُّن، وسَبَكَ ذلك علىٰ التقريع والتهكُّم بأبلغ وجه وأشدِّه إلزاماً، فقال: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ لولا فَضْلُ الله عليكم ومِنَّتُه.

ثم صرَّح بالإلزام مطوياً علىٰ التجهيل والتوبيخ، فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يشاركه في ذلك الصنع والإنبات، حتىٰ يستحق أن يشاركه في الألوهية؟! ينكر عليهم شِركَهم وعمايتَهم عن كلِّ هذه الأدلة الدالة علىٰ اختصاصه تعالىٰ بالإلٰهيَّة، لاختصاصه بأفعالها وصفاتها.

ثم أضرب إلىٰ بيان سُوء أمرهم في ذلك، وحِطَّة شأنهم، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: يتنزَّهون عن أفعالنا. وفي هذا الجواب من السَّفاهة والخِسَّة وفساد الذَّوْق والطبع ما لا مزيد عليه، ويكشف عن تسفُّل نفوسهم وحطَّة أخلاقهم إلىٰ حدٍّ بعيد.

وقد استأصلهم الله بالعذاب، وبيَّن ذلك علىٰ نهج القرآن، فقدَّم تَنْجيةَ لوط وأهله، تعجيلاً للمَسرَّة، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: قدَّرنا أن تكون من الماضين في العذاب، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ بحجارة من سِجِّيل، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: قَبُحَ وتعس.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وبعد أن قصَّ عليه القَصَص عن هؤلاء المُصطَفَيْنَ الأخيارِ مع أقوامهم، وانتصارهم علىٰ المخالفين لهم، أمَرَه بتحميده تعالىٰ والسلام علىٰ أولئك المُصطَفَيْنَ من عباده، إيماءً لما سيكون من نُصْرته علىٰ مَنْ خالفه من قومه، كما نَصَرَ أولئك الأنبياء،

ذكرناه من قصَّتهم ﴿لَآيَةً﴾ أي: لعبرةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾، أما الجاهلون فلا يعتبرون، ولكن يمرُّون بها مرورَ الأنعام في مسارحها.

ثم ذكر إنجاء الذين آمنوا من قوم صالح، فقال: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وقوعَ مثل هذا العذاب بهم فتجنَّبوا أسبابه.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم ذكر من الطبقة الوسطىٰ قصَّة لوط مع قومه؛ لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلةَ الشديدةَ القُبْح، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾؟! أي: يعلم بعضكم بفعل بعض. وهذا القيد للزيادة في التَّشنيع.

ثم صرَّح بصورة الفاحشة، وسَبَك العبارة علىٰ التوبيخ بالتجاوز علىٰ الآداب وعلىٰ مقتضىٰ الحكمة في سُنَّة الفطرة، وبفساد الذوق في هذا الأمر المَشين، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُبيِّن سفالتَهم وخروجَهم عن مقتضىٰ الفطرة، وما اشتملت عليه الغريزة من الحكمة، وهي بقاء النوع، لذلك أسنَدَ الجهل إليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾، والجهل هنا يَتحمَّل المعنيين معاً: السَّفَه وعدم العلم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أي: لا تعقلون ضَرَرَ ما تفعلون من الجناية علىٰ النَّسْل والصحة والآداب.

فلمَّا ركبتهم الحُجَّة عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة، شأنَ أمثالهم، وقد حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ

مشاهدتهم، ومُلخَّص المعنىٰ: أننا نقتلُه وأهلَه في ظلام الليل بحيث لا تبصرهم أعينُنا، ثم نسرق اليمين، ونحلف لوليِّه أننا لم نشاهد هذا الحادث بأعيننا. فيُموِّهون بعدم المشاهَدة لهذا الحادث بأعينهم عن عدم الاشتراك فيه والتبرُّؤ منه تمويهاً ومَيْناً[1].

وهذا ما دبَّروه من المكيدة والمكر به، كما دبَّر كفار قريش أن يأخذوا من كلِّ قبيلة رجلاً قوياً عزيزَ الجانب، فيقتلوا بهم رسولَ الله ﷺ حتىٰ يتفرَّق دمه في سائر القبائل، فلا تتمكَّن عشيرتُه من إشاعة الفتنة والأخذ بالثأر، وعلىٰ إثر ذلك أمره الله بالهجرة ودبَّرها له كما دبَّرها لمحمد ﷺ، وهكذا يتشابه مكرُ المفسدين، والله غالبٌ علىٰ أمره، فإنَّ الله أمر صالحاً بالخروج من بينهم، ثم استأصلهم بالعذاب، وقد بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ أي: دبَّروا أمراً بالفَتْك به، ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بالفَتْك بهم. وفي الكلام مُشاكَلة، إذْ أطلق المكرَ علىٰ إهلاكهم، جزاءً لمكرهم، أي: دبَّرنا أمراً بإهلاكهم، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وهذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ولا يجوز إطلاقُ المكر علىٰ الله إلا بطريق المشاكلة هذه.

ثم حسَّس بشدَّة وطأة ذلك العذاب، فقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: خالية أو ساقطة، مِنْ: خوىٰ البطن؛ إذا خلا، أو: خوىٰ النجم؛ إذا سقط وهوىٰ، وذلك بسبب ظُلْمهم وكُفْرهم بالله وبوحيه وبرسله.

ثم أثار الشعور إلىٰ ما في ذلك من عبرة، مُعَرِّضاً بكفّار قريش الذين يمرُّون عليها في الحِجْر أثناء سفرهم إلىٰ الشام ولم يعتبروا، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما

---

(١) المَيْن: الكذب. «لسان العرب» (مين).

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أتاكم الشؤم والبلاء من عند الله بكفركم؛ لأنَّ كفرَكم بالله سبحانه هو الذي ساقكم إلىٰ التفرُّق، وإلىٰ معارضة سُنن الله في كونه، فتتابعت عليكم الشدائد.

ثم أضرَبَ عن ذلك البيان وما يَدَّعونه من البُهتان، إلىٰ بيانِ الموجب والباعث لذلك الشأن، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: تُختَبرون بما يجري عليكم ليظهرَ كفرُكم. أو المعنىٰ: يفتنكم غيرُكم بهذه الفكرة، ويحملكم علىٰ هذا الوهم والظنّ من شياطين الإنس والجن.

ثم تابع البيان عمَّا عَمَدوا إليه من السَّفاهة عندما ركبتهم الحُجَّة، وذكر ما كان من ائتِمار ناس من أشرافهم علىٰ قَتْلِهِ ومَكرِهم به، فقال: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ والرهط: من الثلاثة إلىٰ التسعة من الرجال، ويُضاف إليه العَدَدُ إضافةَ الصفة إلىٰ الموصوف، أي: أشخاص تسعة، ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ والقرآن يعقِّب الفِعلَ بنفي ضدِّه مبالغةً فيه. ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنَّ شأنهم الإفساد الخالص المجرَّد عن شَوْب الصلاح.

ثم ذكر صورةَ مؤامرتهم بقوله: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: ليُقْسِمْ كلٌّ منا يميناً ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّ صالحاً وأهله في ظلام الليل الحالك، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ المُطالِبِ بدمه، ونحلف له أننا ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يقال: شَهِدَ المجلسَ؛ بمعنىٰ: حضره، وشَهِدَ الشيءَ: عاينه. وقد موَّهوا بالثاني عن الأول، أي: لم نشاهد بأعيننا هلاكَ أهل ذلك الولي، وهم صالح وأهله، أي: لم نَرَ مَصرَعَهم بأعيننا.

ولفظ: ﴿مَهْلِكَ﴾ يحتمل الزمان والمكان والمصدر والمعنىٰ الحاصل بالمصدر، وهو: ما رأينا مَقْتَلَهم بأعيننا، أي: فكيف نكون قد تولَّينا إهلاكهم؟ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ في هذا الحلف؛ لأنَّ القتل سيقع في ظلام الليل، ولم تبصر أعيننا

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم ذكر من الطبقة البُعْدىٰ صالحاً عليه السلام، وما جرىٰ له مع قومه، ذكره لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فلما بلغ المعاندون من العُتوِّ والعناد إلىٰ أن قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]؛ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لِـمَ تستعجلون بالسيِّئة بَدَلَ أن تستعجلوا بالحسنة. والمراد: أنَّ الله تعالىٰ مكَّنكم من التَّوصُّل إلىٰ رحمته وثوابه بإرساله الشريعة إليكم، فلماذا تَعدِلون عنه إلىٰ استعجال عذابه، بَـدَلَ أن تؤمنوا به وتـنالوا ثوابه، ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يحضُّهم علىٰ ذلك.

فلما أظهر لهم الـمَحَجَّة، وركبتهم الحُجَّة، عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة ـ شأن أمثالهم ـ و﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءَمْنا بك وبمَنْ علىٰ دينك، حيث تتابعت علينا الشدائد، ولم نَزَلْ في اختلاف وافتراقٍ منذ جئتنا بهذه الدعوة، وتبعك فيها مَنْ تبعك،

ثم أضاف إلىٰ هذه المعجزة عجيبةً أخرىٰ، وهي بناء هذا الصَّـرح الغريب العجيب، الذي يُعجِزُ البشر في ذلك العصر، من صُنعه وإتقانه بهذه المثابة، و﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي﴾ هذا ﴿ٱلصَّرۡحَۖ﴾ أي: صَحْنَ القصر، أو ذكر الصَّرح ـ وهو القصر ـ وأراد صَحْنَه علىٰ طريقة المجاز المرسل، وقد جعلته له الجنُّ والصُّنَّاع بشكل بديع من قوارير، يتوهَّم الناظر إليه أنه لُـجَّة ماء، حتىٰ إنَّ بلقيس مع درايتها الملكيَّة خفيَ عليها أمرُه، فكشفت عن ساقَيْها لتخوضه، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ﴾ عليه السلام حين رأىٰ ما اعتراها من الدهشة والحيرة من ذلك الصَّرح، إذ ظنَّتْهُ لُـجَّة ماء؛ قال لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ أي: صَرْحٌ مَصْقول من زجاج، وقد جعله هذا الصَّقلُ البليغ يشبه الماء.

فلما رأت أعمال سليمان العجيبة الخارقة للعادة، ومُلكَه العجيب الذي لا يشبهه مُلكُ أحد؛ لأنه ﷺ يملك الإنس والجن والطير وغيرَهم، والكلُّ تحت إمرته؛ ازداد إيمانُها بنبوَّته و﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي﴾ كنت قد ﴿ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بالكفر ﴿وَ﴾ الآن ﴿أَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾، ولا بدَّ أنَّ هذا كان بعد أن سمعت من سليمان عليه السلام إرشاداتِ دعوته، وتفاصيلَ نبوَّته، حتىٰ دَخَلَ الإيمانُ قلبَها، وخالطت بشاشتُه نفسَها.

ويجوز أن يكون هذا القول مربوطاً بقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ ومُتمِّماً له، وما بينهما اعتراض، والله أعلم.

= يعبدون الشمس، فنشأت مشدودةً إلى قومها بالعصبيَّة، والاعتزاز بهم والانتصار لهم، ولو كانوا على باطل أو خطأ ظاهر.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ﴾ لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ أي: يشبه هذا العرش، ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلّا يكون تلقيناً لها، فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه، حتىٰ يتبيَّن حالها، ولكنها أثبتت من النباهة ما يليق بمركزها، و﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وهذا جوابٌ مبنيٌّ علىٰ الحكمة والدراية، يُنْبِئ عن رَجَاحة عقلها وكماله، إذ لم تقل: هو هو، مع علمها بحقيقة الحال، تلويحاً لِـمَا اعتراه من التَّنكير، ومراعاةً لحُسْن الأدب في محاورته عليه السلام.

ثم قالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: علمنا بقدرة الله وتأييده لك في معجزاتك من قبل هذه الآية المعجزة، وهي الإتيان بالعرش علىٰ هذه الصورة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: أسلَمْنا وانْقَدْنا لك قبل أن تأتينا بهذه المعجزة، حينما تحقَّقنا بنبوَّتك وصحَّة دعوتك فيها، كأنها تقول: عَلِمْنا من قبل هذا أنك نبيٌّ، لك المعجزات وخوارق العادات وعَجائب الأمور، فانقَدْنا لك وأسلمنا. أو: عَلِمْنا بأعاجيبك من قبل هذا وصدَّقنا.

وفي قولها: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ بَدَلَ قولها: «وقد عَلِمْنا من قبل»، تلويحٌ إلىٰ ما عندها من رجاحة عقل ودراية عالية، تفتخر بها، وتعارض ما دعاه إلىٰ اختبارها بهذا الأمر، وتنكر عليه ذلك من طرف خفيّ. وقد جعلت صورة الكلام تكميلاً لجوابها عمَّا اختبرها به. وفي هذا من الدلالة علىٰ رَزَانة رأيها ورَصَانة فِكرِها ما لا يخفىٰ علىٰ النبيه. والتعبير بنون العظمة جارٍ علىٰ سنن تعبيرات الملوك.

وإنما فعل سليمان ذلك معها؛ لتكون معجزةً تحملها علىٰ الإيمان والتمكُّن فيه، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ أي: صدَّ سليمانُ بلقيسَ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: عمَّا كانت تعبد من دون الله، وهداها إلىٰ الإيمان بالله بعد شركها ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

---

(١) والمعنى الراجح: صَرَفَها عن الاستجابة للدعوة إلى توحيد الله وعبادته: أنها كانت من قوم =

أجاب به العفريتَ. أقول: ويجوز أن تتيسّر له بعض السنن الكونية بمُقْتضىٰ ما أعطاه الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

وعلىٰ كلٍّ من الاحتمالات، فالآية تُؤْذن بأنَّ هذا الأمر أتىٰ من طريق العلم وتمَّ به، وإنما عبَّر عنه بهذا التعبير ليشير إلىٰ السبب، والله أعلم، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، وإنما عبَّر النظم الكريم عنه بهذا الوصف، ولم يُعبِّر باسمه للدلالة علىٰ شرف العلم وقدرته علىٰ العظائم، وأن هذه المعجزة منشؤها منه. والله أعلم. وإنما لم يأتِ به سليمان أولاً بل استفهم القوم بقوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؟ ثم قال ما قال؛ لِيُرِيَهم أنه يتهيَّأ له ما لا يتهيَّأ لعفاريت الجنّ. وإنما خصَّ الخطاب بالعفريت؛ لأنه هو الذي تصدَّىٰ لادِّعاء القدرة علىٰ الإتيان به من بينهم.

﴿فَلَمَّا﴾ تمَّت لسليمان عليه السلام هذه المعجزة و﴿رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: رأىٰ العرش حاضراً لديه، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ النعمةَ ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بها ولا أشكرها، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ ثمرة الشكر تعود عليه، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ لا يضرُّ الله سبحانه وتعالىٰ ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ عن شكر الشاكرين وذِكرِ الذاكرين. ومعنىٰ الكفر هنا: بَطَر النعمة، حيث يؤدي في أكثر الأحيان إلىٰ الإعراض عن الله سبحانه وتعالىٰ، وذلك في غير الأنبياء.

ثم أراد سليمان عليه السلام أن يختبر مَبْلَغها من الدراية والنباهة، و﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيِّروا هيئته، بوجهٍ من الوجوه، ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلىٰ معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾؟ وفي هذا التعبير ما في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، من الدلالة علىٰ الرسوخ في الوصف؛ لأنَّ عدم الاهتداء إليه ـ وإنْ غُيِّرت هيئتُه ـ يحطُّ من شأنها ومن مركزها العالي، المُقْتضي للنَّباهة الفائقة.

الكونيَّـة، كما تُنقَلُ الأصوات الآن، وكما تُلمِحُ عنه هذه القصة؟ والله أعلم بذلك.

وقد اختلفوا في هذا القائل؛ فقيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: مَلَكٌ آخر. وعلىٰ كلٍّ، فالمراد من عِلم الكتاب: علمُ نواميس هذا الكون، مما يُعَدُّ الاطِّلاعُ علىٰ شيء منها اكتشافاً عظيماً. وقال الـجُبّائي: بل قائل هذا القول سليمان نفسه عليه السلام[1]،

---

(١) اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في الذي عنده علم الكتاب، من هو؟ فقال جمهورهم: إنه آصف ابن برخيا، وهو من بني إسرائيل، كان وزيراً لسليمان عليه السلام، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب.

وقيل: هو سليمان نفسه، لـمّا قال له العفريت: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، كأنّ سليمان استبطأ ذلك، فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

واستدل القائلون بهذا بقول سليمان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، قال القرطبي في «تفسيره» (١٣: ٢٠٥): «وهو قول حَسَنٌ إن شاء الله تعالى».

وقيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: غير ذلك.

وأما العلم الذي آتاه الله، فجمهور المفسرين على أنه اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب. وقد كان ذلك من باب إكرام الله لأوليائه، كما ذكره القرطبي.

وليس في الكتاب والسنة ما يُبيِّنُ حقيقة هذا المُعلَّم ولا الطريقة التي أحضَـرَ بها عرشَ بلقيس، وعلى فرض أنه رجل من بني إسرائيل علم اسم الله الأعظم، فهذا كرامة له، وهي معجزة لنبيه سليمان عليه السلام، تدل على صدقه وأنه رسول الله.

وكونه أعلم من سليمان في هذا الباب لا يضر، فإن الله تعالى أوحى إلى موسى أنه يوجد من هو أعلم منه، ودلَّه على الخضر، وهو نبيٌّ في قول بعض العلماء، ووليٌّ في قول آخرين، وهي أعلمية مُقيَّدة بمسألة أو مسائل محصورة.

ويُنظَر ما كتبه شيخُنا العلامة عبد الكريم تتان في جوابٍ مُفصَّل عن هذه الدعوى، وقد أوردتها في مدخل هذا التفسير؛ لتكون منهجاً في التعامل مع المؤلف وأمثاله في إبعاد دلالة الآيات عن مخالفتها للقوانين الطبيعية بقدرة الله عزّ وجلّ وحكمته.

للهدهد، مُحَمَّلاً كتاباً آخر مضمونه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بمقاومتها، ولا قُدرة لهم علىٰ مقابلتها، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أسارىٰ مُهَانون. والمعنىٰ: ارجع إليهم فليأتوا مسلمين منقادين، وإلا فلنأتينَّهم بجُنودٍ لا طاقَةَ لهم بها.

فلما جاءهم الرسول بهذا التهديد انقادوا صاغرين، ولما انكشف لها صِدقُه في النبوَّة أسلمت لله ربِّ العالمين.

وبعد أن عَلِمَ سليمانُ عليه السلام بانقيادهم، وأنَّهم علىٰ الطريق، أراد أن يُظهِرَ لهم معجزةً بأمر الله في عرش بلقيس، وكانت قد خلَّفته في دارها، وأوثَقَتْهُ وحَرَسَتْهُ، فأراد عليه السلام أن يُدهشها برؤيتها له في داره إذا وصلت، و﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ منقادين؟

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: قبل أن تقومَ من مجلسك للحكومة، وكان يجلس إلىٰ نصف النهار. ثم أكَّد له الأمر بقوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ وزاد علىٰ القوَّة الأمانة؛ لأنه ثمينٌ، فأفاد أنه لا يَخْتزل من مجوهراته شيئاً ولا يُبدِّل.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: كتاب هذا الكون، أي: الذي عنده علمٌ من سُنن الكائنات[1]: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: بسُرعة خَطْف البصر، ولَيْتَ شعري: هل يأتي يومٌ تُنقَلُ فيه الأثقال علىٰ هذه السرعة بمقتضىٰ النواميس

(١) إطلاقُ «الكتاب» على «السنن الكونية» استعمالٌ غير معروف في كتاب الله تعالى، ولا قرينةَ تدل عليه من السياق، و«الكتاب» يُراد به أحد الكتب السماوية أو جنسُها، وهذا الثاني هو المراد هنا، أي: رجل عنده علم بالله عز وجل ومعرفة مكتسبة مما أنزل الله على عباده من كتب.

العظيمَيْن، وأنهم حاضرون لتنفيذ ما تأمر به، وَفْقَ الخطَّة التي ترسُمها لهم في هذا الأمر. وهذه صفة الجيش الـمُخلِص، والقُوَّاد والوزراء المُخْلِصين.

ولكنها أجابتهم عن تعريضهم بالقتال والدفاع، بما يتضمَّن الخوف من الفشل والمغلوبيَّـة وسُوء العاقبة، و﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ أي: بلدةً عن قتال أو غَلَبة ﴿أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا كبراءَها وأشرافَها، وأذلُّوهم كي يستقيم لهم الأمر. ثم أكَّدت ذلك وقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

ثم بيَّنت رأيها ورَسَمَت خطتَها في معالجة القضية بطريقة سليمة، بعد أن زيَّفت رأيَهم في تعجيل المقاومة الحربية، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فاختارت جهةَ المجامَلة أولاً.

ويجوز أن يكون قد سبق إليها العِلمُ عن نُبوَّة سليمان ونشر دعوته، فأرادت أن تَخْتَبر أمْرَه: أهو مَلِكٌ أم رسول يحرص علىٰ نشر رسالته؟ وهذه الملكة من أعاظم الملوك أُولي الرأي السديد في السياسة والدراية والتدبير.

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ وفدُ الهدية ﴿سُلَيْمَانَ﴾؛ أنكر عليهم و﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: إنَّ الله تعالىٰ آتاني الدين الذي هو السعادة القُصْوىٰ، وآتاني من الدنيا ما لا مزيدَ عليه، فكيف يُستمال مثلي بالهدايا، بل أنتم تفرحون بما يُهدىٰ إليكم؟ والهدية كالعطيَّة تُضاف إلىٰ المُهدَىٰ له.

أما قوله: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾؛ فقيل: خطابٌ للرسول رئيس الوفد، وقيل: خطابٌ

---

(١) كان نظام الأمم: متىٰ رأت في نفسها أسبابَ القوَّة وعواملَ الاستيلاء، غَزَت مَنْ جاوَرَتْها من الأمم الضعيفة، واستولت عليها، ونَحَت عمرانها، وسَلَبت أموالها، واستذلَّت أهلها، ووَلّت عليهم مَنْ يسومُهم الذُّلَّ والهوان. (المؤلف).

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: اتركهم حتىٰ يتدابروا ويُلقوا إليك الجواب، وائتِ به. ويجوز أن يكون المراد: تَنَحَّ عنهم إلىٰ مكان قريب تتوارىٰ فيه؛ ليكون ما يقولونه يُسمَعُ منك. أما فَهْمُ هذا الهدهد لكلام البشر فلممارسته للتكلّم مع سليمان عليه السلام بحكم المعجزة والكرامة، وبصورة هذا الفهم، والله أعلم.

ولذلك حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما نقله الهدهد ممَّا دار بينها وبين أشراف قومها ووزراء دولتها في مجلس الشورىٰ، فقال: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، ثم علَّلت كرامته بقوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾، ثم ذكرت نصَّه وقالت: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: مُنقادِين مؤمنين. وهذا الكلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة علىٰ المقصود.

ثم طلبت منهم الرأيَ ونوَّهت بشأنهم، ذاكرةً اعتمادَها وتعويلَها عليهم، و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ الذي حَزنني وهمَّني، وعبَّرت عن الجواب بالفُتيا التي هي الجواب في المشاكل غالباً، تهويلاً للأمر. ويجوز أن يكون هذا من تعبير القرآن لا من تعبيرها، علىٰ سُنَّته في مُراعاةِ دقَّة المعنىٰ، إن كان ملحوظاً للمحكيِّ عنه، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم بيّنت اعتمادها عليهم في حلِّ المشكلات العارضة في إدارة الملك، وقالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: أشيروا عليَّ في هذا الأمر، فإني لا أقطع أمراً إلا بحضوركم ومَشُورتكم. والظاهر أنها أرادت ضمن الاستشارة أن تَعْجُمَ عُودَهم وتَسْبِرَ غَوْرَهم في الإخلاص لها، والثبات علىٰ المقاومة إذا دَعَت الحاجة.

لذلك أجابوها بما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ به، فبيَّنوا أنهم طَوْعُ أمرها علىٰ قوَّتهم وبأسهم

ثم أضاف إلىٰ عَظَمةِ خَلْقِهِ سَعَةَ معلوماته، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾، والعدول إلىٰ الخطاب لتوسيع البيان عن سَعَة علمه تعالىٰ وشموله كل المخاطبين. وقد قُرئ الفعلان بصيغة الغيبة أيضاً[1]. وقَرَن الإخفاء بالإعلان؛ للدلالة علىٰ أنَّهما عنده سيَّان، وقد وصف الله سبحانه ذاتَه بما يُوجبُ اختصاصَه باستحقاق السجود، رداً علىٰ مَنْ يسجد لغيره.

ثم استأنف ثناءً مشتملاً علىٰ عَظَمة عَرْش الرحمن، تهويناً لأمر عرش بلقيس، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحتَ الثَّرىٰ، فله المُلكُ والسلطان علىٰ جميع الأكوان، جلَّت عَظَمةُ الله. وفي هذه الفقرة لطفُ تذكير وتنبيهٌ لسليمان عليه السلام أمام هذه العَظَمة الإلهية التي يصغر في جانبها كلُّ عظيم.

ويجوز أن يكون كلام الهُدْهُد منتهياً عند قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وما بعده كلامٌ مستأنف من الله تعالىٰ، وهو الأقرب.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما كان من أمر سليمان عليه السلام تجاه هذا البيان بقوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ [٢] ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ

---

(١) قال الألوسي في «روح المعاني» (١٩: ١٩٢): وقرأ الحرميان ـ يعني: ابن كثير المكي ونافعاً المدني ـ والجمهور: (مايخفون وما يعلنون) بياء الغيبة.

(٢) قال أبو السعود [في «تفسيره»: (٦: ٢٨٢)]: وكان مقتضىٰ الظاهر أن يقول: (أم كذبتَ)، وإيثار ما عليه النظم الكريم؛ للإيذان بأن كلامه هذا إن كان كذباً يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب، الراسخين فيه، فإن مساق هذه الأقاويل المُلفَّقة علىٰ ترتيب أنيق، يستميل قلوبَ السامعين نحو قبولها، من غير أن يكون لها مصداق أصلاً، لا يكاد يصدر إلا عمَّن له قدم راسخٌ في الكذب. (المؤلف).

وحَضر ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطَّلعتُ علىٰ ما لم تطَّلع عليه، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم فصَّل ذلك النبأ بقوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: يستدعيه المُلْكُ في ذلك العصر[1]، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا إجمالٌ لِعِظَمِ مُلكها وميزة شأنه، أو لمحة دالة عليه. ويجوز أن يكون قد ذكر العرش وأراد الملك، ولا مانع في الكنايات من إرادة المعنىٰ الحقيقي أيضاً مع المعنىٰ المجازي المخصوص بالإرادة.

ويظهر من فحوىٰ القصة أنَّ سليمان عليه السلام كان يَسْتطلع أحوال الممالك المجاورة غير المؤمنة، بواسطة الطير وغيره، عند إرادته لغزوها ونشر دينه فيها. والله أعلم.

ثم بيَّن الهدهد ما كانت عليه هذه الملكةُ من الشِّرك، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ثم قرنه بما فيه تأنيبٌ لهم فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم علَّل ذلك التزيين وفسَّره بقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بدلاً من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أو مفعولاً لـ﴿يَهْتَدُونَ﴾ علىٰ التوسُّع أو التضمين، وزيدت (لا) لتقرير النفي علىٰ حدِّ قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وصلة الموصول تتضمَّن التقريع والتأنيب. والخبء: ما خَفِيَ في غيره، وهو يشمل إشراق الكواكب ليلاً بعد خفائها نهاراً، وإشراق الشمس نهاراً بعد خفائها ليلاً، وظهور النبات بعد يبسه أو دفن بذوره في الأرض، إلىٰ أمثال ذلك.

---

(١) من العدد، والعتاد، والقوات، والجنود الأقوياء، وغير ذلك.

عليهما، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾، وضمَّن كلمة ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ معنىٰ: اهدِني، أو أدِّبني، أو قَدِّرني، فجَمَع فيها معنىٰ الهداية والشكر والمنع من الإعراض عنه تعالىٰ، وفيها مُشاكلة مع قوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾.

ثم استعرض ذلك الجند ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ وتَعرَّف الأحوال، فلم يَرَ الهُدْهُدَ فيما بينها، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ أَلِساترٍ سَتَرَهُ عنِّي، ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾؟

ثم ظهر له بعد التَّحرِّي أنه غائب، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا[1] أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ليعتبر بذلك أبناءُ جنسه، بل نوعُ الطير كلُّه، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: بحُجَّة تبيِّن عُذره.

وتدلُّ الآية علىٰ درجة تسليط الله له علىٰ هذه الحيوانات، كي يستخدمها في سائر أموره، وأنه مَلِك يتفقَّد رعيَّته، وأنه ليغضب لمخالفة النظام والتغيُّب بلا إذن، ولكنه ليس سلطاناً جائراً، فقد يكون للغائب عذره.

ويُلْهِم فحوىٰ الآية والسِّياق أنَّ هذا الحادث كان له عليه السلام مع هُدْهُد خاص يستخدمه للاستطلاع، ويجوز أن يكون قد أرسله لهذه المهمَّة واستَبْطأه، كما يجوز ـ والله أعلم ـ أنه كان له عَدَدٌ من هذا النوع الخاص يستخدمه للمراسلات واستطلاع أحوال الممالك، بغيةَ نشر الدعوة فيها، وكان واحداً منها غائباً من نفسه للمهمة. ويؤيِّد هذا لامُ العهد في كلمة ﴿ٱلْهُدْهُدَ﴾.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: زماناً غير طويل،

---

(١) اختلف في تعيين نوع هذا العذاب الشديد، وأقرب ما قيل فيه: هو أن يحبسه مع مَنْ لا يتلاءم معه من الطيور ولا يتوافق ولا يتفاهم معه.

﴿ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ يقول ذلك تشهيراً لِنِعَم الله وكرامته، وتنويهاً بها، ودعاءً للناس إلىٰ التَّصديق بنُبوَّته، ببيان هذه المعجزة الباهرة. وفيه تنبيهٌ إلىٰ أنَّ من الخطاب ما لا يكون بالأصوات، ولكن بالانطباع في النفوس والقلوب[1]. والله أعلم.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ شيئاً من ذلك المُلْك الجليل والمعجزة الباهرة، فقال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ وهذا هو الملك الذي لم يُعْطِه الله لأحدٍ من بعده. وتدلُّ الآية علىٰ أنهم كانوا علىٰ ترتيب وتنظيم، وعليهم قُوَّاد يُوزِعونهم، ويَتولَّون تنظيمهم والقيام علىٰ شؤونهم. والله أعلم.

ثم تابع البيان فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[2] ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ ابتهاجاً بنعمة الله وعظيم فَضْله عليه، فطَلب من الله العَوْنَ علىٰ شُكر هذه النعمة، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ فالنعمة عليه نعمةٌ

---

(١) بل كان سليمان عليه السلام يعلم منطق الطير، ويفهم عنها بطريق المخاطبة الصوتية بينه وبينها، لا بطريق الانطباع في النفس والقلب لأنه لا يُسمّى «منطقاً»، وقد أُعطِيَ سليمانُ فَهْمَ مقاصدِ الطير والحيوانات أيضاً علىٰ اختلاف لغاتها وأقوالها، بدليل فهمه قول النملة ـ الآتي في الآية ١٨ من هذه السورة ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ...﴾.

(٢) سمع سليمان عليه السلام قولَ النملة، وفهم خطابَها لجماعتها، لأنها كانت قيِّمة عليهم، فحذَّرتهم من أن تطأهم جنودُ سليمان بأقدامهم، واعتذرت عن الجنود فيما لو داسوها بأرجلهم بأنهم لا يشعرون بمرور النمل تحت أقدامهم، لأنَّ الجنود حين تسير تتوجّه بوجهها إلىٰ الأمام، لا إلىٰ الأسفل، فإذا داسوا النمل بأقدامهم فإنَّهم غيرُ ظالمين لعدم علمهم بوجود النمل تحتهم. وهذا يدلُّ علىٰ مدىٰ إدراك النمل وشعورها، وتحسُّسها وفهمها، وحُسْن رعايتها ونظامها، فإنها أمة من الأمم.

فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ثم ذكر قصَّة داود وسليمان وما أكرَمهما به من الوحي والكرامة؛ لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ وهو الشريعة والحكمة، فشكرا الله تعالىٰ علىٰ ذلك، ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ بما آتانا من هذا الوحي.

ثم ذكر ما أتحفهما به من الكرامة، وضمَّن الكلام شكرَهما لله تعالىٰ عليها، وأجمَل قصة داود، وفصَّل قصة سليمان، فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ النبوَّةَ والعلم والملك والكرامة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ (١) وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ

---

(١) النطق: كل ما يُعبَّر به عما في الضمير، مفرداً كان أو مركباً، ويشمل الأصوات، فكان نبيُّ الله سليمان عليه السلام يعلم منطق الطير، ويفهم عنها ـ كما يفهم بعضها من بعض ـ وما تقصده الطير في أصواتها، وفي سائر أحوالها، فيفهم تسبيحها، وما تخاطبه به عليه السلام، كما ذكر ذلك سبحانه في قصّة الهدهد معه.

أي: أنفسهم قد استيقنتها، ولكنهم جَحَدوا بها عِناداً واستكباراً، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ من الإغراق في البحر علىٰ الوجه الـهائل الذي مرَّ بيانه في غير هذه السورة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ

وقيل: بل الاستثناء منقطع، والمراد: بيان العفو عمَّن بدَّل حُسْناً بعد سُوء من غير المرسلين، ولا بأس أن يشملهم، وهو استدراك خوف من خوف وإن اختلفا في النوع، فالكلام محمولٌ علىٰ المعنىٰ، علىٰ نهج القرآن في مثله. أي: إنه سبحانه مرهوبُ الجانب، مَخْشيُّ العقاب، لا يَسْلم من عقابه إلا من بدَّل حُسْناً بعد سوءٍ، فإنه ينال رحمته ومغفرته. فتكون الآية بياناً وتبشيراً لمن يدعوهم موسىٰ للإيمان فيؤمنون.

ويجوز أن يكون بحسب ما قبله تعميماً يشمل ما قبله، وبحسب ما بعده تمهيداً، وبحسب نَظْمه قاعدةً عامة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ويجوز أن يُحمَلَ الكلام علىٰ المعنىٰ بما مفاده: إني لا يخافُ لديَّ المُرسَلون، ولكنْ لديَّ أنَّ مَنْ بدَّل حُسْناً بعد سوء فإني غفور رحيم. فذكر سُنَّته هذه في المغفرة بمناسبة تأديبه لموسىٰ وتأنيسه. وحَمْلُ الكلام علىٰ المعنىٰ من أساليب القرآن.

ثم أضاف إلىٰ هذه المعجزة غيرَها، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ كبَرَصٍ ونحوه، وهاتان الآيتان ﴿فِي﴾ جملةِ ﴿تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أعطيك إيَّاها، وهي: قَلْبُ العصا حية، واليد البيضاء، وفَلْق البحر، وتظليل الغمام، وانفجار الحَجَر بالماء، والمنّ، والسلوىٰ، ونَتْق الجبل، وابتلاء آل فرعون بالقُمَّل والضفادع والدم. والله أعلم. أي: فإني مُعطيك هاتين الآيتين في جُملةِ آيات تسع، فاذهب بهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من أمر فرعون وقومه بعد التبليغ، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ وهذا الوصف إما علىٰ حقيقته؛ لأنها تُبَصِّرُ الناسَ بحقيقة ما يدَّعيه صاحبها من النبوَّة والرسالة، أو هو من إطلاق وَصْف الفاعل علىٰ المفعول مبالغةً فيه، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: واضح الأثر، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

قيل: هذا محمولٌ علىٰ ما يصدر من الأنبياء من تَرْكِ الأفضل، أو من الصغائر.

ويحتمل أن يكون المقصودُ منه التعريضَ بما حدث من موسىٰ عليه السلام من قَتْل القِبْطي، وهو من التعريضات اللطيفة.

قال الحسن رحمه الله: كان ـ والله ـ موسىٰ ممَّن ظلم بقَـتْل القبطي، ثم بدَّل حسناً بعد سوء، فإنه عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦][1]. فالمراد حُسْن التوبة وسوء الذنب.

= ومحصَّل الكلام: إني لا يخاف لديَّ المرسلون، ولكنهم يثبتون تجاه الشدائد، ولا سيما ما يُصيبهم من ذلك أثناء الدعوة للعُتاة الظالمين، الذين سيغفر الله لهم إذا بدَّلوا حُسْناً بعد سُوء. يُبيِّن بهذا السَّبْك مهمَّة النبوَّة، وصفة الأنبياء، وما يَترتَّب علىٰ ذلك من الإصلاح والصَّلاح، والمغفرة والفلاح، ويُشجِّع عليه. والله أعلم.

ويجوز أن يكون الكلام إرداف شأن من شؤون الله بشأن آخر مُتمِّم له. وحاصل المعنىٰ: أنَّ المرسلين آمنون، ومن تَبِعَهم تغفر لهم ذنوبهم السابقة؛ لأنَّ الإيمان بالرسل والاتِّباع لهم يَمْحُوان ما تقدَّم من الذنوب، ومثل هذا من أساليب القرآن. والله أعلم.

ويجوز أن يكون الكلام وَعْداً لموسىٰ عليه السلام بالغَلَبة وبرضوان الله، ذكره بمناسبة خوفه. ومحصَّله: أنَّ هذا الخوف سيدفع عنك الخوف يوم الفزع الأكبر، فلا أخيفك ذلك اليوم، ولكن سأغفر لك وللذين اتبعوك وبدَّلوا حسناً بعد سوء، علىٰ نهج القرآن في دلالة السياق ومضامين الأساليب. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: لكن هذا الذي سماه المؤلف «هفوات» لا يخرج عن كونه خِلافَ الأَوْلى، وبعضُ ما ذكر مما كان قبل النبوة، وتفصيل ذلك عند المؤلف نفسه في تفسير الآيات المذكورة في مواضعها.

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤: ٥٥٠).

وينبغي أن يُحمَل قوله: «ظلم» على الظلم الذي يقع من الأنبياء في عالي مقامهم، وليس هو ظلماً من غيرهم، لأن قَـتْلَ القبطي كان خطأ، ومثله لا يُسمى ظلماً في عرف الشرع، لكن لما كان موسى عليه السلام ذا مقام عالٍ عاتبَ نفسَه بهذا الفعل، مستحضراً مقامه عند ربه تبارك وتعالى، مستشعراً أن مثل هذا الفعل لا يليق بمثل هذا المقام، فسمّاه ظلماً لذلك.

بطريقٍ فوق نطاق الحواس المعتاد ونظامها، يجري فيهم ذلك ولا يعرفون كيفيَّته، كما لا يعرف أحدٌ كيف تتمُّ له عملية التذكُّر والإدراك، ولا عملية النوم الانتباه، والله أعلم. ولذلك قَرَنَ الكلام بالتنزيه، دفعاً لِـمَا يتوهم من التشبيه، فقال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾.

ثم قال في بيان ذلك الوحي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ وهاتان الصفتان تمهيدٌ لما أُريدَ إظهارُه على يده من المعجزات بقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: حيَّة سريعة الحركة، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يرجع، وهذا كما خاف نبيُّنا محمد ﷺ من المَلَك أوَّل مقابلته له في غار حراء؛ لأن أثر النبوَّة لم يتمكّن بعد، لأنَّ كلَّ شيء يأتي بالتدرُّج. والله أعلم. لذلك قال تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1]

---

(١) يكون الكلام أكثر انسجاماً إذا كان شاملاً لِـمَا يصدر من الأنبياء عليهم السلام من بعض الهفوات، مثل ما تضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وكأكل آدم من الشجرة، وكقول نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، وكقتل موسىٰ القبطي إلىٰ أمثال ذلك. والله أعلم. فالأنبياء عليهم السلام يخافون اللهَ كثيراً من تلك الهفوات، ويقرنونها بالتوبة والندم، فيغفر الله لهم برحمته، فتكون الآية استثناءَ خوف من خوف، وإن اختلف النوع، لأنَّ المراد من قوله: ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: تثبيتهم وتشجيعهم تجاه بَدْءِ مهمَّتهم العظيمة، وتعرُّضهم للمقاومين، والمراد من المستثنىٰ: خوفهم مما يصدر منهم من تقصير أو هفوات.

وإنَّما جاء التعبير بالظلم، ليكون الكلام قاعدةً عامةً مستمرةَ المدىٰ تشمل غير الأنبياء أيضاً، ممَّن بدَّل حُسناً بعد سُوء، وترمي إلىٰ تبشير من سيدعوهم موسىٰ للإيمان فيؤمنون، والله أعلم، وذلك علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيره. =

لذلك قال لهم: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، من أصحاب هذه النار، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ منها ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي: بشعلة نار ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ أي: تستدفئون.

والسين في قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ للدلالة علىٰ نوع بُعد في المسافة. وهذه الجملة يسمِّيها المناطقة: مانعة الخلو، لا مانعة الجمع، فيجوز أن يحصل علىٰ الأمرَيْن معاً.

هذا ما أراده موسىٰ عليه السلام من هذا القصد، ولم يعلم أنَّ السعادة والنبوَّة تنتظره هناك.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وهم الملائكة الذين حضروا احتفاءً باستِنباء موسىٰ عليه السلام، وهذا النداء للتبريك، والله أعلم بمراده. وسمَّاها «ناراً» بحسب اعتقاد موسىٰ بها في بادئ الأمر، أما هي فنور، والله أعلم.

ويجوز أن يُراد بـ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾: موسىٰ عليه السلام، لأنه هو نائلٌ خيرَها وبركتها. وهذه بشارةٌ له عليه السلام بأنه قد قُضي له أمرٌ عظيم تنتشر بركته في تلك الأقطار، وهو استِنباؤه له وإيحاؤه إليه.

فالمراد بهذا النداء: نداء الوحي، وقد تيقَّنه موسىٰ عليه السلام وإن لم يَعلَم كُنهَه، لأنَّ التصديق بالشيء لا يتوقف علىٰ معرفة كيفيَّته وكُنهه، فإنَّ أكثر ما نُصدِّق به تصديقَ يقين، لا نعرف حقيقته وكُنهه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده، فكلُّ مَنْ يسمع المذياع يَتيقَّن أخباره، ولا يعلم كُنْهَ المذياع وكيف ينقل ذلك، فليس تحقُّق الأخبار منه موقوفاً عليه. فهذا النداء لا يزيد عن كونه عرفاناً من موسىٰ مع إيقان، دون إدراك لحقيقة الشأن. وقد تكلَّمت في سورة الشعراء[1] أكثر من هذا بمثل هذه الآية، فارجع إليه.

ومن المعلوم أنَّ الأنبياء عليهم السلام مُزوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات

---

(١) في الآية ١٠.

وقد سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ بما اعتقدوا أو صنعوا ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾، والقَصْرُ وصيغةُ التفضيل للمبالغة في هذا الحكم عليهم، ولإثبات أنَّ الآخرة وأسبابَها حقٌّ علىٰ الصورة التي جاء فيها هذا القرآن.

ثم سجَّل بأنه تنزيلٌ من الله تعالىٰ، مُنزَّل بالحكمة والعلم الواسع والتوجيه الصحيح، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾، وأتىٰ بصيغة المجهول لأنه لم يُتلَقَّ رأساً كموسىٰ، فهو أجدر أن لا ينكروا عليه. وقد جعل هذا البيان تأييداً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، علىٰ نهج القرآن في مثله، فبنىٰ عليه صدقَ القَصَص الآتي، مُؤْذِناً بأنه ﷺ مُشابه لأولئك الأنبياء في الوحي وأصوله، من الدعوة إلىٰ التوحيد، والإيمان بالبعث والحساب، وبأنه تعالىٰ سيستأصل المعارضين له كما استأصل المعارضين لأولئك الأنبياء السابقين، ونصرهم عليهم، وأنه سيناله من الكرامة ما نالهم، فأشار إلىٰ كلِّ ذلك في القَصَص الآتي؛ تسليةً له ﷺ؛ وتثبيتاً.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾.

وقد بدأ بالطبقة القُرْبىٰ، فقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: شاهَدْتُها، وعبَّر بـ﴿آنَسْتُ﴾ لسروره بها، وكانوا قد أضلوا الطريق، وهم في حاجة إلى النار،

حتىٰ لو كُشِفَ لها الغطاء ما ازدادت يقيناً، ولذلك أتىٰ بهذا القَصْر المؤكِّد لحَصْر الإيمان بالآخرة فيهم، لأنَّ الـمِلَلَ الأخرىٰ التي تدَّعي أنها تؤمن بالآخرة، إنما تؤمن بها علىٰ مقتضىٰ أهوائها، وما أوحاه إليها خيالُها، ووَضَعَه لها رؤساؤها في ذلك، ولم تؤمن بالآخرة وأسبابها علىٰ الصفة التي جاءت بها الكتب المنزلة علىٰ الأنبياء، لأنهم قد عبثوا بتلك الكتب أو ضيَّعوها.

انظر إلىٰ المصريين القدماء كيف يُصوِّرون الآخرة بصورةٍ أوحَتْها إليهم أخيلةُ رؤسائهم وكهنتهم، وثبَّتها لديهم هَوَسُهم، فبنوا الأهرام لحفظ أمواهم معهم، لأنهم يعتقدون أنها تكون لهم في الآخرة أيضاً، وحفظوا كذلك أجسادهم لمثل هذه الغاية. وقِسْ عليهم غيرهم في هذا الشأن، كالبراهمة من الهنود وأمثالهم.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ ضلال هؤلاء الضالين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ مطلقاً أو علىٰ الوجه الصحيح، ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ والعَمَه: شدَّةُ التَّحيُّر والضلال، وهذا التـزيينُ ليس قصداً وإيجاداً، وإنمـا هو بحسب السنن الكونيَّة[1]. والمعنىٰ: مَضَت سُنّتنا في أخلاق البشر وشؤونهم أن يستحسنوا ما يجرون عليه ويَتعوَّدونه، ممَّا كان عليه آباؤهم، أو ممَّا استحدثوه بأنفسهم، ويفقدون الاستعداد للنظر الصحيح، ولا يسمعون قولاً مخالفاً له أو مبايناً لقواعده.

---

(١) سنةُ الله التكوينيَّة تجري على البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر. ومنها سنَّةُ الله في تزيين أعمال الكافر له، فالذين لا يؤمنون بالآخرة معاندين مكابرين يرون أعمالهم القبيحة حسنةً جالبةً لهم لذّات من متاع الحياة الدنيا، فانطمست ـ بسبب كفرهم العنادي ـ بصائرهم بمقتضى سنة الله.
وكونُ التزيين بحسب السنن الكونية لا ينافي كونَه بإرادة الله وإيجاده، فكلُّ ما يجري في هذا الكون ويقع إنما هو بإرادة الله تعالى، تنزَّه أن يقع في ملكه ما لا يريد سبحانه، ولكنه سبحانه وتعالى رتَّب أمور العالم على سنن وقوانين لتنتظم بها أحوال الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿طسٓ﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الأحرف في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكر إلىٰ أهمية ما يأتي بعدها. ومنه هنا قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: آيات هذه السورة هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ يُبيِّـن ما يجب علىٰ الإنسان من قول وعمل واعتقاد، ليقيَ نفسَه من النار، وينالَ رحمة العزيز الغفَّار، ويَحُوزَ الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة، فهو ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ به، إذ يهديهم لِـمَا تستدعيه الحال في اتِّجاه الفطرة نحو الكمال، والسعادة في الدارين.

ثم ذكر شيئاً من هدايتهم المؤدِّية إلىٰ ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ اللتين يأمرهم بهما هذا القرآن لإصلاح أرواحهم وأحوالهم، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ والإيقانُ: الاعتقادُ الجازم الذي لا يقبل الشكَّ، لانبعاثه عن المنطق البرهانيّ أو الوجدانيّ أو كليهما، فيملك النفس وتظهر فيها آثاره، فتعمل بمُقْتَضاه، ولا تجد عنه منصرفاً.

والقرآن الكريم هو الذي يبعث في النفس عند تَدبُّره هذا الإيقانَ في أمر الآخرة،



مكيَّة، وهي ثلاث أو أربع وتسعون آية

وقد جاء فيها أيضاً:

التنويه بشأن القرآن، فهي تشبه ما قبلها في الغرض.

وقد جاء أوَّلها في بيان ما فيه من الهداية والبشارة للمؤمنين والترهيب للكافرين.

ثم انتقل منه إلىٰ التثبيت والترغيب والترهيب بذكر بعض قصص الأنبياء.

ثم انتقل إلىٰ التنويه بشأنهم، ثم إلىٰ الموازنة بين عظمة الله وقدرته وجزيل إنعامه، وبيَّن مَهَانة آلهتهم وعَجْزَها وضَعْفَها.

* * *

الشعراء، علىٰ نهج القرآن في تكميل البيان، فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ لأنَّ الشعر هو الكلام الذي يُؤثِّر في النفوس ويخدعها، فتغوىٰ وتنخدع بالتضليل.

ثم استشهد علىٰ ضلال الشعراء وخداعهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾، فيجعلون الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقاً، والصِّدقَ كذباً، والكذبَ صدقاً؛ لمآربَ يطلبونها، ومطالبَ يقصدونها، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ فيُرغِّبون بالشيء ويرغبون عنه، ويُنفِّرون عن الشيء ويتلبَّسونه، بخلاف محمد ﷺ، فإنَّ مبادئَه لا تَتَناقض ولا تتبدَّل، ومآربَه لا تتغيَّر ولا تتحوَّل، وهو أولُ من يتمسَّك بها ويعمل، فكيف يكون من الشعراء؟!

وبعد أن وصف الشعراء بهذه الصفات الذميمة، بياناً للفرق بينهم وبين محمد ﷺ، استثنىٰ منهم الموصوفين بأمور أربعة، وأخرجهم من هذا الحكم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وذلك بجَعْل شعرهم في التوحيد والنبوَّة ودعوة الخلق إلىٰ الحق والصَّلاح، ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ وذلك بهَجْو مَنْ يَهْجُو المسلمين، ويُباديهم بالسُّوء، فإنَّ الله لا يحبُّ الجَهْرَ بالسُّوء من القول إلا مَنْ ظُلم.

ثم ختم السورة بهذا التَّهديد الرهيب لأولئك المشركين الذين يرمونه ﷺ بهذه الوصمات، تنفيراً للناس عنه، وتشويهاً لأمر الدعوة، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ أي: سيَرَوْن الهولَ الشديد الذي سيصيرون إليه في مُنقَلَبِهم بعد الموت.

* * *

صلاة الليل، ﴿وَ﴾ يرىٰ ﴿تَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي: صلاتَك مع المُصلِّين. وقد ساق هذا مساق التعليل والسبب لما تضمَّنته الجملة السابقة من كونه في حفظ الله وكفالته ورعايته، بمعنىٰ: أنَّ ذلك لهذا السبب.

ثم أيَّد الأمرين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ فلا تخفىٰ عليه خافية، ويُجري الأمور بحسب العلم الصحيح، والحكمة البالغة. فكلُّ أعماله حِكَمٌ ومَصالح، ومنه: الصبر علىٰ المشركين.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ الرد المُزيِّف لشُبهتهم المتقدِّمة في حقِّ القرآن من أنه من قبيل ما يُلقىٰ علىٰ الكُهّان، فقرنه بردِّ الوصف عليهم، علىٰ نهج القرآن في العودة السمرة بعد الأخرىٰ إلىٰ المعنىٰ الذي يريد تقريرَه وتحريرَه، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ أي: أفرادُ الجن الذين يكذبون على الكهنة بأنهم يسترقون السمع من السماء؟! ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي: كذَّاب شرير، يعني: الكهنةَ المموِّهين علىٰ الناس، العابثين بعقولهم، فهم الذين ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إلىٰ الشياطين، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ يَفْتَرون علىٰ الشياطين، فضلاً عن كذب الشياطين في ذاته عليهم، فيكون كذباً مزدوجاً مِن كذب الشيطان وكذب الكهَّان.

وبعد أن أبطل ما قالوه في القرآن العظيم، من أنه من قبيل ما يُلقي الشياطين علىٰ الكَهَنة من الأباطيل، أبطل ما قالوه من أنه من قبيل الشعر، وأنَّ رسول الله ﷺ من

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

وبعد أن ردَّ علىٰ المشركين مزاعِمَهم الباطلة، وألزمهم بالحُجج الدامغة، وأوضح لهم المَحَجَّة الواضحة، دَعا إلىٰ التوحيد مُخاطباً للنبيِّ ﷺ، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾. وفي هذا التهديد إنذارٌ للمُخاطَبين، وخطابٌ للرئيس عن المرؤوسين، ولونٌ من ألوان شدَّة البيان، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم أردف ذلك بالأمر بإنذار عشرته الأقربين، لأنهم يأتون بعد النفس في الحرص علىٰ نجاتهم، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

ثم أمره بلين المعامَلة مع الذين يؤمنون، رِفْقاً بهم وتألُّفاً لهم، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ وخَفْضُ الجناح كنايةٌ عن الشفقة واللين والتواضع لهم، مستعارٌ من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن يحطَّ خَفَضَ جناحَه.

ثم أشفع الأمرَ بالإنذار بقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ تفظيعاً لأمرهم، وتوعُّداً لهم، ولا تَرْهَبْ أحداً في إنذارك ونشر دعوتك، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ وفي هذَيْن الوصفَيْن إيذانٌ بأمرين: باستناده إلىٰ قوَّة الله وعزَّته، وبأن تعالىٰ إذا أمهل المشركين فليس ذلك لعجز في القدرة، فإنه هو العزيز، ولكنْ رحمةً منه بهم، فإنه هو الرحيم.

وفي مثل هذا الموقف يأمر القرآن بإقامة الصلاة مشيراً إلىٰ أنها تُقوِّي العزم وتُؤيِّد الثبات، ولكنه أتىٰ به هنا بصورة تُوضِّح له أنه في عناية الله تعالىٰ ورعايته، لا يغفل عنه، وسَبَك ذلك علىٰ ما يُلمع إلىٰ رضاه سبحانه وتعالىٰ عن صورة إقامته للصلاة وخشوعه لله فيها، ولا سيما صلاة الليل، فقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي: في

وإنذارهم، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لهم وتبصرةً بما يُراد بهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ لهم، إذ قد أَعذَرَ مَنْ أَنذر، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بإخلالهم بنور بصيرتهم، وإعراضهم عما جاءهم من الحق. وفيه أيضاً احتراسٌ عن صفة سلوكه في قلوب المجرمين، بأنَّ ذلك لم يكن في أصل خلقهم فنكون ظالمين لهم، ولكنهم تشبَّعوه بتضليل المضلِّلين.

ثم عاد إلىٰ إتمام البيان بشأن هذا القرآن، يردُّ علىٰ مزاعمهم الباطلة فيه، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بهذا القرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ أي: ليس محمدٌ ﷺ بكاهن كما يزعم بعض المشركين من أنَّ القرآن من قبيل ما يُلقي الشيطان علىٰ الكَهَنة؛ إذ يزعمون أنَّ الشياطين ـ والمراد بهم هنا: أشرار الجن ـ تلتقط الأخبار من السماء وتُلقيها إليهم فيتكهَّنون بها، والقرآن من هذا القبيل.

ففنَّد الله سبحانه تُرَّهاتهم هذه بقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ ذلك، وهذا نفيٌ للإمكان، وهو أبلغ من نفي الفعل، ثم أردفه بنفي الاستطاعة فقال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ ذلك.

ثم علَّل النفي بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ لانتفاء المشارَكة بينهم وبين الملائكة في صفات الذات، فلا يُمكِنُهم أن يسمعوا منهم.

وعلىٰ كلٍّ، ففي الآية إبطالٌ لرأي المشركين من أساسه، وتصريحٌ بأنَّ الجنَّ لا تفهم شيئاً من استراق السمع، وأنها تحاول عَبَثاً وتطلب مُحَالاً، وأنَّ الخطفة التي تخطفها إنما هي هذه المحاولة الفاشلة، وتكذب علىٰ الكهَّان فيما تقول لهم وتدَّعيه من العلم عن السماء. والله أعلم.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

إذا وَصَل إلىٰ سَمْعِهِ قولٌ مخالفٌ لِمَا هو دين له أو عادة، لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بالعناية والتفكير.

ومعنىٰ الآية: إن المجرمين الذين قد أخلُّوا بسلامة فِطَرِتهم، وطمسوا نور بصيرتهم، يَرَوْنَ الباطلَ حقاً والحقَّ باطلاً، فهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بهذا الحق الذي جاءهم من عند الله، ولا يزالون يعارضونه ويقاومونه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ أي: عذاب الاستئصال.

ثم بيَّن كيفية مجيء ذلك العذاب وحالهم معه، فقال: ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾؟ أي: يَتمنَّون إمهالَهم لتلافي ما فرَّطوا. وفي صورة التعبير تحسُّرٌ علىٰ ما فاتهم من الإيمان به وما يتفرَّع علىٰ ذلك.

فأنَّبهم وعنَّفهم علىٰ تكذيبهم بهذا الوعيد حتىٰ رأوه بأعينهم، فقال: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ استهزاءً واستبعاداً؟!

ثم أنَّبهم علىٰ هذا الاستبعاد والاستهزاء الناشئ من إمهال الله لهم، وطَوىٰ ذلك علىٰ الوعيد، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ ﴾ وأمهلناهم ﴿سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ به من العذاب، هل كان أفادهم ذلك الإمهالُ شيئاً؟ كلا، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ في دفعه وتخفيفه ﴿مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ به من التأجيل إلىٰ أجل محدود.

وفي الآية وجه آخر، وهو أن تكون جواباً علىٰ طلب إمهالهم بعد أن رأوا العذاب. والمعنىٰ: أنه لا فائدة لهم من الإنظار والإمهال، طالما هو واقعٌ بهم بعد ذلك لا محالة.

ثم أردف السياق ببيان هذه الحقيقة العامَّة التي تتناولهم وغيرَهم، وهي أنه تعالىٰ لم يُهلك قريةً إلا بعد أن ينذرها طويلاً حتىٰ ييأس النذير، لئلا يكون للناس علىٰ الله حُجَّة، فقال: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ قد أرسلناهم لإرشادهم

عِلْمُ علماءِ بني إسرائيل بمجيئه علىٰ ما تقدَّمت البشارةُ به دالاً لهم علىٰ صحَّة نبوته، وصحَّة ما جاء به. لأنَّ هؤلاء العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذِكرِه في كتبهم، وكانت اليهود تُبشِّر به وتستفتح بانتظاره والاعتزاز به علىٰ العرب في الجاهلية، وكان ذلك سبب إسلام الأوس والخزرج من أهل المدينة، والآية تُلهِمُ بأنَّ مشركي العرب كانوا يثقون بأهل الكتاب ويقبلون أقوالَهم وآراءَهم، ولذلك قامت الحُجَّة بهم عليهم.

ثم عاد إلىٰ قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، وعلَّق عليه بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ بلغة أعجمية ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ يعني: أننا أنزلنا هذا القرآن علىٰ رجلٍ عربيٍّ بلسان عربيٍّ مبين، فسمعوه وعرفوا فَصاحتَه وعُلوَّ بياناته وسموَّ تعاليمه، وأنه معجزٌ لا يُعارَضُ بكلام مِثلِه، وانضمَّ إلىٰ ذلك بشارة كتب الله السالفة به، ورغماً عن كلِّ هذا لم يؤمنوا به وجحدوه وسمَّوه تارة: شعراً، وتارة: سحراً، فلو نـزَّلناه علىٰ بعض الأعجميين بلغة أعجمية لكان إنكارهم أشدّ وأعظم، لأنه ينضمُّ إلىٰ عدم فهمهم له بهذا الوضوح ومعرفتهم قيمتَـه علىٰ الوجه الصحيح، أنَفَتُهم الجاهلية وشدَّةُ عنادهم في المكابرة العصبية أن يتَّبعوا من ليس بعربي، وكتاباً غير عربي مبين. فالكلام إلزام لهم وإحكام للحُجَّة عليهم.

ويجوز أن يكون في الآية إلـماعٌ إلىٰ ما يعترضون به علىٰ القرآن من أنَّ الكتب السماوية كلَّها بغير العربية، وجواب لهم عن ذلك. والله أعلم.

ثم علَّل سبحانه وتعالىٰ سبب إصرارهم علىٰ الإنكار، رغماً عن نزوله بلغتهم وعلىٰ رجل منهم، ببيان سُنَّته تعالىٰ في طبائع البشر وأخلاقهم إذا أفسدوها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ لأنَّ سُنَّة الله تعالىٰ في انطباعات الإنسان

جبريل عليه السلام، فإنه أمينُ وحيه تعالىٰ، نزل به ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: علىٰ وعيك ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ للناس ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، وهذا يُشعِرُ بأنَّ اللسان العربي أرحَبُ من سائر الألسن للقيام بهذه المهمّة العظمىٰ، ولذلك جعله لغة للقرآن؛ لأنه قادر علىٰ جلاء أسمىٰ وأسْنىٰ معانيه وأهدافه، ولا يقدر علىٰ ذلك غير هذا اللسان، وقد أراده سبحانه وتعالىٰ أن يكون اللغة العامة لجمعية الأمم الإسلامية، بل لجميع البشر، ليتكلَّم بها مع لغاته، لأنه سبحانه أنزل الدين الإسلامي ديناً عالمياً، وجعل لغته كذلك، لأنّ حكمَ الوسائل حكمُ المقاصد، وحَتْمٌ علىٰ الأمم تعلُّمُه وتعليمُه لتفهمَ قرآنها، وتعيَ دينها وعياً صحيحاً، فانكبَّت عليه عامة الأمم الإسلامية فهماً ووعياً حتىٰ كان لسان الجميع فعلاً حقبة من الدهر، حتىٰ اهتمَّ الأعاجم في التأليف لأممهم فيه كسيبويه وأضرابه، فلما أهملوه أهملوا الدين، إذ أصبحوا لم يدركوه حق اليقين.

ثم تابع البيان عن التَّنويه بشأن هذا القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: إن طابعَه الروحيَّ من طابعها، وأمهات تعاليمه موجودة فيها، يبرهن بذلك علىٰ أنه مُنزَّل من عند الله، كما هي مُنزَّلة كذلك.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: إنَّ خبره في سائر الكتب السماوية القديمة، فقد بشَّرت به وبمحمد ﷺ الشرائعُ والأنبياء، حتىٰ إنَّ آخر تلك الكتب سُمِّي بالإنجيل، ومعناه بالعبرية: البشارة؛ لأنه جاء يُبشِّر بهذا القرآن وبمحمد ﷺ، وبقُرب مجيئهما.

وقد استشهد علىٰ ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ أي: علامةً جليةً ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ قال ابن عباس: يريد: عبد الله بن سلّام وأصحابه[1]. أي: أو لم يكن

= هذا ما أراه علىٰ ضوء القرآن وهداه، فإن أصبتُ فالحمد لله، وإن أخطأتُ فأستغفر الله، ولا يعلم الغيب إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. (المؤلف).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٣٩٧).

إنما هي من إحكام تربيته تعالىٰ للعالـمين، وقد ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾[1]، وهو

---

(١) الروح الأمين: لقب جبريل عليه السلام بين الملائكة، كما يلقَّب شخص بالإنسان الكامل بين البشر، ويشيع فيه.

والروح أعلىٰ أنواع المخلوقات وأكثرها وجوداً بين الكائنات، لذلك يضيفها سبحانه إلىٰ نفسه، فقد جاء في الحديث: «أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تَئِط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا مَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله» [رواه أحمد (٢١٥١٥)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب]. وقليل جداً من أنواع هذا الجنس مغلَّف بالجسم الكثيف، وهو صنفان: الإنس والجان. والله أعلم. وهذا هو مفاد قوله تعالىٰ في حق آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، وجاء مثله في حقِّ عيسىٰ عليه السلام.

وإنما أضاف سبحانه الروح إلىٰ نفسه وتمجَّد به، للإيذان بشأنه، وللإيماء بامتيازه عن المخلوقات بكثرة وجوده وخلوده وعلوِّ صفاته وميزاته، ولأنه هو الذي يعرفه حق المعرفة، وكأنما هو المقصود بالذات من بين المخلوقات، وما عداه متمِّم لما أنيط بهذا الجنس من مطالب، وأودع إليه من مواهب، ولذلك كان هو الخالد، وما عداه فانٍ أو متبدِّل، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، سواء كان ذلك التبدُّل بالذات أو بالصفات.

وصنف الإنس والجن من هذا الجنس، ولتغلفه بالغلاف الجسماني فارق أصله في الدنيا ببعض الخصائص، فإن الأرواح المجرّدة المسماة بالملائكة علىٰ تعدُّد أصنافها ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، لأنهم مقسورون علىٰ ذلك ومطبوعون، ولا شأن لهم سواه. أما صنف الإنسان والجن، فقد اقتضت الحكمة أن يكون مختاراً في تصرفاته تابعاً لإرادة نفسه فيها، وإنما كان كذلك ليمكنه أن يقوم بحاجات جسمه وتوفيرها عليه، ولأنه نيط بالإنسان تعمير الأرض والاستفادة من مواهبها وخيراتها، وقد ألهم الله طبيعته إدراك الفجور والتقوىٰ، وقُبْح الأولىٰ وحُسْن الثانية، ما لم تفسد تلك الطبيعة بالتربية الفاسدة والتضليل، وأرسل له الرسل لتعلمه ذلك أيضاً، ليجتنب الفجور ويلتزم التقوىٰ، فهداه سبحانه بالطبيعة والشريعة. وبذلك كانت الحجة البالغة لله عليه إن أضاع رشده أو أساء. =

ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وعبرةً للمعتبرين، ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر مُشركي قريش ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ به ومُصَدِّقين حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سببَ الإمهال مع عنادهم هذا، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ فلم يكن إمهالُـهم وتأجيلُ العذاب عنهم إلىٰ موعده لعجز في القدرة، ولكنه رحمةٌ منه تعالىٰ بهم لعلَّهم يرشدون، وإنَّ يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدُّون.

وإنما كرَّر الجمل في أواخر هذه القصص للعناية بشأن مضمونها، كما تقتضيه البلاغة العالية، وعلىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

ثم أردف السياق بالتَّنويه بهذا القرآن العظيم المبيِّن لهذه القصص والبيانات، إيذاناً بصدقها، وتبجيلاً للمواعظ المستفادة منها، وتقديراً لشأن ما اندمج فيها من أنواع التبصير والإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القرآن الحاوي لما ذكر من القصص والبيان ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾، وعنوان الربوبيَّة للإيذان بأن محتوياته

ثم أردفوه بما هو أشدّ منه سَفَهاً، وقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قِطَعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾؛ يقولون ذلك تهكُّماً واستبعاداً.

أما شعيب عليه السلام فقد استعان عليهم بربه بعد أن يئس من إيمانهم، و﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾، وقد قَرَنَ سبحانه وتعالىٰ الاستعانة بالإجابة، وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ وهي سحابة أظَلَّتهم فأحرقتهم عن آخرهم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾، وفي هذا التهويل إيقاظٌ للمنكرين المعارضين لمحمد ﷺ وما جاء به.

= الأولى، بل هي تأكيد لها، فبين الجملتين كمالُ اتصال، لذا لا يجوز أن تتوسط الواو بينهما، لأن العطف يقتضي التغاير، ولو وسِّطت الواو لكان لكلٍّ من الجملتين معنى يختلف عن معنى الأخرى. وعلى العكس من هذا قال قوم شعيب: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، فكلمة ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ يجب أن تفسَّر بالمسحورين الذين مسَّهم الشيطان واختلط عليهم الأمر، وهذا يختلف عن كونهم بشراً، فقوم شعيب اتهموا نبيَّهم تهمتين: كونه مسحوراً أولاً، وكونه بشراً ثانياً، ولا شك أن كلاً من التهمتين تختلف عن أختها، ولذا وسِّطت واو العطف بينهما، لأن العطف يقتضي التغاير كما قلنا، وهذا هو الإعجاز البياني في الآية.

وبقي نوع آخر من الإعجاز: وهو إعجاز تاريخي، متفرِّع عن ذلك الإعجاز البياني، وهو أن فرية اتهام الأنبياء من أقوامهم بالسحر لم تكن معروفةً عند الأنبياء الأُوَل، وإنما كانت متأخرة، فلم تكن قضية السحر مشتهرة عند القبائل الأولى؛ عاد وثمود وكل الذين يجيبون أنبياءهم أنهم بشر يأكلون ويشربون، وأنهم اتبعهم الأرذلون، لأن السحر لم يكن معلوماً ولا معروفاً عندهم، وقد ظهر متأخراً، وقد حدثنا القرآن عن السحر عند المصريين القدماء، ونحن نعلم قرب المسافة بين مصر ومَدْيَن منزلِ شعيب عليه الصلاة والسلام، لذا كان السحر معروفاً عندهم. وهكذا ندرك نَوْعَي الإعجاز في الآيتين ـ أعني: البياني والتاريخي ـ والله أعلم. انتهى من كتاب «إعجاز القرآن» ص٢٠٤-٢٠٦ لشيخنا العلامة المفسِّر فضل حسن عباس رحمه الله تعالى.

﴿مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف تكون رسولاً لله؟ يقولون ذلك إما لجهلهم تاريخ النبوَّات وأنَّ النَّبيَّ لا يكون إلا من البشر، وإما لعنادهم، فهم يتعلَّلون بما يُموِّهون به علىٰ الأتباع والدهماء[1] من الناس.

ثم أكَّدوا الإنكار بقولهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾، فصرَّحوا بما تضمَّنه كلامهم السابق في الإنكار[2].

---

(١) الدهماء: العدد الكثير، ودهماء الناس: جماعتهم وكثرتهم. والدهماء: الداهية. «لسان العرب» (دهم).

(٢) تقدَّم قول ثمود لنبيِّهم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٥].

أما قوم شعيب عليه السلام فهذه مقالتهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقد جاء ذِكرُ حرف العطف في الثانية: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ولم يُذكَر في الأولى. والسِّرُّ البياني في ذلك: أن كلمة ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ لها معنيان:

الأول: الذين أصيبوا بمسّ واختلط الأمر عليهم.

والثاني: مَنْ لهم معدة ورئة ويأكلون ويشربون، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْري ونَحْري». رواه مسلم (٢٤٤٣).

فما قاله قوم صالح قُصِدَ به المعنى الأخير، وما قاله قوم شعيب قُصِدَ به المعنى الأول، أي: من المسحورين، وحجة ذلك: أن كلمة (مُسحّر) حينما تفسّر بصاحب المعدة والرئة الذي يأكل ويشرب فإنها مساوية للبشرية، أما إذا فسِّرت بالمسحور، فإنها لن تكون كذلك، بل كل منهما فيه معنىً غير الذي في الآخر.

وقد قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤] فلم توسّط الواو بين الجملتين لأن معناهما واحد، إذ معنى ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذي قصده قوم صالح هو أنك ذو رئة تأكل وتشرب، ثم جاءت الجملة الثانية تؤكد هذا المعنى ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فإن كونه يأكل ويشرب، معناه أنه بشر، فالجملة الثانية إذن ليست أجنبية عن =

ثم دعاهم إلىٰ الإيمان وإصلاح النفس والأخلاق، وإلىٰ الإقلاع عن قبيحةٍ بارزة فيهم قد اختصُّوا بها، ناشئةٍ من شركهم وعدم إيمانهم بالله إيماناً صحيحاً، فقال: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ لحقوق الناس بالتطفيف.

ثم أردف هذا الحكم الخاصَّ بحكم عام يشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ يريد به: العدل والموازنة في كل شيء.

ثم أردفه بحكم آخَرَ مماثلٍ له، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ بأن تحطُّوا من قَدْرها وكرامتها بغيةَ أن تُسقِطوها من الأنظار، فتكون رخيصة أو مبتذلة مرغوباً عنها. وهذا أمر ينشأ من خُبث النفوس، وهو يشمل المبيعات وغيرها، وتبعث عليه المآرب الدنيئة.

وقد عقَّب ما تقدَّم وذيَّله بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ أي: بأعمالكم هذه. ويجوز أن يكون هذا نهياً لهم عن قبيحة أخرىٰ، وهي الإفساد بالنَّهب والسَّلب والقَتْل إلىٰ أمثال ذلك.

وبعد أن نهاهم عما هم مُتلبِّسون به من الدنايا والرذائل والإفساد، أمرهم بتقوىٰ الله المتفضِّل عليهم بالإيجاد؛ وصفاً للدواء بعد بيان الداء، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَ﴾ خَلَقَ ﴿ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: الأممَ المتقدِّمة عليكم، وإنَّما ذكرها معهم تحسيساً لهم بما جرى عليها لعدم إيمانها برسلها الذين أرسلهم إليها.

هذا ما جاء به شعيبٌ كأمثاله من الأنبياء عليهم السلام من الدعوة إلى الحقِّ وتزكية النفس من الأدناس، مما هو هدف الشرائع السماوية وأغراضها، ولكنهم عارضوه، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ الذي غُلبوا علىٰ عقلهم بالسِّحر.

ثم علَّلوا ما تضمَّنه كلامُهم من الإنكار لدعوىٰ النبوة بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ

ثم هجَّن أمرهم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: قَبُحَ وتَعِسَ ذلك المطر.

ثم ختم القصة بالتَّحسيس، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما جرىٰ علىٰ قوم لوط ﴿لَءَايَةً﴾ وعبرةً للمعتبرين، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر هؤلاء المشركين من قومك ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ بذلك ومصدِّقين حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبب إمهالهم مع إصرارهم علىٰ هذا الكفر والعناد، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ فإنَّ إمهالَهم لم يكن ذلك عن عجز في القدرة، ولكنَّه رحمةٌ منه بهم لعلهم يرشدون.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة شعيب مع قومه أصحاب الأيكة؛ لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ وقد مرَّ تفسير هذه الآيات. والأيك: الشجر الكثير الـمُلتفّ، واحدتها: أيكة.

وكأنَّه عليه السلام أراد من فحوىٰ هذه الجملة الجوابيَّة وتتمَّتِها الآتية إظهارَ الكراهة لهم ولمساكنهم وديارهم، والرغبة في الخروج من بينهم، والخلاص من جوارهم.

ولا يخلو الكلام من الإلماع بالنكير والتوعُّد بعذاب الله الذي سينزل بهم، لذلك توجَّه إلىٰ الله بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: من شؤم عملهم وعذابه.

وقد قَرَنَ سبحانه وتعالىٰ الإجابة بالطلب، وقال: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾ منهم، فقد جُعِلَت ﴿فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: الماضين في العذاب؛ لكونها كافرة، وهي امرأة لوط، علىٰ ما جاء في سورة هود[1].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ من قومه، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ بحجارة من سِجِّيل[2]، كما جاء في سورة هود والحجر[3]. ويجوز أن تكون من بُرْكان[4]، والله أعلم.

---

(١) في الآية ٨١ منها.

(٢) فلم يكن مَطَراً معهوداً، وإنما هو من طين مُسْتحجر.

واستئصالُ قوم لوط كان بثلاثة أنواع من العذاب، يكفي كلُّ واحد لإهلاكهم واستئصالهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] وهو صوتٌ شديد قاصف جاءهم عند شروق الشمس، ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤] أي: قلَب الله تعالىٰ بلادهم، وذلك برفعها إلى عنان السماء ثم قلبها، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] وهو النوع الثالث من أنواع العذاب الذي أنزله الله تعالىٰ بهم.

(٣) انظر الآية ٨٢ من سورة هود، والآية ٧٤ من سورة الحجر.

(٤) لا يصح أن يدَّعىٰ أن استئصالهم كان بحدوث بركانٍ أو زلزال، لأنَّ رفع قراهم ثم الهُويّ بها جاء صريحاً في قوله تعالىٰ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤-٥٥]، والهوي لا يكون إلا من ارتفاع وعلو، فدلَّ ذلك على أنَّ الأمرَ كلَّه كان على خلاف المعتاد، ومنه: إمطار الحجارة من سجيل.

ثم فصَّل كيفية التكذيب، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ الذي يهتمُّ لصالحهم، وقد أرسله الله إليهم، وهو ﴿لُوطٌ﴾، فدعاهم إلىٰ الإيمان، وقال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١﴾ اللهَ إذ تُشركون به؟ والله لا يغفر أن يُشرَكَ به، و﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢﴾ صادق، فإنكم لم تعرفوا مني خيانةً ولا كذباً؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يبعث رسولاً إلا من هو مشتهرٌ في قومه بكمال الأخلاق وعوالي الصفات. أي: فأنا مَنْ تعرفونه في الصِّدق والأمانة، وقد أتيتكم بهذه الدعوة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣﴾ فيما أُرسِلتُ به إليكم، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتَتَّهموني بطلب المنفعة الذاتية من وراء هذه الدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٤﴾ فيجازيني عليها الجزاء الأوفىٰ.

ثم ذكر لهم فاحشتَهم الشنيعة المتأتية من إفساد طبيعتهم، مُنكِراً ذلك عليهم، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥﴾ أي: أتفعلون ذلك من بين مَنْ عداكم من العالمين؟ وهذا الأسلوب أشدّ تقريعاً لهم، لدلالته علىٰ إفسادهم لطبيعتهم، حتىٰ خرجت عن سَنَن الفطرة في هذا الأمر الشاذ الشنيع. والمعنىٰ: أنكم تنفردون عن سائر الناس بهذه القبيحة، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يُبيِّن بذلك سفالـتَهم وخروجَهم عن مقتضىٰ الفطرة، وما اشتـملت عليه الغريزة من الحكمة، وهي بقاء النوع. لذلك أسنَـدَ العَدْوَ إليهم في هذا الفعل، فقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ أي: متجاوزون حدودَ الطبيعة بهذا العمل، ومُفرطون في المعاصي والرذائل.

هذا ما قاله لهم ودَعَاهم به إلىٰ تزكية النفس من الأدناس، وإلىٰ الرُّشد والإيمان، ولكنهم قابلوه بالسَّفه، علىٰ طريقة الخاسئين المفضوحين في الانفحام والاندحاض، و﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧﴾ يُهدِّدونه بالإخراج من بينهم.

فردَّ عليهم و﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ۝١٦٨﴾ أي: الـمُبْغِضين الـمُنكِرين عليه،

طلبت آيةً كونيَّة فأعطاها ولم تؤمن وأنكرت الآية أيضاً؛ فمن سُنَّته أن يستأصلها بالعذاب. وهذا كان أمْرَهم في الناقة، فضاقوا بشِربها ذرعاً.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ خوفاً من العذاب، أو عندما نَزَل بهم، ولم ينفع الندم، إذ قد قُضي الأمر، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ﴾ ذلك ﴿ ٱلْعَذَابُ ﴾ واستأصَلَهم.

وقد ختم القصَّة بهذا التَّحسيس، فقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ أي: لعبرةً للمعتبرين، ﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ مَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أي: أكثر هؤلاء المشركين ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ بذلك ومُصَدِّقين به حتىٰ يعتبروا.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ سببَ إمهالهم علىٰ كفرهم وعنادهم، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾ فليس إمهالُهم عن عَجْزٍ في القدرة، ولكنه رحمةٌ منه بهم لعلَّهم يرشدون.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة لوط مع قومه لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ وقد تقدَّم الكلام علىٰ جَمْع «المرسلين» في قصة نوح[1].

---

(١) في الآية ١٠٥.

بَطِرينَ مُسرِفين؟ كلا، لا تُترَكون، بل ترجعون إلىٰ الله تعالىٰ، ويجازيكم جزاء وفاقاً.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ إذ تُشركون به، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ فيما أدعوكم إليه وما أُرسِلتُ به إليكم، ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ من الرؤساء ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

هذا ما قاله لهم ودعاهم به إلىٰ الهُدىٰ والرَّشاد، ولكنهم أجابوه بجواب السفيه المغلوب بالحُجَّة، و﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ أي: الذين سُحروا حتىٰ غُلبوا علىٰ عقولهم[1].

وَرَدُّوا عليه بقولهم: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ فكيف تكون نبياً ورسولاً من الله؟ يقولون ذلك جاهلين أو متجاهلين الحقيقة التاريخية، وهي أنَّ الأنبياءَ كلَّهم من البشر.

ثم تحدَّوه بقولهم: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٖ﴾ كونيَّة تدلُّ علىٰ نبوَّتك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾، ويظهر من الجواب أنهم طلبوا خَلْقَ ناقة علىٰ صورة معجزة بديعة غريبة، فأجاب سبحانه وتعالىٰ طلبَهم، و﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ ﴾ وآيتُها أنها خُلقت علىٰ غير المعتاد، كما طلبوا ذلك تعنُّتاً. فابتلاهم الله سبحانه وتعالىٰ بأمرين: أحدهما: ما ذكره بقوله: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي: نصيب من الماء يوماً، ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾﴾ فاقتَنِعُوا بشِربِكم ولا تُزاحموها علىٰ شِربِها، لأنها تشرب النهر كلَّه في يومها. ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾﴾ لأنَّ من سُنَّة الله تعالىٰ في الأمم الكافرة بأنبيائها، إذا

---

(١) الأرجح أنَّ معنى ﴿ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ في هذه الآية: البشر الذين يأكلون ويشربون، وهذا ما رجَّحه الطبريُّ في «تفسيره» (١٩: ٣٨٥). ومن هذا القبيل: ما روي عن عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْري ونحري» رواه مسلم (٢٤٤٣). و﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾: مَنْ لهم رئةٌ ومعدةٌ ويأكلون ويشربون. وينظر معنى ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ في الآية ١٨٥ من هذه السورة، وسرُّ ذكر حرف العطف هناك ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ... ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

ثم ذكر قصَّة صالح مع قومه لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وقد تقدَّم الكلام عن جَمْع «المرسلين» في قصَّة نوح[1].

ثم فصَّل التكذيب بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ الله إذ تُشركون؟ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ منه إليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وإني ﴿أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ في رسالتي، فإنكم لم تعرفوا مني خيانةً ولا كذباً؛ إذ لا يبعث الله سبحانه وتعالىٰ رسولاً إلا من قومه، ومَنْ هو مشتهرٌ بكمال الأخلاق وعوالي الصفات، ساهرٌ علىٰ مصالحهم، حريصٌ علىٰ منافعهم.

وبعد أن ذكَّرهم بما يعرفونه فيه من الأمانة والصِّدق، قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ واخشَوا عقابَه، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ فيما أُرسِلْتُ به إليكم ودعوتكم إليه.

ثم زاد في إثبات صِدقِهِ بقوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتَّهموني بالاستفادة الذاتيَّة والمنفعة الشخصيَّة من وراء هذه الدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ يُجازيني عليها الجزاء الأوفىٰ.

ثمَّ نَبَّههم إلىٰ مَوْضع نِعَم الله فيهم، وكيف يُقابلونها بالكفر والطغيان، وأدمَجَ ذلك في الإنكار عليهم في اقتصارهم علىٰ الانهماك في هذه الحياة، واعتقادهم أنْ لا حياة غيرها، وإنكارهم الحشر والحساب، واستهزائهم بما يتوعَّدهم به من العذاب، فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: سريع الهضم لِمَا فيه من اللطافة واللين، وهذا أعلىٰ صفة الجودة في المطعومات، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي: من نفس الجبال، أو من صخور الجبال ومعادنها الحجريَّة قطعاً لبناء البيوت وتجميلها، حالَ كونكم ﴿فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي:

---

(١) في الآية ١٠٥.

يتَّعظوا و﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ فإنا لن نترك ما نحن عليه، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: إنَّ ما نحن عليه هو خُلق وسلوك آبائنا الأولين، عاشوا وماتوا عليه. ويجوز أن يكون المعنىٰ: إنَّ ما جئتنا به من التخويف بعذاب يوم عظيم: هو ما كان يقوله الأوَّلون، ولم يظهر منه أثر، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ فهم يُنكِرون الحشر والحساب، ويزعمون أن الإنسان يبتدئ بالولادة وينتهي بالموت، ولا شيء وراء ذلك، فلا يعتقدون إلا بهذه الحياة الدنيا، ولا يهتمُّون إلا بها، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بما جاءهم به، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أجمعين.

ثم ختم القصة بالتَّحسيس لِمَا فيه من عظةٍ وتنبيه، ولكن كفار قريش لا يُصدِّقون، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ للمعتبرين، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ بذلك ومُصدِّقين به فيعتبروا، وإنما هم مُصِرُّون علىٰ كفرهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ فلم يكن إمهالُهم مع إصرارهم علىٰ الكفر عن عجز في قدرة الله، ولكنْ رحمةً منه لعلَّهم يرجعون.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

به إليكم، ودَعَوْتكم إليه، ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتَّهموني بالاستفادة الشخصيَّة من وراء هذه الدعوىٰ والدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ يُجازيني علىٰ ذلك الجزاء الأوفىٰ.

ثم أنكر عليهم عدَّة أمور ناشئة من شركهم وخُبثِ نفوسهم، فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: مرتفع من الأرض ﴿ءَايَةً﴾ أي: بناءً عظيماً ﴿تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ به وتلهون، أو تعبثون فيه بالمارة نهباً وسلباً، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: قُصوراً مَشيدة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: كأنكم تَتوقَّعون خلودكم في هذه الدنيا. والكلامُ تَقْريعٌ لهم علىٰ حَصْر اهتمامهم بأمر دنياهم فقط، وإعراضهم عن أمر آخرتهم.

ثم أضاف إلىٰ بيان شدَّة حرصهم علىٰ الدنيا وحدها وإعراضهم عن أمر الآخرة، التجبُّرَ علىٰ الناس والبغيَ عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ معتدين ظالمين.

وبعد أن بيَّن سوء حالهم، دعاهم إلىٰ الرُّشد، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ فيما أدعوكم إليه، فإنَّ فيه صلاحَ حالكم في الدارين.

ثم ذكر الأمر بالتقوىٰ، وقرنه بالتنبيه إلىٰ مَوْضع نِعَم الله فيهم، استفزازاً لشعورهم وعظةً لهم، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ من أنواع النِّعَم، حيثُ ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ وهي أجلُّ أموال البادية من الإبل والبقر والغنم، ﴿وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ وهم قوةُ البوادي وعزُّهم، ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ وهذه أموال أهل القرىٰ منهم.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إنْ لم تؤمنوا وتقوموا بشكر هذه النِّعَم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

هذا ما وعظهم به ودعاهم إليه من تزكية النفس وإصلاح العمل، ولكنهم لم

أي: لَحُجَّةً واعظةً لمن أراد أن يَسْتبصر، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر قومك ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ بذلك ومصدِّقين به فيعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سبب إمهالهم علىٰ كفرهم هذا وتكذيبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾، فلم يكن إمهالُهم عن عجز في القدرة، ولكنْ رحمةً منه بهم لعلهم يؤمنون.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة هود مع قومه لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، وقد تَقدَّم الكلام عن جمع «المرسلين» في القصَّة السابقة[1]، فارجع إليه.

وبعد أن صدَّر القصَّة بتكذيب المرسلين، فصَّل ذلك التَّكذيب، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ الله إذ تُشْرِكون؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ منه تعالىٰ أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وإني ﴿أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ بما أُرسِلتُ به ومشهورٌ بالأمانة والصِّدق بينكم، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ فيما أُرسِلْتُ

(١) في الآية ١٠٥.

وقد جاراهم في الجواب و﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾؟ أي: من أين أعلم أكان إيمانهم ودخولهم في الدِّين عن إخلاص، أو عن طمع في جاه أو مال؟ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: لو كنتُم من أهل الدراية والشعور؛ لعلمتُم أنَّ الله هو الذي يتولَّىٰ السرائر.

ويتضمَّن الجواب إيذاناً وتعريضاً بأن الرذالة إنما تكون بقبيح الأعمال، لا بقلة الجاه والمال. ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: الذين يدخلون في الدين ويُظهِرون الإيمان بما جئتُ به من أيِّ طبقة كانوا.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ للأعزّاء والأذلاء، لا فَرْقَ بينهم عندي، ولستُ مسؤولاً عن سرائرهم.

فلما ألزمهم حتىٰ في هذا العذر البارد، عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة؛ دَأْبَ المغلوبين، و﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾، فركن إلىٰ الله سبحانه و﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: فاحكم بيننا بالحق الذي مَضَت به سُنَّتك في التنازع بين المُرسَلين والمُعارِضين ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، هذا ما دَعَا به نوحٌ علىٰ قومه بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم فلم يُجيبوا، حتىٰ يَئِسَ منهم.

فاستجاب الله دعاءه، وأرسل عليهم الطُّوفان، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ أي: المملوء بالمؤمنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ من قومه الذين لم يؤمنوا. وقدَّم ذِكرَ التَّنْجية للمؤمنين علىٰ ذِكرِ الإغراق للكافرين؛ تعجيلاً بالتأمين والتأنيس للمؤمنين، علىٰ نهج القرآن في مثله.

وقد ختم سبحانه القصة بالتَّحسيس بعظاتها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾

سبحانه صُوَرَها بحَسَب ما تقتضيه الحكمة في كلِّ شريعة، باعتبار رُقيِّ البشر وتقدُّمهم النَّوعي علىٰ مرور العصور والأزمان، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ثم فصَّل ذلك التكذيب بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: أحدُهم الذي يحرص علىٰ مصلحتهم وما فيه خيرُهم، وهو ﴿نُوحٌ﴾ عليه السلام، قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦﴾ اللهَ إذ تُشركون؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ منه تعالىٰ أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وإني ﴿أَمِينٌ ۝١٠٧﴾ بما أُرسلت به إليكم، ومشهور بالأمانة والصدق بينكم. ولا يبعث الله سبحانه رسولاً إلا وهو مشتهر في قومه بكمال الأخلاق وأعالي الصفات. ويجوز أن يكون المعنىٰ: إني رسول أمين في أداء الرسالة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ فيما أُرسِلتُ به إليكم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتَّهموني بالاستفادة الشخصيّة من وراء هذه الدعوىٰ، وإنما الهدف أعظم، وهو نَيْل السعادة في الحياتين، والأجر الأكبر، وهو الأجر من الله سبحانه لا منكم، كما حكاه بقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾ فيما أُرسِلتُ به إليكم، ولا تطيعوا أمْرَ المسرفين.

وقد كرَّر هذه الجملة لاختلاف المُقتَضي وتعدُّده، فإنَّ الأولىٰ مفرَّعة علىٰ قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، والثانية مفرَّعة علىٰ قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ المُثْبِتِ لصحَّة الدعوىٰ أيضاً.

ولما ألزمهم بالحُجَّة الدامغة، عَمَدوا إلىٰ المعاذير الفارغة الجوفاء، كما يفعله السُّفهاء، و﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝١١١﴾؟ والأرذلون: سِفْلة الناس، وقد أطلقوه علىٰ المساكين الذين ليس لهم عزٌّ ولا مال، فيتَّهمونهم بأنهم اتَّبعوه لنَيْل ذلك، أو يريدون: أنهم لا يليق بهم أن يكونوا في حزبٍ هؤلاء أفرادُه.

حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، ويجوز أن يكون هذا القولُ زفرةَ الإفاقة والعلم بأن الأوان قد فات، وأنْ لا فائدة في توزيع التَّبعات.

ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لَحُجَّةً واعظةً لمن أراد أن يَستَبصِرَ الآن قبل فوات الأوان، ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر هؤلاء المشركين ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ بذلك ومُصَدِّقين به حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سببَ إمهالهم علىٰ كفرهم هذا وتكذيبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ فلم يكن إمهالُهم عن عَجْز في القدرة، ولكنه رحمةٌ منه تعالىٰ بهم لعلهم يثوبون إلىٰ رُشْدِهم ويؤمنون.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

وبعد أن ذكر الطبقة القُربىٰ من عصر التنـزيل وابتدأها بموسىٰ، ذكر الطبقة البُعْدىٰ وابتدأها بنوح عليهم السلام؛ لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ والجمع إما لأنهم كذَّبوا مَنْ أُرسِلَ إليهم قبل نوح أيضاً، ممَّن لم يُقْصَص علينا نَبَؤُه، وإما لأنَّ تكذيب الرسول تكذيبٌ لجميع الرسل؛ لأن دين الله واحد في أُسسه، وهي: توحيد الله، والإيمان بالبعث والحساب، والتعبُّد بعبادات وضع الله

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ اليوم من الله، ثم ذكر ما هو أحبُّ للمعبودين وأَوْلىٰ بهم، فقال: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: أو علىٰ الأقل يُـخَلِّصون أنفسهم من العذاب؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيت، لا جواب له سوىٰ السكوت.

ثم بيَّن ما نالـهم من الجزاء، وقال: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ الكَبْـكَبة: تكرير الكبّ، وهو الانحناء الشديد. و«غوى» يأتي لازماً ومتعدياً، أي: الذين غَوَوا وضلّوا والذين أغوَوْهُم وأضلُّوهم، أي: طُرح بعضُهم علىٰ بعض.

وقوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ـ وهم الـمُغوَوْن والغاوون ـ من عطف العام علىٰ الخاص، أو من عطف الوصف علىٰ الوصف لموصوف واحد.

ثم ذكر مُخاصمة العابدين والمعبودين وهم في الجحيم، فقال: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ في العبادة والتوكّل والاعتماد، وهذا الخطاب ـ إن كان ممَّن يَعبُدُ أفراداً من البشر الـمُضلِّلين ـ يكون علىٰ حقيقته، وكذلك إن كان مع الرؤساء. وإن كان ممن يَعبُدُ الأصنام ـ وقد أحضروها حينئذ في ذهنهم ـ يكون الخطاب صورة توبيخ لأنفسهم، وتَلاوُم مع بعضهم، قرَّروه بقولهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ يعنون: رؤساءهم وكبراءهم.

ولم يكن هذا من باب الاعتذار، وإنما هو من باب إظهار النَّدم والتَّحسُّر علىٰ تَرْكِ مواهبهم العقليَّة، أو إخلالهم بها في فهم الحق والصراط المستقيم، يدلُّ علىٰ هذا قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهذا كلام ملؤه النَّدم والتَّحسُّر، إثر الشعور بالورطة العظيمة، و﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وللزيادة في الندم يَتمنَّون الرجوع لإصلاح ما فَرَط منهم تمنِّيَ يائسٍ بائسٍ، وقد

هذا حينما رأىٰ قومه يحكمون علىٰ الأشياء بغير ما هي عليه، فيُقدِّسون كلَّ ما له ميزة في هذا الكون، كالشمس والقمر والنجوم وعظماء الرجال ويُؤَلِّهونهم، فطلب منه سبحانه أن يَهَبَ له إدراكاً سليماً.

ثم تابع الدعاء بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ذِكْراً حَسَناً في الأمم الآتية، ولا يكون للإنسان ذِكْرٌ حَسَنٌ إلا إذا كان مُحِقّاً في أعماله وأقواله، مُصيباً فيهما، وهذا هو الذي أراده. والله أعلم. والشيء الصِّدق: هو الكامل من كل وجه، يقال: رجلُ صِدْق، وفَرَسُ صِدْق، ويدُ صدق، وهكذا.

ثم قال: ﴿وَٱجْعَلْنِى﴾ أي: في الآخرة ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ الذين يَرِثونَ الفردوس هم فيها خالدون، ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ وكان يريد: أن يُوفِّقه الله للهداية ثم يغفر له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم أكمل بما فيه إرشادٌ للعباد، فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: من الإخلال والتحريف، وهو الذي يَنْبعث عنه كلُّ خير.

ثم تابع سبحانه البيانَ عن ذلك اليوم، تكميلاً للبحث والوصف، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: قُرِّبت بحيث يَرَوْنها من الموقف، فيتبجَّحون بأنها لهم، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: الضَّالِّين عن طريق الحق، فيُوقِنون أنهم مُواقِعُوها ولا يجدون عنها مَصْرفاً، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ علىٰ طريق التوبيخ والتَّحسير والتنديم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وتزعمون أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف الرهيب،

وتُقرَأُ هذه الأفعالُ بخطف ياء المتكلم، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك.

ثم تابع الثناء وتابع الحمد بقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ وإنما غيَّر النَّسق للدلالة علىٰ أنَّ المرض يكون بصنع الإنسان[1]، وذلك بمعاكسته لأنظمة الطبيعة وعدم عنايته بقوانين الصحة. أما الشفاء فإنه من الله سبحانه وتعالىٰ، بما أودع في الطبيعة من قوَّة الإصلاح لذلك الخَلَل والفساد، وبما ألهم به الإنسان من الوقاية، أو أقدره علىٰ معرفته وعمله في مساعدة الطبيعة بأنواع العلاج. والله أعلم.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾، هذا إبراهيم عليه السلام يطمع ولا يقطع، فليعتبر المتعلِّقون بالأوهام من العُصَاة والمقصِّرين.

ثم أردف الثناءَ بالدعاء، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ قالوا: والمراد من الحكم: الحِكمةُ والكمالُ الإنسانيّ الذي به يستحقُّ اللحوقَ بالصَّالحين، وينزل منازلهم.

أقول: ويجوز إبقاءُ الحكم في معناه الحقيقي، وهو صحَّة حكمه علىٰ الأشياء والأمور لإدراك حقائقها. فهو يدعو الله سبحانه أن يُوفِّقه للحكم علىٰ الأشياء بمعرفتها، وإدراك كُنهها وحقائقها علىٰ الوجه الصحيح، فيعرف حقَّها من باطلها، وخالصها من زائفها، وهذا هو معنىٰ الرُّشْد والحِكَم التي مَنْ أُوتيها فقد أُوتي خيراً كثيراً. وإنما طلب

---

(١) بل هو بقَدَر الله، يبتلي به عباده، وفي الحديث: «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء»، أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٥١٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٥٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وغيَّر نَسَقَ الأفعال حيث أضافها إلى الله عز وجل ثم أضاف المرض إلى نفسه تأدُّباً.

وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾.

ثم ذكر قصَّة إبراهيم عليه السلام وما جرىٰ له مع أبيه وقومه؛ لنفس ما تقدَّم من الغرض من قصَّة موسىٰ، فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾؟ سألهم ليُريهم أنَّ ما يعبدونه لا يستحق أن يُعبَد، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ فأطالوا جوابهم تبجُّحاً وافتخاراً. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فاعترفوا بأنها لا تسمع ولا تنفع، ولكنه التقليد الأعمىٰ للآباء.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فهو الذي أخصُّه بالحبِّ والطاعة والاعتماد، لأنه هو الملجأ في الحاجات والملمَّات، وهو الذي يفيضُ علينا النِّعَم والخيرات.

ويجوز أن يكون أراد: أنهم أعداءٌ لعابديهم، ولكنْ صوَّر الأمر في نفسه لأنه أنفعُ في النصيحة، وتكون هذه الجملة علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. أو المعنىٰ: إني فكَّرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادةً للعدو، أو: إن عبدتُها كانت عدواً لي فاجتنبتُها.

وقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكنْ ربُّ العالمين يُكثرُ الإحسان إلىٰ عابديه ومُتَّبعي هدايته، وهو ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلىٰ كل ما يهمُّني ويُصلحني من أمور الدين والدنيا، ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ فكما تكفَّل بهذا تكفَّل بهدايتي سبحانه.

قرَّبنا فرعون وقومه حتىٰ دخلوا علىٰ إثرهم مَداخِلَهم، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أبقينا البحر علىٰ تلك الهيئة حتىٰ عَبَرَ آخرُ فردٍ من قوم موسىٰ إلىٰ البر، ودخل آخرُ فرد من قوم فرعون البحر، فانطبقَ عليهم البحر. وقد اختلف المفسِّرون في هذا: أهو النيل أم هو القلزم؟

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ القصَّة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي: لعبرةً لمن يعتبر، ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ هؤلاء المشركين ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ بذلك ومُصَدِّقين به حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سَبَبَ إمهالهم علىٰ كفرهم هذا وتكذيبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ فلم يكن إمهالُهم عن عجز في القدرة، ولكنه رحمة منه بهم لعلهم يؤمنون، وإنَّ يوماً عند ربك كألفِ سنة مما تعدُّون.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟

مُقْتَدِر، وفشل مكرُ فرعون، كما حكىٰ سبحانه ذلك بقوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي: فرعونَ وقومَه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ يعني: المنازل الحسنة والمجالس البهيَّة. والعرب تصف بصفة الكرم كلَّ شيء نفيس.

ثم فصَّل الكلامَ وخلَّله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لتقرير المعنىٰ، أي: الأمرُ كذلك. ثم عطف علىٰ قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ...﴾ قولَـه: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: ملَّكناها للذين بقوا في مصر منهم.

ثم عاد وفصّل ما جرىٰ بعد سِراية موسىٰ بقومِه، مُبيِّناً صورةَ استئصال فرعونَ وقومِهِ بالغَرَق، وقال: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: اتبع فرعونُ وجنودُه موسىٰ وقومَه نهاراً بعد شروق الشمس، أو كان إدراكُهم لهم ذات يوم عند شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تَـقارَبا ورأىٰ كلُّ واحدٍ منهمـا الآخر، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: سيُدرِكُـنا فرعونُ وقومُه ويهلكوننا.

﴿ قَالَ﴾ لهم موسىٰ: ﴿كَلَّآ﴾ لا يُدرِكونكم، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ إلىٰ طريق النَّجاة منهم، ويُهيِّئُ لي الأسباب.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: كلُّ فِـلْقةٍ منه ﴿ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[1] أي: كالجبل المنيف، ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي:

---

(١) أيجوز أن يكون المعنىٰ: إنَّ الله سبحانه أمر موسىٰ أن يشير إلىٰ البحر بضربة عصا، وعلىٰ إثرها جرىٰ في تلك المنطقة ما يشبه الجزر يميناً وشمالاً فتكتّل الماء في الجانبين كالطودَيْن وسَفحَيْهما، وبعد خروج بني إسرائيل عاد الماء إلىٰ المنطقة بطريقة المد، فغمرها علىٰ فرعون وجيشه أجمعين. والله أعلم. ويقال: إن هذا الأمر كان في خليج السويس. (المؤلف).

قلت: لكن هذا القول يخرج المعجزة عن معناها، ويُبطل دلالتها، فلا يجوز بحال أن يكون تفسير الآية على هذا المعنى الذي توهَّمه المؤلف غفر الله له.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾.

ثم ذكر ما كان من هجرة موسىٰ عليه السلام ببني إسرائيل عن مصر، وعبورهم البحر، واتِّباع آل فرعون لهم وغرقهم، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ وذلك بعد بضع سنين أقام فيها بين أظهُرِهم يدعوهم إلىٰ الحق، ويُظهِرُ الآيات تِلْوَ الآيات، فلم يزدادوا إلا عُتواً وعناداً، حسبما فصَّل ذلك في سورة الأعراف بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ...﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ فالإسراء: السَّيْر ليلاً، وقد علَّل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: يتَّبعكم فرعونُ وجنودُه مُصْبحين، فأسْرِ بمَنْ معك، أي: اجعل سفرك سراً أو ليلاً حتىٰ يكون لكم التقدُّم عليهم، بحيث لا يُدركونكم قبل الوصول إلىٰ البحر.

ثم عاد وذكر ما كان من أمر فرعون بعد الدَّعْوة، وقال: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد أن خشيَ أمْرَ موسىٰ ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ للعساكر، أي: أرسَلَ يجمع الجنود للنَّيْل من موسىٰ وقومه، وإعادتهم إلىٰ الخضوع، وطَفِقَ يُغْري المصريين علىٰ بني إسرائيل بدعايته التي نشرها في تلك المدائن، كما حكاها عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ والشِّرذمة: الطائفة القليلة، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ بما فعلوا ويفعلون، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ منهم ومن عاقبة أمرهم، أو المعنىٰ: إننا قومٌ شأنُنا الحَزْم والتيقُّظ والحذر.

هذا ما قاله وفعله فرعونُ وقومه، والله من ورائهم محيط، فأخَذَهم أخْذَ عزيز

وعلَّمهم أنَّ هذا خارج عن حدود السحر بما لا يقدر من العَظَمة والحقِّ الناصع والصِّدق الواضح، لا كما عندهم من التَّمويه والتَّزوير، لذلك ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾ الذي أظهَرَ هذه المعجزة على أيديهما.

فلمَّا رأى فرعون من السَّحَرة ما رأى ﴿قَالَ﴾ مُشْتدّاً عليهم: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ باتِّباعه؟! وهذا القول يُشْعِرُ بأنَّ الموقف قد اتَّضَحَ للملأ بتفوُّق موسىٰ تفوُّقاً يستلزم أن يكون هو المتَّبع قَسْراً، لذلك تَذَرَّع فرعون لباطله وعناده بالاحتجاج عليهم بأنهم بادروا إلى الإيمان بموسىٰ قبل الإذن لهم. ثم أدعَمَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ فتواطأتُم على إظهار تفوُّقه عليكم، ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ما أصنع بكم، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ أي: اليد اليمنىٰ مع الرِّجْل اليسرىٰ أو العكس، وذلك لزيادة التَّشهير والتَّشويه، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾.

هذا ما تَـهَدَّدهم به فرعون، ولكنهم استَهْوَنوه بالنسبة إلى ما تذوَّقوه من الإيمان وما أدركوه من عِظَم نعيم الآخرة، يُنْبِئُ عن ذلك ما أجابوه به، إذ ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ﴾ أي: لا ضَرَرَ في ذلك، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾ وربما كان فِعلُكَ هذا بنا أكثر تأثيراً في نَيْل غَرَضنا هذا، وهو الغفران.

ويجوز أن يشمل ضمير ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: فرعون أيضاً، فيكون فيه تهديدٌ له وتنبيهٌ وتوعُّدٌ بالله.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ والأصل: أرجِئْ، قُلبت الهمزة ياء للتخفيف، ثم حُذفت لبناء الأمر، والمعنىٰ: أخِّرْهُ وأخاه، أي: امنَعْهما من الخروج، واجهَدْ أن يَتفَوَّق عليهم السَّحَرة فلا يبقىٰ لهما شأن. وقيل: بل المعنىٰ: أجِّل أمرهما، ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ يجمعوا لك السَّحَرة، ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾ بحيث يتفوَّقون علىٰ موسىٰ في هذا الفن.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾ وهو ضَحْوة يوم الزينة، ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩﴾؟ وهذا استفهام أُخرِجَ مَخرَجَ الاستبطاء، وفي طياته إغراء وحَمْلٌ علىٰ التجمُّع.

وقوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ يجوز أن يكون علىٰ حقيقته، بناءً علىٰ معاهدة بينهما، أو ليس علىٰ حقيقته، ولكنه تزييفٌ لدين موسىٰ، أي: إنَّ السَّحَرة يكونون حينئذ أحقَّ منه بالاتِّباع، وفيه هُزْءٌ علىٰ موسىٰ عليه السلام، وتَفَكُّهٌ عليه وتَنَدُّر.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ ﴾ يشترطون لهم عليه: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١﴾؟! ﴿ قَالَ نَعَمۡ﴾ لكم ذلك، ﴿ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ عندي.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ ﴾ واثقين بعملهم، ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾.

﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ ﴾ أي: تبتلع بسرعة ﴿مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥﴾ ما يُموِّهون ويُزَوِّرون في تَخْييل حبالهم وعِصِيِّهم حيَّاتٍ تسعىٰ.

والسَّحَرةُ أخبَرُ من غيرهم في تمييز السِّحر من المعجزة، لأنهم يعرفون حقيقةَ السِّحر وزَيْفَه، ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦﴾ ألقاهم ما بَهَرَهم من المعجزة العظمىٰ،

فلم يلتفت موسىٰ لذلك أيضاً، وأكمل بيانه وواصل كلامه بما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فإنكم تُشاهدون كلَّ يوم شروق الشمس وغروبها، وهو أثر من آثار الله العظيمة[1].

فلما شاهد فرعونُ شدَّة حَزْم موسىٰ عليه السلام في بيان دعوته، وقوَّة عَزْمِهِ علىٰ أداء رسالته، عَمَد إلىٰ الصَّلف والسَّفاهة، كما هو شأن القوي إذا انقطعت حُجَجُه، و﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ممَّن تعرف حالهم في سجوني.

ولم يقنع بتهديده أن يترك الدعوة حتىٰ أضاف إلىٰ ذلك أن يتَّخذه إلهاً؛ لأن بعض الملوك إذ ذاك يعتقدون حلول إله فيهم. فردَّ عليه موسىٰ و﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾؟ أي: أتبقىٰ علىٰ إنكارك وصَلَفِكَ أم تؤمن إذا جئتُك بمعجزة مبيِّنة لصدق دَعْواي في الرسالة؟

﴿قَالَ﴾ فرعون لموسىٰ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسىٰ ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾، فلما رأىٰ ذلك فرعون ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ أي: لرجال دولته وأعيان قومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: فائقٌ في علم السِّحر، ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟ ويُشعِرُ الكلامُ أنه عَقَد مجلساً مع رجال دولته، وكانت نتيجة المداولة هذا القرار:

---

(١) إنَّ معرفة الله سبحانه إنما هي معرفة وجود وصفات، تُعرَفُ من إيجاده للكون بحكمة وسَدَاد، لا معرفة حقيقة وكُنه وذات، إذ ليس كمثله شيء، فلا يُتَوصَّل لمعرفة ذاته بالقياس والاستنباط اللذَيْن هما طريق العلم للمُدْرَكات، فذات الله سبحانه لا يصحّ أن تكون موضوعَ بحث وتعريف. (المؤلف).

أن أتربّىٰ فيكم؟ فهذا إنكارٌ لكون تربيته له منَّة عليه، ويَسْتَتبعُ تقريعَه علىٰ استعباده لبني إسرائيل قوم موسىٰ، كما أنه يَتَضمَّن أيضاً معنىٰ: أنك اختزنت ثمرة استعبادهم، فما أنفقتَه عليَّ إنما هو من أموال قومي.

ومُحَصَّل الرد: أنك لو لم تَسْتَعبد بني إسرائيل وتَعمَدْ إلىٰ تذبيح أبنائهم، لَـمَا صرتُ إلىٰ تربيتك، ولكان ربَّاني أبواي، فإخراجك إيّاي من حِجْر أبويّ قهراً باستعبادك لبني إسرائيل وقتلك لأبنائهم، يُعدُّ نعمة علي؟

ولما ردَّ عليه بهذا الردِّ المُلْزِم، تشبَّث بالاعتراض علىٰ الدعوىٰ، وبدأ بالاستفسار عن حقيقة الـمُرسَل كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟.

ولما كان السؤال بـ﴿مَا﴾ طلباً لتعريف الحقيقة، وهذا محالٌ في حقِّ الله تعالىٰ، أجابه بأظهر آثاره، وهو هذا العالَـمُ المحسوس، و﴿قَالَ﴾ هو: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فانتهز فرعون فرصة الجواب بغير بيان الحقيقة وتحرير الذات لهذا الإله، حيث عرَّفه بالآثار والوصف؛ لأنه لا يعرف حقيقة إلهه، وقد استغلَّ تلك المشاغَبة الكلامية، ليثيرَ عليه إنكار قومه ومَلَئِهِ، و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ منهم: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بمَ يُجيب؟!

إلا أنَّ موسىٰ عليه السلام لم يلتفت إليه، وتـمَّم كلامه في بيان الآثار والصفات للإله سبحانه، وصرَّح بما تضمَّنه من النصِّ علىٰ ألوهيته لهم وربوبيَّته، و﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

لذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾؛ أسأله عن حقيقة إلـهه فيجيب عن صفتـه، فأسأله عن شيء ويجيبني عن آخر. وسمَّـاه رسولاً استهزاء.

أظهرنا، فكيف تدَّعي النبوة؟! ومصدرُ هذا المقال الجهلُ بمُؤهِّلات النبوة، وإنكار أن تكون في شخص ينشأ بين أظهرهم كسائر البشر ـ وهو بمعنىٰ قول المنكرين: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ـ، وأضاف إلىٰ ذلك أنه قتل نفساً ظلماً وعدواناً، فكيف يكون رسولاً لله؟! وضمَّن الكلام تقريعاً لموسىٰ بأنه أساء إليه، فقابل نعمتَه بالكفران، وقد حكىٰ ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: بنعمتي، حيثُ عَمَدتَ إلىٰ قَتْل قبطي من قومي.

ولما كان كلامه منطوياً علىٰ التمنُّن عليه بالتربية، وعلىٰ معاتبته بأنه قابل الإحسان بالإساءة في هذه الدعوىٰ والدعوة المفسدة لـمُلكِهِ، مضافةً إلىٰ ما فعل قبلها من قَتْلِهِ القبطيَّ أحدَ أفراد قومه؛ أجاب عن الثاني أولاً بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: قبل أن تأتيني الرسالة وهذا الهدىٰ من الله. أو المعنىٰ: فعلتُها وأنا من الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه الأمرُ من القتل، لأني وكَزْتُه علىٰ وجه التأديب. فبيَّن له أنه فعلها علىٰ وجهٍ لا يجوز معه أن يُؤاخَذ بها، فلا يعدّ كافراً للنعمة، وأنهم قد أساؤوا بتخويفه علىٰ ذلك. وهذا يُفهَمُ من فحوىٰ قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، وقد أحسن الله سبحانه بي ـ فوق أن أنقذني منكم ـ ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي: علماً وهدىٰ، ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

ثم أجاب عن الأول بردِّ التَّمنُّن، مُبيِّناً أنه ليس له عليه فَضْلٌ أبداً حتىٰ يصحَّ ما ادَّعاه من مقابلة إحسانه بالكفران، وإنما كان ذلك ناتجاً عن إساءته العُظمىٰ مع قومه، وهذا ردٌّ علىٰ أبلغ الوجوه. وقد طوىٰ الاستفهام الإنكاري التقريعي في كلامه الذي حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أتعُدُّ استعبادَكَ لبني إسرائيل نعمةً عليّ، ولولا استعبادُك لبني إسرائيل لَـمَا آل الأمرُ إلىٰ

وضيقُ الصدر مُسبِّبٌ لحبس اللسان، لذلك طلب مُؤازرةَ أخيه، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أيضاً، ليكونَ معي ويُعاضدَني.

ثم أردف هذا العذر بعذر آخر، وقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ يريد به تَبِعةَ قتله للقبطي التي فرَّ من أجلها إلىٰ مَدين. أي: لهم عليَّ طلبٌ بجُرْم، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ به قبل أداء الرسالة.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: لا تخف، ثم ضمَّ سبحانه إليه أخاه بعد أن أرسل إليه أيضاً، وقال: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ويعني بضمير الجمع: موسىٰ وهارون وفرعون، أي: سامعون لِـمَا يجري بينكما وبينه، فأُظهِرُكُما عليه. قال البيضاوي: مَثَّلَ نفسَه تعالىٰ بمَنْ حَضَرَ مُجادَلة قوم ليستمع ما يجري بينهم ويرقبه، فيمدّ أولياءه منهم، والمراد: المبالغة في الوعد بالإعانة[1]. أقول: وذلك علىٰ نهج القرآن في استعارة المعاني لله سبحانه من أحوال الـمُخاطَبين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). واكتفىٰ بإشراك هارون بالذهاب عن بيان إرساله، علىٰ نهج القرآن في إيجازات الحذف البليغة والكثيرة المعجزة.

ثم لقَّنهم صورة الدعوة وقال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أطلِقْهم من الاستعباد لنذهبَ بهم إلىٰ فلسطين. وأفرد «الرسول» لأنهما في حُكم رسول واحد.

ثم ذكر ما كان من جواب فرعون لهما، ناقداً موسىٰ، عاتباً عليه، زارياً به، وطوىٰ بينهما علىٰ طريقة إيجاز القرآن، ذكر ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: ألم نعلم ماضيك، لا تمتاز عن البشر، وقد تربَّيت بين

(١) «تفسير البيضاوي» (٤: ١٣٥).

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم توعَّدهم بما جرىٰ علىٰ أمثالهم من مُكذِّب الأنبياء في الأمم الغابرة، وسلّاه ﷺ بما جَرَىٰ علىٰ الأنبياء قبله من المِحَن، مُذكِّراً له بأنَّ ذلك من سُنن الاجتماع، وبدأ بقصة موسىٰ لأنها أقرب في التأريخ، فقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، ثم ذكر الدعوة لهم بصورة العرض، فقال: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ وقد ضمَّن هذا العَرْض فحوىٰ الزَّجْر والغضب عليهم، وهذا النداء هو نداءُ الوحي، وقد تيقَّنه موسىٰ عليه السلام دون أن يعلم كُنهَه، لأنَّ التصديق بالشيء لا يتوقَّف علىٰ معرفة كيفيته، فإنَّ أكثر ما نُصَدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف كُنهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده.

وماذا نعرف عن كيفية السنبل حين تتكوَّن من بين الأوراق، والثمار في الأشجار، والطعام في الدماء؟ وهل نعرف حقيقة الكهرباء؟ وكيف يتكوَّن فينا التفكير في الأشياء؟! هذا كلُّه في مخلوقاته سبحانه، فكيف يكون أمر ذاته وصفاته؟! وهذا الخفاء أكبر دليل علىٰ ألوهيته واستحقاقه للاختصاص بها، فهو خفيٌّ في ذاته، بديهيٌّ في آثاره ومخلوقاته، لا رب سواه.

وهذا النداء لموسىٰ لا يزيد عن كونه عرفاناً مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن. ومن المعلوم أنَّ الأنبياء ـ بحكم كمالهم ـ مُزَوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات بطريقة فوق نطاق الحواسِّ المعتاد، يجري فيهم ذلك ولا يعرفون كيفيَّته، كما لا يعرف أحدٌ كيف تتمُّ له عملية التذكُّر والإدراك، ولا عملية النوم واليقظة بالتحقيق.

ثم حكىٰ ما كان بعد ذلك من أمر موسىٰ عليه السلام، بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ فالتكذيب مُسبِّبٌ لضيق الصدر،

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ
عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ
رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ
حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾
فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ
إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ
وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾
قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ

وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٥].

ثم أردف الكلام بما يدلُّ على قدرته واختصاصه بالألوهيَّة، إثباتاً للتوحيد، وتحقيقاً للوعيد، واستشهاداً للقدرة على إنجازه، وتقريعاً لهم وتجهيلاً على الاستهزاء والتكذيب، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ وقد ضمَّن ﴿يَرَوْا۟﴾ معنىٰ: ينظروا، فعدَّاها تعديتَها ـ أي: ألم ينظروا إلى الأرض ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ والعرب تستعمل صفة ﴿كَرِيمٍ﴾ لكلِّ شيءٍ نفيس، وإنما استعمل الرؤية بدل النظر لأنها أدلُّ على التحقّق، فضمَّنها معنىٰ النظر، وعدَّاها بـ«إلىٰ»، على نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

وقد قَرَن الاستشهاد بالتقرير، وأردفه بالنَّعي عليهم، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ على قُدرته واختصاصه بصفة الألوهيَّة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ لأنهم لم يفكِّروا في مظهر تلك القدرة البالغة، فلم يعتبروا بها.

ثم بيَّن أنَّ صَبْرَه تعالىٰ عليهم وإمهالَه إيَّاهم، إنما هو من عزَّة الله ورحمته، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ فلم يكن إمهالُهم عن عَجْز في القدرة، وإنما هو من رحمة الله العامَّة، لعلّهم يؤمنون، أو يؤمن بعضهم فيستصلحون.

خبراً عن (الأعناق)؟ قلنا: أصل الكلام: فظلُّوا لها خاضعين، فذُكرت الأعناقُ لبيان موضع الخضوع، زيادةً في التقرير، ثم تُرك الكلام علىٰ أصله[١]. يريد: أن في الكلام مجازاً مرسلاً من ذِكرِ الجزء وإرادة الكل، كما في عتق الرقاب، فصحَّ الخبر نظراً إلىٰ الأصل المراد. وقيل: لما وُصِفَ بالخضوع ـ وهو من صفات العقلاء ـ جُمِعَ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالماً، كقوله تعالىٰ: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وقيل: أعناق الناس: رؤساؤهم ومُقدَّموهم، كما يقال: هم الرؤوس والصدور. وقيل: هم جماعات الناس، يقال: جاءنا عُنق من الناس، أي: فوج منهم.

ثم تابع البيان عن أحوال هؤلاء الـمُعْرِضين، وجَعَلَه في موضع التعليل لهذا التهديد، فقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ أي: لا تأتيهم من الله شريعة مُجدَّدة إلا كانوا عنها مُعْرِضين، ولها مُعارضين، ويظلُّ الـمتمسِّكون بالشريعة المنسوخة جامدين عليها.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾، وقد تجوَّز بمجيء الأنباء عن وقوعها. قال أبو السعود: وقد عَدَل عما يقتضيه سائر ما سلف من الإعراض والتكذيب، إلىٰ ذكر الاستهزاء وحده؛ للإيذان بأنهما كانا مقارنين له، ولأنه يستلزمهما[٢].

أقول: والآيةُ تفيد أن الشرائع تَـتَجدَّد وتحدث الواحدة بعد الأخرىٰ، وأنه يجب علىٰ كافَّة الناس في عَصْر تنـزيل الشريعة وأحداثها، أن يتَّبعوا هذه الشريعة الجديدة، ويتركوا الـمنسوخة بمقتضىٰ حُكم الله تعالىٰ في آيات: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٩١).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٦: ٢٣٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الأحرف في سورة البقرة، فارجع إليه. وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ إلىٰ ما يأتي بعدها لأهميته، وقد زاد في التنبيه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه السُّورة هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

ثم سلَّاه ﷺ وهوَّن عليه في إعراضهم عن هذه الآيات العظيمة الشأن، وعدم إيمانهم بها، فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ بهذا الكتاب، و﴿لَعَلَّكَ﴾ هنا للإشفاق، أي: أَشفِقْ عليك من أن تقتلَ نَفْسَك حَسْرةً عليهم لأنهم لم يؤمنوا، أو مخافةَ أن لا يؤمنوا.

وقد احتوت الآية عتاباً مُحبَّباً للنبيِّ ﷺ علىٰ ما يبدو منه من حزن شديد، يكاد يقتلُه، بسبب إعراض الناس عن الإيمان وصدِّهم عنه، وهو نورٌ مبينٌ أرسله الله للعالمين.

ثم هدَّدهُم بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي: بليةً تُباغتُهم وتُذِلُّهم، ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ قال الرازي: فإن قيل: كيف صحَّ مجيءُ ﴿خَٰضِعِينَ﴾

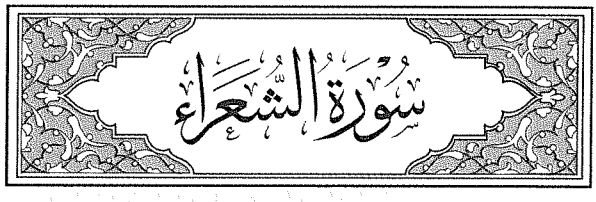

مئتان وسبع وعشرون آية

وهي مكيَّة، إلا قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ إلىٰ آخرها

وقد ذكر في هذه السورة:

ـ التنويه بشأن القرآن.

ـ وتهديد المعارضين للرسول والمكذِّبين به، بما جرىٰ علىٰ أمثالهم ممَّن كذبوا رُسُلَهم وعارضوهم من الأمم السابقة، ذكر ذلك في قصص الأنبياء.

ثم عاد إلىٰ شأن القرآن وإثبات تنزيله، وعلَّق علىٰ ذلك حتىٰ خَتَمَ السورة.

* * *

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا دعاؤه إيَّاكم للدين والإسلام[١]. فيكون المعنىٰ: لولا أنَّ الله سبحانه أراد أن يدعوكم بهذا القرآن إلىٰ ما فيه صلاحُكم وسعادتُكم في الدارين، ويُوقفكم علىٰ أحوال الحياة الأخرىٰ؛ لتتأهَّبوا لها، لولا ذلك لَـمَا اهتمَّ لكم بهذا الأمر وأنزل هذا القرآن والذكر الحكيم. أي: إنما كان إرسال الرسول إليكم بهذا القرآن العظيم دُعاءً لكم إلىٰ الخير، ونوراً تهتدون به في الظلمات، لا للاستفادة منكم، فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين.

وقد هدَّد الـمُعرِضين عنه بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾[٢]، أي: ولكنكم كذَّبتم وأعرضتم عن هذه الدعوة ولم تقبلوها وتعملوا بها، فسوف يكون عذابُكم وشقاؤكم ـ المفهوم من السياق ـ لزاماً لا مفكَّ منه ولا نجاة. أعاذنا الله ووفَّقنا لِـمَا فيه عَفوُه ورضاه.

وقد اشتملت صفاتُ عباد الرحمن هذه علىٰ ما يُسمَّىٰ بالضروريَّات، وهي: حفظ النفس، والعِرض، والمال، وحفظ العقل من التدنّي في الرِّجْس والإشراك والمعتقدات الفاسدة، وعلىٰ حال العبد مع الله وحاله مع الناس.

نسأل اللهَ أن يَجعَلَنا من عباد الرحمن في غُـرُفات الجنان، نلقىٰ من الملائكة تحيةً وسلاماً، بفَضْله وجزيل نَعْمائه.

* * *

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٥٠٥).

(٢) يقال: لزم الأمر لزاماً؛ إذا وَجَب حكمُه. وحكم التكذيب: التعذيب. (المؤلف).

الناس إلىٰ هذا الخير الذي أنزله الله لهم ولصالحهم، ويَتَمنَّون أن تكون ذُرِّيَّتُهم مِثلَهم.

وفي هذا إيماء إلىٰ أنه يجب علىٰ المسلمين كافَّة نَشْرُ الدعوة إلىٰ الإسلام، وأن ينشروا معها اللغة العربية التي هي أداة هذا الدِّين ووسيلتهُ، فكلاهما عالميٌّ مطلوب من جميع العالمين، وعلىٰ هذا الأساس كان السلف الصالح، فلم يُهمِل منهم نَشْرَ هذه الدعوة أحد، حتىٰ التجار في متاجرهم النائية. وبهذه الواسطة دخل الإسلام البلادَ القاصية، كالصين والهند وأقاصي الترك، وما إلىٰ ذلك من البلاد المترامية الأطراف.

ثم سجَّل لهؤلاء المؤمنين المتَّصفين بهذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ وهي أعلىٰ موضع في الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ علىٰ مشاقِّ الطاعات، وما لَـقُوا في نشـر الدعوة من صعوبات وعقبات، ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ أي: تتلقَّاهم الملائكة فيها بالبِشْرِ والتحيَّة، تهنئةً لهم وتكريماً. اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم زاد في تبشيرهم ببيان خلودهم في هذا النعيم، ونوَّه بشأنه، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا (١) ٧٦﴾ وقد قابل بهذا ما ذكره في أهل النار بقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٦].

ثم أمر رسوله ﷺ أن يُبيِّن لهم أنَّ الفائزين بهذه النَّعماء الجليلة إنما نالوها بإجابة هذه الدعوة، وأنَّ الله سبحانه يدعوكم لذلك، لا لصالح نفسه، فهو غنيٌّ عن العالمين، وإنما يدعوكم لصالحكم في وصولكم إلىٰ هذا النعيم المقيم، ولولا ذلك لَـمَا دعاكم هذه الدعوة إلىٰ الدين، فقال: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾.

---

(١) حَسُنَت مكانَ استقرار لأهلها من أهل درجات مرتبة الإحسان يقرُّون فيه، ومقاماً لزوّارها من أهل درجات مرتبة المتقين في الجنة.

إذا رأوا الخائضين في الأمور التي يجب أن تُلغىٰ وتُترَكَ من قولٍ أو فعلٍ لا يشاركونهم في ذلك، ولكنهم يقولون أو يفعلون ما يحفظ لهم الكرامةَ، ويليق بمقام النفس العالية وكرم الأخلاق. وقد بلغت صورةُ هذا التركيب غايةَ البلاغة والإعجاز.

ثم ذكر لهم هذه الصفةَ مُعَرِّضاً بالمشركين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾، بل يدركون مفاهيمها الصحيحة المُفْضية بالإنسان إلىٰ كماله المستعد له، ذلك الكمال الذي يجعل صاحبَه سعيداً في الدنيا والأخرىٰ، ويتكوَّن به مجتمع إنسانيّ بمُثُل عُليا وأخلاقٍ فُضْلىٰ، وإنما صاروا كذلك لأنهم إذا وُعظوا بالقرآن وما فيه من برهان، استمعوا وعلموا وعملوا، ولم يكونوا كهؤلاء الكفار الذين إذا وُعظوا به أعرضوا عنه وابتعدوا.

ويشمل هذا التعريض المسلمين الذي لا يتدبَّرون القرآن ولا يعملون بتوجيهه وإرشاده.

وتشمل الآيتان صفاتِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصفاتِ كمال المُؤتَمِر بذلك. وما أبهىٰ هذا المجتمع المكوَّن من هذين الصنفين اللذَيْن إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبصِرون.

وبعد أن وصفهم بسماع هذه المواعظ، وصفهم بالاهتمام بها والقيام بنشرها، وتمنِّيهم أن يكون لهم ذريَّةٌ يعملون به، وينشرونها في البشر؛ مبالغةً في تقديرهم لها وعنايتهم بأمرها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: بتوفيقهم للطاعة، ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: واجعلهم يقتدون بنا ويسيرون سَيْرنا. وإنما أفرد ﴿إِمَامًا﴾ لأنه في الأصل مصدر، فيستوي فيه الإفراد والتعدُّد، أو المراد: كلٌّ واحد منا، فهم يدعون الله سبحانه أن يُوفِّقهم في دعائهم

إصلاحاً أو قصاصاً أو دفاعاً، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: لا يفعلون هذه الأفعال التي يفعلها هؤلاء المشركون الذين سجَّل عليهم وعلىٰ أمثالهم بهذا الحكم، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: جزاءً وبيلاً، فسّره بقوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: ذليلاً حقيراً.

ثم استثنىٰ من هذا الحكم قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ يغفر لمن تاب وعمل صالحاً. والتوبة: تغييرُ المرءِ نفسَه وتحويلُها من السُّوأىٰ إلىٰ الحُسنىٰ، مقروناً بالندم وألم الضمير.

ثم زاد في تفخيم شأن التوبة المقرونة بالعمل الصالح، مبالغةً في الترغيب بها، فقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ وهذا المصدر للتأكيد والإيغال. والمعنىٰ: فإنه يرجع بذلك إلىٰ الله رجوعاً صادقاً مرضيّاً، وينال ثواباً عظيماً حسناً عَلِيّاً، فذكر الفعل وأراد المعنىٰ اللازم له، وهو الثواب.

وأفادت الآية أن التوبةَ المقبولةَ عند الله سبحانه هي المتبوعةُ بالعمل الصالح، وذلك لا يكون إلا بالإخلاص فيها. وأما التوبة اللفظية مع الإضمار أن يعود، فذلك استهزاء، والله مطَّلع علىٰ الضمائر.

ثم تابع الوصف لهؤلاء المؤمنين الصَّادقي الإيمان، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون مَحاضِرَ الباطل، ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ أي:

---

(١) أي: هذه الكبائر الثلاث: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله بغير حق، والزِّنى.

(٢) أي: يُعذَّب عذابين؛ عذاباً على كفره، وعذاباً على إضلاله لغيره.

(٣) لأنه قابَلَ تكريم الله له بالانتكاس، بعد ارتقائه إلى مرتبة عباد الرحمن.

(٤) ولا يخبرون بالباطل والكذب أيضاً.

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

ثم قابل أحوال المشركين بصفات أفاضل المؤمنين وكِرامهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، مُلْمعاً إلىٰ الأدب الذي يجب أن يكون عليه المؤمن ويتشبَّع بخصائص الرحمة التي هي صفةُ إلهه، ويكون مقبولاً بها عند الله سبحانه مرضياً، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بالسكينة والتواضع والوقار، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: قولاً سالماً من الرفث والجهالة، أي: سَدَاداً من القول، ولا يقابلونهم بمثل قولهم. أو قالوا: سلاماً ومتاركةً لكم، أي: لا يجهلون علىٰ مَنْ جَهِلَ عليهم، ولكن يتركونهم غير آبهين بهم.

ثم ذكر معاملتَهم مع ربهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: هلاكاً لازماً ملازمةَ الغريم لغريمه، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: ساء المستقرُّ والمقامُ فيها، يُهوِّل من أمرها[1].

ثم مَدَحهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: كان وسطاً معتدلاً بين طرفي الإسراف والتقتير؛ لأنَّ كلاً منهما تطرُّفٌ واعوجاجٌ في الطبيعة، ورذيلةٌ من الرذائل، ولا يقوم معه الحال ولا يستقيم.

وبعد أنْ بيَّن تمسُّكَهم بالطاعات، بيَّن اجتنابهم للمعاصي، مُعَرِّضاً بالمشركين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

(١) والمراد: ساءت مكانَ استقرار دائم للمشركين، وساءت مكانَ إقامة قليلة لعصاة المؤمنين.

عظيمةً هي أجرام هذه النجوم، وهذا هو المرويُّ عن الحسن[١] ومجاهد وقتادة[٢]، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني: الشمس، ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ مُقْتَبساً ضوؤه منها. وخصَّ هذين بعد ذكر البروج الشاملة لهما؛ لأنهما من زمرة أرضنا، ويعود نفعُهما علينا أكثر من غيرهما من البروج.

ثم تابع دليل القدرة والرد عليهم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلفُ أحدُهما الآخر، فترىٰ هذا الضياء المؤنس يخلفُه ذلك الظلام الدامس، والعكس. وفيه ذكرىٰ ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: فيه عبرةٌ لمن أراد أن يعتبرَ بدقَّة صُنع هذا النظام الشمسي، ويعرفَ قُدرة الله سبحانه ونِعَمَه السابغة، فيشكرها له ويقصر الألوهيَّة عليه.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦: ٩٢).

(٢) رواهما الطبري في «تفسيره» (١٩: ٢٨٩).

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1] أي: يُدبِّر أمْرَ هذه السماوات والأرض وأمْرَ مَنْ فيهما ويُسيطر عليهما، هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ جلَّ جلاله، فكلُّ تدبيره وتشريعه مقرونٌ بهذه الصفة. وقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ جملةٌ عاليةُ البلاغة في الدلالة علىٰ الخبرة الواسعة في أعماله العظيمة، وتشريعاتِهِ المستقيمة، فاسأل عن آثاره عالِـمَ الطبيعة عن الطبيعة، وعالِـمَ الأفلاك عن الأفلاك.

ثم ذكر كفرانهم بهذا الإله العظيم الذي هذه صفتُه وهذه قدرتُه، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أنكروا ذلك، و﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بالسجود له، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ ذلك القول ﴿نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾.

فردَّ عليهم سبحانه ببيان اختصاصه بصفة الإلهيَّـة وأفعالها، أي: هذا هو الرحمنُ الذي تجهلونه أو تَتجاهلونه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: أجراماً

---

(١) يلوح لي ـ والله أعلم ـ أن مثل هذه الجملة لا يُنظَـرُ فيها إلىٰ معناها الإفرادي، ونَـكِلُ علمه إلىٰ الله، ولا نحتاج حينئذ إلىٰ أن نؤول ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنىٰ: استولىٰ، ولكن ننظر إلىٰ فحواها ومعناها التركيبي، وهو سلطانه سبحانه علىٰ هذه الموجودات التي أوجدها بخَلْق الأرض والسماوات، وخَلْق ما فيهما، والله أعلم.

والمعاني التركيبية التي لا تُراعىٰ فيها المعاني الإفرادية موجودة في اللغة وفي القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، يعبر به عن شدَّة الخوف، ولا يُراد بها معناها الإفـرادي، وقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] مأخوذ من حـال المخاطَبين، ولا يصحُّ إطلاق معناها الإفـرادي علىٰ الله سبحانه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]، وليس في ذلك شيء من الالتباس؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته.

والقرآن يعبِّر عن ذات الله تعالىٰ وشؤونه بأحوال الملوك والسلاطين، تماشياً مع علمنا ومعرفة شؤوننا، وتقريباً لأفهامنا. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

تهوينٌ عليه ﷺ، ونقدٌ لهم، وقرَّره بتذكيرهم بنزاهة هذا التبشير والإنذار عن الغرض الشخصي، حيثُ لم يطلب به أجراً فيتَّهموه بإرادة المال والرياسة من وراء هذه الدعوة. وإنما يريد بها توجيهَ الناس إلىٰ الصِّراط المستقيم الذي يَصِلُ سالكُه إلىٰ سعادة الدارين، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: ما أسألكم عليه من أجر فتتَّهموني بالمنفعة الشخصية، وما أريد إلا هدايةَ مَنْ يريد أن يتقرَّب إليه تعالىٰ، ويطلب الزُّلفىٰ عنده بالإيمان والطاعة، حَسْبَما أدعوكم إليهما.

ثم قوَّىٰ عَزْمَه علىٰ القيام بهذا التبشير والإنذار والدوام عليه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وفي هذا الوصف تلميحٌ وتعريضٌ إلىٰ ما ينتظرون من موته ﷺ تخلُّصاً منه، إذ يعتقدون أنَّ أمره محدود بوجوده، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

ثم هوَّن عليه معارضتَهم له وعَدَمَ إيمانهم، مُصدِّراً ذلك بأمره له بتنزيه الله من شركهم، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: ونزِّهْهُ عن صفات النقصان، مُثْنياً عليه بأوصاف الكمال، معارضةً لأولئك المشركين، ثم أَعرِضْ عنهم، فالله سبحانه هو الذي يتولَّىٰ أمْرَهم، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ فيُجازيهم علىٰ أعمالهم جزاءً وفاقاً.

ثم أردف الأمر بالتوكُّل عليه، وأشفعه ببيان قدرته البالغة وسلطانه القاهر، تحقيقاً لقدرته علىٰ حفظه ونَصْره، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: ستة أدوار مرَّت عليها، والله أعلم. ولا يجوز أن يُرادَ بهذه الأيام: أيامنا المعروفة؛ لأنها متكوِّنة من النظام الشمسي، ولم يتم هذا إلا بعد تمام هذا التطوُّر المرادِ بيانُه هنا، وقد مرَّ الكلام مفصَّلاً عن هذه الآية في سورة الأعراف[1]، وعن قوله: ﴿ثُمَّ

(١) في الآية ٥٤ منها.

ورَحِمٍ واحد، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ حيث خلق من ماءٍ واحد بالنوع بشرين مختلفين بالأوصاف والطباع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

وبعد أن ذَكر كثيراً من دلائل القدرة والمنَّة المقتضية لألوهيَّته وحده لاختصاصه بصفاته، بكَّتَ المشركين لعدم التفاتهم لتلك الدلائل، وإصرارهم علىٰ إشراكهم السافل بهذا الإله العظيم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: ما لا قدرة له علىٰ شيءٍ، ولا منَّة له عليهم، فما أشدَّ سخافةَ عقولهم.

وقد زادوا في حماقتهم ما حكىٰ الله عنهم بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ والمراد بالكافر: الجنس، أي: إنهم يتظاهرون ويتعاونون علىٰ الكفر بربِّهم الذي له تلك القدرةُ العظيمة، والمنَّـةُ الكريمة، الدالَّتان علىٰ اختصاصه بالألوهية، ويُعَادُونَ تشريعَه الحكيم العظيم. فالمرادُ بالمظاهرة عليه: المظاهرةُ ضدَّ رسوله ودينه، علىٰ طريقة المجاز المرسل. ولا جهلَ أعظَمُ من جهلِ مَن استفرغ جهدَه في إيذاء شخصٍ استفرغ جهدَه في إصلاح مهماته دنيا وأخرىٰ، ولا يسأل علىٰ ذلك أجراً!

وقد سَـلَّاه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾، وهذا

بِهِۦ﴾ أي: بهذا القرآن الذي صَرَّفناه بينهم ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾، ولهذا فُرِض الجهادُ علىٰ المسلمين لنشر مبادئ هذا الدين العالمي المبين. وهذا هزٌّ وتهييج له ﷺ وللمؤمنين في مقاومة هؤلاء المعارضين، وعبَّر عن ذلك بالطاعة، مبالغةً في الإغراء.

ثم عاد إلىٰ السياق، فتابع البيان عن دليل القدرة والمنة، لإثبات اختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ﴾ ماءَ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العَذْب والمالح؛ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، ﴿وَجَعَلَ﴾ بهذا التباين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾، فهما لا يَخْتلطان إذا اجتمعا في إناء واحد، ولكنْ يطفو العذبُ علىٰ المالح، وكلاهما ماء. يقال: مرج الشيء بالشيء؛ إذا خلطه به. ومثله: مَرَد الشيء بالماء. فجعل في المالح موادَّ لم تكن في العذب؛ لذلك كان الماءان لا يمتزجان إذا جُمعا، بل يطفو العَذْبُ علىٰ المالح، لخفَّة أجزائه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

فالآية بيان لما في كلٍّ من الماءين من موادَّ متغايرة بحيث لا يختلطان إذا جُمِعا، وذلك دليلٌ علىٰ حكمته ومنَّته تعالىٰ، حيث جعل ماء الشرب بهذه المثابة، وماء البحر صالحاً لما فيه من حياة أنواع الحيوانات، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم أردف هذا بدليل آخر من دلائل القدرة والمنَّة؛ لِمَا بينهما من لطف المسلك، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ والنَّسَب: ما لا يحلُّ نكاحُه، وذلك لحكمة اقتضتها خواصُّ طبيعته، كما بين البحرَيْن المتنافرَيْن، ولمقتضيات أخلاقية. والله أعلم. والصِّهر: ما يحلُّ نكاحُه لحكمة اقتضتها طبيعته، كامتزاج ماءَيْن من البحر الواحد. والله أعلم. وقيل: المراد بالنَّسَب: الذكور؛ لأنَّ النسب يكون فيهم، والمراد بالصِّهر: الإناث؛ لأن الصِّهريَّة تكون فيهنّ، أي: جعل ذكراً وأثنىٰ من ماءٍ واحد

﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾، وأتىٰ بـ«ما» دون «مَنْ»، تغليباً للكثرة؛ لأنَّ المسقي به من الحيوان أكثر من الإنسان بكثير، وأتىٰ بوصف البلدة[1] مذكِّراً للإشعار بإرادة المكان.

ثم اعترض السياقَ بما يُحسِّسُ إلىٰ ما اشتمل عليه من أنواع العِبَر والمواعظ والإرشاد، وأوضح الاستشهاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾، والضمير للقرآن، من ذِكرِ الكل وإرادة الجزء، أي: لوَّنَّا المواعظَ والدلائل في هذا القرآن بألوان من صور البيان؛ لينتبهوا ويدركوا ويتذكَّروا هذه الحقائق المسرودة فيه، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ لهذه النِّعَم والمنن العُظمىٰ، والدلائل الواضحة الكبرىٰ.

ثم أتىٰ بالآية الآتية عَوْداً لقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وبياناً لِـمَا فيها من الإشارة لعموم رسالته ﷺ أتىٰ بها بعد أن تهيأ مكانها من السياق، ولا سيما بعد بيان صفة المطر العام المتضمِّن لإحياء الناس، فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يدعوهم لِـمَا يُحييهم كما أَحْيَتِ المطرُ البلادَ، ولكن الحكمة اقتضت أن تكون الرسل متعاقبة في البشر بين فترة وأخرىٰ، علىٰ طريقة التصاعد في الشرائع، وكلُّهم ـ لا سيما المتأخرون منهم ـ كانوا يَعِدُون بآخر شريعة كاملة، تكون عالمية، تأتي في أول تكامل النوع الإنساني بالعلوم والمعارف، فنَسخ بها الشرائع المتقدِّمة كلَّها، وقد ألمع سبحانه إلىٰ ذلك.

وبعبارة أخرىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾، ولكن اقتضىٰ توحيدُ البشر بشريعة واحدة عالمية هي ولغتها ليكون البشر عائلة واحدة، فأرسلناك رسولاً عالمياً إلىٰ سائر البشر لتكون للعالمين نذيراً، فلذلك عقَّبها سبحانه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقَابِلْهُم بالثبات والاجتهاد في نشر الدعوة وإظهار الحق، ﴿وَجَٰهِدْهُم

---

(١) يعني قوله: ﴿مَّيْتًا﴾.

ويجوز أن يُراد بقَبْضِهِ: فناءُ العالم باختلال هذا الكون، ومعنىٰ: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾: قبضاً سهلاً، أي: إنَّ هذا الإفناء والقبض أمرٌ علىٰ الله يسير، وما ذلك علىٰ الله بعسير.

ثم تابع الكلام عن دليل المنَّة والقدرة في عين الموضوع، ومدَّ به السياق، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ قال أبو السعود: وفي تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذي هو ظلّ الأرض من لطف المسْلَك ما لا مَزيدَ عليه، والمعنىٰ: هو الذي جَعَل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس[1]. ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: هدوءاً أو سكوناً تستعيدون به ما ضَعُفَ من القوىٰ بنتيجة أعمال النهار، ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: بعثاً من ذلك السُّبات كبعث الموتىٰ. وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ النوم واليقظة نموذج للموت والبعث.

ثم تابع البيان في المنّـة والقدرة، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ حال الشريعة من حيثُ نفعُها وانتفاعُ الناس بها كحال المطر في إحيائها البلاد الصالحة للإنبات بمائها الطهور، فأشار إلىٰ أنَّ الذي أنزل هذا المطر رحمةً بكم أرسل لكم هذه الشريعة لصالحكم وإحيائكم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أرسلها مبشِّرةً بالمطر؛ لأنها هي التي تكوِّن الغيوم وتَقلِبُها ماءً. وعلىٰ هذا المعنىٰ قراءة: (نُشراً) بالنون[2].

ثم ذكر نتيجة ذلك بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾، وهذا الوصفُ للإشعار بتمام النعمة وعظمة شأن الماء، والالتفاتُ إلىٰ نون العظمة لإبراز كمال العناية بالإنزال، والمبالغة في التمنُّن به.

ثم ذكر عظمةَ نعمة الماء بقوله: ﴿لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٦: ٢٢٣).

(٢) انظر: «المحتسب» (١: ٢٥٥).

ظِـلٌّ، ولا يقال: فيء، إلا لما زال عنه الشمس[١]. وقيل: المراد بالظل هنا: هو ضياء الفجر حتىٰ تطلع الشمس، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير، وهو أطيب الأحوال والأوقات، لذلك جعله سبحانه من أحوال الجنة، فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]. ويجوز أن يراد به ما ذكرتُه في التعليق من عَظَمة النظام الشمسي، ومنَّة الله فيه علىٰ بني الإنسان، وهو أمر طالما ذكره القرآن، إذ لولاه لما كان علىٰ وجه الأرض نبات ولا حيوان، فمفادُه مَثَلُ مفاد قوله تعالىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤، الرعد: ٣].

وقال في إتمام البيان والتحسيس بالمنَّة: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، وذلك بأن لا يخلق الشمس، أو بأن يجعل الأرض غير متحركة مثلاً، فتكون الشمس مشرقة علىٰ ما يقابلها منها دائماً، فلا يظهر عليه الظل، ومحجوبة عن الجهة الثانية دائماً، فلا يفارقها الظل، وكلاهما حالٌ لا يستقرُّ معه حياةٌ لحيوان ولا لنبات. والله أعلم.

وهذه الجملة علىٰ حَدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] وأمثاله في القرآن، وهي معترضة بين المعطوف عليه والمعطوف المتمِّم للكلام عن النظام الشمسيّ، وأحكام الظلّ فيه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: تدلُّ عليه وتُظهره بصورة جليَّة، لأن الضدَّ يُظهِرُه الضدُّ، والذي يُلاحِقُ الشيء يدلُّ عليه، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: قليلاً قليلاً كلَّما ارتفعت الشمس، وذلك في ظل المرتفعات.

ويجوز أن يكون المراد من قَبْضِهِ: مَحْوُهُ بضياء النهار، يعني: ما يظهر من تَعاقُب الظل والشمس علىٰ كرة الأرض، وذلك بدورانها اليومي علىٰ نفسها ـ والله أعلم ـ، فيكون علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ...﴾ [الفرقان: ٦٢]، ولكنه تعبير آخر يُصوِّر ناحية أخرىٰ من الموضوع، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

---

(١) «المفردات» ص٥٣٥.

الراغب: الظل: أعمُّ من الفيء، يقال: ظلُّ الليل، ويقال لكلِّ موضع لم تصله الشمس:

= أن خلق الشمس لتعالجه، وتُصلح من شأنه في أمر الحياة، إذ لولاها لَـمَا كان في الظلِّ أجسامٌ حية، وفي ذلك دليل علىٰ كمال حكمته تعالىٰ، وسابغ نعمته، واختصاصه بالربوبية والألوهية، وفي قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ زيادةُ تحسيس بالنعمة وإكبار للرحمة، وتحذير من كفرانها، وهي جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، عجَّل بها قبل إتمام الكلام لما يقتضيه المقام، بمقتضىٰ البلاغة العالية، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والالتفات من الغيبة في المعطوف عليه إلىٰ التكلم في المعطوف لزيادة التّحسيس بمنَّة الله في هذا المد للظل، وعظيم آلائه فيه.

وضمير ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ يعود إلىٰ الظل، والمراد من قبضه: محوُه بشمس النهار. والله أعلم. ويجوز أن يعود الضمير إلىٰ هذا النظام الكوني، فإنه سبحانه يبدله بما يلائم الحياة الثانية يوم القيامة، فيكون هناك ظل ممدود، وحال في المحسنين محمود، وذلك أمر يسير، وليس علىٰ الله بعزيز. هذا رأيي في الآية. والله أعلم. وقد ضمَّن ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ معنىٰ: أرجعناه، ولذلك عداها بـ«إلىٰ»، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ومن حكمة الله سبحانه أن جعل الأرض كرويَّة، تدور دورة كاملة علىٰ نفسها كل أربع وعشرين ساعة، فيكون نصفها الذي يقابل الشمس مضيئاً، والثاني في ظل؛ لأنه محجوب عن الشمس. وشكل هذا الظل مخروطي، قاعدتُـه نصفُ وجه الأرض المظلم، وفي جانب هذه القاعدة الشرقي: الفجر، وفي جانبها الغربي: الشفق الأبيض، وبدوران الأرض تـتبدَّل حالُ البلاد علىٰ الأرض في الأربع والعشرين ساعة من حيث شـروق الشمس عليها وانحجابها عنها، فالتي تكون منها في الظل المخروطي تكون في ليل، والتي تقابل الشمس تكون في نهار، وهكذا دواليك.

ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون هذا الذي ذكرته هو معنىٰ مدّ الظل، وجَعْـل الشمس دليلاً عليه، وقَبْضه عن البلاد التي تشرق عليها الشمس، ثم انحجاب الشمس عنها بعد ساعات، فتكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. ولكنه تعبير آخر يُصوِّر ناحية أخرىٰ من الموضوع، علىٰ نهج القرآن في تنويع البيان، وتصريف وجوه المعاني والمقاصد. والله أعلم. (المؤلف).

به من المواهب، ولا تَجْني علىٰ نفسها ما يَجْنيه الكافر علىٰ نفسه. وتحرير ذلك: أن الحيوان لديه شعورٌ طبيعيّ بما ينفعه وما يضرُّه، لا يفرط به ولا يخطئ فيه ولا يضل؛ لأنه لا يفسده، بخلاف الإنسان، فإنه إذا فَسَدَ عقلُه بمفاسد التربية، لا يكاد يصيبُ في الأمور الروحية شيئاً، وإنما يرىٰ الضلال هُدىٰ، والهُدىٰ ضلالاً، ويُـرَدُّ إلىٰ أسفل سافلين.

والآيات من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ إلىٰ آخرها احتَوَتْ علىٰ التعجيب والتنديد، والتحقير والتهديد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

ثم أتبع الكلام عن شرِّ هؤلاء والتشنيع عليهم بالكلام عن منَّته تعالىٰ، وقُدرته الدالة علىٰ استحقاقه أن يُعبَدَ وحده ولا يُشرك به شيء؛ لاختصاصه بصفات الألوهيَّة وأفعالها، مُستدلاً بسَدَاد تكوينه وإتقانه في أعماله علىٰ صلاح تشريعه وكماله، واقتران كلٍّ منهما ببالغ حكمته، مُشيراً بذلك إلىٰ تَحتُّم اتِّباع تعاليمه لِسَدادِها، ومُعَرِّضاً بجهالة هؤلاء المُعرِضين وعَمَىٰ بصائرهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[1] قال

(١) الظل: أمر أصلي في هذا الكون، وضوء الشمس أمر عارض طارئ عليه، ومن حكمته سبحانه =

ثم ذكر لهم قبيحةً أخرىٰ في إنكارهم نبوَّة محمد ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾؟ ثم يقولون: ﴿إِن كَادَ﴾ أي: إنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: ليصرفُنا عن عبادتنا لها ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾؛ يُظْهرون ارتياحهم وتبجُّحهم لثباتهم علىٰ آلهتهم ودينهم.

وفحوىٰ نظم الآية يُؤْذن بالتهكُّم بعقولهم وتضليل سبيلهم، وقد أضاف إليه التوعُّد بقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، وهذا كالجواب لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾، ومقابلٌ له، وردٌّ عليه؛ باعتبار تضمُّن قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ...﴾ أنهم أهدىٰ من محمد الذي أتىٰ بدينه المُضلِّلِ لآلهتهم. واسمُ التفضيل ليس علىٰ بابه، ولكنه للمبالغة في الوصف.

ثم أخذ يُشنِّع عليهم بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ بأن أطاعه وبَنَىٰ عليه دينه؛ لا يسمع حُجَّة ولا يبصر دليلاً. ثم خفَّف عنه حرصَه علىٰ إيمانهم، وألمع إلىٰ أنَّ مُتَّبع الهوىٰ لا يميل إلىٰ الحق، وقطعَ طَمَعَه في ذلك، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: حفيظاً تمنعه من الشِّرك والتقليد الأعمىٰ. وهذا تهوينٌ عليه من حرصه علىٰ إسلامهم، وتَيْئيسٌ له من هدايتهم، والكفيل مسؤول، فنفىٰ ذلك عنه، إنما أنت مبلِّغ.

ثم زاد في بيان سخافتهم علىٰ طريقة الترقِّي، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فتعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ ثم أردف الإنكار بتقرير حقيقة أمرهم، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ فلا تطمع بإرشادهم وهدايتهم، وفَهْمِهم للآيات المنزلة.

وإنما كانوا أضلَّ من الأنعام سبيلاً؛ لأن الأنعام لا تُهمِلُ الاستفادة مما وهبها الله

به من الهُدىٰ والرَّشاد، كما بيَّن عنهم سبحانه بهذا البيان العام، فقال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: وضَّحنا لهم الأمور وفصّلناها، فلم يهتدوا ولم يعتبروا ولم يطيعوا، فأجرىٰ عليهم ما قال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً، ودمَّرناهم تدميراً؛ لأنهم لم يؤمنوا بما أرسلنا لهم من التعاليم، وضربنا لهم من الأمثال، وكذَّبوا رسلهم، وكفروا بما جاؤوهم بهم من الحق.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وبعد هذا البيان عن الأمم السالفة، ساق الكلام إلىٰ المكذِّبين من قريش وأجراه عليهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ مراراً في متاجرهم إلىٰ الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني: موضع «سدوم»؛ عُظْمىٰ قرىٰ لوط، أُمطرت عليها حجارةٌ من سجيل، فدمَّرتها بمَنْ فيها، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾؟ بلىٰ.

ثم أضرب إلىٰ بيان السبب الذي أدىٰ لعدم الاعتبار، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: يكذبون بالديانات والأنبياء والبعث والنشور، ولذلك لم يعتبروا بها، لأنهم ينكرون أنَّ ذلك التدمير كان عقوبةً لهم بسبب مُعارضتِهم أنبياءَهم، ويحملونه علىٰ مجرَّد الاتفاق في أسباب الطبيعة وأحوالها. واكتفىٰ عن التَّصريح بهذا الإنكار بذكر ما يستلزمه من إنكار الحشر والجزاء. ويجوز أن يكون الإضراب انتقالاً من التوبيخ بعدم التذكُّر إلىٰ التوبيخ بما هو أعظم، وهو عدم توقُّع النشور.

فهرس محتويات المجلد الخامس

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الكهف	٥-٦١
تفسير سورة مريم	٦٣-٩٦
تفسير سورة طه	٩٧-١٥١
تفسير سورة الأنبياء	١٥٣-٢٠٤
تفسير سورة الحج	٢٠٥-٢٥٧
تفسير سورة المؤمنون	٢٥٩-٢٩٦
تفسير سورة النور	٢٩٧-٣٤٩
تفسير سورة الفرقان	٣٥١-٣٨٥
تفسير سورة الشعراء	٣٨٧-٤٣٠
تفسير سورة النمل	٤٣١-٤٧٤
تفسير سورة القصص	٤٧٥-٥١٨
تفسير سورة العنكبوت	٥١٩-٥٥١
تفسير سورة الروم	٥٥٣-٥٨١

❊ ❊ ❊